البيان في تصحيح الأديان

بحوث دينية في المشاكل العالمية - محاضرات شعبية - خطابة دينية

تأليف

إبراهيم محمد عبد الباقي

من علماء الأزهر

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

بمصر ص . ب ٥٧٨

مراجع الكتاب

١ — الجامع لأحكام القرآن : لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى المتوفى فى شوال سنة ٦٧١ هـ .

٢ — تفسير ابن كثير : لعماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

٣ — معالم التنزيل : للامام البغوى المتوفى سنة ٥١٦ هـ .

٤ — الزواجر : لابن حجر الهيتمى .

٥ — إيضاح الدلالة فى عموم الرسالة ، والحسبة فى الإسلام : لشيخ الإسلام أبى العباس أحمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ .

٦ — سبل السلام : لمحمد بن إسماعيل الأمير اليمنى الصنعانى المتوفى سنة ١١٨٢ هـ .

٧ — بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام : لأحمد بن على بن محمد بن أبى الفضل الكنانى شيخ الإسلام المعروف بابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ .

٨ — الروضة الندية : لأبى الطيب صديق بن حسن بن على الحسينى القنوجى البخارى . المولود سنة ١٢٤٨ هـ .

٩ — أعلام الموقعين : لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ .

١٠ — الدرر البهية : لمحمد بن على بن محمد اليمنى الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٥ .

١١ — تفسير المنار : للسيد رشيد رضا .

١٢ — سيرة ابن هشام وغيرها من كتب السير .

١٣ — القرآن الكريم ومختارات من كتب الحديث النبوية الصحيحة .

١٤ — الاعتصام : لإبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبى المتوفى سنة ٧٩٠ هـ .

تقريظ الأزهر للطبعة الأولى

من كتاب البيان فى تصحيح الإيمان

لفضيلة الشيخ إبراهيم عبد الباقى

فضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم عبد الباقى مدرس وخطيب مسجد أولاد عنان بالقاهرة ، من أفاضل الوعاظ والمرشدين ، الذين يقاومون البدع ، ويعملون على الرجوع بالمسلمين إلى فطرة الإسلام كما كان عليه فى صدره الأول ، مجرداً من الطوارىء عليه . وطريقته فى ذلك طريقة فقيد الوعظ والإرشاد بمصر ، الشيخ على محفوظ ، رحمه الله .

وكتابه هذا حافل بهذه المعانى الطيبة ، وبيان المشروع وغير المشروع مما يراه العوام ديناً ، فهو يثبتهم على المشروع من عقائد الإسلام وعباداته وشعائره ، وينبههم إلى غير المشروع من ذلك وما لم يكن للمسلمين الأولين عهد به .

وقد عقد فصلا نافعاً مفيداً على الابتداع فى الدين والتحذير منه ، ومن الأعياد الدينية ومشروعيتها ، وحكم الشريعة الإسلامية فى الموالد ، وعن شبهة المبتدعين فى العبادات .

وفى الكتاب نماذج من خطب النبى صلى الله عليه وسلم ، وخطب الخلفاء الراشدين ، وعظات كبار التابعين .

وفيه بحوث عن الحياة البيئية والزوجية ، وعن الضمان الاجتماعى فى دستور الإسلام ، وعن الحلف المشروع وغير المشروع ، وعن التاجر الصدوق ومكانته العالية عند الله .

فشكراً لفضيلة الأستاذ المؤلف ، ونرجو المزيد من هذا الخير .

الإهـــداء

قال صلى الله عليه وسلم : « مَا أَهْدَى الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ هَدِيَّةً أَفْضَلَ مِنْ كَلِمَةِ حِكْمَةٍ ، يَزِيدُهُ اللهُ بِهَا هُدًى ، أَوْ يَرُدُّهُ بِهَا عَنْ رَدًى[1] » .

إلى أخى فى الله تعالى ، أحييك تحية السلام التى جاء بها الإسلام .

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته . و بعـــــد :

فإليك الطبعة الثانية من البيان ، مخضلة بعصارة فكر ودم قلب ، تداركت فيها مافاتنى من موضوعات ضرورية لكل مسلم ، وتصحيح ماجاء به من أخطاء ، تاركاً لفطنة القارىء بعض الأخطاء اليسيرة التى لا تغير المعنى ، راجياً ألا تغتر بما عليه الكثيرون ، من تقاليد موروثة ، وطقوس أضفاها على الدين المبتدعون ، من غير هدى ولا كتاب منير .

فلقد استقرت حكمة الله تعالى فى كل عصر وجيل ، أن أهل الحق فى جنب أهل الباطل قليل ، كما يشهد بذلك القرآن الكريم ، وسنة خير المرسلين :

« وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ[2] » . « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ[3] » . « وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ[4] » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً » .

رواه أبو داود والترمذى النسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .

---

(١) للبيهقى من شعب الإيمان . (٢) يوسف الآية : ١٠٣

(٣) سبأ الآية: ١٣ (٤) الأنعام الآية : ١١٩

وعن ثوبان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« لاتَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لاَيَضُرُّهُمْ مَنْ يَخْذُلُهُمْ حَتَّى يأْتِيَ أَمْرُ اللهِ » رواه مسلم .

واستمع لقول الله تعالى : « فَلاَوَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَيَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً[1] » .

فلا يهولنك يا أخى كثرة الداعين إلى الباطل ، ولا يرهبنك قوة الداعين إلى المنكر ، فسيبقى الحق أبد الآبدين ، وسيزهق الباطل فيصبح أهله داخرين . ليحق الحق و يبطل الباطل ، إن الباطل كان زهوقا .

والذى أرجوه من كل مطلع على هذا الكتاب الذى أنفقت عليه حر مالى ، وزهرة عمرى ، و بهجة فؤادى ، أن يتفضل بإفادتى عما يبدو له من خطأ أو زلل ، لأتداركه فى الطبعة الثالثة إذا أمد الله تعالى فى الأجل .

والله الهادى إلى سواء السبيل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

---

(١) النساء الآية : ٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ[(١)] » قرآن كريم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيباً ، وَيَرْجِعُ غَرِيباً ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي[(٢)] » .

أحمد الله ، وأصلى وأسلم على من أظلته سماء ، وأقلته أرض ، محمد بن عبد الله النبي الأمي الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، وإماماً لأمم الأرض أجمعين .

و بعد : فإن لكل إنسان حاجة ، ولكل حاجة غاية ، أما حاجتى فالدعوة إلى ربى ، وغايتى الثواب منه وحده — هذه أمنيتى وتلك غايتى .

أسأل الله العلى القدير أن يحيينى و يميتنى عليها .

وأى ربح أعظم من ثواب الله ورضوانه ، وخسران أكبر من أن يخسر المرء نفسه وأهله ؟

إنها لحسرة على كل ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وتؤديه منيته إلى شقوة ، فيقضى أيام الدنيا فى مرح ولهو . ليس له مآرب سوى شهواته الجسمية ، و رغباته الدنيو ية ، فيخرج منها كالحيوان الأعجم ، من غير أن يدخر منها شيئاً يعرج به إلى العالم الأخير الذى خلق لأجله .

وليتها حسرة يوم أو يومين ، أو شهر أو شهر ين ، أو سنة أو سنتين ، ولكنها حسرة الأبد . يالها حسرة لا تقال ، وتو بة لا تنال !

---

(١) فصلت الآية : ٣٣٩

(٢) أخرجه الترمذى عن عمرو بن عوف المزنى .

« قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ[1] » صدق الله العظيم .

وكل نقص فإن الدين يجبره — ومالنقص قناة الدين جبران

ومما لاريب فيه أن الدعوة إلى الله لاتخص اللسان وحده ، بل تتناول كل ما كان وسيلة فى نشرها : من قلم ، أو مال ، أو جاه . وهى خير مايكنزه الإنسان للقاء ربه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له[2] » رواه مسلم عن أبى هريرة .

هذا ولما كان الإيمان بالله أساس كل خير ، وينبوع كل فضيلة . به يشيع الأمن ، ويستقر السلام ، وتزول أسباب الفرقة والانحلال ، جعلت الحديث فيه مطلع كتابى هذا ، مقتدياً بنبى الإسلام ، فإن أول خطوة خطاها فى نشر الدعوة إلى الله ، توجيه الأنظار إلى ماخلق الله من حكم و إبداع ، وقراءة آيات الكون فى صحف الطبيعة : ليكون الإيمان عن اختيار وتفكير ، لاعن إكراه وتقليد .

ثم تناولت أصول العبادات والمعاملات ، وما أدخل عليهما من تحريف وخرافات . وختمت الكتاب بوضع مناهج حديثة فى الخطب والمحاضرات ، ورأيت من الخير أن أبدأها بخطب مأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكبار الصحابة والتابعين ، وعظة سفيان الثورى لأحد الولاة . هذا وقد توخيت فيه الأحاديث التى لاتجافى العقل والنقل ، مبيناً فى ذلك راويها ومخرجها وزدت فيها ما يأتى :

صفحة مشرقة ، ودمعة أسى محزنة — المتشابه والمحكم — مثل رائعة تجلى

---

(١) الزمر الآية : ١٥

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة .

فيها روح الإسلام — ابتلاء الله لعباده من كمال حكمته ومقتضى حمده — حكم الشريعة الإسلامية فى الغناء — موقف الإسلام من السيد المسيح عليه السلام — في الزواج دنيا ودين — الحسد وكيفية تأثيره — حكم التختم بالذهب والفضة — التطير والاستخارة — الغيب لله وحده — الشورى فى الإسلام — عادات ليست من الدين — سجدتا الشكر والتلاوة — الإسراء والمعراج حطمتا أصول الماديين — بالعدل تصلح الرعية — تحضير الأرواح — تحديد النسل — التقليد آفة القديم والحديث — مقدمة تنسيق الكتاب : (العلم يدعو للإيمان) للأستاذ كريسى مور يسون ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى .

وقد امتازت هذه الطبعة بالتنقيح ، وجمال التنسيق ، وزيادات مهمة ، لا يستغنى عن معرفتها كل مسلم يهمه أمر دينه ، وأن يلقى ربه بدين صحيح ، وقلب سليم .

قسم العقائد

الإيمان بالله تعالى

ينابيع الإيمان بالله تعالى ثلاثة :

١ — وحى الفطرة . ٢ — كتاب الموجودات . ٣ — هداية السماء .

أما وحى الفطرة : فهو مغروس فى الإنسان غرساً خِلقياً ، قارن وجود الإنسان وسار معه فى جميع أطواره جنباً إلى جنب ، فما من نفس منفوسة : إلا وهى مطبوعة على معرفة طابعها ، مفطورة على حب فاطرها ، مؤمنة بوجود خالقها ، سجية طويت عليها النفوس ، وطبعت عليها القلوب ، لاسبيل إلى انتزاعها منها مهما تذرع الملحدون ، وتأول المتأولون . تتجلى هـذه الفطرة من الأطفال بدائية ساذجة ، حينما يبصرون شيئاً أمامهم يتحرك من غير أن يروا له محركاً يحركه ، فتراهم يذعرون ويخافون ، ولن يبرحوا يتساءلون من أين جاءت هذه الحركة ، وكيف نشأت ؟ ولانستطيع أن نعلل ذلك إلا بأن هؤلاء جبلوا على أن كل حركة لابد لها من محرك حركها ، ومنشىء أنشأها ، ومصدر صدرت منه . ويلزم من ذلك لزوماً لاشك فيه أن كل مخلوق لابد له من خالق ، وكل مصنوع لابد له من صانع ، ذلكم هو الله الذى أنشأ هذا الكون على هذه الأوضاع المحكمة بلا روية أجالها ، ولاتجربة استفادها ، ولاحركة أحدثها ، فليس شىء أوغل من جحود الفضل وكفران النعمة من إنكار الإنسان لربه وخالقه ، الذى خلقه وصوره ، فأحسن صوره ، وأسبغ عليـه نعمه . فالذين يؤمنون بالمخلوق ، ويجحدون الخالق ، ويعترفون بالمصنوع وينكرون الصانع مسرفون فى الخيال ، وممعنون فى الضلال ، لأنهم يخالفون فطرهم ، ويئدون أفكارهم .

ألا تجيبون ياهؤلاء ؟ من الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، ولماذا نرى لكل أمة من أمم الأرض طقوساً دينية ؟

وقرابين يتقربون بها إلى آلهتهم ، ويتفانى أفرادها فى اتخاذ الوسائل التى ترضى معبوداتهم ، سواء كانوا من أعرق الأمم مدنية أو أحطها همجية . يرشدنا إلى ذلك التاريخ الصحيح ، والآثار التى عثر عليها الباحثون من علماء الآثار . أليس هذا كله إلا تلبية لنداء الفطرة[١] التى فطر عليها الإنسان ؟

فالإيمان بالله شعور غريزى فى الإنسان ، مودع فى أصل خلقته وثنايا جبلته ، وما أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب إلا ليكمل بها الفطرة ، ويفصل ما أجمل فيها .

قال صلى الله عليه وسلم[٢] : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ ، كما تُنْتَجُ[٣] الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ[٤] ، هَلْ تُحِسُّونَ فيها مِنْ جَدْعَاءَ[٥] » . ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه : اقرءوا إن شئتم : « فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ[٦] » . وقول الله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ[٧] » .

يريد الله من هذه الآيات الشريفة ، أن ما فطر عليه بنو آدم من الاعتراف بخالقهم وفاطرهم ، وما ينطق به كتاب الموجودات الذى يقرءون صباح مساء ، وبلوغ دعوة الأنبياء ، كل هذا كالميثاق الذى أخذه الله عليهم ، ملزم لهم بالاعتراف بوجود الله فهى من باب التمثيل . أما ما يقوله بعض المفسرين من أن الله تعالى

(١) كلمة « الفطرة » هنا ترادف كلمة الطبيعة فى لغة العلم الآن .

(٢) مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه . (٣) تنتج بالبناء للمجهول : تلد .

(٤) مجتمعة الأعضاء . (٥) مقطوعة الأذن .

(٦) الروم الآية : ٣٠ (٧) الأعراف الآيات : ١٧٢ ، ١٧٣

أخرج من ظهر آدم هذه الأرواح على صورة الذر ، وقال لها : ألست بربكم قالوا بلى . فهذا المعنى لايساعده نظم الآية ، ولاسياقها . والدليل على ذلك أن الله تعالى يقول « من بنى آدم » ولم يقل من آدم وقال « من ظهورهم » لامن ظهره ، وأنهم لم يكونوا غافلين مع أن الغفلة لازمتهم . ومَنْ من الناس سالفهم وحاضرهم يتذكر هذا العهد حتى يكون حجة عليه عند ربه ؟

فإيمان الفطرة مركوز فى النفس ، كامن فيها ، غير أنه يحتاج إلى مايستثيره ويخرجه من مكمنه . يوضح ذلك ماقاله جعفر الصادق رضى الله عنه ، لذلك الغريق الذى نجا : « هل كنت يائساً من النجاة عندما انكسرت بك السفينة ؟ فقال : لا ، بل كنت أرجو النجاة ، فقال له : إن الذى كنت ترجوه فى باطنك لنجاتك ولاتعرفه ، هو الله المحيط بكل شىء ، القادر على كل شىء . فآمن الرجل عند ماأيقظ فيه ذلك الوجدان ، وحرك ما كان كامناً من فطرته .

وكذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم لبعضهم : « هَلْ لَكَ مِنْ إِلَهٍ ؟ فقالَ : لِى فى الأَرْضِ آلِهَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَلِى فى السماءِ إِلَهٌ واحِدٌ . فقال : مَنْ تُعِدُّهُ لِشِدَّتِكَ ، وتَضْرَعُ إليهِ عند النَّوائِبِ ؟ فقال : إِلَهُ السماءِ ، قال : فَاعْبُدْهُ ولا تُشْرِكْ به شَيئاً » . فاقتنع الرجل وأسلم .

روى مسلم فى صحيحه من حديث عياض بن حمار عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يَقُولُ اللهُ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فجاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فاجْتَالَتْهُمْ عن دِينِهِمْ ، وحَرَّمَتْ عَلَيهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ » .

ومن هذا قرر العلماء أن أهل الفطرة يتفاوتون فى الجزاء على حسب أعمالهم التى هى من وحى الفطرة ، ويرشد إليها العقل . ولقد بين القرآن الكريم عقيدة مشركى العرب بأنهم كانوا يعبدون غير الله ، ولكن إذا مسهم الضر فزعوا إلى ربهم خالق كل شىء ، وماذاك إلا من وحى الفطرة التى فطر الله عليها الناس .

يوضح ذلك كله قوله تعالى : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١) » .

تنبيء الآية الشريفة أن الناس فى أول عهدهم أمة واحدة على دين واحد : دين الفطرة ، دين التوحيد والتنزيه ، فاختلفوا . فبعث الله النبيين ليزيلوا الخلاف الذى خالف الفطرة ، فهدى الله المؤمنين إلى الحق ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

والآيات الدالة على ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢) » .

---

(١) البقرة الآية : ٢١٣ (٢) الروم الآية : ٣٠

الينبوع الثانى

كتاب الموجودات

إن من نظر فى هذا الكون الزاخر بالعلوم والمعارف ، التى تدرس الآن فى جامعات الدنيا ، ثم درسها دراسة تامة على وجه يلفت النظر إلى مبدعه ، وأحاط بما فيه من قوى وأسرار ، وهندسة ونظام و إبداع ، لايسعه إلا الإيمان بفاطرها ومنشئها ، إيماناً كاملا لايخالطه شك ، ولا يمازجه ريب ، وكلما ازداد الإنسان علماً ، ازداد معرفة و إيماناً بالله تعالى .

ونريد هنا بالعلم مجموع الحقائق التى توصل إليها الإنسان من طريق الحواس فى مراحل تفكيره وتجاربه ، ومن وحى فطرته التى أودعت فى أصل خلقته ، وثنايا جبلته ، والذى صاغ الله به الكائنات على هذه الأوضاع .

أما العلم فى لسان الشرع فهو نوعان : علم يوجب خشية الله ومحبته والقرب منه ، والأنس به والشوق إليه ، وعلم بأحكام الله مأخوذ من الكتاب والسنة .

وبدهى أنه لاينمو فى نفس صاحبه ، ولايثمر الثمرة المرجوة إلا بالعمل والممارسة والتطبيق . قال على كرم الله وجهه : « العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه و إلا ارتحل » .

هذا وكلما رسخت قدم الإنسان فى علوم الكون ، وأمعن نظره فى أصل وجودها ، أدرك من أسراره وغرائب أطواره ، مايجعل إيمانه بالله أثبت ، لأنه عرفه عن خبرة ، لاعن وراثة وتقليد .

وقبل أن تتأيد دولة العلم الحديث كان العقل البشرى يقف حيران مبهوتاً بين العلم والدين ، و إن الجدال كان عنيفاً بين المؤمن والملحد . أما الآن فقد انطفأت جذوة الجدال بالاكتشافات الجديدة ، وانتهى الخلاف إلى غير رجعة . صدق الله «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا [١] » .

---

(١) النمل الآية : ٩٣

قال هكسلى الحكيم : « الدين والعلم توأمان متلاصقان ، فصلهما يؤدى إلى موتهما ، فإن العلم ينمو متى كان دينياً ، والدين يثبت متى كان علمياً » .

وقال المستر باكون إمام الفلسفة الحديثة : « من أخذ علم الطبيعة بأطراف شفاه فقد ألحد ، ومن شرب به عباً فقد آمن حقاً » .

هذا وقد أثبت الطب النفسى الحديث : أنه لاشىء يقهر القلق والمخاوف إلا التدين ، حتى قال بعضهم : إن المتدين حقاً لايعانى مرضاً نفسياً ، كما نطقت الحوادث ، ودلت التجارب أن أعظم حافز للخير هو التدين ، وكل ماتراه من خير وفضيلة وتضحية يرجع إلى العاطفة الدينية ، والنفوس الجامحة لايردعها عن غيّها قانون ولانظام إلا الخوف من الله ، فإذا لم تشعر النفوس بالمسئولية أمام الله ، اتسعت رقعة الإجرام وتضاعف عدد المجرمين .

وإن من ينعم نظره فى هذا العالم المترامى الأطراف ويتأمل فى نشأته ، والخلقة الأولى التى هى منشأ وجوده ، ومصدر حياته ، وكيف عاش هذه العصور المديدة ، والدهور المتعاقبة ، تحيط به المهلكات من هوام الأرض وصواعق السماء ، وكيف لم يكن النهار سرمداً إلى يوم القيامة على أقوام بلا ليل يسكنون فيه ؟ ولم يكن الليل سرمداً إلى يوم القيامة من غير ضياء يزاولون فيه أعمالهم ، ويبتغون فيه من فضل الله ؟ ولماذا كانت نسبة عناصر الهواء على هذا النحو الذى نحن عليه الآن فلم يطغ أحدها على الآخر حتى لايصلح للاستنشاق ؟ وما الذى حفظ للماء شخصيته فلم تزد الحرارة عن حدودها حتى يصير بخاراً ، ولم تنقص حتى يصير ثلجاً متجمداً ؟ إن فى هذا كله وفى هذه الكواكب المرفوعة بلا عمد ، وجريها فى منازلها التى قدرت لها ، غير متخطية إياها ولامتقاصرة عنها ، وما إلى ذلك مما كشفه العلم وما سيكشفه إلى يوم الدين ، كل ذلك لايدع مجالا للشك فى أنه يرجع إلى مبدع قدير ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، وفى هذا المعنى يقول شاعر العروبة :

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا بروائع الآيات والآثار

من كل ناطقة الجلال كأنها ‏ أم الكتاب على لسان القارى
دلت على ملك الملوك فلم تدع ‏ لأدلة الفقهاء والأحبار

ومن آياته إلهام الطير وتصور الحيوان — لقد ألهم الله الطير إلهاماً يحفظ حياته و بقاء نوعه ، كذلك الحيوان أعطاه تصوراً لا يقل عن تصور الإنسان .

فترى الطير تغدو إلى رزقها خماصاً ، وترجع إلى أعشاشها بطاناً ، ولا تضل طريقها إلى عشها مهما طال بعدها ، والتوى طريقها ، كما أن لها رحلات فى فصول السنة ، ثم تمكث ماشاء الله أن تمكث ، ثم تعود إلى مكانها[1] . وهذه النحل التى تبنى بيتها من الشمع الذى تخرجه مما تمتصه من الأزهار وتنشىء منه حجرات مختلفة الفظام : هذه للملك ، وتلك لجنوده ، وأخرى للفعلة وهكذا . وتضع رحيقها فى زوايا هندسية مسدسات منتظمات محكمة ، فاقت هندسة الإنسان التى لا تكون إلا بعُدة وآلات وتعليم و إرشاد — وهكذا بيت العنكبوت الذى يشده بخيوط يعجز عن وصفها الإنسان ، ويبنيها فى أمكنة تبعد عنها يد الإنسان — وهذه لأسماك حينما تحمل أنثاها تذهب أمهاتها إلى الشواطىء حينما تحس بذلك ، حتى إذا ماتكامل نموها تذهب إلى أوساط البحار والمحيطات ؛ لهذا كان حول كل محيط بحيرة أو نهر أو بركة . وأعجب من هذا وذاك أن الحشرات تهتدى إلى الاتصال بأبناء جنسها على بعد أميال مما لا يصل إليه الإنسان . ولا تزال دودة القز متفوقة علينا فى صنع الحرير ، فلا يستطيع كائن من كان أن يسبقها فى هذا الميدان بآلاته المحكمة وخبرته التامة . وهذه الأشجار والنبات أوحى إليها أن تستخلص من الهواء ومن الأرض غذاءها لتقدمه صالحاً لتغذية الحيوان .

والمثل الذى أثر عن أحمد بن حنبل رضى الله عنه : « قلعة[2] حصينة ملساء لا فرجة فيها ، ظاهرها كالفضة المذابة ، وباطنها كالذهب الإبريز ، ثم انشقت جدرانها ، فخرج منها حيوان[3] سميع بصير » .

---

(١) بيوتها (٢) القلعة : البيضة (٣) والحيوان : الفرخ .

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى بعض خطبه : « ولو فكروا فى عظيم القدرة وجسيم النعمة ، لرجعوا إلى الطريق ، وخافوا عذاب الحريق . ولكن القلوب عليلة ، والبصائر مدخولة[١] . ألا ينظرون إلى صغير ماخَلق كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه ، وخلق له السمع والبصر ، وسوى له العظم والبشر . وانظروا إلى النملة فى صغر جسمها ولطافة هيئتها ، لاتكاد تنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبّت على أرضها ، وصبَّت[٢] على رزقها ، بنقل الحبة إلى جحرها ، وتعدها فى مستقرها ، وتجمع من حرها لبردها ، وفى وِرْدِها لصَدَرِها ، مكفولة برزقها ، مرزوقة بوفقها ، لا يُغفلها المنان ، ولايَحرِمها الديان ولو فى الصفا[٣] اليابس ، والحجر الجامس[٤] . ولو فكرت فى مجارى أكلها فى علوها وسفلها ، وما فى الجوف من شراسيف[٥] بطنها ، وما فى الرأس من عينها وأذنها ؛ لقضيت من خلقها عجبا ، ولقيت من وصفها تعبا . تعالى الذى أقامها على قوائمها ، و بناها على دعائمها ، لم يَشْرَكْهُ فى فطرتها فاطر ، ولم يعنه فى خلقها قادر » .

قال سبحانه : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ[٦] » . ومن آياته جل وعلا « النتروجين» الذى نسميه السماد فهو يخصب الأرض وعليه حياة النبات ، وهو معروف أنه جزء من الهواء الواقى فى قتل جراثيم الأمراض فيقضى على الأوبئة التى تفتك بالإنسان ، وهو يصل إلى الأرض من طريقتين : الطريقة الأولى عواطف الرعد ، فكلما ومض برق خلال الهواء وحّد بين قدر قليل من الأوكسيجين و بين النتروجين ، فيسقط المطر على الأرض حاملا سماد الأرض . والطريقة الثانية : أن توجد جراثيم فى جذور النباتات البقلية مثل البرسيم والحمص والبسلة والفول وكثير غيرها ، وهذه الجراثيم تأخذ

---

(١) بها فساد (٢) انحدرت لطلبه .
(٣) الصفا : الحجر الضخم الأملس . (٤) الجامد .
(٥) أطراف الأضلاع ، ومفرده شرسوف (٦) الأنعام الآية : ٣٨

جزءاً من الهواء وتحوله إلى سماد ، وحين يموت النبات ، يبقى بعض هـذا السماد في الأرض وهذا مايدعو الزراع إلى تنويع مزروعاتهم ، والرجوع إلى تلك الزروع التي تنجم عنها هـذه العمليات ، حينما يجدون الأرض قد أقفرت من هذا الغذاء الذي تقوم عليه حياة النبات . وقد وهب الله الإنسان أن يحاكي الطبيعة ، نخصص معامل لإنتاج هذا الجزء الذي فقدته الأرض فلم يف بحاجات الإنسان ، وإنها لأعجوبة تنطق بأن وراء هذا كله حقيقة عليا وقدرة عظمى تعلم ماينقص الإنسان ولا تغفل عن الخلق ساعة من نهار تحقيقاً للقرآن الكريم « وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ[1] » .

ومن آياته تعالى هذه العملية العجيبة ، عملية هضم الطعام بواسطة هذا المعمل الكيماوي ، الذي فاق معامل الدنيا ، هضم الطعام ، فهو يهضم كل شيء يصل إليه ما عدا المعدة .

يضع الحيوان والإنسان الطعام في فمه ويشرب عليه جرعات من ماء فيأخذ الجهاز في تحطيم كل جزء منه ، ويحوله إلى أجزائه الكيماوية ، فيأخذ الرحيق ويوزعه على الخلايا توزيعاً دقيقاً ، يعطي لكل خلية وعضو غذاءه الخاص به ، بمقادير مضبوطة فلا زيادة ولا نقص . ومن ذلك عاش الإنسان والحيوان وبقيت لهما مقومات حياتهما ، أرأيت كيف تتحلل هذه الأطعمة ثم تقدم باستمرار إلى كل خلية من ملايين الخلايا التي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض ، فمن أين جاء توريد المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة ، فصارت عظاماً وأظافر ولحماً وشعراً ، وعينين ولساناً وشفتين وأسناناً ولبناً سائغاً للشاربين . ولو تأملت نظام التوريد ، وهو يختلف باختلاف السن وعملية الاحتراق التي تولد حرارة الجسم دون إشعال نار ، والجزء الذي يتحول إلى جنود في الجسم لتغزو جراثيم الأمراض ، وهي التي نسميها بالكرات البيضاء ، لآمنت

(١) المؤمنون الآية : ١٧

إيماناً لاشك فيه ، بأن هذا لايكون إلا عن علم عليم ، وقدرة قدير . فالويل لمن جحد المقدر ، وأنكر المدبر . أَبِناء من غير بان ؟ وجناية من غير جان ؟ ومصنوع من غير صانع ؟

من هذا نعلم علم اليقين أن هذا العالم سماءه وأرضه ، ناطقه وصامته ، وجد على أساس التوازن والتجانس ، وعن علم وخبرة ، ولولا ذلك لما انتظمت دورته ، ولما استقام ساعة من نهار .

حسبك أيها القارىء الكريم ماعرضته عليك من كتاب الموجودات الذى ينطق بوجود الله تعالى ، والزاخر بالعلوم والفنون التى نشأت عن قصد وتصميم ، لاعن الصدفة المضطربة التى ليست قائمة على دعائم ثابتة ، ولاخاضعة لقانون صارم ولاناهجة منهاجاً خاصاً . هذا ولقد سلكنا سبيل القرآن الكريم فى إثبات وجود الله من طريق الحس والتفكير ، والنظر فى هذا الكون البديع ، حتى يكون إيمانك بالله أثبت ، وعلمك به أرسخ . كذلك سلك هذا السبيل الأولون .

من ذلك ما أثر عن أبى حنيفة النعمان رضى الله تعالى عنه : ذكروا أن سفينة موقرة بأنواع المتاجر ، وليس بها أحد يحرسها ، ولايسوقها ، وهى مع ذلك تذهب وتجىء بنفسها ، وتخترق الأمواج العظام حتى تخلص منها ، وتسير حيث شاءت ، من غير أن يسوقها أحد ، فقالوا له : هذا شىء لايصح أن تشغل به فكرك ، لأنه لايقول به عاقل ، ولايصدقه أحد ، فقال : أيها الناس : إنكم أنتم الذين تقولونه بلسان الحال ، إن لم يكن بلسان المقال ، فهذه سفينة الموجودات بما فيها من العوالم العلوية والسفلية ، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ، فهل أنتم تأملتم عجائبها ، وحكمة المصرف لها ! فما كاد ينتهى من حديثه حتى خضعت قلوب الناس لموعظته ، وأسلم منهم من كان على غير الإسلام . رحم الله القائل :

« إن الله تجلى فى كل شىء ، فليت شعرى كيف تكون تجليته يوم القيامة حينما يكشف الحجاب عن البصائر .

هذا وإن نظرية « دَرْوِنْ » التى ظلت ثمانين سنة حية ، قد أتت الأيام على عكسها ، وأذنت ببطلانها ، وذلك بالاكتشافات الجديدة ، وماخلق الله من مخ وذكاء ، وذاكرة وآمال ، وقدرة على تذليل العقبات ، وما إلى ذلك مما حطم أصول مذهبه ، فرجع أنصاره إلى الاعتراف بوجود خالق وسلطان قاهر ، له الخلق والأمر « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ[1] » .

فتبين من هذا أن فى كل ذرة من ذرات خلقه آية من آياته ، ناطقة ببديع صنعه وعظيم قدرته ، وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد .

فالإنسان مهما سما عقله ، واتسعت دائرة فكره ، لايزال فى حركاته وسكناته ، وسائر شئون حياته ، شاعراً بأن هناك قدرة أسمى من قدرته ، وسلطة عليا يستمد منها قوته فلاشىء أوغل فى الجحود بالفضل وكفران النعم ، من إنكار الإنسان لربه وخالقه ، الذى خلقه وصوره ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، ورباه على موائد كرمه وإحسانه .

وأى جحود أعظم من التمرد على قوانين الأخلاق وآدابها ، والقضاء على العزة النفسية ، والإباحية الفاجرة التى جعلت صاحبها فى مصاف الحيوان البهيم بل أعظم ، ولقد صدق الله : « أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ[2] » .

سبحان من بصَّر بشم ، وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم[3] . ربنا آمنا بك وبرسلك فارزقنا حلاوة الإيمان ، وامنحنا التوفيق والسداد إنك أنت الوهاب .

من هذا كله نعلم علماً لاشك فيه ، أن منكر وجود الخالق ، مصاب بأفظع أنواع الجنون ، وواجب حذفه من سجل الإنسانية .

---

(١) الطور الآيات ٣٥ ، ٣٦

(٢) الأعراف الآية : ١٧٩ (٣) لعلى بن أبى طالب .

الينبوع الثالث

هداية السماء

حدثنا القرآن الكريم والتاريخ الصحيح، أن كل أمة لم تخل من نذير، لتقوم حجة الله على الخلق أجمعين، حتى لا يقولوا يوم القيامة: ماجاءنا من بشير ولا نذير. ذلك لأن العقل البشرى لايدرك حقيقة الوجود، ولا سر الله فى خلقه ولا السبل التى تنجيه من شرور الدنيا وعذاب الآخرة، كما أنه يضل تحت تأثير الشهوات ومعاشرة الأشرار، وتقليد الآباء. ولا أدل على ذلك من عبادة الأحجار لمَّا بعد عهده عن النبوات، إذ لابد من نور يسطع من السماء لبنى الإنسان وطريقه النبوة التى هى رسالة الله للإنسانية، والمقصد الذى لايتم الوجود إلا به. فإن النفوس البشرية لاتخلو عن ضعف، فتغلب عليها ميول جامحة، وشهوات مطاعة، وأهواء متبعه، وليس مع ذلك عاصم يعصمها، ولا مرشد يرشدها، إلا إذا كان هنالك وازع دينى، يدفع عن النفس طغيانها، ويزلزل عليها قواعد شرها، وذلك لايكون إلا من طريق النبوات، التى تحرر العقول من تسلط الأوهام والخيالات، وتطلق الفكر من ربقة الأهواء، وتبعث فى الإنسان مراقبة الله تعالى، فيكون دائماً حذراً من مخالفة أوامر الله تعالى واقفاً عند حدوده.

فالشعور بالمسؤلية أمام الله تعالى، هو الحافز الأول لفعل الخيرات، والبعد عن المنكرات. أما الشعور بالمسئولية أمام الضمير، فإنه يضعف أمام الشهوات الجامحة، والغضب الحادّ. كذلك المسؤلية أمام المجتمع والقانون، فإنها فى دائرة ضيقة، لاتتحقق إلا إذا كان صاحبها على مقربة الحراس على القانون، وأين هم فى الليل إذا غارت نجومه، وأرخى سدوله؟ وهل امتدت سلطتهم إلا على مدى النظر السليم، وهلا وصلت إلى الصحراء الموحشة، والجبال العالية، والسهول والوديان. كل أولئك كان فى معزل عن تطبيق القانون الذى وضع لتوقى الشرور.

لهذا بعث الله فى كل أمة رسولاً يبلغ عن الله وعده ووعيده ، وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، لتقوم الحجة عليهم إذا لم يأتمروا بأمره ، و ينتهوا عن نهيه كما قال جل شأنه : «وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ [1] » .

لهذا كان الإيمان بهم صنو الإيمان بالله تعالى . دليل ذلك من كتاب الله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ [2] » .

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً [3] » .

و بدهى أن صلاح المجتمع ، يتوقف على الشعور بالمسئولية أمام الله تعالى ، التى توقظ العقول والضمائر ، وتهيمن على القلوب والأرواح ، وترهب الإنسان فى سره وجهره ، وتبعث فيه قوة اليقين ، بمراقبة الله تعالى ، فلا يرخى لغرائزه العنان فى الشهوات ، والإباحية الفاجرة المتحللة ، القائمة على الإغراق فى متع الحياة ، والتمرد على قوانين الأخلاق وآدابها ، والقضاء على العزة النفسية ، والكرامة الشخصية ، والقيم الأخلاقية .

الإيمان بالملائكة

مما أجمع عليه أئمة الدين وعلماء التوحيد ، أن الإيمان لا يتحقق فى الإنسان إلا إذا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .

بيان ذلك أن الله ملك الوجود ، ومن مستلزمات الملك أن يكون له جنود ،

---

(١) الأنعام الآيات : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧

(٢) الفتح الآية : ١٠ (٣) الأحزاب الآية : ٢١

وجنوده سبحانه ملائكته ، وأن يكون له حث وتحريض ، ونهى وتحذير تربطه برعيته ، وهى ماتسمى القوانين ، تلكم هى الكتب السماوية ، وأن يكون له سفراء يكونون وسطاء بين الملك وبين شعبه ، وهؤلاء هم رسل الله تعالى ، الذين يبلغون رسالات الله .

كذلك من متممات الملك أن تكون له محكمة تجزى على الشر شراً ، وعلى الخير خيراً ، ومحكمة الله تعالى ستكون يوم القيامة : وهى الجنة ، والنار .

وأما القدر فهو نوعان :

الأول : هو النظام الذى جرت به سنن الله تعالى فى تدبير ملكه .

والثانى : هو مايتعلق بالمكلفين ، وقد فصلناه تفصيلا فيما يأتى إن شاء الله تعالى .

وملائكة الله تعالى طوائف شتى : منهم الموكلون بقبض الأرواح ، وفريق منهم موكل بكتب الحسنات والسيئات ، وآخر يقوم بتنمية النباتات ، ويسمى هذا النوع فى لسان العلم الحديث « قوى طبيعية » بها ينمو ويستوى على سوقه ، وهذه التسمية بلسان الشرع نعتبرها نحن « سنن الله الكونية » . فهذا الخلاف خلاف فى التسمية فقط ، والهدف واحد .

ومن عجائبها أنها تأخذ من الأرض غذاءها الصالح لها ، وهذا النبات ليس له جوف يهضم الغذاء ، ولا له قلب لإذابة سائلاته كما للحيوان ، بل يمتص غذاءه من التراب بواسطة جذوره ، ومن الهواء بواسطة أوراقه ، ويدفع مالا ينفعه فى الخارج بقوة مودعة ، تلك القوة هى ملائكة الله تعالى ، ولو شاء الله لأنبتها من غير ملك يدبرها ، ولا سبب يزاوله ، ولكن أبت حكمته إلا أن يجعل لكل شىء سبباً .

هذا وقد اكتشف أخيراً أن فيه أنواعاً من النبات كالقطن والشعير ، قد أعطى فتحات صغيرة فى الجذور ، وهذه الفتحات قدرت بقدر ، بحيث

لايدخل في فتحات جذورها ، مالايصلح للملبس في القطن ، ولا في فتحاته الشعير مالايصلح للأكل .

ألا وإن من أنواع الملائكة الصافين المسبحين ، وما إلى ذلك ، مما جاء في القرآن الكريم ، قال سبحانه وتعالى : « وَمَامِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ۞ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۞ وإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ[1] » .

وإلى غير ذلك من طوائف أخرى ، غصت بها صفحات السماء ، يؤيد ذلك حديث الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنِّي أَرَى مَالَا تَرَوْنَ . . . وَأَسْمَعُ مَالا تَسْمَعُونَ ، أَطَّتِ السَّماءُ وحقَّ لهَا أَنْ تَئِطَّ مَافِيهَا مَوْضعُ أَرْبَعِ أَصابعَ إِلَّا ومَلَكٌ وَاضِعٌ جبهته ساجدٌ لِلهِ ، وَاللهِ لو تَعْلَمُونَ مَاأَعْلَمُ لضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلبَكَيْتُمْ كثيراً ، وماتَلَذَّذْتُمْ بالنسَاءِ عَلَى الفُرُشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إلى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إلى الله تعالى » . قال أبو ذر : « وَاللهِ لَوَدِدْتُ أني شجرةٌ تُعْضَدُ[2] » .

هذا قليل من كثير في جانب ملائكة الله تعالى ، ولكن آفة الكثيرين أنهم لايؤمنون إلا بالذي يرونه بأعينهم ، ويلمسونه بأيديهم من عالم المادة ، وينكرون ماوراء ذلك مع أن ماخفي عليهم أكثر . إذ أن حواسهم مقصور إدراكها على عالم المادة ، يشهد لذلك قول الله تعالى « فَلَاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ : وَمَالَا تُبْصِرونَ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ[3] » ؟

ولايفوتنا أن نذكر أن الإيمان المذكور لايتحقق في المؤمن إلا بالعمل الصالح كما جاء في الحديث المرفوع الذي أخرجه البخاري في التاريخ : « لَيْسَ الإيمانُ بالتَّمَني ، وَلَكنْ ما وَقَرَ في الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ ، إنَّ قَوماً أَلْهَتْهُمْ أَمَانِي

---

(١) الصافات الآيات : ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦

(٢) الأطيط : صوت الرحل الجديد وعليه الحمل الثقيل ، وأطيط الجمال : صوتها ، يريد أن كثرة مافيها من الملائكة قد أثقلها . والصعدات : الطرق . وعضد الشجرة : قضبها .

الْمَغْفِرَةِ حتى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا ولا حَسَنَةَ لَهُمْ ، وقالوا نَحْنُ نُحْسِنُ الظَّنَّ بالله تعالى ، وكَذَبُوا ، لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ لأَحْسَنُوا العملَ » .

والقرآن من أوله إلى آخره ، شاهد بذلك ، فإذا تجرد الإيمان عن العمل لم يكن إيماناً .

وفاتنا أن نذكر أن خواطر الخير تستند إلى ملك يسمى واعظ الله فى قلب كل مؤمن ، كما أن خواطر الشر تستند إلى الشيطان ، وتسمى الوسوسة .

اليوم الآخر والجزاء فى الدنيا

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ[1] » .

الجزاء فى الدنيا

أجمعت الأمم ونطلقت الحوادث أن مخالفة السنن الطبيعية التى هى سنن الله الكونية ، لاتكون إلا شراً وهلاكاً ، غير أن الهلاك تارة يكون عاجلا ، ومنها مالا يظهر ضرره إلا بعد طائفة من الزمن مثل السموم ، منها مايقتل لساعته ومنها مالا يظهر إلا بعد تجمع الكثير منها ، عند ذلك تنقلب عليه وتهلكه . و بدهى أن مخالفة السنن الطبيعية هى خروج عن شرع الله تعالى .

فمثلا الغلو فى الترف أساس الفساد ، والتبذير يؤدى إلى الخراب ، و إهمال الألاود سبب فى العقوق ، والإفراط فى تناول الطعام ، مجلبة للأمراض المهلكة ، واختلاط المرأة بالرجال ، وترك حبلها على غار بها ، مما يفسدها على زوجها ، و إهمال أولادها .

والخائن لوطنه لابد أن يجد مصرعه وهكذا .

---

(١) الأحقاف الآية : ٣٣

إذاً فكل معصية لها جزاء طبيعي فى الدنيا ، ومامن ساعة تمر بنا إلا ونرى فيها قصاصاً عادلا لمن خرج على شرع الله الذى رسم للانسانية طريقاً ، لن يضل سالكها أبداً ، وقد خاب من تنكب عنها قال تعالى :

« فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً * وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى(١) » .

الجزاء فى الآخرة

أما الجزاء فى الآخرة فقد أقرته الأديان السماوية وجعلته شطر الإيمان بالله ، فمن لم يؤمن بالجزاء فى الآخرة فلا يكون مؤمناً بالله حقاً ، لأن من أخص صفات الله تعالى العدل والرحمة والحكمة ، فلو تجردت الدنيا عن الجزاء فى اليوم الآخر لما ظهر عدله ، ولتعطلت حكمته وربوبيته وإلهيته ، واستوى الخبيث والطيب ، والأعمى والبصير ، والأحياء والأموات .

ومن المشهود أننا نرى الحظ تارة يوافى الشريرين ، ويحجب عن الخيرين دون تمييز : فكأين من شخص خرج من الدنيا محظوظاً وهو لا يزن عند الله جناح بعوضة ؟ وكم من شخص قضى حياته فى عبادة ربه ، وصدق فى إيمانه بربه ، وأخلص لبنى جنسه ، ولقى ربه وحاجته فى صدره ؟ ولا يملك من الدنيا قليلا ولا كثيراً .

فهل يليق بأحكم الحاكمين خالق الإنسان من ماء مهين ، أن يسوى بين المحسن

---

(١) طه الآيات ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧

والمسيء ! إننا نستبعد هذا على المخلوق الضعيف ، فكيف بالخالق العظيم الذى إذا قال للشيء كن فيكون ؟

« فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ[1] » .

« أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ[2] » .

إذاً فمن العبث والجحود أن نعتقد أن وجودنا على الأرض محدود ، مربوط بهذا العمر القصير ، المنغص بالهموم والآلام ، والظلم والطغيان . فنقضى هذا العمر فى فترات قاسية : فترة الطفولة التى لاحظ فيهاسوى اللهو واللعب ، وفترة الشباب التى نقضيها فى التعليم الشاق ، وفترة المراهقة التى نكون فيها أقرب إلى الجهل ، ثم فترة الأبوة المثقلة بالهموم والآلام ، ما أقساها ! وما أشدها ! ثم الكهولة ، ثم الكمال ، و بعدها الشيخوخة ، وتنتهى بالضعف والانحلال ، ثم نرد إلى أرذل العمر إن قدر لنا طول الحياة . وهذا ما كان يخشاه النبى صلى الله عليه وسلم على نفسه وعلى أمته ، إذ أنه استعاذ منه .

أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إنما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ[3] » . « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ[4] » .

ثم ننتهى من الحياة ، فلو كانت الحياة الدنيا منتهى ما للانسان من وجود لكانت عبثاً ، والموت خيراً من الحياة ، وكان الحيوان البهيم أكثر منفعة من الإنسان ، لأنه لايحزن على مافاته ولايفكر فيما فيه شقوته ، تعالى الله عن ذلك :

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ[5] » .

---

(١) التين الآيات : ٧ ، ٨ (٢) ص الآية : ٢٨
(٣) الزمر الآية : ٩ (٤) يس آية : ٦٨ (٥) المؤمنون الآيات : ١١٥ ، ١١٦

نعم إن عدالة الله تعالى تأبى كل الإباء أن يتساوى عندها المحقون والمبطلون، والشر والخير، والباطل والحق . وحاش لله أن يخلقنا إلى هذه الحياة القصيرة المختلط حلوها بمرها، وفرحها بترحها، ثم يحكم علينا بالإعدام النهائى الذى لاحياة بعده . هذا ومن نكد الدنيا على الإنسان أنه لا يظفر بنعمة إلا بفراق أخرى، ولا فرحة إلا أعقبتها ترحة، وآلامها متولدة من لذاتها .

ولقد أكثر القرآن الكريم من ذكر آيات البعث، وضرب الأمثال للناس ليعلموا أن الله على رجعهم لقدير، وأن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد .

« يا أَيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ من الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ونُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ ما نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ، لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ(١) » .

« اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(٢) » .

« وَيَقُولُ الإنسَانُ أَئِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا، أَوَ لَا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً(٣) » .

---

(١) الحج الآيات : ٥ ، ٦ ، ٧ (٢) الرعد الآية : ٢
(٣) سورة مريم الآيات : ٦٦ ، ٦٧

« فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (١) » .

من محاسن تفسير هذه الآية أن الله تعالى ليس بعاجز أن يعيدهم بأبدان خير من هذه الأبدان .

يؤيد ذلك ماجاء فى سورة الواقعة : « نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٢) » .

وعلام نجحد البعث ونحن فى كل يوم وليلة نموت ونحيا ، قال سبحانه : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣) » .

« اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤)

فالنائم والميت أخوان فى أنهما فقدا التميز والشعور ، بيد أن الحياة الحيوانية فى النائم لاتفارقه ، حتى يأتى أجله المسمى . أما حياة التميز ، فهى مفقودة فى الاثنتين . وكذلك النبات فإنه يموت ويحيا .

هذا ولولا أن الثكلى تعلم أن انقضاء حياتها لاينقضى بانقضاء أنفاسها على الأرض لما عاشت على وجه الأرض ساعة من النهار ، ولكن الذى خفف من لوعتها ، وهون من مصابها ، وجعلها تصمد أمام هذا الحادث الأليم ، هو يقينها بأن هذا الوجود الإنسانى ليس هو أياماً تمر ، وأعواماً تكر ، وأجيالا تتعاقب

---

(١) المعارج الآيات : ٤٠ ، ٤١ (٢) الواقعة الآيات : ٦٠ ، ٦١
(٣) الأنعام الآية : ٦٠ (٤) الزمر الآية : ٤٢

وأعماراً يطويها كر الغداة ومر العشى ، وإنما وراءها حياة أخرى تجزى فيها كل نفس بما كسبت إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . يوم لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً .

ومن آيات البعث أيضاً اختلاف الناس فى العقائد ، وفى شئون الحياة ، ولا يزالون مختلفين . فهل من المعقول أن يظلوا فى هذا الاختلاف ، ثم يموتوا وهم على ذلك من غير أن يعلم صادق من كاذب ، ومحق من مبطل ، حاشا لله أن يدع الناس فى طغيانهم يعمهون ، وفى ضلالهم عن الحق غير مبصرين .

وفى هذا المعنى جاءت الآية الشريفة : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعلمُونَ ۞ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانوا كَاذِبِينَ[١] »

على أن إعادة الخلق أهون من البدء ، تنطق بذلك الآية الكريمة : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[٢] » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : « كَذَّبَنِى ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِى وَلَمْ يكن له ذَلِكَ . فأَمَّا تَكذِيبُهُ إِيَّاى ، فقولُهُ لَنْ يُعِيدَنِى كما بَدَأَنِى ، وليس أولُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَىَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّاىَ فقوله : اتَّخَذَ اللهُ ولَدًا ، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، الَّذِى لَمْ يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ[٣] » .

« وَضَرَبَ لنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ ، قال من يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ

(١) النحل الآيات : ٣٨ ، ٣٩

(٢) الروم الآية : ٢٧ (٣) البخارى وغيره .

يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [1] » .

هذا ومما يقرب مسألة البعث : الماء ، فإن له ثلاثة مظاهر : أوسطها السائل الذى يشرب منه الإنسان والحيوان والنبات ، وهو مايكون عليه فى حال اعتدال الحرارة ، فإذا نقصت إلى درجة معينة صار ثلجاً أو جليداً ، و إذا ارتفعت صار بخاراً ، أما إذا كثف سمى ضباباً وسديماً ، و إذا ماخالطه غيره سمى دخاناً ؛ فالدخان والضباب والبخار كلها مظاهر لهذه المادة اللطيفة ، وقد عبر القرآن الكريم عن رجوع كل شىء إلى مادته الأصلية وهوالدخان ، وذلك عند خراب العالم . « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

هذه هى عقيدة الإسلام فى البعث : بعث الأجسام والأرواح ، أما عقيدة النصارى فهى بعث الأرواح لا الأجسام ، وأن المسيح صلب وخلص النصارى من العقاب . أما اليهود فخصوا البعث والجزاء بهم وحدهم ، وأما الوثنيون فمنهم من أنكر البعث فى الآخرة وكل أحد مجزى بعمله فى الدنيا فقط ، ومنهم من صدق بالبعث ، ومن هؤلاء عبد المطلب . وقد أثر عنه أنه قال لابنه أبى طالب حينما شكا إليه بأن أحد للناس ظلمه : « يابنى إن وراء هذا العالم عالماً آخر يرى فيه المحسن حسن عمله ، والمسىء سوء عمله » .

---

(١) يس الآيات من : ٧٨ إلى ٨٣

أحكام تكميلية للايمان

أولا : المؤمن يقظ حذر لايفعل المعصية عناداً لله ولا استخفافاً بأمر الله ، ولـكنه يفعلها تحت تأثير شهوة جامحة ، أو مخدوعاً بمتعة عاجلة ، أو تغلب عادة متأصلة . فإن للعادة سلطاناً عظيماً على النفوس ، وأثراً عميقاً فى القلوب ، لهذا قيل : « إن العادة توءم الطبيعة » .

ومن ذا الذى ينكر أن النفوس جبلت على التعلق بما ألفته ، والتمسك بما اعتادت عليه ، فإذا فعل المعصية غير مكترث بأوامر الله ، أو لايخطر فى ذهنه خوف الله فإنه لا يكون مؤمناً وإن صلى وصام . . . فإن شرط الإيمان الصحيح إذعان النفس بكل ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذعاناً يستلزم العمل عند انتفاء المانع .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : « المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن تقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار » .

فإذا ماعرضت له نزعة من النزعات المذكورة ، استعاذ بالله من شرها ، مستمسكا بقوله تعالى : « وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[1] »

وإذا وقع فى الخطيئة سرعان مارجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار وعض بنان الندم ، مصداق ذلك قول الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ[2] »

ثم إن الاستغفار والتوبة يجعلان الـكبيرة صغيرة ، كما إن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة .

---

(١) الأعراف الآية : ٢٠٠ (٢) الأعراف الآية : ٢٠١

قال رسول الله ﷺ : « لا كبيرةَ مَعَ استغفارٍ ولاصغيرة مع إصْرارٍ »[(١)] .

ثانياً : فى الإنسان وازعان : أحدهما يدعو إلى الخير و يسمى ملكاً أو واعظ الله تعالى فى قلب المؤمن ، وثانيهما يدعو إلى الشر ويسمى فى عرف الشرع شيطاناً ، وخواطر الخير تسمى إلهاماً ، وخواطر الشر تسمى وسواساً .

قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ لِلشَّيطانِ لَمَّةً بابْنِ آدَمَ ، وإنَّ لِلمَلَكِ لَمَّةً . أَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فإِيعَادٌ بالشَّرِّ ، وتَكذِيبٌ بالْحَقِّ . وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فإِيعَادٌ بالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بالْحَقِّ . فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ الآخِرَةَ فَلْيَتَعَوَّذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ[(٢)] » .

القصد المسئول عنه العبد

مراتبه خمسة : هاجس ، خاطر ، حديث النفس ، هم ، عزم . فالهاجس : يمر مر السحاب ، والخاطر : يمر بالبال ولكنه يركن قليلا ، وحديث النفس : هو التردد فى العمل ، والهم : حضور الشيء بالبال و يرجح فعله ، والعزم : هو التصميم على العمل . وهذان فيهما الجزاء إلا أن الثانى أكثر جزاء .

الإيمان يزيد و ينقص

تقدم أن المؤمن الحق هو الذى لايرضى لنفسه المعصية ولايحبها ، ولا يرضى عنها ولايصر على فعلها ، و إنما يفعلها عن شهوة جامحة ، أو يكون مخدوعاً بمتعة عاجلة ، أو غضب شديد يغلق عليه مستقبله و ينسيه ، أو مغتراً برحمة الله من غير عمل ، أو متأولا تأويلا يجهل حقيقته بعد أن أفرغ جهده فى الوصول إلى حقيقته ، ومتى كان مؤمناً إيماناً حقاً ، لاتخرجه المعصية عن الإيمان ، إلا إذا كثرت ، فاسود

---

(١) للديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) رواه الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه . واللمة : الخطرة .

القلب ولم يقبل الإيمان . قال تعالى : « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[1] » .

وبهذا جاء حديث أبي ذر المشهور الصحيح في مراجعته للرسول ﷺ في أن المؤمن يدخل الجنة ، فقال الرسول ﷺ : « وإنْ زَنَى وإنْ سَرَقَ » .

وقال ﷺ : « مَثَلُ الْمؤمِنِ مَثَلُ الفَرَسِ فى آخِيَّتِهِ يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ إلى آخِيَّتِهِ ، كَذَلِكَ الْمُؤمِنُ يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ إلى الْإِيمَانِ[2] » .

نعم ينقص الإيمان من صاحبه بقدر معصيته ، لأن الإيمان شعب ، كما أخبر الرسول ﷺ فى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة : « الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » فإذا نقصت شعبة من شعبه خلفها شعبة من الكفر ، ويسمى ذلك كفراً دون كفر .

ومن حديث مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اثْنَتَانِ فىالنَّاسِ هُمَا بِهِمَا كُفرٌ : الطَّعْنُ فى النَّسَبِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ » . ومن ذلك الأحاديث التى وردت فى تكفير الصلاة كحديث جابر رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَةِ » رواه مسلم عن جابر . وحديث الترمذى عن بريدة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « الْعَهْدُ الَّذِى بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ » .

هناك مذاهب يرى أصحابها أن تارك الصلاة كافر يخرج عن ملة الإسلام ، ويقتل ويدفن فى مقابر المشركين . من هؤلاء عمر وعلى ومعاذ وابن مسعود ، وابن عباس ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو داود الطيالسى ، وابن أبى شيبة . وحجتهم فى ذلك صريح الأحاديث التى ذكرناها . أما الجمهور

(١) البقرة الآية ٨١ (٢) لابن القيم فى الهجرتين .

فلا يكفرون تارك الصلاة بالكفر الذى يخرج صاحبه عن الإيمان ، ويدخله فى زمرة الكافرين ، حجتهم فى ذلك الحديث الصحيح : « لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : كُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانٍ وَزِنًا بَعْدَ إِحْصَانٍ وَقَتْلِ نَفْسٍ بِغَيْرِ حَقٍّ » .

نعم إذا تتابعت الخطيئة ، ولم يتخللها استغفار ولا توبة ، وطال عليها الأمد ، فخليق أن تُخْرِج الإنسان من الإيمان إلى الكفر كما قال سبحانه : « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١) » وقال ﷺ(٢) : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِى قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ وهو الرّان الذى ذكر الله فى سورة المطففين : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٣) » . ومعنى هذا : أن السيئة تترك أثراً سيئاً فى النفس فيسودّ القلب ، فإذا ما تراكمت عليه ضاق القلب عن الإيمان فلم يجد له سبيلا . قال تعالى : « فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ(٤) » .

قرأ عمر رضى الله عنه هذه الآية ، فسأل رجلاً من بنى كنانة عن الحرجة فقال : هى الشجرة الكبيرة تحدق بها الأشجار الكثيرة فلا يصل إليها راع ولا وحشية . فقال : كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شىء من الخير . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : معنى حرجاً أنه إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه ، وإن ذكر شىء من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك . وقال تعالى : « وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً(٥) » .

وليعلم القارىء أن الخطيئة لا تحيط بالمؤمن أبداً ، فإن إيمانه يمنعه من إحاطة

---

(١) البقرة الآية : ٨١ (٢) أحمد عن أبى هريرة (٣) المطففين الآية : ١٤
(٤) الأنعام الآية : ١٢٥ (٥) الكهف الآية : ٥٧

الخطيئة به . لهذا حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من الوقوع فى الصغائر كما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد عن ابن مسعود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ » . وضرب لهن رسول الله ﷺ مثلاً : « كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ[1] الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْبَعْرَةِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَاداً[2] وَأَجَّجُوا نَاراً وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا » .

وكما أن كثرة المعاصى تخرج صاحبها عن الإيمان ، كذلك المعاصى التى فيها هضم لحق الله كالسجود لغيره ، وكخلع صفات المخلوق عليه سبحانه ، كوصف اليهودى الله بأنه ندم حينما خلق الخلق وأنه صارع يعقوب بن إسحاق . وكذلك من يعتقد أن لغير الله من أنبياء وصالحين تأثيراً فى الخلق والتدبير ، أو الضرر أو النفع من غير الأسباب المسخرة ، كخلق اللبن فى الضرع ، وشفاء المريض من غير الأدوية المعروفة ، وما إلى ذلك مما لا يدخل فى الأسباب المعروفة للبشر .

ثالثاً : المؤمن هو عبد الله تعالى فى السرّاء والضرّاء إن أصابه شر صبر ، و إن أصابه خير شكر ، لا عبد السراء إن أصابه خير اطمأن به ، و إن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين . فإن الله يربى عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء فيستخرج منه عبوديته فى جميع الأحوال فى الشدة والرخاء . فنى حديث مسلم عن أبى يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ » .

رابعاً : من رعاية الله تعالى بالمؤمن أن فتح له باب الرحمة بالاستغفار والتوبة أعنى : التوبة الصادقة التى تشتمل على الإقلاع من المعصية ، والندم من الذنب

(١) صنيع الطعام يجتمع عليه الرفقاء .   (٢) السواد : الكوم العظيم من الحطب .

وتوطيد العزم على عدم العودة : هذه هى التوبة التى يمحو الله بها الخطايا . أما التوبة باللسان والاستغفار مع الإصرار ، فإن صاحبها كالمستهزىء بربه ، كما جاء فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ[1] » وبدهى أن المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه مخادع ، لربه كالمستهزىء به . فمتى تاب العبد عن معصية من المعاصى قبلت منه ، أو عن جميع المعاصى كذلك قبلت منه متى توفرت فيها هذه الأركان . كذلك إذا تاب من الكفر ونطق بكلمتى التوحيد مع إذعان النفس وقبولها وتحقيق معناها قولا وعملا وتصديقاً ، ولكن عاجله الموت فلم يتمكن من العمل ، أو حال بينه وبين العمل مانع قبلت توبته ، وهذا هو فقه الحديث الذى أخرجه أبو داود عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان آخِرَ كلامِهِ لاَ إِلٰهَ إلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

فمن كانت هذه حالته قبلت توبته حيث فاجأه الموت ، فلم يكن عنده وقت للعمل وإصلاح مافسد . وبهذا يعلم فساد القول بأن من نطق بكلمتى الشهادة صار مسلماً ويعذب على العمل فقط . على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكتفى من الكافر فى بدء الإسلام بظاهر قوله ترغيباً فى الإسلام ويترك عقيدته لله تعالى لهذا كان الرجل يدخل فى الإسلام لايريد إلا الدنيا ، فلايلبث إلا قليلا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا ومافيها .

ومما يؤيد أن الإيمان عقيدة وعمل : الرواية الثانية وهى : « من قال لا إِلٰهَ إلا اللهُ مُخْلِصاً مِنْ قَلْبِهِ » وقول الله تعالى : « وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[2] » . « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً[3] » .

وخلاصة القول أن قبول التوبة يتوقف على الإقلاع عن الذنب ، والندم

---

(١) فى الجامع الصغير عن أنس (٢) الزخرف الآية : ٧٢ (٣) الكهف الآية : ١١٠

على الذنب ، وعلى مافاته ، وعدم الإصرار على الذنب ، وإصلاح مافسد ، ورد المظالم إلى أهلها عند عدم المانع والقدرة على ذلك .

هذا وقد تتابعت النصوص من القرآن الكريم بأن التائبين فى الدرجات العلى عند الله ، من ذلك استغفار الملائكة لهم الذى جاء فى قوله تعالى .

« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١) » .

ولا يعارض هذا قول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (٢) » وكذلك قوله تعالى : « قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٣) » فإن مشيئة الله تعالى فى الآية الأولى مقيدة بالحكمة ، والحكمة صفة كمال تقتضى العمل ، والقرآن لا يضرب بعضه بعضاً بل يصدق بعضه بعضاً ، فما أجمل فى آية فصل فى أخرى ، قال الله تعالى : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى (٤) » . وكما يشترط فى التوبة ماذكرنا كذلك يشترط فيها عدم اليأس من الحياة ؛ لهذا لم تقبل توبة فرعون لما استيأس من الحياة كما حكى الله تعالى عنه : (آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٥)) وقال تعالى : (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا (٦))

---

(١) غافر الآيات : ٧ ، ٨ ، ٩ (٢) النساء الآية : ١١٦ (٣) الزمر الآية : ٥٣
(٤) طه الآية : ٨٢ (٥) يونس الآية : ٩٠ (٦) غافر الآية : ٨٥ .

وكذلك الثلاثة التى جاءت فى حديث الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا : الدَّجَّالُ ، وَالدَّابَّةُ ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا » ويزاد على هذه الشروط : تأدية حقوق العباد ، ورد المظالم إلى أهلها أو العفو عنها .

خامساً : أن الحدود لا شفاعة فيها ولا هوادة .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « اجْتَنِبُوا هٰذِهِ الْقَاذُورَاتِ الَّتِى نَهَى اللهُ عَنْهَا ، فَمَنْ أَلَمَّ بِهَا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ ، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ ، فَإِنَّ مَنْ يُبْدِى لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِيمُ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » رواه الحاكم وهو فى الموطأ من مراسيل زيد بن أسلم . يدل الحديث على أن من عصى الله تعالى يبادر بالتوبة ولا يفضح نفسه قبل أن تصل إلى الإمام ، فإن وصلت إليه أقام الحد عليه ولا شفاعة فيه ؛ وكذلك التوبة لا تسقط الحد إذا وصلت كذلك إلى الحاكم . قال رسول الله ﷺ : « تَعَافَوْا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فَمَا بَلَغَنِى مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ » رواه أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : « أَقِيلُوا ذَوِى الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ » رواه أحمد وأبو داود . وقال علىّ كرم الله وجهه : من أذنب ذنباً فستره الله عليه فالله أكرم من أن يكشف ستره فى الآخرة ، ومن أذنب ذنباً فعوقب به فى الدنيا ، فالله أعدل من أن يثنى عقوبته فى الآخرة .

سادساً : تفاوت الناس فى الأعمال يرجع إلى تفاوتهم فى التصديق والعلم[٤] .

وقد قسم ابن القيم عليه الرحمة والرضوان العلم إلى ثلاثة أقسام : أولها علم اليقين ، وثانيها عين اليقين ، وثالثها حق اليقين — أما الأول : فهو الذى يصل بصاحبه إلى حد الضروريات فلا يقبل الشك ، ولو وصلت حقيقة العلم إلى القلب وباشرته

لما ألهاه عن موضعه ، وترتب أثره عليه فإن مجرد العلم بضرر الشيء وسوء عواقبه قد لايكفي في تركه — والثاني عين اليقين : وهو العلم الذي وصل إلى المشاهدات فحينئذ يكون اقتضاؤه لترك المعصية أشد من علم اليقين — والثالث حق اليقين : وهو الذي لايحتمل الخطأ . وقد مثل لهذا بثلاثة أمثلة : علم الضيف بأن المضيف سيقدم إليه تحية فهذا هو علم اليقين ، فإذا ماقدمت التحية بالفعل فهذا هو عين اليقين ، ولربما يُحرَم تناولها لسبب من الأسباب ، وإذاً فلا يتحقق حق اليقين إلا إذا تناولها بالفعل .

وعلى هذا فكلما قوى العلم بأضرار المعصية ، اشتد خوف الإنسان من الوقوع فيها وكان أبعد عنها ، كالذي يخشى العدو على نفسه ، فإذا اقترب منه أسرع إلى الفرار منه والعكس بالعكس — فالإيمان القوى يجرى في الإنسان مجرى الدم ، ويشع نوره على الجوارح ، ويجعل صاحبه لايبغى إلا الخير . وهكذا كلما كان الاعتقاد صادقاً هز المشاعر والوجدان ، فأنتج أحسن الأعمال — ولايفوتنا أن نذكر أن الله تعالى فطر الإنسان على حبٍّ وجلب ماينفعه ، وبغض وترك مايضيره ، وبعيد كل البعد أن يتيقين الإنسان ضرراً ويقدم على فعله . وهذه حقيقة لايختلف فيها اثنان ، بل فطر عليها الحيوان ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا نرى الكثيرين يتهافتون على المعاصي تهافت الذباب على الشراب وهم يعلمون أضرارها — الجواب أن هذا العلم ليس علماً حقيقياً ، بل هو من باب الشكوك كما أوضحنا آنفاً . فلوعلم إبليس أن ترك السجود لآدم يبلغ به مابلغ لما امتنع عن السجود . ولو علم السارق العقوبة التي تترتب على سرقته عاجلة أو آجلة لما أقدم على السرقة فهذا العلم لايدخل في مراتب العلم الثلاثة بل هو من باب الشكوك ، ولذلك نَفَى الله العلم عن صاحبه إذا لم يستتبع أثره والعمل بمقتضاه ، قال تعالى : « إنَّما يَخْشَى اللهَ من عباده العُلَمَاءُ[1] » ينطق صريح الآية بأن العلماء هم الذين

---

(١) فاطر الآية : ٢٨

يخشون الله تعالى ، فإذا تجردوا من الخشية لم يكونوا علماء بل يكونوا جهلاء .
وقال قتادة رضى الله عنه : أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل ماعُصِيَ اللهُ به فهو جهالة عمداً كان أو لم يكن ، وكل من عَصَىَ اللهَ فهو جاهل ، ولا نريد بالجهل الجهل بالحرمة ، ولكنا نريد بالجهل فقد العلم الذى تلازمه الخشية من الله ويستتبع العمل .

يوضح ذلك قول الله تعالى : (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[١]) .

فأثبت سبحانه لهم العلم الأول الذى به تقوم حجته عليهم ، ونفى العلم الحقيقى الذى يستوجب العمل وينجيهم من عذاب الله ، وقد جاء عن الرسول ﷺ أنه قال : « الْعِلْمُ عِلْمَانِ : عِلْمٌ فى القلبِ فذاكَ العلمُ النافعُ ، وعلمٌ على اللِّسانِ فذاك حُجَّةُ اللهِ على ابنِ آدمَ[٢] » . فالعلم من غير عمل ضار بصاحبه مضر بغيره ، يؤيد ذلك الحديث الذى رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « إن أَخْوَفَ ما أَخافُ على أُمَّتِي كلُّ منافِقٍ عليمٍ باللِّسانِ[٣] » .

سابعاً — أسباب المعاصى : ضعف الوازع الدينى ، الأخذ فى أسباب الغضب ، إرخاء العنان للقوة الشهوية يؤيد ذلك ماجاء فى الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « سألت رسول الله ﷺ : أَيُّ الذَّنبِ أعظمُ عند اللهِ ؟ قال : أن تجعلَ للهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ . قلت : إن ذلك لعظيمٌ ، ثم أيٌّ ؟ قال : أن تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أن يَطْعَمَ مَعَكَ . قلت : ثم أيٌّ ؟ قال : أن تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جارِكَ[٤] » وتلا هذه الآية : « وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ[٥] » .

---

(١) البقرة الآية : ١٠٢

(٢) الخطيب فى التاريخ عن جابر .

(٣) الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب .

(٤) البخارى عن ابن مسعود إلا تلاوة الآية فإنها من رواية الترمذى والنسائى .

(٥) الفرقان الآية : ٦٨

كذلك من أسباب المعاصى ، الغرور برحمة الله من غير عمل ، والتسويف بالتوبة . فمن الناس من يقترف المعاصى ظاناً بأن رحمة الله الواسعة ستشمله فيقول نحسن الظن بالله . وهؤلاء كاذبون لأنهم لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل ، والله يقول : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ[1] » الخ .

فكثير من جهلة المسلمين اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه فضيعوا أمره ونهيه ولم يعلموا أنه شديد العقاب على من خالف أمره وعطل فرضه ، فالذى أمر بقطع عضو فى الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم ، وقتل من أولج حشفة فى غير زوجه ، والحرمان من النعيم المقيم بأكل لقمة واحدة لم يؤذن فيها ، وشقاء الأبد لمن ترك سجدة واحدة .

فمن أمر بذلك وشرع فلا يبعد عليه أن يجعل عذاب المجرمين ناراً وجحيما ، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليما .

فالعالم يجعل الرجاء فى موضعه والجاهل يضعه فى غير موضعه . أما التسويف بالتوبة فقد قطع أعناق الكثيرين ، فكم من شخص منته نفسه التوبة وظن أنه سيعمر فيتوب من ذنبه قبل بلوغ أجله فنزل الموت بساحته فلم يترك له فرصة ليقلع عما اقترفه ، وهنالك يتمنى الرجعة « فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا[2] » .

سادساً — المؤمن الحق هو الذى يخاف الله خوفاً يزجره عن المعاصى ، ويرجوه رجاء يرغبه فى ثوابه ، وماعند الله مجهول لنا . قال تعالى : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[3] » فقد ذكر سبحانه أنه غفور رحيم لمن هاجر بعد مافتن ثم صبر وجاهد إذاً لا يغتر مغرور بما عند الله من الرحمة .

---

(١) الأعراف الآية : ١٥٦ (٢) المنافقون الآية : ١٠ (٣) النحل الآية: ١١٠

سابعاً — التوسل بأشخاص الأنبياء والصالحين الغائبين وأعمالهم لم يقم عليه دليل بل معارض بالأدلة العقلية والنقلية .

وأما التوسل بعمل الشخص نفسه الصالح فإنه صحيح ، كذلك التوسل بصفات الله تعالى ، فأما التوسل بعمل الشخص نفسه ، فقد وردت به السنة الصحيحة والقرآن الكريم . فمن ذلك حديث الصحيحين عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة ؛ فأولهم توسل بأمانته ، وثانيهم توسل ببر والديه ، وثالثهم توسل بعفته .

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « بينما ثلاثةُ نفرٍ ممن كانوا قبلكم يمشون إذ أصابهم مطرٌ فأوَوْا إلى غارٍ[1] فانطبق عليهم ، فقال بعضُهم لبعض : إنه والله لا يُنَجِّيكم إلا الصدقُ فَلْيَدْعُ كلُّ رجلٍ منكم بما يعلم أنه قد صَدَقَ فيه . فقال واحدٌ منهم : اللَّهُمَّ إن كنتَ تعلمُ أنه كان لى أجيرٌ عمل لى عَلَى فَرَقٍ[2] من أَرُزّ فذهب وتركه وأنى عَمَدْتُ إلى ذلك الفَرَقِ فزرَعْتُهُ فصارَ من أمرِه أنى اشتَرَيْتُ منه بقراً وأنه أتانى يطلب أجرَه فقلتُ اعْمِدْ إلى تلك البقرِ فَسُقْهَا ، فقال لى إنما لى عندك فَرَقٌ من أَرُزّ ، فقلت اعْمِدْ إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرَق فساقَها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عنَّا ، فانْسَاحَتْ[3] عنهم الصخرة .

فقال الآخر : اللهم إن كنتَ تعلمُ أنه كان لى أبوانِ شَيْخانِ كبيرانِ فكنتُ آتيهما كلَّ ليلة بلبَنِ غنمٍ لى فأبطأْتُ عليهما ليلةً فجئتُ وقد رقَدَا وأهلى وعيالى يَتَضَاغَوْنَ[4] مِنَ الْجُوعِ فكنت لا أسقيهم حتى يشربَ أبوايَ فكرِهْتُ أن أُوقِظَهُمَا وكرِهْتُ أن أَدَعَهُمَا فَيَسْتَكِنَّا[5] بِشَرْبَتِهِمَا ، فلم أزَلْ أنتظر حتى طلَعَ

(١) الغار : الشق فى الجبل . (٢) الفرق : ظرف يسع ثلاثة أصبع .
(٣) انساحت : جرت (٤) يتضاغون : يستغيثون من الجوع .
(٥) يستكنا : يمكثان فى كهفهما منتظرين لشربهما .

الفجرُ، فإن كنت تعلم أنى فعلتُ ذلك من خَشْيَتِكَ ففرِّجْ عَنَّا ، فانساحت عنهم الصخرةُ حتى نظروا إلى السماء .

فقال الآخر : اللهمَّ إن كنتَ تعلم أنه كان لى ابنةُ عمٍّ من أحَبِّ الناسِ إلَيَّ وأنى رَاوَدْتُهَا عن نفسِها فأبَتْ إلا أن آتِيَهَا بمائة دينارٍ فطلبتها حتى قَدَرْتُ فأتيتُها بها فدفعتُها إليها فأمكنتنى من نفسِها ، فلما قَعَدْتُ بين رِجْلَيْهَا فقالت اتَّقِ اللهَ ولا تَفُضَّ الخاتَمَ إلا بحقِّه ، فقمْتُ وتركْتُ المائةَ دينارٍ ، فإن كنتَ تعلم أنى فعلْتُ ذلك من خَشيتك ففرِّجْ عنَّا ، ففرَّجَ اللهُ عنهم فخرجوا » .

فأما التوسل بالله وبصفاته تعالى ففى القرآن الشىء الكثير ، من ذلك قوله تعالى : «رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ[1] »وقال رسول الله ﷺ حينما رجع من الطائف مهموماً : «اللهم إليك أشكو ضَعْفَ قُوَّتى وقلَّةَ حِيلَتِي ، وهَوَانى على الناسِ يا أرحمَ الراحمين ، إلى مَنْ تَكِلُنى ؟ إلى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي ، أو إلى قريبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِى ، إن لم تكن ساخِطاً عَلَيَّ فلا أُبالى غير أن عافِيَتَكَ أوسعُ لى ، أعوذُ بنورِ وجهك الكريم الذى أضاءت له السمواتُ والأرضُ وأشرقَتْ له الظُّلُماتُ ، وصَلَحَ عليه أمر الدنيا والآخرة ـ أن تُحِلَّ عَلَيَّ غَضَبَكَ أو تُنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطَكَ وَلَكَ الْعُتْبَى حتى تَرْضَى ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» الطبرانى فى الكبير عن عبد الله بن جعفر . وروى الحاكم فى المستدرك أنه ﷺ قال لابنته فاطمة : « ما يمنعك أن تقولى إذا أصبحتِ أو أمسيْتِ يا حَيُّ يا قَيُّومُ برحمتِكَ أستغيثُ ، أَصْلِحْ شأْنى كله ولا تَكِلْنِي إلى نفسى طَرْفَةَ عَيْنٍ » .

وكذلك التوسل بدعاء الحى الحاضر لا الميت ولا الغائب ، لأنه داخل

---

(١) آل عمران الآية : ٥٣

في دائرة الأسباب والمسببات ، لهذا قال الرسول ﷺ لعمر ، حينما توجه لتأدية العمرة « لاتنسنا يا أخي من دعائك فقال كلمة مايسرني أن لي بها الدنيا » .
أبو داود وغيره عن عمر .

فتلخص من هذا أن التوسل المشروع إنما يكون بصفة من صفات الله تعالى ، أو بدعاء الحي الحاضر أو بعمل الشخص نفسه من إيمان بالله وبما جاءت به رسل الله وعمل الطاعات ، والكف عن المحظورات ، كما جاء في حديث الصحيحين للذين انطبقت عليهم الصخرة ، فلم ينجهم من هذه المحنة إلا توسلهم بالعمل الصالح ، والكف عن المحظور ، ومعروف أن الاقتداء بالنبي ﷺ وطاعته ومحبته وبغضه للكفر من أجلّ العبادات ، فإذا توسل العبد بهذا كله لامانع .

أما التوسل بغير ذلك فلم يقل به عالم بأنه سنة أو واجب بل جائز أو غير جائز ، فلوخصمناه من الدين لكان للحق أقرب ، والرسول ﷺ يقول : « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إلى مَا لاَ يَرِيبُكَ » . الترمذي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما ،

وكذلك اجتناب الشبهات كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما « فمن اتّقى الشُّبُهاتِ فقد استبرأ لدينهِ وعِرضِه[1] » وتوسل الصحابة بالعباس حينما انقطع عنهم المطر حجة لنا لأنهم توسلوا بدعائه لا بشخصه ، فقد كانوا إذا انقطع المطر عنهم في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ذهبوا إليه ليدعو الله لهم فكان يدعو بالدعاء المعروف وهم يؤمنون ، فلما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه وقعوا في حيرة ، فمن الذي يخلف الرسول صلى الله في الدعاء ، لأنه لم يأذن لهم أن يذهبوا إلى قبره ليدعو لهم كما كان حياً ، فآثروا العباس رضي الله عنه لقرابته من الرسول وحب الصحابة له ، فكان يدعو الله وهو مستقبل القبلة وهم يؤمّنون .

إذا كان التوسل بدعائه لأنه داخل في دائرة الأسباب والمسببات ،

---

(١) قطعة من حديث البخاري .

ومعروف أن الدعاء بمنزلة السلاح متى كان ماضياً سالماً من الآفات ، وحامله قوى ، لابد أن يصيب هدفه . كذلك الدعاء متى كان صادراً من قلب عامر بإخلاص وبتضرع ، وكان الداعى جسمه من حلال ، وليس فى الدعاء قطيعة رحم ، لابد أن يقبل الله دعاءه ، وهو يمنع السبب أو يمنع التأثير كالرقى .

ومن هذا تبطل مزاعم هؤلاء الذين يصلون نسبهم بنسب الرسول ، ويجعلون هذا الاتصال شفيعاً لهم عند ربهم ، أو يدفع عنهم عذاب الله إذا عصوه ، فلا لحمة النسب ولا صلة المصاهرة ولا اتصال الأبوة ولا الزوجية تنفع . وهذه آيات التحريم تقطع أطماع من ركب رأسه ، ورجا أن ينفعه صلاح غيره .

« ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[١] » .

فهذه الآيات تثبت أن صلة الزوجية التى كانت بين المؤمنين والكافرين لم تنفعهم ، وصلة نوح لابنه لم تدفع عنه الغرق ، وصلة خليل الله إبراهيم بأبيه لم تشفع له ، وهكذا .

أما الشفاعة فنوعان : شفاعة فى الدنيا وهى جائزة فى غير حدود الله تعالى ، وكان الرسول ﷺ إذا جاءه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال : « اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَاشَاءَ[٢] » . أما شفاعة الآخرة فهى ثابتة للرسول ﷺ فى انصراف الناس جميعاً من الموقف إلى جزائهم ، فإن كل نبى من الأنبياء يعتذر إلا نبى الإسلام ، فإنه يسجد لله فيصدر الإذن الإلهى له فى أن

---

(١) التحريم الآيات : ١٠ ، ١١ (٢) رياض الصالحين للنووى .

شفع ، إذ هذه الشفاعة مصدرها الله ، ولذلك لايصح أن يقول الإنسان يارسول الله أسألك الشفاعة وإنما يقول : « اللهم شفِّع النبي فىّ » . قال تعالى : « قُلْ لِلّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً[(١)] » « وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِى السَّمٰوَاتِ لَاتُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى[(٢)] » . « وَاتَّقُوا يَوْماً لَاتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَايُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَايُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَاهُمْ يُنْصَرُونَ[(٣)] » .

المنفى فى هذه الآية الشفاعة الشركية . أما الشفاعة الجزئية فإنها لاتجلب نفعاً غير مستحق ، ولا ترفع ذنباً يستحق صاحبه العقاب تحقيقاً للعدل الإلهى وتصديقاً لقول الله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[(٤)] » وهى لاتكون إلا بعد أن تستوفى كل نفس ماتستحق من جزاء ما كسبت يدها ، ولايؤذن فيها قبل أن يذوقوا العذاب بما كانوا يفسدون .

هذا وقد ثبت أن أعمال الكافر الصالحة تنفعه فى الدنيا وتخفف عنه عذاب الله فى الآخرة ، من ذلك قوله ﷺ : « ما أحسنَ من محسنٍ مسلمٍ ولا كافرٍ إلاَّ أُثيبَ » قلنا يارسول الله : هذه إثابةُ المسلمِ قد عرفناها ، فما إثابةُ الكافرِ ؟ قال : « إذا تَصَدَّقَ بصدقةٍ أو وَصِلَ رَحِماً أو عَمِلَ حسنةً أثابهُ اللهُ ، وإثابتُه المالُ والولدُ فى الدنيا ، وعذابٌ دون عذابٍ فى الآخرةِ » ثم قرأ قوله تعالى : «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» رواه البزار عن عبدالله ابن مسعود فى مجمع الزوائد . وأخرج أيضاً ابن جرير بسنده فى آية « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »أن النبى ﷺ قال :

---

(١) الزمر الآية : ٤٤ (٢) النجم الآية : ٢٦ (٣) البقرة الآية : ٤٨ .

(٤) الزلزلة الآية : ٧ ، ٨ .

« ما أَحْسَنَ من مُحْسنٍ مؤمنٍ أوكافرٍ إلا وَقَعَ ثوابُه عَلَى اللهِ فى عاجِلِ دنياهُ وآجِلِ آخرتِه» . وفى البخارى عن العباس بن عبدالمطلب رضىالله عنه قال يارسول الله : هل نفعتَ أبا طالب بشىء فإنه كان يحوطك و يغضب لك ؟ قال : « نعم هو فى ضَحْضاحٍ[(١)] من نارٍ ولولا أنا لـكان فى الدَّرْكِ الأسفلِ من النار » .

ولايفوتنا أن نذكر أن استغفار النبى لعمه والخليل إبراهيم لأبيه إنما كان قبل أن ينهاهما الله تعالى . قال تعالى فى سورة التوبة : « ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۞ وما كانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ[(٢)] » .

والدعاء للكافر فى حياته بالهداية جائز . فإذا تحقق موته على الكفر فلا يجوز كما جاء فى القرآن الـكريم : « وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ[(٣)] » .

الدليل على أن التوسل بدعاء الحى جائز أنه يملك الدعاء بخلاف الميت وهذا داخل فى الأسباب والمسببات ، وقد صح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : استأذنت النبى ﷺ فى العُمرة ، فأَذِنَ لى وقال : « لاَ تَنْسَنَا يا أُخَيَّ من دُعَائِكَ » فقال كلمة مايسرنى أن لى بها الدنيا . وفى رواية قال : «أَشْرِكْنَا ياأُخَيَّ فى دُعَائِكَ » صححه أبو داود من رياض الصالحين . وقول الله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ[(٤)]) الآية ليست حجة .

فقد اتفق علمـاء التفسير أن هذه الآيات نزلت فى حادثة ، تتلخص فى أنه

---

(١) الضحضاح الفتح : مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الـكعبين .

(٢) التوبة الآيات : ١١٣ ، ١١٤ (٣) التوبة الآية : ٨٤ (٤) النساء الآية : ٦٤

اختصم يهودى ومنافق ، فاحتكم المنافق إلى كعب بن الأشرف ، واحتكم اليهودى إلى النبى ﷺ ، فقضى الرسول لليهودى ، فلم يرض المنافق ، وأتيا عمر فذكر له اليهودى ذلك ، فقال عمر للمنافق أكذلك ؟ فقال نعم ، فقتله فنزلت هذه الآيات :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ومَاأُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَاأَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَافِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً * وَمَاأَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً[1] » .

فقه الآية : أن هؤلاء المنافقين الذين تحاكموا إلى الطاغوت — وهو كعب بن الأشرف — جاءوك يا محمد تائبين من رضاهم بحكم غير حكمك فاستغفروا الله من هذا الذنب واستغفرت لهم يا محمد ، يقبل الله توبتهم .

فما يقوله البعض من أن الآية عامة تشمل حياة الرسول فى الدنيا ، وبعد أن جاور ربه ليس عليه دليل بل الدليل قام عليهم كما ذكرنا فى أن الصحابة كانوا يستسقون بدعاء الرسول لهم ، فلما انتقل من الحياة الدنيا لم يذهبوا إلى قبره ليستسقوا بدعائه بل اختاروا العباس فكان يدعو لهم وهم يؤمنون على دعائه .

كذلك حديث الأعمى الذى رواه الترمذى والحاكم وابن ماجه عن عمران بن

(١) النساء الآيات : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

حصين رضى الله عنه فإنه داخل فى دعاء الحى لأن لفظ الحديث أنه قال : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى اللهم شفعه فىّ » .

صريح الحديث أنه يسأل الله تعالى و يتوجه إليه بدعاء نبيه ، الدليل على ذلك أن النبي كان يدعو له عقب ذلك ، ثانياً قوله فى دعائه : «اللهم شفعه فىّ » .

و بدهى أن معنى شفعه فىّ : اقبل دعاءه يارب لى فهو دليل قاطع على العمل بالحديث فى حياته ﷺ على أن الحديث فى ثبوته خلاف .

تفيد الآية الشريفة فى سورة الشورى وهى : « قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى » أن ما أبلغكم من الدعوة الإسلامية لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تؤدوا للقرابة حقها ، وحق القرابة عدم الإيذاء .

بهذا التفسير يستقيم المعنى عقلا ونقلا .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه لم يكن بطن من قريش إلا فيه لرسول الله ﷺ منهم قرابة ، فقال : «قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى»

صريح الآية : ألا أن تودونى فى القرابة التى بينى و بينكم ، يوضح هذا ما يأتى :

أولا — أنه سبحانه لم يقل إلا المودة لذوى القربى .

ثانياً — أن كل نبى لا يطلب أجراً على الدعوة وإنما أجره على الله ، فكيف بأفضل أنبيائه .

ثالثاً — أن الآية مكية ، ولم يكن على تزوج بالسيدة فاطمة حينذاك ، بل تزوجها فى السنة الثانية من الهجرة ، وأعقبت الحسن رضى الله عنه فى السنة الثالثة ، والحسين فى السنة والرابعة ، فهذا يبطل من فسر الآية بأن الآية نزلت فى على وفاطمة وابنيهما .

وعلى هذا لا يصح الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس

رضى الله عنهما : « لما نزلت هذه الآية ، قالوا يارسول الله : « من قرابتك التى وجبت علينا مودتهم ، قال : على وفاطمة وابناهما » .

هذا وإن من أعظم الآيات التى تنفى جميع أنواع الشرك هذه الآيات :

«قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فى السَّمٰوَاتِ وَلاَ فى الْأَرْضِ وَمَالَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ[1] عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ[2] » .

فقد قطعت الآيتان جميع طرق الشرك .

أولا — نفى الملكية . ثانياً — نفى الشرك . ثالثاً — نفى المعاونة والظهير . رابعاً — الشفاعة فنفاها فى قوله تعالى : « ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » .

(١) فزع عن قلوبهم : كشف عنها الفزع بالإذن فيها .
(٢) سورة سبأ الايات : ٢٢ ، ٢٣

الإسلام فى نظر المستشرقين

رأى اللورد استانلى

سئل اللورد استانلى : — لماذا أسلمت وقد كنت مغرقاً فى نصرانيتك ؟ فقال : أو أغمط الفضل وأهله ؟ أو أجحد الله وعلمه ؟ ولولاه لما كنت عالماً شيئاً ، فقيل : وما هذا الفضل الذى لايجحد ؟ فأجاب من فوره : لم يكن أبى وأمى مسلمين ، وكم أنا حزين لهذه الذكرى المؤلمة ؟ فليتهما نالا من شرف الإسلام مانال ولدهما . وقد نشأت نشأة تدعو إلى التفكير وحرية الرأى ، ولكنى كنت أكن للنصرانية فى نفسى أشد الحب ، وكنت مشرباً بحب العلم والعلماء ، فوقع مرة كتاب الله فى يدى ، فما اطلعت حتى ازددت رغبة فىالاطلاع ، وإمعاناً فى تلاوته ، وكانت لذة معانيه تنسينى كل ماقرأت ، لتبقى هىالطائلة علىماقرأت .

وما أفرغ من تلاوته حتي أرى مدد البكاء يهتاجنى ، والألم ينتابنى ، وكان الباعث على ذلك فى مبدأ الأمر مجهولا ، ولكن بالبحث واستقراء أنحاء نفسى بنفسى ، وجدت أن هذا الألم ناشىء عن تذكر ما أنا عليه ، فنفضت عن نفسى نقع التعصب ، وغبار القديم الممقوت ، والوراثة المزرية ، وأصبحت اليوم مسلماً لا كالمسلمين الذين أخذوا الدين عن أب وهم لايعرفون فيه إلا اسمه ، بل مسلماً لحماً ودماً .

أنا مسلم ورأيت عظم أثر الإسلام فى نفسى حق قدره ، وهو عندى عزيز ، لأنى رأيت الفرق بينه وبين الأديان المنسوخة ، ولأنى رضيت به بعد بحث وإجهاد ، فلا أقبل به بديلا .

أنا مسلم أهزأ بكل مايحيط بى من مظاهر المدنية ، فصحيحها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المذاع ، لايلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه .

رأى اللورد هدلى

إنى أستطيع أن أقول وأنا واثق من صحة قولى إن فى إنجلترا ألوفاً من الأشخاص الراقية مسلمين فى قلوبهم ، ولكنهم لا يسلمون بذلك جهاراً ، وقد حادثت أخيراً كثيراً من الناس فى هذه البلاد ، وشرحت لهم ماهية الإسلام ، فكان كل منهم يجيبنى قائلا : إذا كان هذا هو دينك فأنا إذاً مسلم لأن هذا ما أعتقده ، وما أفكر فيه .

وذلك الإسلام وتلك آياته الرائعة التى شهد بها حتى أعداؤه التى لا ينكرها إلا كل من رين على قلبه فحجبه الجحود أو التقليد عند درك حكمته ، والتعلق بأسبابها فراح يعيبه ، وما للاسلام عيب سواه .

مثل رائعة تحقق فيها روح الإسلام

الإسلام من أوله إلى آخره ، دعوة عامة إلى البسالة والجرأة ، والتضحية والاستهانة بالموت فى سبيل الحق . والقرآن يكرر هذا مرة بعد أخرى أليس يقول : « أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ[1] » . « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[2] » ويقول الرسول ﷺ : « خَيْرُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ فَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ » رواه الحاكم عن جابر رضى الله عنه .

وإليك مثالين مما كان عليه سلفنا الأولون : خطبت امرأة تسمى أم الخير خطبة تغرى الشعب بالالتفاف حول على بن أبى طالب وتنفر من معاوية ، وكان مما قالته : أيها الناس اتقوا ربكم . . . إن الله أوضح الحق وأبان السبيل . . . اللهم قد عيل صبرى ، وضعف اليقين وانتشرت الرغبة ، بيدك يارب أزمّة القلوب ، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى

(١) التوبة الآية : ١٣ (٢) آل عمران الآية : ١٧٣

أهله إلى أن قالت : يامعشر المهاجرين والأنصار قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، وكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة ، ولايدرى أن يسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعما قليل ليصبحن نادمين ، حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة ، ولات حين مناص . إنه والله من ضل عن الحق وقع فى الباطل ، ألا إن أولياء الله استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستبطئوا الآخرة فسعوا إليها ، فالله الله أيها الناس قبل أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود وتقوى كلمة الشيطان . فأين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ وأبى سبطيه ، خلق من طينته وتفرع من نبعته ، إلى أن قالت : صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون .

هذه كلمة امرأة تقولها على مرأى ومسمع من ولاة المسلمين الذين جعلوا الحكم فى الإسلام استبدادياً بدل الشورى التى أمر بها الإسلام ، ولم تبال ببطشه وصولة جنوده . إننا لانستطيع أن نعلل ذلك تعليلا صحيحاً إلابالإيمان الصحيح ، الإيمان بالله تعالى الذى عنت الوجوه لجلاله ، وقامت السموات والأرض بقدرته .

وقد جىء يوماً بحطيط الزيات أسيراً ، فلما دخل على الحجاج قال : أأنت حطيط ؟ قال : نعم سل مابدا لك ، فإنى عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال : إن سئلت لأصدقن ، وإن ابتليت لأصبرن ، وإن عوفيت لأشكرن ؛ قال : فما تقول فىّ ؟ قال : أقول إنك من أعداء الله فى الأرض تنتهك المحارم ، وتقتل بالظنة ؛ قال : فما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : أقول إنه أعظم جرماً منك ، وإنما أنت خطيئة من خطاياه .

فهذا الحجاج مع جبروته وغطرسته ، لم يمنع أحد المسلمين من إعلانه الحق .

قال أبو حازم التابعى الجليل لسليمان بن عبد الملك الخليفة الأموى : إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، إلى أن قال : وقد أخذ الله الميثاق على

العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه . قال سليمان : وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد ؟
قال : أن تأخذه من حله ، فتضعه فى حقه ، قال سليمان : ومن يقدر على ذلك ؟
فقال : من يطلب الجنة ويخاف من النار ، فقال سليمان : ادع لى ، فقال أبو حازم :
اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوك فخذ
بناصيته إلى ما تحب وترضى ، فقال سليمان : أوصنى وأوجز ، فقال أبو حازم عظم
ربك واحذره أن يراك حيث نهاك .

قال له : لماذا نكره الموت ونحب الدنيا ، قال : لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم
آخرتكم ، فأنتم لا تريدون أن تنتقلوا من دار العمار إلى دار الخراب ، قال له :
كيف القدوم على الله تعالى ، قال : المؤمن يقدم على الله تعالى كالذى طالت غيبته
عن أهله ، ثم قدم عليهم . والفاجر كالعبد الآبق الذى هرب من سيده وجىء
إليه مكبلا فى الحديد . انتهى بالمعنى .

وقال رضى الله عنه : إنى لأستحيي أن أعبد الله للثواب ، وخوفاً من العقاب
فأكون كالعبد السوء ، إن لم يخف لم يعمل أو كالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل .

هذه صفحة مجد وفخار فى تاريخ ولاة المسلمين فى صدر الإسلام ، وإنها
لجديرة أن يتدارسها الأجيال ليتخذ منها أبناء الجيل الجديد عظة نافعة ، وحكماً
نافعة .

صفحة أخرى ناصعة لم تدنسها الأحقاد ولم تلوثها الأهواء

كان أبو موسى الأشعرى أميراً على البصرة من قبل أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب رضى الله عنه ، وكان إذا خطب للجمعة أثنى على عمر رضى الله عنه دون
أبى بكر ، فأغضب ذلك ضبة بن محصن الفزارى .

وكان ضبة أحد زهاد البصرة وأتقيائها ، فتعرض لأبى موسى فى خطبته ،
فكتب أبو موسى إلى عمر يشكوه ، فطلب عمر إشخاصه إليه فأشخصه إليه .
فلما قدم إليه قال له ضبة : بم استحللت ياعمر إشخاصى من البصرة بلا ذنب

أذنبته ، ولا شيء أتيته ، فقال ماالذى شجر بينك و بين عاملى ؟ قال : الآن أخبرك به ، كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ، ثم أنشأ يدعو لك ، فغاظنى ذلك منه ، فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعاً — ثم كتب إليك يشكونى . فاندفع عمر باكياً وهو يقول : أنت والله أوفق وأرشد ، فهل أنت غافر لى ذنبى ، يغفر الله لك ، قال ضبة : غفر الله لك ياأمير المؤمنين ، ثم اندفع عمر باكياً وهو يقول : والله لليلة من أبى بكر و يوم ، خير من عمر وآل عمر . فهل لك أن أخبرك بليلته و يومه . قلت نعم ؟ قال : أما الليلة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هارباً من المشركين ليلة فتبعه أبو بكر فجعل يمشى مرة أمامه ، ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن يساره قال يارسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك لا آمن عليك ، فمشى رسول الله ﷺ على أطراف أصابعه حتى حفت ، فلما وصل إلى الغار قال أبو بكر : والذى بعثك بالحق لاتدخله حتى أدخله ، فإن كان فيه شيء نزل بى قبلك ، قال فدخل فلم ير فيه شيئاً ، فأدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يسد كل خرم خشية أن يتسرب فيه شيء يؤذى رسول الله ﷺ وأدرك رسول الله مايساور أبا بكر من القلق عليه ، فأخذ يخفف من قلقه وهو يقول : « ياأبابكر لاتحزن إن الله معنا » فهذه ليلته . وأما يومه ، فلما توفى رسول الله ﷺ ارتد بعض العرب ، فمنعوا الزكاة فهم بقتلهم ، فقلنا ياخليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم ، فقال أبو بكر أجبار فى الجاهلية ، خوار فى الإسلام ، فيم أتألفهم وقد قبض رسول الله ﷺ وارتفع الوحى ، فوالله لو منعونى عقالا[1] كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، قال : فقاتلنا عليه فكان والله رشيداً فهذا يومه » .

زهـــد الولاة

استعمل عمر بن الخطاب على حمص « عمير بن سعيد » فلما مضت السنة استدعاه

---

(١) العقال : حبل الجمل .

فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه عمير ماشياً حافياً ، حاملا عكازته بيده و إداوته ومزودته وقصعته على ظهره ، فلما نظر إليه عمر قال : ياعمير : أأجدبت البلاد أم بلاد سوء ؟ فقال : ولم ياأمير المؤمنين ؟ وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقُرابها . فقال له عمر : وما معك من الدنيا ؟ قال عكازة أتوكأ عليها ، وأدفع بها عدواً إن لقيته ، ومزود أحمل فيه طعامى ، و إداوة أحمل فيها ماء شرابى وطهورى ، فوالله ياأمير المؤمنين : ماالدنيا بعد إلا تبع لما معى ! فقام عمر إلى قبر الرسول ﷺ وقبر أبى بكر ، فبكى ساعة ورجع إلى عمير فقال : ماصنعت فى عملك ياعمير ؟ فقال : أخذت الإبل من أهل الإبل ، والجزية من أهل الجزية عن يد وهم صاغرون . . ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، ولو معى شىء لأحضرته إليك ، فقال له عمر : عد إلى عملك ياعمير ، فقال ياأمير المؤمنين : ناشدتك الله ألا رددتنى إلى أهلى ، فأذن له عمر ، وأرسل خلفه من يعرف جلية أمره ، و إذا المعيشة فى أهله خبز الشعير ، فدفع الرجل إلى عمير مائة دينار ، كان قد بعث بها عمر إليه فصرفها فى الحال فى إخوانه الفقراء ، فرجع الرقيب إلى عمر يقول : جئتك من عند أزهد الناس ، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير .

فكان عمير هذا صورة صادقة لزهد الولاة وحسن سياستهم فى الرعية ، وكان فى معاملته لعمر أفصح واعظ وأبلغ مذكر .

كذلك من صور الإسلام الجيدة التى كانت لأسلافنا رجل من بنى ربيعة ابن حنظلة يدعى أبا بلال وكان جندياً من جنود الإمام على كرم الله وجهه وكان فى طليعة الذين احترقوا فى نار الفتنة ، دخل الرجل السجن وكان صواماً قواماً فكان سجانه يشفق عليه فيتركه يبيت فى بيته ، حتى إذا أصبح الصباح جاء إلى السجن ولا رقيب عليه ولا شهيد إلا الله ثم نفسه . وفى ذات ليلة أصدر حاكم البصرة عبد الله بن زياد أمره بقتل جميع من فى سجنه من أمثال أبى بلال ، فانتهى إليه الخبر المزعج وهو فى بيته ، فوقف بلال حائراً بين عهده للسجان أن

يجىء إلى سجنه فيقضى عليه بالقتل ، أو ينقض عهده و يبقى على حياته و إرضاء أهله وعشيرته ، ولكنه ضرب من هذا كله صفحاً خيراً له أن يجىء يوم القيامة غادراً وله لواء يعرفه الناس به ، فيقولون هذا غدر أبى بلال . ثم مضى إلى سجنه فى طمأنينة المؤمن بربه وسلم نفسه ، فذهل سجانه ودهش ثم قال له : جئت وأنت تعلم أنك مقتول ؟ فقال أبو بلال : نعم ، إنك أحسنت إلى وليس جزاؤك أن أسىء إليك . هذا ولما تقدم أبو بلال لضرب عنقه أخذ السجان يقبل يد الأمير ليعفو عنه ويذكر ما كان لأبى بلال من وفاء وكمال ورجولة حتى عفا عنه الأمير . وتلك مكرمة يتضاءل أمامها كل ثناء وأكبر واعظ لمن يخلفون الميعاد .

حول المتشابه والمحكم

من البديهيات أن إدراكنا محدود ، وحواسنا مقصورة على عالم الماديات ، وما وراء ذلك غيب ، والغيب قد استأثر الله تعالى بعلمه ، قال سبحانه : « قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ [1] » .

فإذا ماجاءنا شىء من عالم الغيب من طريق الوحى الإلهى يجب الإيمان به ، لذلك جاء الكثير منها فى صور حسية ، لندرك منها فى عالمها ماندركه فى العالم المادى . فالإدراك الروحانى إذا تعلق بعالمه يَرى مايدركه منها الحس المادى فى عالمه . فمثلا كلام اليقظان يفتقر إلى هواء وفم ولسان وشفتين ، لأنه صوت هوائى ينبعث من قرع المخارج الحرفية للهواء فيها . وأما كلام النائم فلايحتاج إلى شىء من هذا ، فهو يخاطِب ويخاطَب ، ويجادل ، ويصبح حافظاً لهذا كله ، ولا يسمع اليقظان بجانبه شيئاً .

وعلى هذا فكل ماجاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف من الصفات التى يخالف ظاهر لفظها المراد منها ، فهى فى الحادث أعضاء كاليد والإصبع ، أو حركات أعضاء الصفات ، كالغضب والحب ، وفى الله ليست كذلك . فمثل

(١) النمل الآية : ٦٥

هذا كله لا يعلم تأويله إلا الله ، فإذا أضيف إليه سبحانه شيء من هذا الاستواء وغيره ، فإن لها معانى أخرى لا تستطيع العقول البشرية أن تدركها ، والبحث فيها يؤدى إلى زعزعة العقائد والشكوك . وكذلك عالم الآخرة ، فكل ماجاء فيه من المتشابه لا يعلم حقيقته إلا الله ، قال تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً[1] » .

فمثلا جاء فى وصف الجنة : (فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى[2] » .

وجاء فى وصف الملائكة : « أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ[3] » .

هل مثل هذه الأوصاف على حقيقتها كما فى الدنيا ، أم حقيقتها يعلمها الله تعالى ، وهى موجودة لا محالة والتلذذ بها أكثر . وعلى هذا فهى من المتشابه مثل الاستواء الذى جاء في سورة طه : « الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ » ، فاستواؤه سبحانه على عرشه بالمعنى الذى أراده من غير تكييف ولا تمثيل ، كما قال الإمام مالك لما سئل عن ذلك : (الاستواء معروف ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة) إذاً فليس استواؤه على عرشه كاستواء الملوك على عروشهم ، كما أن عرشه ليس كعروشهم ، ولا علوه على خلقه كعلو بعض الأجسام على بعض ، كما أنه ليس جسما مماثلا لهم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال الإمام أحمد : لا يوصف الله إلا بما وصف الله به نفسه ، أو وصفه رسول الله ﷺ لا نتجاوز القرآن والحديث . ومذهب السلف يصفون الله تعالى بذلك من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل . كذلك الفوقية : يؤمنون بها ، ويفوضون حقيقتها لله تعالى ، والمحذور فوقية المكان المعروف لنا ، الذى يستلزم الحيز والإحاطة والجرم والجهة ، لأن هذا من صفات الحوادث .

---

(١) الإسراء الآية : ٨٥ (٢) محمد الآية : ١٥ (٣) فاطر الآية : ١

وتوضيح ذلك أن العالم كله ليس له إلا جهتا العلو والسفل ، وأن الله تعالى بائن عن العالم ، ومن لوازم البينونة أن يكون فوقه لأن جميع جهات العالم فوق ، وليس السفل إلا المركز وهو الوسط ، ولا يستلزم هذا مشاركته فى خلقه ، قال تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » ، فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال . وصفات الكمال : إما إيجابية ، أو سلبية . فالثناء عليه بصفات الجلال والكمال صفات إيجابية ، ونفى الظلم والبخل مثلا صفات سلبية . فالثناء عليه بالمعنى الأول حمد و تعظيم ، و بالمعنى الثانى تسبيح و تنزيه . وكذلك من المتشابه بعض أسماء السور كالحواميم والطواسيم .

رب قائل يقول : مافائدة المتشابه ؟ الجواب أن صفات الله تعالى لا بد منها ، لأنها صفات كمال لا ينبغى أن تتجرد الذات العلية عنها .

وثانياً : أن الله أنزل المتشابه ليمتحن قلوبنا فى التصديق به ، فإنه لو كان كل ماورد فى الكتاب معقولا واضحاً لا شبهة فيه عند أحد من الأذكياء ولا البلداء ، لما كان فى الإيمان شىء من معنى الخضوع لأمر الله تعالى والتسليم لرسله ، ولما تميز صادق من كاذب ، ولا تفاوتت درجات الناس فى الثواب والعقاب .

ثالثاً : ليظهر عجز الإنسان حتى لا يستهدفه الغرور ، الذى يدعو إلى الزهو والاستكبار فيعرف قيمة نفسه .

هذا : وإن من الحماقة أن تقيس أعمال الله كأعمال العباد ، والله يقول : «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[1] » لأن عقولنا محدودة التفكير ، وأفعال الله سبحانه وراء الحدود والإدراك . والإيمان بكل ماتدركه عقولنا من علم الغيب الذى لا تتحقق العبودية إلا به ، أعنى التسليم والإذعان والانقياد والطاعة . وكذلك جعل صفات الله كصفات المخلوق . فمثلا للعبد قدرة وللخالق قدرة ، فقدرة الخالق مطلقة عن الحدود ، لا يتعاظمها شىء ولا يعجزها أحد .

---

(١) النحل الآية : ٧٤

وينتظم هذا كله فى قول الله تعالى : «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَايَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ[1]» .

ولقد وصف الله سبحانه الذين آمنوا به بأنهم راسخون فى العلم لأنهم ردوا المتشابه إلى المحكم وهو ما كان دليله واضحاً كدلائل التوحيد مثل : « اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » والآيات التى بينت الحلال والحرام والأمثال المضروبة للناس : قال ﷺ : « نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى خَمْسَةِ وُجُوهٍ : حَلَالٍ وَحَرَامٍ وَمُحْكَمٍ وَمُتَشَابِهٍ وَأَمْثَالٍ ، فَأَحِلُّوا الْحَلَالَ وَحَرِّمُوا الْحَرَامَ ، وَاعْمَلُوا بِالْمُحْكَمِ ، وَآمِنُوا بِالْمُتَشَابِهِ ، وَاعْتَبِرُوا بِالْأَمْثَالِ » .

فعقيدتنا عقيدة السلف الصالح لانحيد عنها . نسأل الله أن يميتنا ويحيينا عليها ، وأن يحشرنا فى زمرتهم . فالسلف والخلف متفقون على التنزيه أى تنزيه الله تعالى عما لايليق به من شئون المخلوقين ، ولكن التزم الأولون التفويض والتسليم وهذا أرجح ، والتزم الآخرون التأويل والتفهيم فيلزمهم التعطيل ، وإذا كان المحذور عند الخلف اتصاف الله تعالى بصفات البشر ؟ فالجواب عن ذلك إلزامهم بما اعترضوا عليه من مذهب السلف بأنهم لاينكرون صفات الحياة والسمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والكلام ، فإنها أعراض قائمة بأجسام ولا يؤولونها كما أولوا غيرها من الاستواء والفوقية وغيرها . فلماذا يفرقون بين هذه وتلك ؟ ترجيح من غير مرجح ، وحكم من غير دليل . على أن السلف لم يثبتوا لله صفات البشر — بل آمنوا بظواهر الآيات ، وفوضوا معناها إلى الله تعالى — يقولون آمنا بالفوقية والاستواء والنزول . . ولكنها ليست على مانفهمه من صفات البشر — (وآمنا به كل من عند ربنا ، ومايعلم تأويله إلا الله) .

---

(١) آل عمران الآية : ٧

تمهيد لبحث القضاء والقدر

قال سبحانه : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً[١]) .

و بعد — فقد تتابعت آيات القرآن الكريم ، وتضافرت تعاليم الأنبياء والمرسلين ، فى أن الإنسان أكرم الكائنات على الله تعالى . حباه سبحانه بالعقل والتفكير ، وخلقه فى أحسن تقويم ، وسخر له جميع خلقه ، واستخلفه فى أرضه ، وأمر الملائكة أن تسجد له ، وجعل سعادته من نفسه ، وشقاوته من سوء فعله وقصده ، وفيه تعلقت أسماء الله الحسنى وصفاته العلى من عفوه ورحمته و إحسانه و إعزازه و إذلاله ، وما إلى ذلك من صفات الكمال والجلال . فلولا الإنسان لتعطلت إلهيته وربو بيته وعزته وحكمته ورحمته ، إذاً لابد من دار تقع فيها الإساءة والإحسان ، وتجرى على أهلها أحكام الصفات ، ثم يعقبها دار أخرى تُجزى فيها كل نفس بما كسبت ، صدق الله العظيم : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ[٢] » وأى مخلوق من المخلوقات أعطى ما أعطاه الإنسان من قدرة كاملة و إرادة تامة وتفكير سديد ونظر فى عواقب الأمور ؟ أليس هو الذى جَلَّى آياته تعالى من أصدافها وأظهرها من مكامنها حتى استطاع أن يشق الجبال و يعبر المحيطات و يطير فى الهواء و يستعمر الجو والبحار ، إن هى إلا آية الله الكبرى .

وهاهو ذا القرآن الكريم يجلى ذلك فى أروع أسلوب حينما أمر الملائكة بالسجود وتوعد من تخلف عن ذلك شر وعيد ، وسجل عليه الشقاء أبد الآبدين ، قال سبحانه: « إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ[٣] * فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ[٣] *

(١) الإسراء الآية : ٧٠ (٢) المؤمنون الآيات : ١١٥ ، ١١٦

(٣) يراد بالسجود والله أعلم الخضوع لاسجود عبادة ، فإن سجود العبادة لله وحده .

إلا إبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الْكافِرِينَ * قَالَ يَا إبْلِيسُ مَامَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَأَنْتَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ[1] » .

فأمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم وخطابه لإبليس « مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى » لينبئان بأن الإنسان أشرف ماأقواته أرض وأظلته سماء ، وكأن ماسواه خلقه بيد واحدة . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وعقيدتنا فى مثل هذا التفويض أن يد الله تعالى ليست كيدنا فهى من المتشابه الذى لايعلم تأويله إلا الله وحده ، وإن كان يجب الإيمان به كما عليه سلف الأمة «الذين يقولون آمنا به كل من عند ربنا» كما تقدم فى المتشابه والمحكم . « رَبَّنَا لاَتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إذ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ[2] » .

ومن رعاية الله تعالى بالإنسان أنه أرسل إليه الرسل حتى لا تقبل له معذرة باتباع الآباء « أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ[3] » « وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى[4] » لهذا قامت حجة الله على المكلفين أجمعين .

ولايفوتنا أن نذكر أن خلق الله تعالى لا يكون شراً بحتاً ، ولاشراً يغلب على الخير ، أو يستوى فيه الأمران ، لأنه حكيم بالغ الحكمة . ومن أخص حكمته أن يخلق الشىء للخير البحت كالملائكة والرسل ، أو يكون الخير فيه أكثر من

---

(١) ص الآيات : من ٧١ إلى ٧٨ (٢) آل عمران الآية : ٨
(٣) الأعراف الآية : ١٧٣ (٤) طه الآية : ١٣٤

الشر كالإنسان والمطر والشمس والنار فنفعها أقرب من ضرها ، وخيرها أكثر من شرها ، وقد فطر الله الإنسان على الخير ، وما نراه من جموح إلى الشر إنما كان من فساد الفطرة ، وفسادها له أسباب كثيرة منها البيئية التي فيها درج ، والعشيرة التي فيها نشأ فيصبح متأثراً بعادات قومه ويراها حسنة مهما كان فيها من الرذائل . فأنت ترى من هذا أن تحسينه للقبيح لم يكن من فطرته ، وإنما كان بتقليده الآباء ، واندفاعه في أعقاب الشهوات كما قال ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ[1] » وفي القرآن الكريم الأدلة الواضحة على أن الشر لا يدخل في صفات الله تعالى ولا في أفعاله ، وكذلك في السنة الصحيحة ، من ذلك قول الله تعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[2] » .

وقد صح في الحديث النبوي أن الله تعالى يخاطب أهل الجنة : « يا أهل الجنة فيقولون : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، إلى أن يقول لهم : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً » .

وفي رواية زيادة : « والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ » .

رب معترض يعترض بحديث البخاري الذي رواه أبو هريرة وهو أن الرسول ﷺ كان يقول : « تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ وَدَرَكِ الشَّقَاءِ وَسُوءِ الْقَضَاءِ وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ » والجواب : أن التعوذ من سوء القضاء يراد به المقضى لا القضاء نفسه ، فإن قضاء الله تعالى كله حكمة وخير ، وإنما الشر على المقضى عليه ، كما أنه سبحانه من أسمائه الحسنى الضار ، فإن الضرر بالنسبة للمخلوقين لا الخالق ، والأمثال في ذلك كثيرة منها خلق الشيطان ، فإن الله خلقه ليعبده كإخوانه من الجن ، ولكنه تمرد على ربه وخرج على فطرته ، كعصاة المؤمنين ، قال سبحانه : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[3] » . يؤيد ذلك قول الله تعالى :

(١) الحديث تقدم بتمامه (٢) آل عمران الآية : ٢٦ (٣) الذاريات الآية : ٥٥

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً[1]» .

ومن الأمثال أيضاً الحشرات الضارة ، والسباع المتوحشة ، فإنها خلق من خلق الله تعالى ، فإذا ماعدت على غيرها فليس ذلك طبعاً لها ، ولكن لتزيل من ألم الجوع ، كالشريرين من الإنس والجن ، إذ أنها تدافع عن نفسها .

فالإنسان يسرق ليدفع عن نفسه غائلة الجوع ، ويتعدى على الغير ليأخذ ثأره ، أو يدفع الضرر عن نفسه ، قال تعالى : «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ[2]» .

القدر محقق لاختيار العبد لاسالب له

قال الله سبحانه : «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ[3]» .

عناصر الموضوع

(أولا) القدر المأخوذ فى تعريف الإيمان .

(ثانياً) القدر بالنسبة لأعمال الإنسان .

(ثالثاً) الأدلة على أن العبد مختار ظاهراً وباطناً فيما أمر به ونهى عنه وكان فى منطقة القدرة البشرية .

(رابعاً) إسناد الفعل للعبد ليس إشراكاً .

(خامساً) النعم والمصائب من الله .

---

(١) الكهف الآية : ٥٠ (٢) الأنعام الآية : ٣٨ (٣) الكهف الآية : ٢٩

(سادساً) الطاعات والمعاصى من العباد .

(سابعاً) الكتابة فى اللوح المحفوظ نتيجة علم واكتشاف لاصفة تأثير .

(ثامناً) لطول العمر ونقصه أسباب .

التفصـــــيل

القدر المأخوذ فى تعريف الإيمان هو : النظام الذى جرت به سنن الله تعالى فى التكوين والتدبير ، والأسباب والمسببات كما قال سبحانه : «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(١)» . وأما القدر بالنسبة للإنسان فمعناه أنه خلقه بإرادة وحرية واختيار فيما كلفه به سبحانه من أعمال الخير والبعد عن أعمال الشر ، وهذا هو موضوع البحث .

بدهى أن لله فى خلقه أمراً ونهياً وإرشاداً وتكليفاً ، إذ لو لم يكن لله فى خلقه شىء من هذا لما كان للإيمان به أية فائدة بل يكون الإيمان به بمنزلة العلم بقانون رياضى وناموس طبيعى ، لايمس مصلحة الإنسان لا فى قليل ولا فى كثير .

هذا ولما كان مقتضى هذه التكاليف استقلال العباد بأعمالهم ، وأنها صادرة بمحض اختيارهم ، ومقتضى أن كل شىء لايخرج عن نطاق قدرة الله تعالى ، أن العباد ليسوا مختارين ، وهذا ما أهاب بى إلى بحث هذا الموضوع الخطير وتمحيصه على أصول العقل والدين ، والعكوف على دراسته ردحاً من الزمن ، جاعلا كتاب الله مرشداً ، وأحاديث الرسول ﷺ الصحيحة مؤيدة ، مستأنساً بآراء فلاسفة الإسلام ، حتى هديت إلى عقيدة ، تطمئن إليها النفس ، وتقر بها العين ، تلكم هى : أن كل عمل كلف به الإنسان من أمر ونهى وسعى فى هذه الحياة ، ينسب إلى صاحبه ظاهراً وباطناً ، وناشىء بمحض اختياره وليس مجبوراً عليه ولامقهوراً . فأداء الفرائض والتفريط فيها من أعمال العباد دليل ذلك مايأتى :

أولا — النصوص الواردة فى القرآن الكريم ، والتى استفاضت بها كتب

---

(١) القمر الآية ٤٩ .

السنة الصحيحة الثابتة التى لاتناقض القرآن الكريم ، ولا العقل السليم ، وإنما قيدنا السنة بذلك ، لأن فى الباب إحاديث وإن كانت صحيحة السند إلا أنها من خبر الآحاد الذى لايفيد إلا الظن والدليل الظنى لايكفى فى العقائد ، إذ أن العقائد تستند على اليقينيات ، وموضوعنا فى العقائد ، لا فى الأحكام ، فإن كانت عبادة ، فإنها تعتمد على النصوص ، وإن كانت معاملات ، فإنها تعتمد فى الأوامر على المصلحة الراجحة ، وفى النواهى على المفسدة الراجحة . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه : ومانقل عن الصحابة نقلا صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن التابعين ، وكل ذلك فيمالا يتعلق بأمر يحتاج فيه إلى اليقين .

ثانياً : شعور الإنسان ووجدانه لحينما يهم بفعل شىء لايجد ضاغطاً عليه .

ثالثاً : الآثار التى ضاقت بها الأرض بما رحبت ، حتى استعمرت الجو والسماء ، فمن ذا الذى ينكر أن هذا كله من عمل الإنسان ؟ لاينكر ذلك إلا من أهدر عقله ، ووأد فكره .

وهذه العقيدة لاتنقض عقيدة التوحيد ، ما دام الإنسان يؤمن بأن قدرة العبد مخلوقة لله ، وأنه سبحانه هو الذى وهب له العقل ، وملكة التفكير والحرية المطلقة ، إذاً لاخوف على العقيدة ، ولا حرج فى أن هذه الأعمال هى للناس إيجاداً وخلقاً ، وأى شخص عنده مسكة من العقل يسمع آيات الوعيد التى تنذر المخالفين لأمره سبحانه بنار الجحيم وعذاب السعير ، ثم يحكم هذا الحكم الخاطىء بأن العباد ليس لهم من أعمالهم إلا الاختيار فقط أو نوع من الاختيار ، أما الأعمال فهى لله تعالى إيجاداً ، إن هذه سبة تجافى العقل البشرى وعدم تقدير لله حق قدره إذ أن من أخص صفاته تعالى أنه حكيم . وهل من الحكمة أن يحاسب المغلوب على أمره المقهور . كذلك من صفاته تعالى الرحمة وأين رحمة الله فيمن عصاه من عباده وليس له من فعله سوى اختياره للشر ؟ وبدهى أن الاختيار وحده من غير أن يملك صاحبه العمل ، ليس فيه فائدة تذكر ، ولا تقوم حجة لله على عبده ،

واستمع لقول الله تعالى : « وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً(١) » .

هذا ولما وجد الجبريون ومن على شاكلتهم من الأشعريين الذين جعلوا العمل لله ، والعبد ليس له إلا نوع من الاختيار — لما وجدوا أن ذلك ينافى العدل الإلهى ، وأن بعثة الرسل ليس لها فائدة تذكر وقفوا حائرين ، كأنهم قيل لهم هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون . وقد رجع أبو الحسن الأشعرى أخيراً عن رأيه لأنها لا تتفق والعدل الإلهى . نعم إذا كان العدل من صفات الكمال للبشر ، أفلا يكون فى مبدع الوجود أولى وأجدر . إنها حقيقة مرة وعقبة كئود ، صدمت هؤلاء فلم يجدوا للخلاص منها سبيلا إلا بالرجوع عن هذه العقيدة الخاطئة ، ولا شرك فى ذلك مادام الإنسان يعتقد أن قدرة العبد وإرادته مخلوقتان لله تعالى ، ولا يلزم من خلقهما خلق أفعالهما ولقد ضربنا لهذا مثلا فى المقدمة . وما أشبه هؤلاء فى عقيدتهم بالذين حكى الله عنهم فى قوله تعالى فى سورة الأنعام : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ، قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(٢) » فقد جعلوا الْقَدَر حجة لهم على شركهم فلم يقبل الله تعالى منهم .

يريد الله سبحانه من قوله : « فلو شاء لهداكم أجمعين » أنه صاحب النفوذ والسلطان الأعلى ، لو أراد أن يهدى الناس جميعاً لما وجد مانعاً يمنعه ولا معقب لحكمه ، ولكنه لم يفعل ذلك ، بل تركهم لمحض إرادتهم ، وخلى بينهم وبين

---

(١) الكهف الآية : ٢٩ (٢) الأنعام الآيات : ١٤٨ ، ١٤٩

العمل لتكون عبادتهم عن اختيار لا عن كره و إجبار . يوضح ذلك قول الله تعالى : « وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ[1] » . فلو فعل ذلك لانخرط النوع الإنسانى فى سلك الملائكة المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون مايؤمرون .

و إذاً سيعطل الوجود من هذا النوع الذى يعبد الله مختاراً ، والذى تحققت فى خلقه صفات الله تعالى من رحمته وعفوه وانتقامه ، ولتخلفت حلقة من سلسلة الكائنات الثلاث الحية المتممة لجمال الوجود وهى : عالم روحانى وهم الملائكة ، وعالم أرضى : وهو عالم الحيوان ، وعالم جمع بين الاثنين : وهو الإنسان .

و بدهى أن تنوع الموجودات فيه إبداع وكمال ، فالقدر محقق لاختيار العبد لا سالب له ، وجحوده معرة العقل البشرى وسبة الفكر الإنسانى ، ويخطىء من يظن أن اختيار العبد وكسبه لأعماله إشراك ، إذ أن الإشراك بالله اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ماوهب ، وسلطاناً على ماخرج عن نطاق القدرة البشرية وتجاوز دائرة الأسباب المسخرة ، كخلق اللبن فى الضرع ، و إنبات الزرع من الأرض ، وتصوير الأجنة فى بطون أمهاتها ، والاستشفاء بغير الأدوية التى جعل الله أصولها فى الأرض ، وكالانتصار فى الحروب بغير إعداد العدة على العدو ، وكانتصار الرسول ﷺ فى غزوة بدر ، قال تعالى : « فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللهَ رَمَى » .

أما ما وراء ذلك من الأعمال التى فى متناول القدرة البشرية ، كالسعى فى طلب الرزق ، وتجنب مواطن الزلل ، والطاعات والمعاصى . فنسبتها للعبد ليس إشراكاً بل أمراً طبيعياً لاشبهة فيه عند أولى الفكر السليم والعقل الصحيح ، مادمنا نعتقد أن واهب القدرة والاختيار والعقل الذى يميز به بين الخير

(١) سورة محمد الآية : ٤

والشر هو الله تعالى ، والنصوص الدينية فى ذلك كثيرة من كلام الله وكلام رسوله ، وكلها تحث على العمل ، وتنفر من البطاله والكسل ، قال سبحانه : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ(١) » فيتحقق من هذا أن العبد مختار فى عمله ظاهراً و باطناً فيما كلف به ، بما أوتى من قدرة تامة و إرادة كاملة وعقل يميز به بين الخير والشر .

و إتماما للبحث أرانى مضطراً إلى ذكر الآيات والأحاديث التى ظاهرها يعارض عقيدة الاختيار ، لأن من الناس من يخطىء في فهمها ويضل عقله فى تأويلها ، فيخبط فيها خبط عشواء ، فيستدل بها على جبر العباد ، غافلا عن الآيات التى تستحث العزائم على الأخذ فى أسباب الحياة ، وتهيب بالفكر إلى التأمل فى خلق الله ، لتحفزه إلى العمل ، فيسخر موارد الطبيعة و يستخدمها فى تذليل سبل الحياة وتخفيف عبئها ، و يستدل بها على عظمة خالقها ، ناسياً أن كلام الله محكم لا يضرب بعضه بعضاً ، و إنما يصدق بعضه بعضاً ، تلك الآيات : الأولى فى سورة النساء : « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَا لِهٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً » .

الثانية من سورة الصافات : « وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(٢) » .

الثالثة من سورة الشمس : « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٣) » .

الرابعة من سورة الأنفال : (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى(٤)) .

الخامسة من سورة التكوير : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٥) » .

---

(١) الكهف الآية : ٢٩ (٢) الصافات الآية : ٩٦ (٣) الشمس الآية : ٨
(٤) الأنفال الآية : ١٧ (٥) التكوير الآية : ٢٩

الجواب

الآية الأولى واردة فى أعمال الله ، وهى النعم والنقم ، فهى من قدر الله وقضائه لا من أعمال العباد التى هى الطاعات والمعاصى .

فالفرق شاسع بين النعم والمصائب ، والطاعات والمعاصى : فالأوليان من الله خلقاً و إيجاداً ، والأخريان من العبد إيجاداً واختياراً . يوضح ذلك أن الآية الأولى سيقت للرد على اليهود الذين يتطيرون و يتشاءمون ، إذا رأوا نعمة فرحوا بها ونسبوها إلى الله خالقهم : كرغد العيش و إنزال الغيث وجمال الصحة ، وما إلى ذلك من الخيرات ، و إذا مسهم الضر من قحط وجدب وانقطاع مطر وو باء عام نسبوا ذلك إلى الرسول وقالوا إن هذا الشر الذى لحقهم هو منه و بشؤمه ، لذلك رد الله عليهم قولهم وخطأهم فى زعمهم فقال : « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَا لِهٰؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَيَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً » يريد الله عز وجل أن المصائب التى تصيبهم إنما هى من الله كالنعم التى ينعم عليهم بها ، فالتفرقة بينهما خطأ وضلال . فالآية بعيدة كل البعد عن التكاليف التى كلف الله بها عباده . والأعمال التى تتعلق بشئون دنياهم كما قررنا ، فمنطوق هذه الآيات أن الخير والشر و بعبارة أخرى أن النعم والمصائب مصدرها الله تعالى ، لا كما يزعمه اليهود أعداء الله من أن الخير من الله تعالى ، والشر من الرسول ﷺ ؛ فلا دخل لأعمال العباد فى الآية وهى قوله تعالى : « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ » وقوله تعالى : « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ[1] » .

هاتان الآيتان تنبئان عن سنة من سنن الله تعالى التى لا تتبدل ، وهى أن الحسنات التى هى النعم بمحض فضل الله تعالى ، كالعافية والرزق و إنزال الكتب وإرسال الرسل ، والحياة والسمع والبصر والأفئدة . كل ذلك من نعم الله تعالى

---

(١) النساء الآية : ٧٩

ليس للعبد فيها أى أثر ، فجميع ما يتقلب فيه العباد من خيرى الدنيا والآخرة هو نعم محضة بلا سبب سابق يوجب لهم ذلك من غير حول منهم ولا قوة ، وأما السيئات التى هى المصائب فلاتنفك عن أسباب من العباد ، يوضح ذلك فى الأول قوله تعالى : « وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ، فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١) » نعم استبقاؤها يكون بالشكر ، قال تعالى : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » . وفى الثانى قوله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(٢) » أضف إلى ذلك أن الوجود قام على الحق ، والمعاصى خروج عن الحق ، فكل من خرج عليه ، وعن الأوضاع التى أقام الله عليها الوجود ، ثار الوجود عليه ففضحه وكشفه . فما من ساعة تمر علينا إلا ولله فيها قصاص عاجل لما وقعنا فيه ، نتيجة طبيعية فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر .

فالتبذير : يعقبه الإفلاس ، والقمار مجلبة للخراب ، والبخل حرمان من المال ، والظلم عاقبته الهلاك ، وتناول المكيفات موجب لاعتلال الأجسام ونقص فى الآجال ، وإهمال الأولاد سببها عقوق الآباء والأمهات ، وإرخاء العنان للمرأة فى الخروج عن حد الاعتدال يحملها على التمرد والفساد ، والزنا يجلب على صاحبه المرض الفتاك . . وهكذا .

وتارة تكون المصائب امتحاناً من الله تعالى لعباده ، كما قال سبحانه : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣) » .

قال الشيخ تقى الدين : من تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن ينزل بهم من الشدة والضر مايلجئهم إلى توحيده ، فيدعونه مخلصين له الدين ، ويرجونه

(١) الحجرات الآية : ٧٧ (٢) الشورى الآية : ٣٠ (٣) العنكبوت الآيات : ٢ ، ٣

لا يرجون أحداً سواه ، فتتعلق قلوبهم به لا بغيره ، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه وحلاوة الإيمان وذوق طعمه ، والبراءة من الشرك ماهو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف أو الجدب والضر .

ومايحصل لأهل التوحيد المخلصين له الدين ، فأعظم من أن يعبر عنه مقال : ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه ، قال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ بَارَكَ اللهُ لِرَجُلٍ فِى حَاجَةٍ أَكْثَرَ الدُّعَاءَ فِيهَا أُعْطِيَهَا أَوْ مُنِعَهَا[٢] » للبيهقى فى شعب الإيمان عن جابر .

وطوراً تكون المصائب انتقاماً من الله تعالى : لمخالفة العبد أمر ربه كمعصية آدم من أكل الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها ، فأكله من الشجرة معصية ، وخروجه من الجنة مصيبة جزاء عصيانه .

ومن هنا يعلم أن محاجة آدم لموسى فى خروجه من الجنة كانت من سؤال موسى لآدم ، إذ أنه سأله عن الخروج من الجنة الذى هو من الله ، ولو سأله عن الأكل من الشجرة وهو المعصية لحج موسى آدم ، لأن المعصية من فعله نفسه ، وأما الإخراج وهو المصيبة فهو من الله تعالى .

كما أنها تكون لمحو الذنوب وتطهير القلوب من رجس المعاصى ، وقد جاء فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مايُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » .

والحكمة العامة فى ذلك : إنها مربية للنفوس ، وتمرنها على احتمال الشدائد والصبر الجميل ، وتحمل على الأناة والرزانة والصبر على المكاره ، فتبلغ بصاحبها إلى أعلى درجات الكمال و بلوغ الغايات .

لذلك نجد الرجال الأمجاد الذين غيروا مجرى التاريخ وانتفعت الدنيا بمواهبهم

هم أشد الناس معاناة للشدائد فى حياتهم ، وما كان ربك ليبتليهم لولا أن حكمته اقتضت أن يجعل هذه المصائب وسائل إلى بلوغ مجدهم وخدمة أممهم وأوطانهم قال سبحانه فى سورة البقرة : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ[1] » .

ومن المصائب مايدق ويخفى فإن عقول البشر أقصر فى هذه الحالات من إدراك كنه إرادة الله وحكمته ورحمته فقد يكون السبب فيها حكمة بعيدة لا يعلمها إلا الله كما ترمى إليه قصة الخضر مع سيدنا موسى .

الآية الثانية : « والله خلقكم وما تعلمون[2] » يحكى القرآن الكريم ماقاله إبراهيم لقومه الذين عبدوا الأصنام فقال : « أتعبدون ماتنحتون » أتعبدون هذه الحجارة التى ليس فيها شيء من عناصر الحياة ، والله خالقكم وخالق هذه الأحجار التى صنعتم بها الأصنام . فالجدير بالعبادة خالقها ، إذ الآية واردة للتقريع والتبكيت كما هو سياقها وهذا هو المتعين فى الآية ، إذ لو فسرت بغير ذلك من أن الله تعالى خلق أعمالهم لكان صدر الآية وهو أتعبدون ماتنحتون مناقضاً لعجزها وهى : « والله خلقكم وماتعملون » وتعالى كلام الله أن يناقض بعضه بعضاً . وهل يصح فى نظر العقل أن يبكتهم نبيهم ويؤنبهم ، ثم يعتذر لهم بأنه خلق أعمالهم . هذاشيء بعيد عن الفكر السليم والعقل الصحيح .

الآية الثالثة : « فألهمها فجورها وتقواها[3] » ترجع إلى هداية التعليم والإرشاد ، التى جاءت على لسان الأنبياء والمرسلين .

الآية الرابعة : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى[4] » جاءت فى بيان

---

(١) البقرة الآية : ٢١٤ (٢) الصافات الآيات : ٩٥ ، ٩٦
(٣) الشمس الآية : ٨ (٤) الأنفال الآية : ١٧

الامتنان وإظهار فضل الله على رسوله ، فإنه لما اشتبك الفريقان المشركون والمسلمون فى غزوة بدر الكبرى أخذ حفنة من الحصا ورماها فى وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه . فعند ذلك وقع القوم فى اضطراب وسرعان ما دبت الهزيمة فى صفوفهم ، وما كان هذا التأثير البايغ من جانب الرسول لأن عمل الرسول محدود بل من الله ومعونته لإعزاز دينه ونصر رسوله وتحقيق وعده ، كذلك إسناد القتل لله فى صدر هذه الآية : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) إذ لو لم يكن هناك عون خاص من الله تعالى لما انتصر عليهم كما قال تعالى فى سورة غافر : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا[1] » . فهذه الآية لا تدل على الجبر وسلب عمل الشخص ، دليل ذلك أن الرمى نسب إلى الرسول أولا ، والتأثير العظيم لله ثانياً ؛ لأنه خارج عن قدرة البشر ، إذ ليس من المعقول أن حفنة من الحصا تؤثر هذا التأثير البايغ .

الآية الخامسة : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين[2] » ترمى هذه الآية إلى أن الله تعالى خلّى بين الإنسان والعمل ، إذ أنه من المحال أن يعمل الإنسان عملا كرهاً من الله تعالى ، فإنه يقدر أن يحول بين المرء وعمله ، ولكنه لا يفعل ذلك ، لأن فى هذا مخالفة للحكمة ، لأن الحكمة تقتضى أن يكون فى الوجود عالم مختار يسعد بحسن اختياره ، ويشقى بسوء قصده وقبح عمله . وتلك حكمة سامية حبا الله بها الإنسان وميزه عن سائر المخلوقات ، إذ أن طاعة المختار أحب إلى الله من طاعة المجبور الذى لا يجد فى تأديتها نصباً ولا إعياء ، كذلك فيه منافاة للعدالة الإلهية ، والدليل على ذلك صدر الآية : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ[3] » فقد نسبت المشيئة للإنسان فلا ينقض أول الآية آخرها ، ومثل ذلك قوله تعالى : « وما كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ[4] » .

---

(١) غافر الآية : ٥١ (٢) التكوير الآية : ٢٩
(٣) التكوير الآية : ٢٩ (٤) يونس الآية : ١٠٠

يريد الله عز وجل من هاتين الآيتين وما يماثلهما أنه لو شاء الله أن يحول بين المرء وعمله لفعل ، لأنه ليس لأحد سلطان عليه ، ولكنه خلى بين الإنسان وعمله حتى يقيم حجته على خلقه ؛ نعم قد يصرف الله العبد عن إرادته ويحوله عن اتجاهه فى أمور ولكنها نادرة وذلك لشئون خفية تتعلق بشئون الحياة العامة أو لمصلحة الشخص نفسه وهو يجهل عاقبتها ، والنادر لاحكم له فى باب العموميات ، ولهذا نهينا عن الخوض فى كل ماتخفى علينا حكمته .

وفى هذا يقول أبو الحسن الشاذلى قدس الله سره : وقد أبهمت علينا أمور لنرجو ونخاف ، فآمن خوفنا ولا تخيب رجاءنا .

كالمصائب التى تصيب الأفراد والجماعات ، لأن العقول البشرية أقصر من أن تدرك حقيقة الوجود وكنه إرادة الله تعالى ؛ فإثارتها تثير الشكوك فى القلوب ، وتزلزل العقائد ، وهذا ما كان يخشاه النبى المعصوم على أمته ، فقد وجد أصحابه يخوضون فى سر القدر ، أعنى لم كان هذا بصيراً وذاك أعمى ؟ ولم أعطى هذا ومنع ذاك ؟ وهكذا من طول الآجال وقصرها وجمال الخلق ودمامته ، فعندما سمع ذلك غضب وأقسم عليهم ألا يعودوا إلى مثل هذا .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب حتى احمر وجهه وقال : « أَبِهٰذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فى هٰذَا الْأَمْرِ ، عَزَمْتُ[1] عَلَيْكُمْ أَلَّا تَنَازَعُوا فِيهِ[2] »

وفى ذلك يقول عمر لمن سأله فى مثل هذا : طريق مظلم لا تسلكه ، كرر عليه السؤال فقال : بحر عميق لاتلجه ، كرر عليه السؤال فقال : سر الله قد خفى عليك فلا تفشه . فمثل هذا النهى إنما ينصب على السؤال عن نظام الله فى الحياة والموت وبسط الرزق وضيقه وهكذا ، لا على الكلام فى القدر نفسه .

---

(١) عزمت : أقسمت . (٢) للبغوى فى المصابيح .

لأن علماء الأمـة سلفها وخلفها تـكلموا فيه بإسهاب ، فلو كان النهى منصباً عليه لـكفوا عن بحثه والحـديث فيه . ولا يقدح فيما اخترناه سنن لله تعالى فى الإسعاد والإشقاء كقوله تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[1] » « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[2] » وهكذا فإن عدالة الله تعالى فى الآيات الشريفة بينت الأسباب التى من أجلها أزاغهم الله فى الأولى وهى : أن زاغوا باختيارهم وعدم هدايتهم فى الثانية وهو فسقهم والحيلولة بينهم وبين الإيمان فى الثانية وهما تماديهم فى عدم الاستجابة لله ولرسوله ، أما فى الإسعاد مثل قوله تعالى : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدًى[3] » . فهذه الآية وما يماثلها تبين بجلاء ووضوح أن هداية الله تعالى لهم سببها هدايتهم باختيارهم . قال تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى[4] » .

هذه الآيات تؤيد ماقلناه من أن الله تعالى يجازى من بدأ بفعل الخير خيراً ، ومن بدأ بفعل الشر شراً ، فالفعل الأول للشخص والثانى لله تعالى جزاء وفاقاً . يوضح ذلك حديث البخارى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى بقيع الغرقد فى جنازة فقال : « مامِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ » قالوا : يارسول الله ، أَفَلَا نَتَّكِلُ ؟ فقال : « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » ثم قرأ : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .

---

(١) الصف الآية : ٥ (٢) غافر الآية : ٣٥
(٣) محمد الآية : ١٧ (٤) الليل الآيات : من ٥ إلى ١٠

وأن أعمال العباد خيرها وشرها ، مدونة فى اللوح المحفوظ الذى هو برنامج الوجود ، فإن هذه الكتابة نتيجة علم وانكشاف مثال ذلك فى عالمنا « ولله المثل الأعلى » مايدونه الرئيس عما يبدو من مرءوسيه ، فتدوينه مستقى من الواقع المشهود ، فكذلك كتابة الله تعالى لأعمال العباد مأخوذة من الواقع ، ولا يقال إن كتابة الله سابقة على العمل لأن الله تعالى يستوى عنده الماضى والمستقبل والقريب والبعيد لأن الزمن مخلوق له ، فتبين من هذا أن الكتابة نتيجة للعلم ، والعلم صفة انكشاف فلا يسلب الاختيار والاستقلال فى الأعمال ، وكون مافى علم الله يقع لامحالة ، فإن الوقوع إنما جاء من حيث هو الواقع ولواقع لايتبدل ، فإنكشاف الواقع للعالم لايصح فى نظر العقل أن يكون ملزماً أو مانعاً ، فذلك قلب لسنة الله فى خلقه وتحريف لهديه فى شرعه ، وفى هذا المعنى يقول محمد بن سيرين : « أكان للناس عجباً أن علم الله من أمر العباد شيئاً فكتبه عليهم » . وهذه الكتابة من تمام نظام الله تعالى وكماله ، لأنه قد تقرر فى العقول البشرية أن ملوك الدنيا لابد أن تكون عندهم نسخة من أعمال رعاياهم مجملة ، فكيف بمالك الملاك وملك الملوك رب السموات والأرض ، وقد سأل عدو الله فرعون موسى بن عمران وأخاه هارون : « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى. قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى. قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى[1] » .

يريد فرعون : لماذا لم تجمع القرون الأولى على هذه العقيدة ، قال موسى علمها عند ربى فى كتاب » يريد أن أعمالهم أحصاها الله عنده فى كتاب وسيجازيهم عليها ، وكأنه توهم أن هذه الكتابة كتبها الله خشية النسيان ، فرد عليه موسى : لايضل ربى ولا ينسى ولا يفوتنا أن الكتابة نوعان إحداها فى اللوح المحفوظ المسمى بالإمام المبين ، ولا يطلع عليها إلا ملائكة الله المدبرون

(١) طه الآيات ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ .

لأمره . وثانيهما الكتابة التى يدونها الحفظة الكرام ، وحكمتها أن تقوم الحجة على المكلفين كما قال تعالى : « هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(١) » .

وهذه العقيدة هى التى ساقت المسلمين فى العصور الأولى إلى العمل الذى يكسبهم الرفعة والعزة والمجد والدعوة إلى الحق حتى شقت دعوتهم الجبال وعبرت المحيطات وتغلغلت فى أحشاء أوربا وأصبح أبناء البادية ورعاة الإبل ملوكا للعالم ، وبلادهم كعبة القصاد وقبلة الرواد ، يؤمها من تدفعه عوامل الحاجة العمرانية والاجتماعية والسياسية ، وبذلك تم لهم ما أرادوا من دنيا ودين .

هذا ولما جهل هذا الأصل المتأخرون قعدوا عن العمل اتكالا على القدر الذى جهلوه ، فاعتقدوا أنه سالب لاختيارهم ، وأن الأمور سائرة بقضاء الله وقدره ، وأن العبد مقهور على أمره ، مغلوب لاحول له ولا قوة ، أوله نوع اختيار لما كان ذلك أخذوا فى الانحطاط ، وطفق ظلهم يتقلص عن البلاد التى فتحوها حتى صاروا مسودين بعد أن كانوا سادة ، وعبيداً بعد أن كانوا أحراراً ؛ فوالله ما ظلمهم القدر ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

مما يتصل بهذا المقام أن قاتل النفس المحرمة قد قطع على المقتول أجله المسمى أعنى الأجل الطبيعى كالذى يقطع النبات قبل أن يبدو صلاحه . لهذا توعد الله الأول شر وعيد فقال سبحانه : «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً(٢)» .

ومدخلية الله تعالى فى هذا وذاك علمه بأن المقتول سينتهى أجله بالقتل ، ولا تنس أن العلم صفة انكشاف لا صفة تأثير ، وكذلك علمه بانقطاع النبات قبل أن يبدو صلاحه ، دليل ذلك من القرآن الكريم : ما حكاه الله عن نبيه

(١) الجاثية الآية : ٢٩ (٢) النساء الآية : ٩٣

نوح عليه وعلى نبينا أفضل صلاة وأتم سلام : « قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[١] » .

المعنى : أن نوحاً ينذرهم بأنهم إذا استمروا فى عنادهم ينزل عليهم عذاب الاستئصال فلايبقى ولايذر ، وأن هذا الأجل لايؤخر ، وإذا أطاعوه نجوا من العذاب الذى يقطع عليهم أجلهم ويؤخرهم إلى الأجل المسمى الطبيعى ، ومثل ذلك قول الله تعالى : « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ، وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ[٢] » فنقصان العمر هنا ليس له معنى إلا إذا كان فى العمر الطبيعى . ومن الذى ينكر أن الأمراض والقلق والخوف وقهر الأعداء وكل مايؤلم الإنسان ، كل هذا ينقص من العمر الطبيعى ويقرب من الأجل جرياً على سنن الأسباب والمسببات .

بهذا قامت حجة الله على المكلفين ، وتحقق العدل الإلهى بأجلى مظاهره . « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ[٣] » .

---

(١) نوح الآيات : ٢ ، ٣ ، ٤ (٢) فاطر الآية : ١١ (٣) الزخرف الآية : ٧٦

ابتلاء الله للعباد من كمال حكمته
ومقتضى حمده

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لاَ تَزَالُ الرِّيَاحُ تُفِيؤُهُ ، وَلاَ يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ بَلاَءٌ ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزِ لاَ تَهْتَزُّ حَتَّى تُسْتَحْصَدَ » رواه مسلم عن أبي هريرة .

إن الله سبحانه وتعالى يربى عبده على السراء والضراء ، ليستخرج منه عبوديته ، فليس عبد الله هو الذى إذا أصابته نعمة فرح بها ، وإذا مسه الضر انقلب على وجهه ، ولم يرض بقضائه . وإنما عبد الله هو الذى يصبر إذا ابتلى ، ويشكر إذا عوفى . قال صلى الله عليه وسلم : «يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِى دِينِهِ صَلاَبَةٌ زِيدَ فِى بَلاَئِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِى دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَلَيْهِ الْبَلاَء ، وَلاَ يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوِ الْمُؤْمِنَةِ فِى جَسَدِهِ وفِى مَالِهِ وفِى وَلَدِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ » صححه الترمذى .

فالبلاء كير المؤمن إما أن يخرج ذهباً وفضة أو يخرج خبثاً ، صححه الترمذى . قال عبد القادر ولعله الجيلانى : « يابنى المصيبة ماجاءت لتهلكك وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك » .

وهذا يوسف بن يعقوب ، وموسى بن عمران قد تتابع على الأول البلاء منذ نعومة أظفاره إلى أن صار شيخاً كبيراً . فمن فقده حنان الآباء وأحضان الأمهات ، ومن بيعه فى سوق الرقيق ، ومن اتهامه فى عرضه ، ومن زجه فى أحضان السجون ثم تلاشى هذا البلاء وأمحى واضمحلت فى جوانبها تلك المفاسد بالكلية حينما اعتلى عرش مصر ، وجمع الله له أمره وأقر عينيه بأبويه وأهله جميعاً .

كذلك كم فى قصة موسى من حكم بالغة ونعم سابغة ، فقد قتل فرعون الآلاف من أبناء اليهود خشية أن يفلت زمام الملك من يده ، وهو فى هذا

الوقت يربى من يسلبه ملكه ويخدمه حشمه ، ويأكل من مائدته ، وتأخذ أمه أجرها ، وترضعه بلبنها ، إن فى ذلك لعبرة لمن اعتبر . وهكذا يبتلى الله عباده المخلصين لالهوانهم عليه سبحانه ، وإنما لهوان الدنيا عليه .

ومن الجهل البين أن نعتبر البلاء بالمصائب نقمة ، بل تارة يكون نعمة إذا صبر العبد ، وتارة يكون نقمة إذا جزع ولم يرض بقضائه . قال تعالى : « فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(١) » « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ(٢) » « أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ(٣) » .

قال الشيخ تقى الدين : (من تمام نعمة الله تعالى على عباده المؤمنين أن ينزل بهم من الشدة والضر مايلجئهم إلى توحيده ، فيدعونه مخلصين له الدين ، ويرجونه لايرجون أحداً سواه . فتتعلق قلوبهم به لا بغيره ، فيحصل لهم من التوكل عليه ، والإنابة إليه ، وحلاوة الإيمان وذوق طعمه ، والبراءة من الشرك ، ماهو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض أو الخوف أو الضر .

وما يحصل لأهل التوحيد المخلصين إلى الدين فأعظم من أن يعبر عنه مقال ، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه ، ولهذا قيل : (يابن آدم لقد بورك لك فى حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك) . وما أحسن قول أبو حازم : (نِعَم الله علىّ فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمه علىّ فيما أعطانى منها ، إنى رأيته أعطاها قوماً فهلكوا ، وكل نعمة لاتقرب من الله فهى بلية ، وإذا رأيت الله تعالى يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره) .

---

(١) الفجر الآيات : ١٥ ، ١٦ (٢) الأنبياء الآية : ٣٥ (٣) البقرة : الآية ٢١٤

ومن فضل الله تعالى على الإنسان أن ركز فيه الخير وفطره عليه، لا على الشر، كما أن النعم بمحض فضله: كالعافية، والرزق، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، والحياة والسمع والبصر كل هذا ليس للعبد فيه أى أثر.

قال تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ[1]». وأما المصائب فأسبابها العباد. قال تعالى: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ[2]».

ورب قائل يقول: لماذا لم يجعل الله دنيانا مجردة من الهموم والآلام ويصفيها من الأكدار والأحزان، وهو على كل شيء قدير. نقول: إن الله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العليا فلا بد من دار تقع فيها الإساءة والإحسان، ويتعلق بأهلها أحكام هذه الصفات ثم يعقبها دار أخرى للجزاء، وإلا تعطلت فيه صفات الجلال والكمال. أليس من صفاته أنه هو المعز المذل الخافض الرافع القابض الباسط الحكم العدل العفو المنتقم الجبار.

فإذا تجرد الوجود عن عالم مختار يجزى فيه على الخير خيراً وعلى الشر شراً، فات متعلق هذه الصفات. على أن هذه الحياة الدنيا ليست هى منتهى مآلنا فى الوجود، بل هناك حياة أخرى إما دار نعيم مقيم، وإما عذاب أليم. وإذا كان المؤمن لا يفارقه البلاء، فإن مدة الابتلاء قصيرة مهما طالت، فإنها بالنسبة لدار الحيوان لا تعد شيئاً مذكوراً، فإن من أعظم الابتلاء مخالفة الطبع وداعى النفس، ومفارقة حكم الطبيعة. وكل ابتلاء يقابل بالصبر لابد أن ينتهى بالنصر، فأول الحياة ابتلاء «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً[3]» ووسطها صبر وتوكل، وآخرها هداية ونصر، وصدق الله إذ يقول:

---

(١) الحجرات الآية: ٧ (٢) الشورى الآية: ٣٠ (٣) الإنسان الآية: ٢

« أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ[1] » فهذه السورة هى سر الخلق كله وحياته .

الحياة الحقة

إن متعة الحياة الدنيا طعام وشراب ، وكساء ورياسة . وإن معظم المصائب التى تنتاب الإنسان متولدة منها ، وكلما أفرط الإنسان فى سبيل الوصول إليها زادت مصائبه وفقد طمأنينته ، لهذا نجد سكان البوادى أقل مصائب من سكان الحواضر ، واهدأ منهم بالا ، وأهنأ حالا قال قائلهم :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة　　كفانى ولم أطلب قليل من المال

يريد أن يقول إن سعادتى ليست بالتوسع فى المال ، وإنما بهدوء البال وطمأنينة النفس ، وقديماً قيل :

ليس من مات فاستراح بميْت　　إنما الميْت ميت الأحياء

إنما الميْت من يعيش كئيباً　　كاسفاً باله قليلُ الرجاء

فليس المال والسؤدد من معايير السعادة ، وإنما السعادة شعور فى القلب يمد صاحبه بالغبطة والسكينة وانشراح الصدر . فالذين يقيسون السعادة بالثروة واهمون . فكم من شخص ثرى وله فى الناس مكان ملحوظ ولكنه برم بالحياة دائم التشكى ، ظاهر التأفف ، أسير أوهام يتخطفه الخوف ، ويستبد به الجزع ، نفسه حرب عليه . إن هذا هو الشقاء الرجيم الذى لاتنفع فيه شفاعة الشافعين . ولقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم أصول السعادة فى الحديث الآتى : « مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فى سِرْبِهِ ، مُعَافًى فى جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » رواه ابن ماجه عن عبيد الله بن محصن .

---

(١) العنكبوت الآية : ٢ ، ٣

عقيدة المسلم
نحو المسيح عيسى عليه السلام

طلب إليّ ابن بار من أبناء إحدى الجامعات المصرية ، أن أبين موقف الإسلام من السيد المسيح عيسى ، وذكر أنه دار حوار عنيف بين ثلاثة من زملائه مسلم ويهودى ونصرانى نحو المسيح ، فقال المسلم : إن المسيح بشر مثلنا أرسل لبنى اسرائيل . وقال اليهودى : إنه ابن زنا . وقال النصرانى : إنه ابن الله لأنه جاء بكلمة الله لامن طريق المباشرة المعروفة فى البشرية ، وابن السيدة مريم لأنه خرج منها .

فأجبته بما يأتى : بنى العزيز . ألهمك الله الرشد والسداد وجنبك عثرة اللسان وليبارك الله لك فى الإيمان .

إن الإسلام يرى أن المسيح بشر كسائر الرسل ، بعثه الله تعالى لبنى إسرائيل ليجدد دين موسى كما جاء محمد ليجدد دين إبراهيم دليل الأول ماجاء عن عيسى: « ماجئت لأنقض الناموس الذى جاء به موسى ، ولكن جئت متمماً [(١)] » . ودليل الثانى قول الله تعالى : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [(٢)] » . فدعوة الرسل تهدف إلى توحيد الله تعالى وتحسين العلاقة بين الناس وربهم ، و بين بنى جنسهم . قال تعالى : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [(٣)] » .

---

(١) هذا الأثر روى بالمعنى (٢) النحل الآية ١٢٣ (٣) البقرة الآيات ١٣٠، ١٣١، ١٣٢

فدين الإسلام دين موسى وعيسى والأنبياء من قبل كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لايفرقون بين أحد من رسله ولم تختلف الشرائع إلا فى الفروع لاختلاف البيئات والعادات وقانون التطور .

هذا وقد جاء فى التاريخ الصحيح أن المسيح عيسى ولد فى عصر كثر فيه الإلحاد وطغى فيه الفساد ، وانحرف الكثيرون عن الإيمان بالله ، واعتقدوا أن العالم كله سماءه وأرضه بره وبحره ، خاضع لقانون طبيعى أزلى ، لاتغيير فيه ولاتبديل ، وليست هناك قوة غيبية وراء هذا العالم المادى كما يقوله الأنبياء ، فاقتضت إرادة الله تعالى أن تبطل مزاعمهم وتفند حجتهم بوجود عيسى من غير أب لتقوم الحجة عليهم بأن هناك قوة غيبية عظمى لها السلطان على المادة التى جعلوها إلههم ، والطبيعة ربهم .

فوجود عيسى من غير أب آية من آيات الله الكبرى وحجته على خلقه : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(١) »

هذا ولما استعظم قوم إيجاد المسيح من غير أب اتهموا أمه بالزنا فيه ، فبرأها الله مما قالوا بشهادته وهو فى المهد صبياً : « يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا * وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(٢) » وحسبها شهادة الله لها فى القرآن : « وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً(٣) » .

هذه هى عقيدة المسلمين فى شأن عيسى وأمه ، ليس فيها غلوٌّ كعقيدة النصارى الذين ألّهوه ، وأضفَوْا عليه صفات الربوبية من غير دليل أقاموه ، سوى

---

(١) آل عمران الآية : ٥٩ (٢) مريم الآيات : من ٢٨ إلى ٣٢ (٣) التحريم الآية : ١٢

أنه ولد من غير أب ، ولو صح ماقالوه لـكان آدم أولى بالربوبية ، ولم يقل أحد بإلاهيته ولا بربوبيته ، أما أنه كان يحيي الموتى فقد ثبت عندهم إحياء الموتى على يد غيره من اليهود كما جاء فى كتبهم ، على أنه كان يحيي الموتى بإذن الله تعالى شأن جميع المعجزات التى تجىء على يد الأنبياء كانقلاب العصا حية لموسى عليه السلام ، وإنما كانت من معجزاته إحياء الموتى ، لأن قومه قد نبغوا فى الطب ففاقوا أهل عصرهم ، فأرسل الله إليهم من يحيي الموتى حتى يؤامنوا به ، وتقوم حجته على قومه .

حياة المسيح

جمهور المسلمين يرون أنه حى ، وقد استدلوا على ذلك بدليلين ، أولهما ماثبت فى الأحاديث الصحيحة من أنه سينزل قبل يوم القيامة : إماماً عادلا ، وحكماً مقسطاً . وثانيهما قول الله تعالى : « إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا[١] » . وهنالك طائفة ترى أنه مات كسائر الأنبياء ولم يكتب الله الخلود فى الدنيا لأحد سوى إبليس قال تعالى : « وَمَاجَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ[٢] » . وأجابوا عن الحديث بأنه خبرُ آحاد وإن كان صحيحاً وخبرالآحاد لايفيد اليقين وإنما يفيد الظن والظن لا يكفى فى العقائد لأنها مبنية على اليقينيات وعلى فرض صحة الاستدلال به فإنه يصح تأويله بأن نزوله إنزال روحى بتأييده ، ونشر رسالته ، وكذلك الآية فإنها تحتمل أن يـكون الرفع رفعة مكانة ومنزلة كما جاء فى إدريس فقد قال الله تعالى فى حقه : « واذْكُرْ فى الْـكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا[٣] » .

وقد ذكر الفيروزأبادى فى كتابه : أنه قد جاء فى اللغة : رفعه كَمَنَعَهُ ضد وضعه ، ويحتمل تأويلا آخر بأن التعبير بقوله : « ورافعك إلىّ » وقوله « بل

---

(١) آل عمران الآية : ٥٥ (٢) الأنبياء الآية : ٣٤ (٣) مريم الآية : ٥٦

رفعه الله إليه » كالتعبير فى قولهم : ألحق فلان بالرفيق الأعلى . يرجح هذا المعنى فى الآية الأولى قولها بعدها « ومُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » . فإن هذه الجملة تدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم وهنالك رأى أميل إليه وهو أنه مات وسينزل آخر الزمن لا برسالة جديدة ، وإنما يحكم بهذه الشريعة ، جمعاً بين القرآن والحديث الذى هو من باب الظنيات والله أعلم .

ومعنى متوفيك : مستوفى أجلك المسمى ومميتك حتف أنفك لا بالقتل .

صلب المسيح

لم يجمع النصارى على صلب وقتل المسيح ، بل لا تزال طائفة منهم تنكر الصلب والقتل مما يدل على صدق القرآن الكريم : « وَ بِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ۞ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً[1] » .

وأن إنجيل برنابا ينكر الصلب ، ويسجل على بولس أنه هو الذى أفسد دين المسيح ، كما أن أتباع عيسى وهم الحواريون لم يزيدوا على اثنى عشر شخصاً ، بل كان منهم يهوذا الأسخريوطى الذى دل عامل الرومان على المسيح عيسى .

رسالة المسيح

إن الله أرسله ليكمل شريعة موسى ، ويعالج ما كان عليه اليهود وحكامهم الرومان من الطمع والكبرياء . وكذلك جاء بالمبالغة وهو الخضوع الكامل والاستسلام المطلق ، ليخفف من شر هؤلاء الذين طغت عليهم المادة ، فأصبحوا لا يهمهم إلا دنيا مؤثرة وشهوات تقضى ، ثم إنهم جعلوا الاعتقاد بصلب المسيح وقتله أصلا من أصول دينهم ، ودعامة من دعائم عقيدتهم ، فلا يقبل إيمان مؤمن

(١) النساء الآيات : ١٥٦ ، ١٥٧

ولا ينفعه عمل صالح ولا تقوى ولا إخلاص إلا باعتقاد ماجرى على المسيح من هذا العذاب ليخلص العالم المسيحى من الخطايا ويرون أن هذا ضرورى لفداء البشر من خطيئة أبيهم آدم الأولى وخطاياهم . ذلك بأن الله تعالى من صفاته العدل والرحمة ، فمن عدله ألا يترك الجريمة دون عقاب وإلا لم يكن عادلا والعقاب مناف للرحمة ، فلا يكون رحيما إذا عاقب ، ولابد من تحقق العدل والرحمة .

وتفادياً للخروج من هذا الإشكال ، وتحقيقاً للعدل والرحمة ، نزل من سمائه وحل فى رحم السيدة مريم العذراء البتول لينال هذا العذاب الأليم . وقد جاء فى كتاب البشارة فى الكفارة لرجل هندى يدعى القس جولد مسالك . هذا النص إن الله قال : « وأنا أضع نفسى عن الخراف » وفسر هذا النص بأن محمداً كان يضحى عن أمته بكبشين ، وأما الشعب المسيحى فهو أكثر من أن يضحى عنه بكبشين بل الله نفسه هو المضحى ، ففدى سبحانه أمته وأتباعه بنفسه .

وبدهى أن هذه العملية التى استنزلت رب الأرض والسموات من ملكوته وعليائه ، وعرضته للسخرية والاستهزاء والصلب والبصاق فى وجهه — نقص وظلم ، لأنه ليس من العدل فى شىء أن يذنب شخص ويعاقب آخر ، كما أن عقاب غير المذنب ليس فيه رحمة ، وهذا يخالف ماجاء فى الكتاب عندهم : (لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل) « أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (١) » .

سبب نزول هذه الآية : أن أحد المشركين تعهد لآخر بأن يتحمل عنه عذاب الله يوم القيامة .

---

(١) النجم الآيات : من ٣٣ إلى ٤١

هذا ومن أراد أن يعرف المسيحية الأصلية التى جاءت عن الله ، فليطلع على إنجيل برنابا الذى هو أحد الحواريين وهو موجود الآن فى مكتبة المنار « بشارع الانشاء بجوار وزارة التربية والتعليم » . هـذا الإنجيل كان منه نسخة بمكتبة سكنس بروما فاختلسها أسقف يقال له (فرارينو) حين عثر عليها مصادفة فقرأها واعتنق الإسلام فى أواخر القرن السادس عشر ، لأنه وجد أن ما فى هذا الإنجيل ينطبق تمام الانطباق على ما جاء فى القرآن الكريم ، والإنجيل المذكور من أهم الكنوز وأغلاها قيمة ، لو أن أهل الكتاب رجعوا إليه وجعلوه حكماً بين الأديان لوضعوا أيديهم فى أيدى المسلمين وقالوا : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » .

هذا وقد تضاربت الأقوال عندهم فى مدة الحمل فقيل ستة أشهر وقيل ثمانية وقيل ساعة ، وقيل دون ذلك ، والأرجح الحمل الطبيعى حيث لم يكن هناك دليل على هذه الأقوال كذلك قيل إنها حملت بالمسيح وسنها ١٣ سنة ونبىء فى سن الثلاثين .

وكان المسيح يعبر عن المبشر به محمد بلفظ فارقليط ، وهو تفسير لفظ (بيركاثلوس) اليونانية ومعناها الذى له حمد كثير . وهذا معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح : «وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ[1]» وأن هذه العقيدة لا تليق بجانب الله وتجافى العقل إذ أن الله تعالى يجب له كل كمال . ومن أخص صفات الكمال ألا يخضع للذل والمهانة ويسلم نفسه لأعدائه لأجل طائفة من خلقه يريد أن يخلصهم من العذاب وإذا لم يكن هناك بد من تخليصهم من العذاب ، فلماذا لا يكون ذلك من غير هذه العملية الشاقة المزرية مادام بيده ملكوت كل شىء : الانتقام والغفران وما ذنب هؤلاء الذين سبقوا الميلاد حيث أنهم حرموا هذا الفداء ، على أن قاعدة التثليث لم يكن لها أصل فى التوراة والإنجيل إلا رواية واحدة فى إنجيل

(١) الصف الآية : ٦

واحد تقول (فى البدء كان الـكلمة) هذه هى التى ترتب عليها هذه العقيدة .

ومن قرأ تاريخ الوثنيات فى الفرس والرومان والمصريين ، يجد اسم العذراء السيدة مريم اسماً مختاراً لأمهات كثير من الآلهة والقديسيين ، وعيد الإيلام والصلب والفداء وكل ذلك كان معروفاً عند الرومانيين وغيرهم من الأمم الوثنية .

جاء فى قصص الأنبيـاء للمرحوم عبد الوهاب النجار ص ٤٣٣ نقلا من كتاب الأستاذ محمد طاهر أفندى التنير البيروتى — أن مايروى عن البوذيين فى في بوذه ، هو أكثر انطباقاً على مايرويه النصارى عن المسيح من جميع الوجوه حتى إنهم يسمونه « المسيح » والمولود الوحيد ومخلص العالم ، وإله كامل ، تجسد بالناسوت ، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر ذنوب البشر ويخلصهم من ذنوبهم فلا يعاقب عليها ، ويجعلهم وارثين لملـكوت السموات بين ذلك كثير من علماء الغرب منهم «بيلى» فى كتابه — تاريخ بوذه — و «هوك» فى رحلته . إلى أن قال : (من أراد المقابلة بين إله النصارى وآلهة الوثنيين الأولين — فى الشرق والغرب) فعليه أن يقرأ كتاب (العقائد الوثنية النصرانية) لمحمد طاهر أفندى التنير البيروتى ففيه بلاغ مقنع

كذلك العشاء الربانى وهو معروف عندهم «بأن يأكل المؤمن جسد عيسى ويشرب دمه » وأصل هذه العقيدة ماروه الإنجيل من أن السيد المسيح عليه السلام قبل صعوده إلى السماء تعشى مع تلاميذه وودعهم . وبينما هو على المائدة تناول لقمة من الخبز وقال : كلوا هذا جسدى وشرب جرعة من الخمر وقال : اشربوا هذا دمى : فتكونت عندهم عقيدة أن الخبز والخمر يستحيلان إلى جسد الرب متى قرأ هذه الكلمات الكاهن .

ومعنى هذا أن من أكل من الخبز الذى تليت عليه هذه الكلمات أو شرب من هذا الشراب الذى تليت عليه هذه الكلمات أيضاً من الكاهن صار من أول الناس إيماناً .

ولقد ظلت العقيدة المسيحية على ذلك ، وهو أن الخبز يتحول إلى جسد المسيح والخمر يتحول إلى دم المسيح حقيقة إلى أوائل القرن العشرين ، حتى أخذ مفكروهم يتأولون ذلك بأن هذه الكلمات التى صدرت من المسيح عيسى لم تكن إلا رمزاً ، وأنه لايمكن أن يتحول الخبز والخمر تحت تقديس الكاهن إلى جسد الرب ودمه ، ثم أحيلت المسألة إلى مجمع من الأساقفة فقرر الأغلبية منه ثم مجلس اللوردات بأن الخبز والخمر يتحولان إلى جسد المسيح ودمه فى قداس الكاهن حقيقة ، وعليه تجب عبادتهما والسجود لهما ووضعهما فى أعلى المذبح لافى كوة من حائط الكنيسة . هذا ولما كان هذا القرار لاينفذ إلا إذا عرض على مجلس الأمة الذى هو مجلس العموم ، نزع بأكثرية أعضائه عرق العصبية البروتستانتينية إلى مخالفتهم ، وكان فى مقدمتهم ناظر الداخلية البريطانى فنقضوا قرار مجلس اللوردات ومجمع الأساقفة وقرروا أن الخبز والخمر لايتحولان بالبداهة إلى جسد المسيح ودمه ، واحتجوا بكتاب الصلاة الذى هو دستور الكنيسة الإيكليكانية الوحيد . وتأولوا هذه الكلمات التى صدرت من المسيح وهى : (كلوا هوذا جسدى ، واشربوا هوذا دمى) بأنها ترمى إلى أن هذا الخبز مقدس والخمر كذلك ، ومن تناولهما فقد أصبح من أول الناس إيماناً ، وأقربهم إلى الخلاص من الخطيئة ، وهذا يسمى عندهم العشاء الربانى ، ويعرفونه بأن يأكل المؤمن جسد عيسى ويشرب دمه » وبدهى أن هذه العقيدة تحيلها بداهة العقل البشرى ولاتتفق والنظام الذى جرت به سنن الله تعالى وحكمته وعدله فى الأسباب والمسببات ، ومن ذلك جنة الله تعالى التى هى سلعته الغالية لابد لها من ضريبة غالية . أيصح فى نظر العقل أن ينال أحد رحمة الله تعالى وغفرانه بأكل لقيمة من الخبز وبشرب جرعة من الخمر ، متى تلا الكاهن هذه الكلمات عليهما : (كلوا هوذا جسدى ، واشربوا هوذا دمى) أما الغفران فى شريعة الإسلام ، فإنه لا يكون إلا بشروط تجلت فى كتاب الله تعالى : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ

لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى[1] » .

إن وثنية العرب على مافيها من شرك فى الألوهية لم تتخذ القرابين فيها لله تعالى إلا لتقربهم إلى الله تعالى ، وما عبدت اللات والعزى لذاتها وإنما لما فيها من قربى إلى الله تعالى . وقد حكى الله عنهم ذلك فى قوله تعالى : « ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى[2] » ولم يخلعوا على الله صفة من صفات البشر ، لهذا استعظم القرآن هذه العقيدة فقال سبحانه : « تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً * إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً[3] » .

﴿ سؤال ﴾ يطوف بذهن الكثيرين : لماذا نرى معتنق هذه العقيدة كثيرين عن غيرهم ﴿ الجواب ﴾ نستقيه من التاريخ الصحيح : المسيح لم يتبعه فى حياته إلا اثنا عشر وهم الحواريون ولم يتقيد الإنجيل فى عصره ولم ينقل عنه وعن الحواريين كما نقل القرآن متواتراً بالحفظ والكتابة ولا كنقل الأحاديث بالأسانيد المتصلة وإنما ظهرت هذه الأناجيل التى هى قصص مختصرة له واشتهرت بعد ثلاثة قرون كما ظهر عشرات غيرها ، ولقد اعتمد منها رؤساء الكنيسة الأربعة المتداولة الآن جاء فى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى أن الأناجيل التى اعتمدوها فى القرن الرابع المسيحى لا يعرفون من هم الذين كتبوها ؟ ومتى دونت ؟ وبأى لغة ؟ وكيف فقدت نسخها الأصلية ، وإن أكبر تغيير حدث فى الديانة المسيحية مذهب البروتستانت : أى إصلاح النصرانية ، وكان ذلك منذ أربعة قرون وصار هو المذهب السائد فى أعظم الأمم الغربية كالولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا . وزعموا

(١) طه الآية : ٨٢ (٢) الزمر الآية : ٣

(٣) مريم الآيات من ٩٠ إلى ٩٥

أنهم أرجعوا النصرانية إلى أهلها ولكن لا يزالون يقولون بألوهية المسيح والتثليث وكانت المسيحية تسير ببطء حتى تزوج ملك الروم امرأة مسيحية تسمى هيلانة فأعقب منها قسطنطين ، فربته أمه تربية مسيحية اتباعاً لدينها ودين الآباء ، ولما مات أبوه الوثنى ، وكان واضعاً سيادته على أكثر بلاد الغرب والشرق ، أخذ قسطنطين ينشر الدين المسيحى بالحديد والنار من غير نظر ولا استدلال ، والويل كل الويل لمن فكر أو أبطأ .

لهذا انتشرت المسيحية بين الشعوب بعد هذه الاضطهادات من طريق التقليد ، دليل ذلك أنه لما جاء الإسلام اكتسح هذه العقيدة من البلاد التى حل فيها ، لأنه مؤيد بالحجة والبرهان ، فنى مدة قصيرة محا هذه العقيدة من مصر والشام وكثير من بلاد الشرق ، بل تغلغل فى أحشاء أوربا ، وأسس دولة هناك مكثت ثمانية قرون هى الأندلس . ومن أراد المزيد فعليه أن يقرأ كتاب (القول الصحيح فيمن بدل دين المسيح) لابن تيمية .

ومن المعلوم عندنا وعندهم أن التوراة الموجودة الآن يرجع أصلها إلى ما كتبه عزرا الكاهن بأمر ملك فارس الذى أذن لبنى إسرائيل بالعودة إلى أورشليم ، وإن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام ووضعها فى التابوت «صندوق العهد» وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل بحفظها كما هو منصوص فى آخر سفر « تثنية الاشتراع » — فقد من الوجود عندما أغار البابليون على اليهود وأحرقوا هيكل بيت المقدس ، والتوراة الموجودة الآن هى التى كتبها عزرا الكاهن .

حكم الشريعة الإسلامية
فى الغناء والتمثيل

إن الغناء فى ذاته محبب إلى النفس ، ومتعة من متع الحياة ، تنفس عن المحزون كربه ، وتسهل على المصاب خطبه ، وتدفع عن المسافر السآمة والملل ، وتنسيه طول الطريق ، ووعثاء السفر . كما أنه أداة صالحة لتهذيب النفوس ، وترقيق الطباع ، وغرس الأخلاق الفاضلة متى كانت المقطوعات شريفة المعنى ، نبيلة المقصد ، تسمو بالنفس عن سفساف الأمور ورديئها . فكم للغناء من أثر صالح فى تكوين الجندى الباسل ، والأم الحريصة على سعادة أبنائها ، والفتاة ذات الطهر والعفاف ؟ ولقد فطنت الأمم الراقية إلى ماللغناء من أثر فى النفس ووقع فى القلب ، فبذلت وفير أموالها فى اختيار طائفة من أهل الفن فأغدقت عليهم المال ليضعوا نشيداً يذكرهم بسالف مجدهم ، وحاضر عظمتهم . وقد صيغت فى أبدع نظام ، وأرق أسلوب ، تصف العواطف الشريفة ، والشيم الحميدة ، ونفائس الأزهار ، ورقة الهواء .

ولقد كانت الأغانى فى مصر فى سالف العصور تدعو إلى الفضيلة وتنفر عن الرذيلة ، حتى اختلط الغرب بالشرق ، فتحققت فراسة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما استشير فى فتح قنال السويس حيث قال : « لو اختلط الشرق بالغرب لفسد العالم » . نعم كنا لانزال بخير نحن المسلمين إلى أن دخل الأجانب بلادنا فنشروا فيها المجون والفسوق والفجور باسم الترفيه عن النفوس ، وصدق رسول الله ﷺ : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ . قالوا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : من غيرهم » . وجاء فى رواية الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس رضى الله عنهما بألفاظ أخرى .

وكان أول من سقط فى الفتنة ، واصطلى بنارها مصر ذات الشرف التليد ،

وأم الحضارة ، ومهبط وحى الله تعالى ، ومعهد العلم والتعليم وموطن الفضيلة ، ومستقر الشرف والطهر دخلتها دعوة خليل الله إبراهيم ثم يوسف وموسى ، ولاتزال مشرق العلم والعرفان بالأزهر الشريف ، فقد اتخذت الأغانى من ألفاظ سقيمة ، ومعانى أثيمة ، لاتخلو من الهزل والمجون ، فأودت بالفضيلة ، وأكثرت من أنصار الرذيلة ، فترى الشبان والشابات يرددونها فتسرى سمومها فى عروقهم . أليس فى هذا كله تحريك لغرائز الفتيات والفتيان وماأحوجنا إلى ركودها فى هذه السن الهائجة وفى وقت التكوين والتعليم ؟

إن هذه الأغانى لتحفر فى كل بيت قبراً ، وسبة مصر ذات الكرامة الموروثة والطهارة المعروفة .

هذا ولئن يندمل هذا الجرح فى عهد رجال الثورة الفاتحين المنتصرين ، وقع البأس وأعضل الرجاء . وقاهم الله شر الأعداء .

هذا ولما كان الغناء البرىء السليم من الهزل من المسائل الخلافية لتعارض الأدلة فى حله وحرمته ، أرجعنا المسألة إلى القاعدة العامة ، وهى أن كل ماشغل الإنسان عن أداء مايجب عليه نحو الله وبنى جنسه فهو حرام . فإذا لم يشغل الإنسان عما يجب عليه كان من الورع تركه ، لهذا نجد أكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه مثل إبراهيم بن أدهم ، والفضل بن عياض ، ومعروف الكرخى ، وأبو سليمان الدارانى .

وكذلك من المحرم الغناء الذى يحرك الغرائز ، أو يجر إلى الفتنة : كالأغانى الماجنة التى تغرى إلى الفسوق ، وتصرف الناس عن الحياة الحرة الكريمة إلى اللهو واللعب كما عليه معظم الأمم الآن ، والأمل معقود فى القائمين على الأمر بإصلاح هذه الأغانى وتجريدها من الهزل والمجون ، ويكون ذلك باختيار طائفة من الأدباء فيسند إليهم هذا الأمر الخطير ويغدقون عليهم المال حتى يختاروا أغانى

عفيفة تغرى بالفضيلة ، وتنفر من الرذيلة ، وتغرس فى نفوس أبنائنا حب الفضيلة والأوطان ، والحذر من كيد الأعداء .

التمثيل : إن فكرة التمثيل فى أصلها فكرة نبيلة ، إذ أنه يعلم الناس دروس الحياة والدين بالطرق الملموسة المشاهدة ، لتكون العظة أبلغ فى النفس ، كما أنه يرينا أخلاق الماضين فى أدوار حياتهم ، وما كانوا عليه من بؤسى ونعمى فنتأسى بما درجوا عليه من خلق كريم ، وندع كل ماناوأ الفضيلة ، كما أنه يمثل الرذيلة فى أبشع صورة فتنفر منها النفوس ، و يمثل الفضيلة فى أجمل صورة فتكون محببة إلى النفس ، كما أنه يرينا أبناء القرون الماضية فى ساعات قليلة بثمن بخس ، فهو فى أصله أداة تهذيب وإصلاح ، ولكنه اليوم على العكس فأصبح مدعاة للفسوق والفساد ، وشَرَكاً لاقتناص الفريسات ، واستغواء العذارى الطاهرات ، حتى اكتفى الشاب عن الزواج وقيوده ، فكسدت بضاعة المرأة فى سوق الزواج نتيجة إسرافها ، وبذل نفسها فى هذه المباهج الفاتنة ، فأصبحت رخيصة لأن كل معروض مهان . على أنه لايخلو من صور مخلة بالآداب ، ورقص واحتضان الشاب للفتاة ، والتفاف الساق بالساق ، مما يندى له جبين الشرف ، ويحمر له وجه الإنسان خجلا وحياء . ولا يخفى على كل ذى عقل خطورة هذه المناظر على العفاف والشرف . لهذا كان من الواجب التعجيل بتنقية هـذا التمثيل من المهازل والمخازى اللاتى شوهته ، فكان ضره أقرب من نفعه .

حكم التختم بالذهب والفضة

استقر رأى سلف الأمة وخلفها فى حياة الرسول ﷺ وبعده على حرمة التختم بالذهب على الرجال فقط ، والأدلة استفاضت بها كتب الحديث ، من ذلك حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما الذى رواه مسلم فى صحيحه ، أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب فى يد رجل ، فنزعه فطرحه وقال : « يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فى يَدِهِ » قيل للرجل بعدما ذهب

رسول الله ﷺ : خذ خاتمك انتفع به . قال : والله لا آخذه أبداً ، وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يؤخذ من عدم إقدام الرجل على أخذه لينتفع به النساء ، أو ينتفع بثمنه ، وعدم تصريح الرسول ﷺ للرجل بأن يستعمله فى شئون مباحة ، أن الرجل قد اجترم جرماً كبيراً ، واقترف إثماً عظيما .

ومن ذلك ما رواه على رضى الله عنه عن أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان وابن ماجه . قال : أخذ النبى صلى الله عليه وسلم حريراً فجعله فى يمينه وأخذ ذهباً فجعله فى شماله ، ثم قال : « إِنَّ هٰذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي » زاد ابن ماجه : « حِلٌّ لِإِنَاثِهِمْ » إسناده حسن .

ويلحق بالخاتم فى الحرمة السوار والسلسلة والساعة وغيرها ، لأن العلة فى الحرمة مخالفة الفطرة التى فطر الله الناس عليها من اختصاص الأنثى بالنعومة ، والذكر بالخشونة . إذ الأول مخلوق رخيم الصوت ، رقيق الكلام ، لين الأعضاء ، ناعم الملمس ، جميل المحيا ، وسيم الطلعة . والثانى مخلوق قوى العضلات ، صلب العظام ، ذو شعر شائك يملأ وجهه وصدره وذراعيه ورجليه . والاثنان منحدران من صلب واحد ورحم واحد . فما فرق الله بينهما إلا لأن النعومة من خصائص النساء ، والخشونة من خصائص الرجال ، حكمة الله التى فاقت كل حكمة .

وبدهى أن الذهب والحرير فيهما من النعومة مايناسب المرأة لتروج بضاعتها فى سوق الزواج ، فتزين الرجل بالذهب والحرير قلب للأوضاع وهضم لحق النساء والتشبه بهن . وقد جاء فى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال .

أما التختم من النحاس والحديد والرصاص ونحوها فمكروه ، وأما بالفضة فلا مانع منه ، وإذا قصد به الاقتداء بالرسول ﷺ يكون حسناً ، ويجعل فصه مما يلى الكف اقتداء بالرسول ﷺ وليكون بعيداً عن العجب والكبرياء .

فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتماً من وَرِق وكان فى يده ، ثم كان فى يد أبى بكر ، ثم كان فى يد عمر ، ثم كان فى يد عثمان ، حتى وقع فى بئر أريس[1] نقشه « محمد رسول الله » .

وروى أصحاب السنن أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ وعليه خاتم من شَبَهٍ[2] فقال له : « مَا لِي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ الْأَصْنَامِ » فطرحه ، ثم جاء وعليه خاتم من حديد ، فقال : « مَالِي أَرَى عَلَيْكَ حِلْيَةَ أَهْلِ النَّارِ » فطرحه ، فقال : يارسول الله ، من أى شىء أتخذه ؟ قال : « اتَّخِذْهُ مِنْ وَرِقٍ ، وَلاَ تُتِمَّهُ مِثْقَالاً » .

الخلاصة : أن استعمال الذهب للرجال حرام مطلقاً إلا للضرورة ، كأخذه للأسنان لأنه أحكم وأقوى من غيره ، وأما للنساء فحلال مطلقاً ، وكذلك الفضة حلال لها وللرجال . أما استعمالها فى الأوانى ، فحرام مطلقاً ، وأما المعادن فمكروهة كما ذكرنا .

السؤال الثانى : هل يجوز للرجال أو النساء لبس البرنيطة أو البريه أو المعطف أو السترة أو البنطلون أو غيرها ؟

الجواب : إن الله تعالى قد أباح لنا كل ما تتطلبه حياتنا من ستر أجسامنا بأى نوع من أنواع الزينة ما لم يكن فيها إسراف ولا مخيلة ولا تشبه . فقد جاء فى صحيح البخارى باب قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ[3] » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا فى غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ » رواه أحمد وغيره .

---

(١) أريس : بئر قريب من مسجد قباء .

(٢) الشبه بالفتح : ضرب من النحاس . (٣) الأعراف الآية : ٣٢

المعنى : الشبه بالتحريك : النحاس ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : مالى أشم منك ريح الأصنام ، لأن غالبها من نحاس . فجاء ثانياً وعليه خاتم من حديد فقال : مالى أرى عليك حلية أهل النار ، أى ما بأيديهم من السلاسل والأغلال ، هذه حكمة كراهة المعادن .

فمن رحمة الله بنا أنه لم يقيدنا بزى خاص ، وقد لبس صلى الله عليه وسلم البرد النجرانى والمرط الذى يؤتزر به من شعر أو صوف أو كتان وكذلك الجبة والقباء . . . وكل هذا يدل على أن الأزياء من الأمور المباحة التى تتعلق بأمور الدنيا ، وتخضع للعادات والعرف ، إذ أن العرف تارة يكون له دخل فى بعض الأحكام ، فمثلا ميعاد الزيارات فى القرى تختلف عن المدن ، وفى رمضان يختلف عن غيره وهكذا .

الخلاصة : أن لبس المذكورات يتعلق بالزينة والفطرة ، وليس له دخل فى العبادات ، غير أن تجاوز الحد فيها فى طولها حتى تمس الأرض ، أو يكون فيها كبر وخيلاء أو تكون من حرير للرجال أو يكون فيها تشبه بالأجانب هنا تتجه الحرمة . قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » رواه أبو داود عن ابن عمر ، والطبرانى فى الأوسط عن حذيفة وإسناده حسن .

نعم لبس البنطلون إذا كان ضيقاً يفصل عورتيه ، ولم يكن عليه معطف يسترها تتجه الكراهة للرجال ، والحرمة للنساء والأطفال . قال ﷺ : «لَا تُبْرِزْ فَخِذَكَ وَلَا تَنْظُرْ إِلَى فَخِذِ حَيٍّ وَلَا مَيِّتٍ» رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم عن على كرم الله وجهه .

وبدهى أن لبس هذه الأزياء الحديثة للنساء من أشد الفتن ، ولا شك فى حرمتها .

السؤال الثالث : هل يجوز للإنسان أن يعتقد أو يتوهم أن يصيبه مرض أو موت أو غيره من الأعداد ، أو من الشهور ، أو من الأيام ، أو من دخول بيت ، أو من لبس ثوب ، أو من غيره أم لا ؟ .

الجواب : إن الاعتقاد فى هذا كله جاهلية ، وقد وردت أحاديث كثيرة تحذر من هذه العقيدة الفاسدة لأن فيها إسناد النعم والمصائب لغير الله تعالى ، والله تعالى يقول : « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ » يعنى المصائب والنعم لا الطاعات ، قال ﷺ

«ثَلَاثٌ لَا يَسْلَمُ مِنْهُنَّ أَحَدٌ : الطِّيَرَةُ ، والظَّنُّ ، والحَسَدُ» قيل فما المُخرج منهن ؟ قال : « إِذَا تَطَيَّرْتَ فَلَا تَرْجِعْ ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ[1] ». وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنا نزلنا داراً فكثر فيها عددنا وكثرت فيها أموالنا ، ثم تحولنا عنها إلى أخرى فقلَّتْ فيها أموالنا وقَلَّ فيها عددنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذَرُوهَا وَهِيَ ذَمِيمَةٌ[2] » .

هذا الحديث لا ينافى الحديث الأول لدليلين :

١ — أولها أن الرسول ﷺ أمرهم بالتحول عنها لأنهم كانوا مقيمين فيها على استثقال ظلها واستيحاش لما نالهم منها ، فأمرهم بالتحول ليزيل ماعندهم من خواطر السوء ، وقد جعل الله فى غرائز الناس وتركيبهم استثقال ما نالهم السوء منها وإن كان لاسبب له فى ذلك ظاهر ، وكذلك حب من جرى على يده الخير لهم وإن لم يروه ، وبغض من جرى على يده الشر .

ويجوز أن تكون الشرور التى أصابت أهل هذه الدار من غضب الله تعالى على الذين سكنوا هذه الدار من قبل ، يستأنس لذلك أن الرسول ﷺ عندما مر بأرض ثمود وهو ذاهب إلى غزوة تبوك أمر أصحابه بأن يسرعوا وأن يجعلوا ما صنعوا ما عجن بماء آبارهم علفاً لدوابهم ، وما ذاك إلا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يتخلص من هذه البقايا الملعونة والعالم البغيض والأطلال التى تركها هؤلاء الذين سخط الله عليهم لئلا يصيبهم ما أصاب هؤلاء الظالمين ، لأن مواطن الشريرين تتنزل عليهم اللعنات كمعاطن الإبل ، فقد نهى الرسول ﷺ عن الصلاة فيها ، لأن الشياطين تأوى إليها وإن أصحابها يغلب عليهم الفخر والخيلاء كما جاء فى الحديث الصحيح .

وإن مواطن الطيبين الطاهرين تحف بهم الرحمات ، وتغمرها البركات ،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق مرفوعا . (٢) من منهاج دار السعادة لابن القيم ص ١٦ .

كمرابض الغنم ، فقد رغب الرسول ﷺ فى الصلاة فيها وأن أصحابها أهل سكينة ووقار ، وهل فاضل الرسول صلى الله عليه وسلم بين الأمكنة إلا لما يحدث فيها من الخير والشر ، فقد صح عنه ﷺ أن خيرَ بِقاعِ الأرضِ المساجدُ ، وشرَّها الأسواقُ.

والدليل الثانى على أن التطير لا يقره الشرع الشريف ، وأن الله تعالى يعاقب العبد إذا تطير ، فكان تشاؤمه أو تطيره سبباً لحلول المكروه ، كما جعل التوكل عليه سبحانه من أعظم الأسباب التى يُدفع بها الشر عن المتطير ، يدل على ذلك حديث أنس رضى الله عنه أن الرسول قال : «لاَطِيَرَةَ وَالطِّيَرَةُ عَلَى مَنْ تَطَيَّرَ» . وقال أيضاً : «مَنْ أَرْجَعَتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» قال : وما كفارة ذلك يارسول الله ؟ قال : «أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ اللَّهُمَّ لاَطَيْرَ إِلاَّ طَيْرُكَ وَلاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُكَ وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ ثُمَّ يَمْضِى لِحَاجَتِهِ» للإمام أحمد عن ابن عمر رضى الله عنهما[1] .

الاستخـــارة

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول لهم : «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُوَّتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ ، وَأَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوب ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لى فى دِينِى وَمَعَاشِى ، وَعَاقِبَةِ أَمْرِى ، أو قال : وَعَاجِلِ أَمْرِى وَآجِلِهِ ، فَاقْدُرْهُ لى وَيَسِّرْهُ لى ، ثُمَّ بَارِكْ لى فِيهِ ،

---

(١) منهاج دار السعادة لابن القيم .

وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لى فى دِينِى وَمَعَاشِى وَعَاقِبَةِ أَمْرِى ، أو قال : وعَاجِلِ أَمْرِى وَآجِلِهِ ، فاصْرِفْهُ عَنِّى وَاصْرِفْنِى عَنْهُ ، واقْدُرْ لى الخَيْرَ حَيْثُ كانَ ، ثم رضِّنِى به ، قال : ويسمى حاجته » رواه البخارى .

قال الإمام النووى رضى الله تعالى عنه فى الأذكار . قال العلماء : تستحب الاستخارة بالصلاة والدعاء المذكور ، وتكون الصلاة ركعتين من النافلة ، والظاهر أنها تحصل بركعتين من السنن الرواتب ، وبتحية المسجد وغيرها من النوافل ، يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة « قل ياأيها الكافرون » وفى الثانية « قل هو الله أحد » فإن تعذرت عليه الصلاة استخار بالدعاء ، ويستحب افتتاح الدعاء المذكور بالحمد والصلاة على الرسول . والاستخارة مستحبة فى جميع الأمور كما صرح به نص هذا الحديث الصحيح ، وإذا استخار مضى بعدها لما ينشرح له صدره والله أعلم .

المعنى قوله ﷺ فليركع ركعتين أقل مايحصل به المعنى .

(أستخيرك) أسألك أن ترشدنى إلى الخير فيما أريد لسبب أنك عالم به (وأستقدرك) أطلب منك أن تجعلنى قادراً عليه إن كان فيه خير . وأسألك من فضلك العظيم ، لا لاستحقاقى لذلك ، ولا لوجوبه عليك (إن كنت تعلم الخ) الترديد راجع إلى عدم علم العبد بمشيئة علمه تعالى ، لا إلى أنه يحتمل أن يكون خيراً ولا يعلمه ، لأنه العليم الخبير (خير لى فى عاجل أمرى) شك من الراوى (فاقدره لى) اجعله مقدراً لى والله أعلم .

هذه هى الاستخارة التى شرعها الله تعالى . أما ماعداها من ضرب الودع والطيرة والعيافة والطرق وزجر الطير وقراءة الكف وفتح الكتاب والمصحف وغيرها ، فقد ورد النهى فيها لأنها من تشريع الشيطان ، لامن تشريع الرحمن . كذلك كتابة الحجب والتمائم ومايسمونه تحويطات ، فإنها من الجبت والأجر

عليها حرام . ففي البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمنِ الكلب ، ومهرِ البغيِ ، وحلوانِ الكاهنِ .

وعن قبيصة بن المخارق رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « العيافةُ والطيرةُ والطَّرقُ من الجبت[1] » . وقال : الطرق هو الزجر ، أي زجر الطير وإخراجه من عشه إن طار إلى جهة اليمين تيمَّن ، وإن طار إلى جهة الشمال تشاءم ، والعيافة خط الرمل . قيل إن إدريس هو المشار إليه في حديث معاوية ابن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل ، فقال : « إنه كان نبيٌّ يَخُطُّ فمن وافق خطَّهُ فذاك » والجبت يقع على الصنم ، والكاهن والساحر ونحو ذلك . قطعة من حديث مسلم .

هذا ولقد انخدع بهؤلاء المشعوذين كثيرون وخاصة من أهل الأقاليم ، فكم من أموال ابتزوا ؟ وكم من أعراض هتكوا ؟ وكم من عقول استحوذوا على أهلها فاعتقدوا أنهم من الله بمكانة ، ولكن الله الخبير بعباده لايدعهم في مظاهرهم الكاذب ، بل لابد أن يجعل من آيات الوجود مايفضحهم ، ويكشف أمرهم ، صدق الله : « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ[2] » وقديماً قيل :

ومهما تكن عندا مرىء من خليقة ☆ وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال لهم : « ليسوا بشيء » قالوا : يا رسول الله ، إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً . فقال رسول الله ﷺ : « تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقَرُّهَا[3] فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ[4] » لأن علم الغيب

---

(١) رواه أبو داود .   (٢) آل عمران الآية : ١٧٩

(٣) يقرها بفتح القاف : يبلغها .   (٤) البخاري وغيره .

استأثر الله به كما قال سبحانه : « قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ » .

والغيب هو الإخبار عما يجرى فى الكون فى المستقبل ، وعن حركة الحيوان والإنسان والنبات ، أما الجماد فإنه خاضع لقانون أزلى لا يحيد عنه كحركات الكواكب وغيرها . فالفلكى إذا أخبر عن تلاقى بعض الكواكب بعضها ببعض فإنما ذلك عن علم بحركة الكواكب وقوانينها .

الغيب لله وحده وكذب المنجمون ولو صدقوا

روى الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ كاهِناً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً » .

فى هذا الحديث وعيد شديد لمن يؤمن بأخبار الكهنة والمنجمين ، وأن فى ذلك خروجاً عن الإيمان ، إذ أن الغيب محجوب عن النبيين فكيف بغيرهم . قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : من زعم أن الرسول كان يعلم الغيب فقد أعظم على الله الفرية ، لأن الله يقول : « قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ » . نعم تارة يوحى الله تعالى بشىء من شئونه إلى من اصطفاه من عباده لمقام النبوة فيوحى إليه من ذلك ما يشاء مما تقتضيه الدعوة والبلاغ الذى عهد الله به إليه ليكون برهاناً على صدق دعواه .

وبدهى أن هذا ليس من علم الغيب وإنما هو علم إخبارى عن الله ، إذ كل ما يتحدث به الكهان والمنجمون والمشتغلون بالتنويم المغناطيسى والطارقون بالحصى واللاعبون بالورق (الكوتشينة) ومن يمارسون ذلك بالنظر فى أقداح القهوة ويعرف ذلك بالمندل ، والذين يقرءون الكف ، كل هؤلاء إذا أخبروا عن شىء ووقع وفق ما أخبروا به فذلك يرجع إلى أسباب كثيرة منها الصدفة والإلهام غير أن الإلهام لا يكون إلا من متدين وإما من شيطان وكلاهما يخطىء ويصيب

قال ﷺ : « إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً (١) بِابْنِ آدَمَ ، وَإِنَّ لِلْمَلَكِ لَمَّةً ، فَأَمَّا لَمَّة الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيق بِالْحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ الآخِرَة فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ » رواه الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه .

وتارة يستدل بعلامات من الشخص نفسه على مايريد ، وهو مايسمى بالعراف ، ومن هؤلاء من يستدل بنجم من النجوم على حدوث مايحصل ، وقد أثبتت التجارب أنهم يكذبون أكثر مما يصدقون . فكل ماعند هؤلاء إنما هو التشبث والتعلق بشئون تجريبية يتلمسونها من مواقع النجوم والأوضاع الفلكية والتشكلات الكوكبية وتنقلها فى المنازل والأبراج . فيقول المنجم مثلا إذا دخل النجم الفلانى فى برج كذا ، أو استقبل النجم الآخر الفلانى ، أو اجتمع به ، كان ذلك أمارة على حدوث الحرب ، أو وُلد الشخص ساعة كذا ، دل ذلك على سعود هذا المولود أو نحسه ، لأنهم يتوهمون أن لكل نجم طبيعة وآثاراً يعينونها ويضعونها على مثال مايقولون ، فيقولون فلان طالعه زحل ، وهو يدل على الشجاعة والجراءة .

ومن هؤلاء من يعتقد أن حوادث هذا الكون ووقائعه إنما هى نتائج طبيعية للقوى والنواميس التى بثها الله تعالى فى أحشاء هذا الكون وأثنائه ، وأن جميع حوادث الكون إنما تقع نتيجة لامتزاج هذه النواميس وتفاعلها ، فيقول المنجم إن اطراد التجربة يدل على الارتباط الطبيعى فإذا لم يدرك التأثير الطبيعى بكنهه وحقيقته ، أمكننا أن نستدل على وجوده بهذه التجربة ، وتجار بنا إنما هى من هذا القبيل .

والجواب : أن هذه التجربة تجربة ناقصة لم يثبت منها إلا ما كان من

(١) اللمة : الخطرة التى تخطر بذهن الإنسان .

طريق الاتفاق والمصادفة . و بدهى أنهم يعتبرون ذلك علامة على وجود ما يزعمونه وليس عندهم دليل على أن هذه العلامات لا تتخلف عنها المعلمات ، بل إنها ظنون والظن لا يغنى فى باب الحق شيئاً .

ومن ذلك حادثة الخليفة المعتصم حينما قام بفتح عمورية ، فأخذوا يحذرونه بسوء العاقبة بأن الحساب الفلكى والطوالع النجومية قد اتفقت على سوء هذه النتيجة المشئومة ، فلم يعبأ بما قالوه ، وخرج من فوره وانتصر على اعدائه انتصاراً عظيماً . وفى ذلك يقول أبو تمام من قصيدة سبعين بيتاً حتى أخذ على كل بيت ألف درهم :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحدُّ بين الجِدِّ واللعب
أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
يقضون بالأمر عنها وهى غافلة ... مادار فى فلك أو كان فى قطب
لو أثبتت قط أمراً قبل موقعه ... لم يخف ماحل بالأوثان والصلب

ومن ذلك ما أخبروا به الخليفة المنصور من إنشاء مدينة بغداد بأنها سعيدة الطالع وان يموت بها خليفة ، فاتفق أن كان موت المنصور فى طريقه إلى مكة ، ومات بعده الخليفة المهدى (بماسبذان) ثم من بعده ابنه الهادى فمات (بعيساباذ) و بعده أخوه الرشيد فمات (بطوس) فافتتن الناس بما قالوا ، ولكن الله تعالى لايدع الكاذب يتمادى فى كذبه ، والضال فى ضلاله ، بل لابد أن يفضحه و يكشف أمره ، فقتل المأمون أخاه الأمين بها . ثم تتابع من بعده موت الخلفاء بها ، فمات فيها الواثق والمتوكل والمعتضد والمكتفى والناصر ، حتى طويت صحيفتها بموت آخرهم المستعصم .

ومن هذا مايوجد فى الناس خاصة روحية ، بها يقرأ حديث النفس و يسمعه ، وهذا ليس من علم الغيب ، و إنما هو من عالم الشهادة ، و يرجع إلى الغيب النسبى كما ذكرنا .

وإجمال القول : أن المكاشفات الغيبية التى تقع لبعض الناس ليست من علم الغيب الذى استأثر الله تعالى به ، لأنها مستمدة من غيرها ، فما يخبر به نبي من الأنبياء فهو من طريق الوحى الإلهى كما قال سبحانه : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » ، كإخباره ﷺ بأن كنوز كسرى وقيصر ستنفق فى سبيل الله ، وأن أصحابه ليدخلون المسجد الحرام بعد أن صدهم المشركون ، وفتح الصحابة مصر .

كذلك الإلهام الذى يلهم به المؤمنون ، والفراسة التى أخبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ تَعَالَى » رواه البخارى فى التاريخ عن أبى سعيد .

وكان من بين الملهمين عمر بن الخطاب ، وقد جاء فى حديث الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « قَدْ كَانَ فى الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فإِنْ يَكُنْ فى أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ رضى الله عنه » .

يدل الحديث دلالة واضحة على أن الملهمين قليلون فى كل عصر وجيل .

غير أن الملهم يخطىء ويصيب ، لأنه يستمد أخباره من وحى فطرته ، بخلاف الصديق لأنه لا يعول على مافى نفسه ، وإنما يعول على مشكاة الوحى الإلهى ، لهذا كانت درجة أبى بكر أفضل من درجة عمر ، وهاهى ذى حادثة صلح الحديبية ، فكان عمر يرى أن بعض شروط الصلح ضار بالمسلمين ، وهو : أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه ، فقال عمر : يا أبا بكر ألسنا مسلمين ؟ أبو بكر : بلى ، عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ أبو بكر : ياعمر الزم مكانك فإنى أشهد أنه رسول الله ، عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

هذا ولقد أثبتت الأيام بعد نظر النبوة ، وأن هذا العقد له حكمة سياسية كان لها الأثر الأكبر فى مستقبل العرب ، بل فى سبيل الإسلام .

ولقد ألغى قريش هذا الشرط حينما تجمع من يريدون الإسلام فى طريق مكة وقطعوا الطريق على المارين ، فهم الذين تنازلوا عن هذا الشرط ، لينجوا من هؤلاء المسلمين الذين قطعوا عليهم الطريق بإيذاء كل من مر عليهم .

كذلك أخطأ عمر فى طلبه من الرسول ﷺ أن يقتل عبد الله بن أبى حينما ظهر نفاقه ، فلقد مات ابن أبى على فراشه ، وجاء ذكره فى مجلس الرسول ﷺ فقال : « كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ ؟ أَمَا وَاللهِ لَوْ قَتَلْتَهُ يَوْمَ قُلْتَ لِي اقْتُلْهُ لَأُرْعِدَتْ لَهُ أُنُفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ » قال : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى ، وهكذا .

ولقد أصاب فى أمور جاءت فى حديث رواه الإمام أحمد عن أنس قال : قال عمر رضى الله عنه : وافقت ربى عز وجل فى ثلاث ، قلت يارسول الله لواتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى [1] » .

وقلت : يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله نساؤه فى الغيرة ، فقلت لهن : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ [2] » .

وقد روى عن عثمان بن عفان أنه دخل عليه رجل قد نظر إلى امرأة لاتحل له فقال رضى الله عنه : « أيدخل أحدكم علينا وأثر الزنا باد على وجهه » يريد زنا العينين ، فقال له : أوحى بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا ولكن فراسة الإيمان .

ثم إن الإلهام لايكون حقاً إلا إذا وافق الكتاب والسنة ، كما قال أبو القاسم الجنيدى رحمه الله : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث ، لايصح له أن يتكلم فى علمنا أو قال لايقتدى به » .

ومعروف أن خواطر الخير تسمى إلهاماً ، وخواطر الشر تسمى وسوسة .

---

(١) البقرة الآية : ١٢٥ (٢) التحريم الآية : ٥

وهناك خواص روحية تظهر فى بعض الناس فتراه إذا سئل عن مسألة حسابية تحتاج إلى عمليات دقيقة ينطق بها على البداهة من غير روية ولا تفكير، ولقد رأينا ذلك . فمنذ سنين مضت ظهر طفل يبدو عليه البله ونقصان العقل ، كان إذا سئل عن مسألة حسابية ، وتحتاج إلى مجهود كبير ، ينطق بهـا على البداهة من غير تفكير .

ومن ذلك مايخبر به الـكهنة من أمور يتعرفونها من نطق السائل وهيئته ، وهو مايسمى بالعرافة ، ومنهم من يستطلع هواجس حديث النفس من قوة روحية ، وليس هـذا من علم الغيب ولـكنه علم شهود ، كرؤية الجراثيم بالمجهر (المـكبر) فهو من الغيب النسبى الذى يكون من علم الغيب بالنظر لمن لم يستعمل المـكبر ، وعلم شهود بالنسبة لمن يستعمله ، ومنها مايجيء من استراق السمع كما نطق به الحديث الوارد فى البخارى عن عائشة .

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسـول الله ﷺ يقول : « إِنَّ الْمَلَائِـكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ وَهُوَ السَّحَابُ وَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فى السَّماءِ فَيَسْتَرِقُ الشَّيْطَانُ السَّمْعَ فَيَسْمَعُهُ لِيُوحِيَهُ إِلى الْـكُهَّانِ فَيَـكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ » رواه البخارى وغيره . أما الشهاب الذى كان ينزل على من استرق السمع إنما كان فى عهد النبوة فقط كما قرره بعض العلماء .

وأما الغيب المطلق فهو لله وحده ، وهو العلم بما يقع فى المستقبل من شئون الخلق وأحوال الآخرة .

أما الأخبار عما وقع فى الماضى فهو لايدخل فى باب المكاشفات الغيبية ، وقد التبس الأمر على الـكثيرين ، فتراهم إذا ماسمعوا من شخص ذكر حوادث مضت من سنين طويلة يعتبرونها أخباراً غيبية كالذين اتصلوا بالجن فيحدثونهم عما وقع منهم ، ولو تأملوا قليلا لوجدوا الجن شاهدوا هذه الوقائع وأخبر بعضهم بعضاً بها ويقرونها فى آذانهم ، دليل ذلك أنهم لايصدقون فيما يتحدثون به فى

المستقبل قال تعالى : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ » وطبعاً أن هذا لايقره الشرع الشريف ، ويعرف هذا النوع بعلم (الوشوشة) وكل من صدق هذا فقد أصابته فتنة المسيح الدجال ، وكل من يخدع الناس بزخرف قوله وحيلته ، فهو كالمسيح الذى حذرت منه الأنبياء أممهم وكذلك رسولنا ﷺ ، ويدخل فى هذا النظر أقداح القهوة وهو مايسمى (المندل) والضاربون بالحصى ، والتنويم المغناطيسى وماشا كل ذلك . ولا يفوتنا أن نذكر أن خرق العادة تارة يكون من الله تكذيباً لمن يزعم أن له من الله جانباً كما كان لمسيلمة الكذاب ، فقد تفل فى البئر ليكون ماء حلواً نخيب الله أمله ، وانقلب الماء ملحاً أجاجاً .

الحسد والوقاية منه والعين حق

ليكن معلوماً لكل إنسان أن لكل شخص عينين : عين ظاهرة : وهى التى لاتبصر إلا الصور الظاهرة السطحية كاللون والجسم ، وعين باطنة : وهى التى تدرك حقيقة الوجود وسر خلقه ، وهى التى يصدر منها الحسد .

العين حق

كان الحسد فى السنين الخالية ، موضع جحود عند بعض الطوائف الذين لايؤمنون إلا بالمادة وخواصها ، وينكرون ماوراءها . ولما ظهرت الاكتشافات الجديدة ، والنهضة العلمية الحديثة من المغناطيس وغيره تبين لهؤلاء أن العين حق وأن الحسد يؤثر فى المحسود والعين كذلك تصيب المعين . والفرق بين العائن والحاسد ، أن العائن تتكيّف نفسه بكيفية الحقد عند مقابلة المعين ومعاينته ، والحاسد ، يحصل له ذلك عند مشاهدة المحسود وغيبته . فالحسد يكون من المبصر والأعمى ، والعين لاتكون إلا من المبصر . إذن فالتأثير تأثير روحى لاجسمانى ، وقد وردت أحاديث تثبت ذلك منها حديث مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما

أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سابَقَ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ » .

وقد روى أيضاً عن جابر مرفوعاً إلى النبي ﷺ : (إنَّ الْعَيْنَ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ والْجَمَلَ الْقِدْرَ » . وكان صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله من الجان وعين الإنسان ، فلما نزلت المعوذتان اكتفى بهما .

وحديث عائشة أن رقية جبريل للنبي ﷺ هى : « بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ مِنْ كلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ . مِنْ كلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ ، بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ » . وفى سنن أبى داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين .

إذن الرقية مشروعة ، وهى إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب أو تحول بينها وبين كمال تأثيرها ، وكلما كانت نفس الراقى أقوى كانت الرقية أكثر تأثراً ، ومثل الرقية التعوذات والأذكار ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرقى الحسن والحسين بهذه الرقية ويقول : كان خليل الله إبراهيم يرقى بها إسماعيل وإسحاق وهى : « أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ ، وَمِنْ كلِّ شَيْطَانٍ وهَامَّةٍ » الكلمات التامة قيل هو القرآن الكريم ، واللامة هى التى تصيب بسوء والهامّة بالتشديد : هى من هوام الأرض وحشراتها .

وإجمال القول أن الحسد داء من شر الأدواء يولد العداوة والبغضاء ، فكم من صلة قطعها ، وكم من رابطة فرّقها ، وكم من دم سفكه ، وإن أول جريمة على الأرض كان سببها الحسد ، وهو حسد ابن آدم الأول أخاه وإخوة يوسف كذلك قال ﷺ : « دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ ، حَالِقَةُ الدِّينِ لاحَالِقَةُ الشَّعْرِ ، وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَفَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ

أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ » رواه أحمد والترمذى .

وقد بينت السنة أن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

الأسباب التى يندفع بها الحسد

أولا — الرقية الشرعية التى ليس فيها شرك ، وأن تكون باللغة العربية ، ويحسن أن تكون مأثورة عن الرسول ﷺ ، وقد صح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أسترقى من العين . وقد صح أيضاً عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجارية فى بيتها رأى فى وجهها سَفْعَةً[1] : « إِنَّهَا نَظْرَةٌ اسْتَرْقُوا لَهَا » .

ثانياً — تفرغ القلب من الاشتغال به ، وكلما خطر على قلبه يمحوه ولا يلتفت إليه ولا يخاف ، فإن الحسد يؤثر فى ضعيف القلب كجراثيم الأمراض فإنها تؤثر فى الأجسام الضعيفة ، ومتى كان القلب عامراً بالإيمان واللسان رطباً بذكر الله تعالى ، لا يكون لهذه الخواطر عليه سبيل .

ثالثاً — ألا يعادى الحاسد أو العائن ودائماً يقابل السيئة بالحسنة حتى تنطفىء نيران الحقد ، وأن يجود عليه بالمال إذا كان محتاجاً ، فإن الصدقة تدفع البلاء ، وترد العين ، وتجلب حب الله تعالى والناس ، وتحصن المال . ففى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ : قال « حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ ، وَدَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، وَأَعِدُّوا لِلْبَلاَءِ الدُّعَاءَ » للطبرانى فى الكبير ، ولأبى نعيم فى الحلية عن ابن مسعود رضى الله عنه . وقال تعالى : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ[2] » .

وإذا كان الحسد هو تمنى زوال نعمة الغير ، فليس منه أن يتمنى الشخص لنفسه ما لغيره من الخير ، بل هى غبطة محمودة . فعن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِى اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ

---

(١) سفعة : صفرة من العين . (٢) إبراهيم الآية : ٧

الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ به آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ » . رواه البخارى وغيره .

وظاهر القرآن أن الحسد طبيعة في الإنسان ، ولكن تستطيع دفعه كما جاء فى الحديث الذى أخرجه عبد الرزاق مرفوعاً : « ثَلاَثٌ لاَ يَسْلَمُ مِنْهُنَّ أَحَدٌ : الطِّيَرَةُ وَالظَّنُّ وَالْحَسَدُ » قيل : فما المُخرج منها يارسول الله ؟ قال : « إِذَا تَطَيَّرْتَ فَلاَ تَرْجِعْ ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلاَ تُحَقِّقْ ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلاَ تَبْغِ » .

يتبين من هذا الحديث أن الشخص الذى يقع له خاطر الحسد يستطيع أن يجاهد نفسه فى دفعه ويؤجر على جهاده له وإلا كان باغياً مأزوراً .

منشأ الحسد

ينشأ الحسد من ضعف الإيمان ، وخبث النفس ، وعدم صلاح القلب . أما النفوس الخيرة المؤمنة إذا ما أعجبها شيء وراق فى نظرها ، فسرعان ما تنصرف عنه وتدعو لصاحبها بأن يزيده منها .

وقد جاء فى الحديث أن الرسول ﷺ قال : « مَنْ رَأَى شَيْئاً يُعْجِبُهُ فَقَالَ مَاشَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ لم تَضُرُّهُ الْعَيْنُ » . رواه ابن السنى عن أنس .

كيفية تأثيره

ينظر العائن إلى المعين والحاسد إلى المحسود نظرة إعجاب ، فتتكيف نفسه الشريرة بالكيفية الرديئة والظن بالله ظن السوء فتحدثه نفسه لماذا يعطى هذا أو يحرم ذاك ولا يزال يستكثرها على صاحبها فينبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالمعين أو المحسود وتتخلل مسام جسمه فيحصل له الضرر وهكذا . فكل نفس استعظمت واستكثرت الشيء على صاحبه ترسل أنفاسها سهاماً إلى الشيء الذى استعظمته فتقع الواقعة . وإن الحسد داء قديم قص علينا القرآن الكريم طرفاً منه ، من ذلك حسد إبليس لآدم حيث امتنع عن السجود له ، وقتل ابن آدم الأول لأخيه . وحسد أخوة يوسف له ، نجانا الله منه ونعوذ به من شره .

فى الزواج دنيا ودين

الزواج حنان روحى ، وامتزاج قلبى ، وليس اتصالا جنسياً فحسب . وقد بين الله سبحانه أن الحياة الزوجية قائمة على المودة والرحمة ، وأنها لا تبلى كما تبلى مودة غير الزوجين ، قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١) » .

و إن تسمية كل واحد منهما زوج لبرهان قاطع على أن كليهما شطر ناقص لايتم وجوده ولا حياته إلا بصاحبه ، ولا يكمل كذلك إلا به ، فالرجل حامى زوجته وكفيلها وحفيظها الذى يفتديها بماله ونفسه ، وحصنها الذى تعتصم به ، كما أنه يجد فى زوجته قرة عينه ، وسكينة قلبه ، و بهجة روحه ، ومستقر طمأنينته ، و يستمد من جانبها هناءة العيش وروح التشجيع فى حياته ، فتهون عليه متاعب الأعمال ، و يستهين بالكفاح فى الدنيا . كذلك تهيىء له الطعام ، وتقوم بتربية الأطفال فمحال أن يستغنى عنها الرجل . فليس من شك فى أن من انقطع من الزواج فقد فاتته سلوة الحياة ، وأسلم نفسه للوحشية البغيضة التى تنقص العمر الطبيعى . كما أثبت الطب الحديث والتجارب العديدة أن التزوج يساعد على إطالة العمر ، لأنه يؤدى إلى حياة مستقرة منظمة ، و يشعر بالرضاء والطمأنينة و إشباع النفس ، وهذا مفقود فى الأعزب ، لأنه يشعر بنقص فى معيشته ووحشته ، وقديماً قيل : — إن الأعزب يكون ملكا فى شبابه ، ولكنه يصبح عبداً مسكيناً فى شيخوخته .

أما المتزوج فإنه يكون عبداً مسخراً فى السنين الأولى من حياته الزوجية ، وعندما يهرم يجد نفسه ملكا متوجاً فى بيته ، ولا يحس بالوحشة والعزلة التى يشعر بها غير المتزوج .

---

(١) الروم الآية : ٢١

ولقد جاء فى تقرير مدير المستشفيات بالأمراض العقلية ، أن نسبة الانتحار والمرض العقلى ٤ ٪ من غير المتزوجين وواحد فى المائة من المتزوجين ، وأن المتزوجات أطول عمراً من غير المتزوجات . ومما يؤكد ذلك أن اللجنة الطبية البريطانية قررت أن الذين دخلوا المستشفى للأمراض العقلية من المتزوجين أقل من غير المتزوجين ، وأن العزاب أكثر عرضة للإصابة بمرض الشيزوفرانتا [(١)].

وأكثر من هذا وذاك ، أنه يتوقف عليه بناء العمران ، وتتطلبه طبيعة الإنسان ، كما أنه ليس متعة جنسية فحسب حتى يتعفف عنه العباد الزاهدون ، ولا مغنماً تجارياً يكون شبكة لصيد كل منهما مال أخيه وإنما هو حاجة ضرورية قال تعالى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ [(٢)] » .

تنبىء الآية الشريفة بأن كلا منهما ستر للآخر ، يستر معايبه ، ويحفظه من عاديات الأذى ومن الأنظار الساخرة ، كالملبس الذى يستر معايب الجسم . وفائدة ذلك حفظ النسل وبقاء النوع ويحول دون انقراضه ، لهذا رغب الشرع فيه ، وتتابعت أحاديث رسول الله ﷺ بأن الانقطاع عن الزواج ليس من الدين . قال ابن مسعود رضى الله عنه : لو بقى من عمرى عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله أعزب . ورأى عمر رضى الله عنه رجلا أعزب قادراً على الزواج فقال له : « لا يمنعنك من الزواج إلا عجز أو فجور » وقال ﷺ : « مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللهِ خَيْراً مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ ، إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِى نَفْسِهَا وَمَالِهِ » رواه ابن ماجه عن أبى أمامة .

وإن تعجب من زهد الكثيرين فى الزواج ، فأعجب من هذا الذين يعافون الطيب الشهى ، ويتكالبون على القذر القبيح فيعتاضون عن الزيجة الحلال ، بمن

(١) فى صحيفة الأخبار فى ٣ من المحرم سنة ١٣٧٨ و٢٠ يونيه سنة ١٩٥٨ .
(٢) البقرة الآية : ١٨٧

لايحل ، مثلهم كمثل من يستعذب المر ويستمرىء الخبيث . وقد دلت التجارب أن المال سبب فى طغيان المرأة ، والجمال يعرضها للخنا والفجور ، والحسب يورثها التكبر والعلياء . فقد روى عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لِعِزِّهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا ذُلاًّ ، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِمَالِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا فَقْراً ، وَمَنْ تَزَوَّجَهَا لِحُسْنِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا دَنَاءَةً ، وَمَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لَمْ يُرِدْ بِهَا إِلَّا أَنْ يَغُضَّ بَصَرَهُ وَيُحَصِّنَ فَرْجَهُ أَوْ يَصِلَ رَحِمَهُ بَارَكَ اللهُ لَهُ فِيهَا وَبَارَكَ لَهَا فِيهِ » رواه الطبرانى وغيره .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَتُزَوِّجُوا النِّسَاءَ لِحُسْنِهِنَّ فَعَسَى حُسْنُهُنَّ أَنْ يُرْدِيَهُنَّ[1] ، وَلاَ تُزَوِّجُوهُنَّ لِأَمْوَالِهِنَّ فَعَسَى أَمْوَالُهُنَّ أَنْ يُطْغِيَهُنَّ[2] ، وَلَكِنْ زَوِّجُوهُنَّ عَلَى الدِّينِ ، وَلَأَمَةٌ خَرْمَاءُ[3] سَوْدَاءُ ذَاتُ دِينٍ أَفْضَلُ[4] » .

وعن معقل بن يسار رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله : « إنى أحببت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لاتلد ، أفأتزوجها ؟ فنهاه ،ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة فقال له « تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّى مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ » رواه أبو داود وغيره .

ويطمئننا الرسول ﷺ على الرزق فيقول : « ثلاثة حَقٌّ على اللهِ عَوْنُهُمْ : المجاهدُ فى سبيل الله ، والمكاتَبُ الذى يُريدُ الأداء ، والناكحُ الذى يريد العفاف » . رواه الترمذى عن أبى هريرة .

---

(١) يرديهن : يوقعهن فى الهلاك بالإعجاب والتكبر .
(٢) تطغيهن : توقعهن فى المعاصى والشرور .
(٣) خرماء : مقطوعة بعض الأنف ومجدوعة الأذن .
(٤) أفضل : أى من ذات الحسن والجمال . قال تعالى : «ولأمة مؤمنة خير من مشركة»

ويرجع انتشار العزوبة لأسباب أهمها : فقد ثقة الشباب فى الفتيات للتبرج الفاضح والسفور الفاجر ، وكثرة الاختلاط والتغالى فى المهور ، فهذان هما السببان الرئيسان فى كساد سوق الزواج ، حتى أصبحت الفتاة المهذبة لاتجد أملها فى الزواج فلا تصادقه ، وأصبحت الأمهات يفضلن الموت على الحياة ، مما يساورهن من هموم وأحزان على بناتهن البائسات .

عادات ليست من الدين

من العادات الآثمة والبدع السيئة التى كانت سبباً فى انصراف أبنائنا عن الزواج اتخاذ الأخدان والخليلات وقتل العفاف ، ووأد الشرف والكرامات والمغالاة فى المهور ، وإلزام من يرغب فى الزيجة الفاضلة مايثقل ظهره ، وينوء به كاهله من حلى ثمين ، ومسكن كريم ، وثياب دقت صنعتها ، وغلا ثمنها ، وأثاث ورياش ، وهدايا فى كل مناسبة ، وما يسمونه « شبكة » . وغير ذلك من المظاهر الكاذبة ، التى تورث الزوج فقراً مدقعاً ، وخراباً عاجلا ، وضرراً بليغاً ، وليت الغلو ينتفع به فى مرافق الحياة ، بل فى أمور تتمتع بها الأنظار ، ويتقى بها الانتقاد ويقصد بها ، الفخر والرياء ، ولو أنهم تدبروا عاقبتها وماتقاسيه ابنتهم وزوجها من مرارة الدين وآلامه ، لحطموا هذه التقاليد الممقوتة ، والوراثة المزرية ، ولعلموا نظرية الشرع ، وما أبدعها من نظرة ، وحكمة الرسول وما أصدقها : « خَيْرُ الصَّدَاقِ أَيْسَرُهُ » رواه أبو داود .

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم رجلا لم يكن عنده مهر بأن يلتمس ولو خاتماً من حديد ، فلما اعتذر سأله صلى الله عليه وسلم عما يحفظه من القرآن فقال : سورة البقرة والتى تليها ، قال : « قُمْ فَعَلِّمْهَا عِشْرِينَ آيَةً » هذه رواية أبو داود عن أبى هريرة .

ولامنافاة بين هذه الأحاديث وآيتى النساء : « وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً

وَإِثْمًا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا[١] » . فإن المقصود والله أعلم المبالغة في التحذير عن أخذ شيء من مهر المرأة ، حتى ولو فرض أن المهر يبلغ قنطاراً من المال ، كما أنه قد يقصد المبالغة فى القلة مثل قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِداً وَلَوْ مَفْحَصَ قَطَاةٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ[٢] » .

فالقصد من هذا ولو مسجداً صغيراً لا مفحص القطاة لأنه لا يصلح مسجداً .

نعم لو فكروا قليلا وقدروا ، لرحموا الزوج واكتفوا منه بما يقدر عليه ، ولكن هى العادات قبحها الله ، قد استولت على القلوب فأعمتها ، وعلى النفوس فأضلتها ، وليتهم يقتصرون على ذلك ، بل يأمرون الزوج بأن يعد لأهل الوجاهة والقدر من الطعام أصنافاً ، ومن الحلوى والشراب أنواعاً ، وفى ليلة الزفاف ، يحضر من المغنيين والمغنيات مما يستدعى نفقات طائلة ، فلا ينتهى هذا العرس حتى ينقلب مأتماً على الزوجين ، وتلك عاقبة الذين أسرفوا ، وأن المسرفين هم أصحاب النار .

وثالثة الأثافى حمل الزوج على افتضاض بكارة دم عروسه بيده على مرأى من النساء ومسمع من الرجال ، وربما اشترك فى ذلك النساء ، وسبّب عاهة مستديمة وداء عضالا ، وكراهة الزوجة لزوجها ، وبخاصة إذا كانت حديثة السن ، فتبقى الكراهة فى نفسها لا تبخرها طول الأيام ومر الأعوام . على أن بكارة الفتاة قد تكون غائرة فلا يصل إليها والإصبع ، أو أزيلت بمرض سبق ، أو وثبة شديدة مثلا ، فماذا تكون حالتها وحالة أهلها عند الزفاف ؟

الجواب : ضياع شرف العائلة ، وإلحاق عار بفتاة شريفة بريئة لا ذنب لها . على أنه قد ثبت حمل البكر التى لم تزل بكارتها ، كما قرر الدكتور محمد عمار أستاذ الطب الشرعى بكلية الطب بجامعة القاهرة حيث قد اتهمها زوجها أمام

---

(١) النساء الآيات : ٢٠ ، ٢١ (٢) رواه مسلم بألفاظ أخر عن عثمان

النيابة بأنه أخذها بكراً فبانت ثيباً بحملها ، فانتدب لها الدكتور المذكور فتبين له أن البكارة لم تزل . لعمر الله لو أن وعاظ كل مركز جمعوا عمد البلاد ووجهاءها وشرحوا لهم نظرية الشرع الشريف ومساوىء هذه الجريمة ، ثم تعهدوا البلاد بالوعظ مثنى وثلاث ورباع ، لقضوا على هذه المأساة قضاء مبرماً لاقيامة بعده .

ألا من مبلغ عنى المسئولين من رجال الدين ، وأولى الأمر من المصلحين ، بأن هذه سبة فى جبين مصر والمصريين ، بل فى جانب الإسلام ، وأنها تنافى الكرامة الإنسانية ومن أعمال الحيوانات الوحشية ، وخاصة الطواف حول البلد بدم البكارة . ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم .

يامن تريدون لبناتكم حياة طيبة وعيشة راضية ، لاتعضلوهن فتحرموهن الحياة الطيبة حياة الزوجية التى هى من أعز أمانيهن وأنبل مقاصدهن ، فذلكم والله خير لهن من عيشهن فى ثروة آبائهن ولو كانت تسكن فى الأكواخ وتأكل من أعشاب الجبال ، فإن السعادة الزوجية ليست بالقصر المشيد ، ولا الفراش الوثير ، ولا التفنن فى الطعام والغلو فى الشراب . فكم من زوجة تندب حظها وتبكى ليلها ونهارها من انصراف زوجها عنها ، وهى تسكن قصوراً تحفها الحدائق والبساتين ، وحولها خدم وغلمان وسيارات فخمة تقلها من مكان إلى آخر ، وكل هذا لايخفف من وجدها ، ولم ينسها هجر زوجها ، فهى بين أمرين : إما أن تصبر على هذا البلاء ، وإما أن تجود بشرفها وتفرط فى عرضها فتخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، رحم الله سعيد بن المسيب الذى رفض زواج ابنته للوليد بن عبد الملك ولى العهد ، وزوجها لعبد الله بن وداعة وكان لا يملك شيئاً لاقليلا ولا كثيراً .

نعم تكون سعادة الزوجين فى امتزاج روحى وحنان قلبى يحدوها الإخلاص ويذكيها الحب ، ويحصنهما الصدق والأمانة . لذلك يجد كل منهما فى الآخر سعادة نفسه وقرة عينه ، وسكينة قلبه . قال الله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ

لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[١] » .

فأنت ترى من هذا أن المال وحده لا يكفل للزوجة أمنيتها ولا يحقق رغبتها .

ومما تجب محاربته ، وصد الناس عنه عدم السماح برؤية أحد الزوجين لصاحبه قبل الزواج ، أو مرافقة أحدهما الآخر مدة من الزمن . ففى الأول غبن بأن وضرر بين ، إذ أن الأمزجة تتنافر ، والأرواح تتناكر ، فلا يكون بينهما وئام ، فيقضيان حياتهما فى شقاء ، ويعيشان فى ذل وهوان ، وفى ذلك مخالفة لتعاليم الإسلام .

من حديث المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال النبى ﷺ : « انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا[٢] » ، وفى الثانى انطفاء شعلة الحب بينهما فيفقدان لذة البناء ، وربما لعب الشيطان بهما ، فتفسد العلاقة بينهما ، فتبور بضاعتها فى سوق الزواج ، وفى ذلك ضياع مستقبلها ، وسوء سمعتها . طالع الصحف اليومية تجدها غاصة بمثل هذه الحوادث التى جرت على المجتمع مصائب جمة وشراً مستطيراً ، وضرراً بليغاً .

إن الإسلام أباح للخاطب إذا صدق فى عزمه أن ينظر إلى الوجه والكفين من مخطوبته بحضرة محرم ، أما الاختلاط بينهما على سبيل التجربة قبل زفافهما فقد أثبتت التجارب فضائح مخزية ، لأن الكثيرين يتركون مخطوباتهم بعد أن يشبعوا شهواتهم ، ويملوا مخطوباتهم .

من هذا يتبين للقارىء الكريم أن سوء الحالة الاجتماعية ، والفوضى التى فى المحاكم الشرعية لم تكن راجعة إلى الدين ، وإنما هى من سوء التصاريف وعدم تطبيق الشرع الشريف ، وتارة تكون راجعة إلى جهل الزوج بما كانت عليه زوجته من خَلْق وخُلُق ، وتارة ترجع إلى عدم رغبة الزوجة فى الزوج فيكرهها

---

(١) الروم الآية : ٢١ .   (٢) يؤدم : ألا يفرق بينكما

ولى أمرها على من لا ترغب فيه مما لا حق له فيه ومن غير استشارة أمها التى هى أدرى بحال ابنتها ، فلا تتحقق الرغبة الصادقة والحكمة من الزواج ، فيعيش الزوجان فى غصة من العيش ونكد من الحياة ، وربما انتحر أحدهما ليتخلص من هذا الهم الدائم ، والعذاب الواصب ، لذلك قال رسول الله ﷺ : « آمِرُوا النِّسَاءَ فى بَنَاتِهِنَّ » رواه أبو داود وغيره عن ابن عمر .

وقد ورد أن فتاة بكراً جاءت فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة ، فخيرها الرسول ﷺ بين إمضاء العقد وإبطاله رواه أحمد .

وتارة تكون راجعة إلى الزواج بأخرى مع فقد العدالة بينهما ولم يأبه بالوعيد الشديد الذى جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ امْرَأَتَانِ فَلَمْ يَعْدِلَ بَيْنَهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ سَاقِطٌ » رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

أو عدم القدرة على القيام بواجباتها ، أو انصراف الزوج عنها لنزعات شيطانية ، ونزوات نفسية ، كل هذا يريك إصابة الشرع الشريف ، والدين الحنيف ، وإفلاس المتشرعين الوضعيين .

كسوف الشمس وخسوف القمر
من آيات الله تعالى

قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ ، وَلَـكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَصَلُّوا وَادْعُوا حَتَّى يُكْشَفَ مَا بِكُمْ » البخارى عن المغيرة .

هذه فقرات من خطبة خطبها الرسول عليه أفضل صلاة وأتم تسليم ، حينما فجع بابنه الأخير ، وقد صادف ذلك كسوف الشمس ، فأخذ الناس يفيضون فى الحديث : مابال الشمس كسفت واحتجب ضوءها المشرق الوضاح ؟ أليس ذلك إلا أسفاً على ابنه إبراهيم ؟ فقام الرسول ﷺ فيهم خطيباً فقال ما قال .

هذا و إن صدور هذا التوجيه الرشيد ، وذاك المعنى السديد ، من أمى نشأ فى الصحراء النائية عن العلم والعلماء وهو لايقرأ كتاباً ولايخط بيمين ، وليس لديه من الوسائل ما يخرجه عن عادة قومه ، ومؤثرات بيئته . كل هذا لايدع مجالا للشك فى أن هذه التعاليم جاءت من لدن حكيم خبير ، و إنها آية الله الكبرى ، ومعجزته الخالدة التى تشهد بصدقه ، وتؤيد نبوته ، فلا الشمس ولاالقمر وغيرهما مما عبد البشر إلا خلق الله يجرى عليه حكمه ، وتنفذ فيه قدرته « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » . فإذا ما كسفت الشمس وخسف القمر ، فليس ذلك لحادث فى الأرض جديد ، ولا لموت كبير ، ولالولادة عظيم ، و إنما نظام الله الذى جرت سنته الكونية ، فى تنظيم هذه المجموعة الشمسية ، والأفلاك العلوية . فكسوف الشمس ظاهرة طبيعية ، حال القمر بين الأرض و بينها ، وخسوف القمر حيلولة الأرض بيننا و بينه ، فإذا مااحتجبا عنا كان نذيراً لنا بأن آية الله قريبة ، فلا تنفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً . إذاً فجدير بنا أن نفزع إلى الله ونلجأ إليه فى أن يكشف عنا هذا

الضرر ، ويعيد علينا نعمته فنصلي ونكبر ، وندعو الله تعالى ونتصدق ، أما قرع الطبول وعزف الموسيقى فلا يقرهما عقل ولا دين .

يريد الرسول ﷺ توجيه هذه النفوس إلى فاطر الشمس والقمر ، وأن يجتث من قلوبهم شجرة الشرك فيعبدوا رب المشارق والمغارب والكواكب : «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ(١)» وهكذا في كل مناسبة يذكرهم الرسول بربهم كما جاء في الصحيح أن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم . قال : « أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ » .

ولتركيز هذا المعنى في نفوسهم كان إذا رأى الهلال قال : «اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ ، هِلَالُ رُشْدٍ وَخَيْرٍ » رواه الترمذي عن طلحة بن عبيد وقال حديث حسن .

منذ أيام خلت طلعت علينا الصحف بأن الشمس سيعاودها الكسوف كلياً في السودان كما حدث منذ ٩٢ عاماً مضت ، وما كاد يقترب هذا اليوم الموعود حتى أخذت البعثات الفلكية تترى من معظم الممالك ، وتفد على منطقة الخرطوم ، ليطبقوا العلم على العمل ويشهدوا منافع لهم ، ويزودوا قومهم إذا رجعوا إليهم ، وقد تعددت مقاصدهم واختلفت نياتهم ، فمنهم الذين يبتغون بذلك العلم وحده الذي يذلل سبل الحياة ، ويخفف عبئها عنهم . أما المسلمون فإنهم يبتغون فوق ذلك شيئاً آخر هو العظة والاعتبار ، ومعرفة حكمة الله في خلقه وإدراك البديع

---

(١) فصلت الآية : ٣٧

من صنعه ، فهم يريدون ديناً ودنيا ، وشعارهم قول الله : « رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وفى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [١] » .

و بدهى أنه كلما علا كعب الإنسان فى العلوم الكونية ورسخت قدمه فيها ، كان إيمانه أثبت ، وعلمه بالله أرسخ ، لأنه عرفه عن خبرة وتبصر ، لا عن وراثة وتقليد . فالنظر فى هذه الأفلاك يزيد المؤمن إيماناً و يبعث فى نفسه هيبة وجلالا من الله ذى المعارج . قال سبحانه : « قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ [٢] » وغير ذلك من الآيات الكثيرة التى سافت المسلمين فى العصور الأولى إلى أن يخوضوا غمار هذه الحركة العلمية ، ففكروا وابتكروا ، وبذلوا كل مرتخص وغال فى سبيل العلم . و إمام هذه النهضة الخليفة الثانى للدولة العباسية أبو جعفر المنصور وقد برع فى فن النجوم كما جاء فى التاريخ الصحيح ، وجاء بعده حفيده الرشيد ثم المأمون . ولست بصدد ذكرى هؤلاء لأن التاريخ أفصح منى لساناً وأبلغ بياناً . ولقد أحصيت الكتب التى كانت فى خزانة الدولة الفاطمية فى عهد المعز لدين الله فبلغ ٦٥٠٠ مجلداً فى النجوم والهندسة . وكان أول مرصد وضعه الخليفة المأمون ببغداد والحاكم بأمر الله فى جبل المقطم وغيرها فى بلاد أسبانيا .

ومن معجزات القرآن الكريم أنه خاطب كل عصر وجيل . بما يناسبه من الفهم والتأويل ، فلم يخاطبهم بما ينبو عن مداركهم ، ولا ينزل عن مستواهم ، حتى لا يكذبوه ولا يجحدوه . فإذا ما عرض علينا شيئاً من آياته الكونية أو قصة تاريخية ، إنما يقصد بها العظة والانتفاع بما فيها من آثار قدرة الله والعبرة بما كان لسلفنا الأولين ، فلم يكن القرآن ناموساً طبيعياً حتى يفصله تفصيلا ، أو علماً رياضياً حتى يبينه تبييناً ، أو كتاباً تاريخياً يراد به الإحاطة بعلم الأولين ، بل ترك ذلك للعقل والتنقيب ، فيستطيع الوصول إلى هذه التفاصيل بالبحث والتجارب ، و إن النهضة العلمية واليقظة الفكرية لتؤيد ذلك . و بهذا يتبين

---

(١) البقرة الآية : ٢٠١ (٢) يونس الآية : ١٠١

لنا قصور الذين يقولون مابال القرآن لم يبين لنا الأسباب التى كسفت الشمس وخسفت القمر. فمثلا يقرر القرآن بأن الشمس تجرى كما قال سبحانه : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١) » . وأن السموات سبعة وأنها طبقات منفصلة بعضها فوق بعض كما قال سبحانه : « الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً (٢) » . وكما قال نوح لقومه : « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً (٣) » .

فكان أهل البدو يرون أن الزرقة التى يرونها فوقهم هى السماء ، وأن الكواكب لاصقة بها ، فلما تقدمت العلوم وتوفرت آلات لرصد المحكمة ، وأدوات الكشف المتقنة ، علموا أن القرآن صادق وأن الكون كله فضاء تسبح فيه هذه الكواكب ، وهى مجاميع متعددة لكل مجموعة نظام وطبيعة تخصها وتسمى المجموعة الشمسية ونحن إحداها ، وهذه هى السماء التى عناها القرآن . وكذلك كان أهل البادية والشعوب المتأخرة ، كانوا يرون أن حركة الشمس هى هذه الحركة الظاهرية التى تتراءى لهم . فلما تقدم علم النجوم وتقويم البلدان ، تبين لهم أن هذه الحركة هى حركة الأرض ، وأن الشمس لها حركات أخرى سنبينها فيما بعد . وإنا لنذكرون ما كتبه السيد وكيل المرصد بحلوان حينما سئل عن قول الله تعالى : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » . قال ثبت لدى العلماء أخيراً أن للشمس حركتين خفيفتين ، إحداهما حول محورها فى كل ست وعشرين يوماً تقريباً ، وتدل عليها أرصاد كلف الشمس ، وهى نقط سوداء تظهر على سطحها بين حين وآخر ، وتتغير مواقعها بالنسبة إلى السطح وتقطع المسافة بين حافتى العرض فى زمن قدره ١٣٥ يوماً . وثانيتهما دوران الشمس — ومن حولها توابعها الكواكب السيارة وأقمارها —

---

(١) يس الآية : ٣٨ (٢) الملك الآية : ٣ (٣) نوح الآية : ١٦

حول مركز النظام النجومى بسرعة تقدر بنحو مائتى ميل فى الثانية ، فالشمس واحدة من ملايين النجوم التى تكون النظام النجومى ، والذى ثبت أنه يدور حول مركزه . و نظراً لأن الشمس لاتقع عند مركزه فإن لها حركة دورانية . والذى يفهمه الفلكى أو الرياضى من المستقر لجسم متحرك حركة دورانية أنه المحور الثابت الذى تكون الحركة حوله أو مركز المدار الدائرى لهذه الحركة . فنى الحالة الأولى يكون المستقر هو الخط الواصل بين قطبى الشمس ، وفى الحالة الثانية يكون هو مركز النجومى بأسره ، والذى يدور حوله الشمس وكافة النجوم الأخرى .

وإذا علم أن هاتين الحركتين الحقيقيتين للشمس لم تثبتا بالبرهان العلمى والأرصاد الفلكية إلا حديثاً أدركنا مافى هذه الآية الكريمة من إعجاز .

أما القمر فذكر أن له حركة حقيقية حول الأرض ويمكن ملاحظتها بسهولة من مراقبة موقعه بين النجوم ليلة بعد أخرى . فالمداران السالفا الذكر ليسا فى مستوى واحد بل يميل أحدهما عن الآخر ، ولولا ذلك لتكرر كل من الكسوف والخسوف مرة فى كل شهر ، وهكذا يتبين كيف أن لكل من الشمس والقمر فلكاً أو مداراً مستقلا . و بعد أن يتم القمر دورته فى مداره متنقلا بين منازله هذه يعود كما بدأ هلالا صغيراً متقوساً فى بادىء الشهر ، و يرى فى ضوء الشفق بعد مغيب الشمس ، و يكون لو نه مصفراً كعرجون النخل ، لأن مركبات ضوئه الأخرى تشتتت فى الطبقة الهوائية قبل وصولها إلى عين الراصد ، كما ترى لون الشمس مصفرة حين الشروق أو حين الغروب الخ ما قال .

العبرة من هذا أن الله سبحانه و تعالى جعل الشمس على مسافة تستمد منها حرارتها بمقدار معين بحيث تكون صالحة لحياة الإنسان والحيوان والنبات ، فلم تقرب من الأرض حتى تهلك سكانها حرارتها ولم نبعد عنها حتى تؤذيهم صبارتها .

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أن جعلها تدور حول الشمس ومحورها مائل على

ملكها حتى يتمتع جميع سكانها بخيرات الفصول الأربعة ، ولو جعل محورها عمودياً على فلكها لكانت حرارة بقاع الأرض على الدوام ثابتة ، ولحرم أهل القطبين من الشمس فتبقى بحارها على الدوام جامدة ، وتبقى بلادهم طوال السنة مغطاة بالثلوج فتستحيل الحياة ، صنع الله الذى أتقن كل شىء .

هذا وإن من يتأمل فى جميع أجرام هذا الكون العظيم ، يجدها متحركة حركة مستمرة . فالأقمار والنجوم والشموس والهواء والماء فى حركة دائمة ، ولهذا تفسر (أل) فى القرآن الكريم فى الليل والنهار والشمس والقمر بأنها لجنس هذه الأنواع ، يؤيد ذلك لفظ كل فى قوله تعالى : « كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » .

وهنا أنبه القارىء الكريم — أن ماوصل إليه العلم الآن نسبته إلى ما غاب عنا كنسبة ذرة من الأرض إلى جبالها ، بل يكاد يجمع فلاسفة اليوم أن الكون غير محدود وليس له نهاية .

وإجمال القول أن الأرض تدور حول محورها ، فيكون الليل والنهار ، قال سبحانه : «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً[١]» . وكذلك تدور حول الشمس فتكون السنة التى يتكون منها الفصول الأربعة ، ويدور القمر حول الأرض فيكون الشهر الذى تعلم منه السنين والحساب ، قال سبحانه : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[٢]» .

ومن تلك الآيات قوله تعالى : « اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ[٣]» .

---

(١) الفرقان الآية : ٦٢ (٢) يونس الآية : ٥ (٣) الرعد الآية : ٢

التلقيح الصناعى

هو إدخال الحيوانات المنوية فى جهاز الأنثى التناسلى فى وقت تكون فيه البويضة قد انطلقت من المبيض وصالحة للتلقيح . إذاً الزوجة والزوج يشتركان فى النسل ، ذاك بحيوانه المنوى ، وتلك ببويضتها ، وعللوا ذلك بأن النسل يتوارث عن الأب والأم الصفات التى بدورها انحدرت إليهما من آبائهما وأمهاتهما ومن الجدود ، يؤيد ذلك حديث الرسول ﷺ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن رجلا قال : يارسول الله ، إن امرأتى ولدت غلاماً أسود . قال : هل لك من إبل؟ قال : نعم . قال : فما لونها ؟ قال : حُمْرٌ . قال : هل فيها من أورقَ [1] ؟ قال : نعم . قال : فأَنَّى ذلك ؟ قال : لعله نَزَعَهُ [2] عِرْقٌ . قال : فلعل ابنك هذا نَزَعَهُ عِرْقٌ . رواه البخارى وغيره .

إذاً فالنسل الشرعى هو الذى ينحدر من الأم والأب وفيما عدا ذلك لايكون النسل شرعياً ، ولقد كتبت مجلة «الدكتور» فى هذا المعنى بأن كل حيضة فى المرأة يعقبها بويضة واحدة أو اثنتان فى وقت معين اتفق العلماء على أنه اليوم الرابع عشر من الدورة الحيضية محسوبة من أول يوم ينزل فيه الطمس ، وقد تنطلق البويضة قبل ذلك بيوم أو يومين ، وقد تنطلق بعد ذلك بيوم أو يومين .

هذه البويضة تبقى صالحة للتلقيح ، أى لاستقبال الحيوان ٢٤ ساعة فى رأى البعض الآخر وبعدها تفقد حيويتها ، أى تموت . أما الذكر فيخرج فى سائله المنوى فى الدفعة الواحدة مابين ٦٠ ، ٨٠ مليوناً من الحيوانات المنوية فى السنتيمتر المكعب الواحد وأحياناً طبعاً أقل من ذلك . والحكمة فى هذا العدد الضخم من الحيوانات المنوية ــ مع أن التلقيح لايحتاج إلا لحيوان منوى واحد ــ هو أن السائل المنوى يهبط فى المهبل ولا تستطيع أغلب الحيوانات المنوية الوصول إلى

---

(١) الأورق : الذى فى لونه سواد ليس بحالك . (٢) نزعه : جذبه إليه .

فتحة عنق الرحم وما يصل إليها يحدث من الصعاب والعراقيل ما قد يصده عن اجتياز عنق الرحم وفراغ باطن الرحم وفراغ بوق فالوب حتى يصل إلى البويضة ، فأى التهاب فى عنق الرحم يغير من طبيعته مانع للحيوانات المنوية من المرور ، كذلك تغير من طبيعة إفراز الغدد المدفونة فيه ، وهذا الإفراز مهم للحيوانات المنوية لأنها تتزود منه بمادة شبه سكرية تعينه على السفر والحركة داخل الجهاز التناسلى للأنثى .

كذلك لن يظن القارى أن الغشاء المبطن للجهاز التناسلى أملس بحيث تجرى فوقه الحيوانات المنوية بسهولة ، إذ به من التعاريج مايمكن أن يشبه بالوديان والهضاب وعلى الأخص فى بوق فالوب مايجعل الرحلة شاقة نوعاً ما ، ولهذا فإنه لابد للحيوانات المنوية من الكثير من الحيوية والنشاط كى تصل إلى البويضة[1] هـ .

حكم الله فيه

إذاً فالولد الشرعى لاينسب إلى أبيه إلا إذا جاء من طريق المباشرة الجنسية المشروعة التى وثقها العقد وأحلها الشرع ، لهذا رأى جمهور العلماء أن ابن الزنا لاينسب إلى الزانى ولا ابنته ، ولا تثبت به الحرمة ، فيصح أن يتزوج هذه البنت وهكذا ، لأنه لما تولد من غير طريقة الشرع أهدر الله هذا الماء فلم يجعل له قيمة ، فالولد ينسب إلى أمه فقط لا إلى الزانى ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ[2] وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ » رواه البخارى وغيره .

وسبب الحديث أن اثنين من العرب تنازعا فى مولود ، أحدهما ينسبه إلى قريب له لأنه زنى بأمه ، وثانيهما ينسبه له لأنه من زوجته ، فأبطل الرسول ﷺ حجتهما بأن الولد لأمه ، والعاهر الذى هو الزانى له الرجم بالحجر .

هذا وإن الذى حملنى على الكتابة فى هذا الموضوع الخطير ، ما نقلته بعض

---

(١) من مجلة الدكتور (٢) الفراش : الأم .

الصحف اليومية أن بعض الدول أحست بقلة نسلها ، فأرادت أن تعوض ذلك بالتلقيح الصناعى الذى هو معرة فى تاريخ البشرية .

إنه لعجيب أن يبلغ الزهو والنهور بالغربيين إلى تحدى سنن الله الكونية التى يسمونها طبيعة ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . ويقينى أن هذه الفكرة مانبتت فى نفوسهم إلا لأنهم وجدوا نابتة الشبابآخذة فى الانقراض ، وكادت تقضى عليها الحروب ، فهم يريدون أن ينشئوا جيلا يعوضهم ما فقدوه فى الحرب الفاجرة التى ذهبت بملايين الشباب ، فبدلا من أن يعددوا الزوجات الذى فيه شرف ومتعة وحماية للمرأة ، وصيانة لها عن القيل والقال ، فكروا فى هذه العملية الماجنة التى هى نوع من الزنا ، وجناية على المرأة ، ولا تحقق لها رغبتها الجنسية .

ولقد صرح كبير المجددين منهم بأنهم يستطيعون أن يلقحوا مائة امرأة من رجل واحد فى وقت واحد ، ولكن الحق لا يعدم نصيراً فقد عارضهم حزب المحافظين ، الذين هم أدنى إلى الحق وأبعد عن الباطل ، بأن هذا حدث ومصيبة كبرى على الأسرة الإنجليزية ولم يكن فيه تحقيق للهدف الذى يبتغونه .

شبهة المجددين

إن مواليد الإنسان كمواليد الحيوان ، وكما أن حضانة الحيوان تقوم بها الأمهات كذلك الشأن فى الإنسان ، كما أن الحيوان يتسافد ويتلاقح من غير قصر الأنثى على الذكر ، ويرى فصائله وطوائفه تملأ طباق الأرض ، فما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه خلت منه الدنيا ساعة من نهار ، وماسمعنا بانقراض جنس من الأجناس . هذا دليلهم وذاك قياسهم ، ولو أنهم فكروا قليلا وتدبروا العاقبة لعلموا أن حاجة الأبناء إلى الآباء كحاجتهم إلى الطعام والشراب ، لأن الحنان الأبوى لا يعوضه شىء فى الوجود . فإن هذه الرحمة المتأججة فى قلوب الآباء ، هى وحدها الحافز الأول على تهالك الآباء على تربية

الأبناء ، واستماتتهم فى سبيل إحيائهم ، وركوب الأخطار ومكافحة المصاعب فى تنشئتهم وتهيئتهم للحياة الطيبة ، وبدون هذه الرحمة فالنشء هالك لامحالة .

فقل لى بربك من الذى يشقى نفسه ليسعد غيره ؟ ومن الذى يسهر الليل كله ويكد نهاره ليسدى ثمرة تعبه لغيره إلا الأب لابنه ؟ وهل وجد الحنين بين الذكر والأنثى ، وذاك الميل الجنسى الذى يتأجج بين الجنسين ، إلا لتحقيق هذا الهدف الأسمى ، ولولا ذلك لما حن رجل إلى امرأة ، ولثقل على المرأة ظل الرجل ، أليس ذلك إلا ليظل البناء فى صعود وعمارة الكون فى ازدياد ويتعاون الرجل مع المرأة على تربية هذا المولود الضعيف . ولو أن الحكومة تعهدت النشء فى التربية ، فإن هذه التربية تكون ناقصة ، ولا تقوم مقام الآباء « صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ » .

من هذا تعلم مبلغ إصابة الشريعة الإسلامية فى حظر تبرج المرأة لغير زوجها وانفرادها بأجنبى أو سفرها إلا إذا كانت مع زوجها أو محرم ، وذلك ليستيقن الرجل من زرعه ويطمئن على حرثه ، وكلما ازداد إيمانا به ازداد تفانياً فى خدمته ، وكلما ضعفت ثقته بزوجه وخالطه ريب أو مازجه شك فى ابنه قل التهالك وذهبت تلك الجهود الجبارة ، ونضب معين الإخلاص للمولود ، وبهذا يهبط مستوى الإنتاج العام ، وإذا هبط مستوى الإنتاج العام اضطرب المجتمع وتقهقر ، وأخذ فى طريق الانحلال ، بل ربما انتهى إلى الفناء والانقراض .

على أن حضانة الحيوان لاتتجاوز أياماً معدودات ، ولا تكلف الأمهات سوى التقام الفصيل ثدى أمه ، وتمرينه على التغذى فى المرعى ، وبعد هذا ينفصل كل منهما عن الآخر كأنه لايعرفها ولا تعرفه . أما الإنسان فشىء آخر يباين الحيوان تباين السلب والإيجاب ، والهدى والضلال ، فكفالته وتربيته تلبث إلى الخامسة عشرة بل إلى الثلاثين . فمن ذا الذى يقوم بهذا العبء الثقيل فى هذا الزمن البعيد ، ويقوم بمطالب الحياة من ملابس متنوعة ومآكل مختلفة

ومسكن يحميه من قيظ الحر وزمهرير الشتاء ، ونفقات شخصية وتعليمية ، وأجور طبيب وتمريض وثمن الدواء ، وما إلى ذلك من مستلزمات الحياة مما تنوء به كواهل الآباء . فكيف تستطيع الأم أن تقوم بهذا العمل المضنى ، وهى فى حاجة إلى من يعولها ، ويجلب لها مادة الرزق ووسائل العيش . أين هذا من الحيوان الذى خرج من بطن أمه غنياً عن كسائه ، بجلده ووبره وشعره وصوفه ، ويكفيه من العيش قليل من عشب الأرض وجرعات من الماء .

فيا هؤلاء خففوا من غلوائكم ، واعرفوا قدركم ، فما هلك امرؤ عرف قدر نفسه ، ولا تظنوا أن ماأوتيتم من العلم حقق للإنسانية رفاهية الحياة ، وخفف عنها عبئها ، ووضع عنها إصرها بل صيرها إلى جحيم ، وأنزلها فى هاوية سحيقة مالها من قرار .

وهذه هى الأزمات الاقتصادية التى جعلت الأمم تشكو الجوع والفقر ، ونضوب الخزائن ، وكثرة العاطلين ، وتلك المشكلات الاجتماعية وسوء الحالة السياسية . فما من أحد إلا وقد هزته الحوادث هزاً ، ونالت منه نذر الشر . ومن منا نعم بطمأنينة القلوب ، وبهجة النفوس وقرة العيون اللاتى هى أغلى ما فى الوجود ، وأعز شىء فى الحياة إذا فقدها الإنسان فقد كل شىء .

ولو كانت علومكم هذه تابعة للدين فأتمرت بأوامره ، وانتهت بنواهيه ، لكان لها فى نفوسنا تقدير واعتبار ، وتعظيم وإكبار ، ولكن والأسف يملأ قلوبنا قد انفصلت علومكم هذه عن الدين ، فصارت آلة تعذيب وتخريب وإبادة وإعدام ، وسلب مافى يد الغير ، وما تلك الحروب الأخيرة ببعيدة ! فكم من نساء ترملت وأطفال تيتمت . وكم من شباب حصدت ، وحصون دمرت ؟ وهل الدين ياقوم إلا مراسيم رسمها العليم الخبير ليرسم لكل شخص حده ، فلا يتعدى طوره ، ولا يتجاوز حده ؟ فلا يظلم أحد أحدا ، وتشعر النفوس بالسلطان الأعلى ، الذى له ملك السموات والأرض . لاتخفى عليه خافية ، ويعلم خائنة

الأعين وما تخفى الصدور ، ويجزى كل نفس بما كسبت فلا يظلم الناس شيئاً ، ولـكن الناس أنفسهم يظلمون .

فمن هذا نعلم أن التلقيح الصناعى لا يحقق الغرض المنشود ، وهو معرة كبرى ومضيعة للأسر وهادم لـكيانها ، وذريعة إلى الفسق والفجور ، وإغراء على اتخاذ الإخوان والخليلات ، وهو يجعل المرأة تستهين بحملها ولا تخلص فى تربية نسلها ، وكيف تخلص فى ذلك ما دامت تعلم أن مجهودها لغيرها ، وأن نسلها يشرف عليه غير زوجها : « رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ[1] » .

قسم العبادات

أنواعها : توكل و إنابة ، وخشوع واستعانة ، وخوف ورجاء ، ونذر وذبح وطواف ، وما إلى ذلك مما أمر الله تعالى به . وليس كل تعظيم عبادة مهما بلغ النهاية مادام معروفاً سببها ، وسلطة المعظم محدودة حاضرة ، فمن عظم الملوك تعظيما بلغ أقصى الذل ، كتقبيل مواطىء الأقدام ، لايدخل هذا التعظيم فى العبادة ، لأن المعظم سلطته معروفة ، وتكريمه ورجاؤه داخلان فى الأسباب والمسببات .

لهذا لايصح الحديث : « مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ لِأَجْلِ غِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ» .
وهذا بخلاف تعظيم الولى الميت أو الحى الغائب عن الوجود ، فإن تعظيمه ضرب من ضروب العبادة ، لأن تعظيم السلطة الغيبية لا يكون إلا لله وحده بخلاف الحاضر المحدود ، اللهم إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، وفضلهم على سائر أهل الدنيا ، لأنهم أطيب الناس عنصراً ، وأطيبهم جوهراً ، فهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد ، إلى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك والآلهة أرباباً ، وعبدوهم عبادة خشية و إنابة .

الابتداع فى الدين إشراك مع الله فى التشريع

التشريع من خواص الربوبية ، قال الإمام الشافعى : « من ابتدع فقد شرع » .

وقد جاء الوعيد الشديد للمبتدعين فى الحديث الصحيح : « إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبَلُ مِنْهُمْ صَلاَةً وَلاَ صَوْماً وَلاَ حَجًّا وَلاَ صَرْفاً وَلاَ عَدْلاً » .

وقال الإمام مالك : من زعَمَ أن هناك بدعة حسنة ، فقد اتهم الرسول بأنه خان الأمانة ، لأن الله تعالى يقول : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً [١] » ، لأن التشريع من خواص الربوبية . فالشريك هنا يقصد به الشريك فى التشريع . قال تعالى : « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَالَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ [٢] » وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَامِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِى أُمَّةٍ مِنْ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ » .

وفى رواية : « يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ وَيَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَالَا يُؤْمَرُونَ ؛ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ » .

وفيه أيضاً عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول فى خطبته : « أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » .

وأخرج أيضاً ابن ماجه والترمذى عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال : « مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةَ ضَلَالَةٍ لَا يَرْضَاهَا اللهُ وَلَا رَسُولُهُ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَوْزَارِ النَّاسِ شَيْئاً » .

---

(١) المائدة الآية : ٣ (٢) الشورى الآية : ٢١

وروى عن معاوية أنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ[١] » وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال إنَّ إبْلِيسَ قَالَ : « أَهْلَكْتُهُمْ بِالذُّنُوبِ فَأَهْلَكُونِى بِالِاسْتِغْفَارِ فَلَمَّا رَأَيْتُ ذٰلِكَ أَهْلَكْتُهُمْ بِالْأَهْوَاءِ فَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ فَلاَ يَسْتَغْفِرُونَ » رواه أبو عاصم . وعن هشام بن عروة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ وَقَّرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الْإِسْلَامِ[٢] » .

ولقد أصبحنا فى زمان التبس فيه الحق بالباطل بما أحدثه ذوو الضلالة المبتدعون من التغيير والتبديل والتحريف والتأويل مما لم يكن عليه السلف الصالح ومن تبعهم من بعدهم ، وهذا ما كان يخشـاه النبى المعصوم على أمته إذ قال : « إِنَّ مِمَّا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ » أخرجه ابن ماجه والترمذى عن ثوبان رضى الله عنه ، وقال تعالى : « اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ[٣] » وإننا لا نستطيع أن نحصى أفرادها ، لهذا نقتصر على ما يبدو لنا منها وما ضرره أعظم .

بدع المآتم

منها : تلاوة القرآن على القبور ، وقد ورد ما يشير إلى النهى فى حديث مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِى تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ » وقد تركه النبى صلى الله عليه وسلم وتركه الصحابة مع قيام المقتضى للفعل ، وهى الشفقة بالميت وعدم المانع . فمقتضى القاعدة المذكورة أن يكون تركه هو السنة وفعله بدعة

(١، ٢) للبغوى فى مصابيح السنة . (٣) الأعراف الآية : ٣

مذمومة . وكيف يعقل أن يترك الرسول شيئاً نافعاً لأمته يعود عليها بالرحمة ويتركه الرسول طوال حياته ولا يقرأ على ميت مرة واحدة .

ومنها بدع الأربعين ، وما يسمونه معاداً ، والأخماس ، وطلعة رجب والأعياد ، كل هذا محذور وغير مأذون فيه ولا يعود على الميت إلا بالضرر ، إذ أنه يتألم من كل ما يخالف دين الله تعالى ، والويل كل الويل لمن فعل ذلك ، وفى الورثة أيتام ، فهناك يحق عليه وعيد الله : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١) » .

ويا ليت هذه النفقات تصادف فقراء فتكون صدقة على الميت ، ولكنها لا تقع إلا فى أيدى الأغنياء الذين ليسوا فى حاجة إلى هذا كله . ومعروف أن الصدقة ليس فيها ثواب إلا إذا كانت لبائس فقير .

ومما هو أدهى وأمر ، بناء الحجرات فى المقابر ، واتخاذ الأحواش وزخرفة المقابر وارتفاعها والكتابة عليها ، فقد ورد النهى عن كل هذا ، إذ أن بناء الحجرات واتخاذ الأحواش ، اغتصاب لحقوق المسلمين وتضييق عليهم ، فإنها أرض مسبلة للدفن فحسب ، فمن أخذ زيادة عما يحتاجه للدفن ، فقد هضم حق غيره وظلم نفسه وآذى ميته . رحم الله آباءنا الأولين الذين لم تنسهم الحياة رهبة الموت وقسوة المصير ، ورحمة الله على تلك النفس الزكية التى ذهبت إلى ربها راضية مرضية .

هذا ولو علم المسلمون أن موتاهم قد انتقلوا من باطل إلى حق ، ومن هزل إلى جد ، وأن الميت أفضى إلى ما قدم ، ويكفيه فى برزخه أربعة أذرع ، لحولوا هذه القصور إلى قبور لموتى المسلمين ، وقسموا هذه الأحواش بينهم وبين غيرهم ، بذلك يكونون قد أحسنوا إلى أنفسهم وأرضوا الله عليهم ورفعوا التبعات الملقاة على الأموات لذين كانوا سبباً فى هذه السنن السيئة ، فحولوا أماكن العبرة

---

(١) النساء . الآية : ١٠

والادكار ، إلى مواطن تيه وفخار ، وترفه للأحياء ، وربما كانت مباءة لفجور وعصيان . ومما يحزن كثيراً أن المسلمين قد اقتدوا بالنصارى واليهود فى تشييع جنائزهم ، فمن موسيقات تصدح ومن طاقات من الورد والياسمين ، ومن جماعات اختلفت أشكالهم وتنوعت أزياؤهم ، يرتدون أردية خضراء ، ويلبسون قلنسوات قد عظم حجمها ، ومن جنود رجالا وركباناً وأناساً يحملون مجامر ، ومن أطفال وشيوخ يرددون أصواتاً منكرة ، وهكذا مما يذهب روعة الموت وجلاله .

ولا تسل عما أحدثوه فى زيارة المقابر من المبيت والجلوس والقعود على القبور وأخذهم المتعة من طعام وشراب ، واختلاط النساء بالرجال ، مما كان له أثر سىء فى إفساد الأسر ، ووأد الشرف وانتهاك الفضيلة ونشر الرذيلة .

ولقد ورد الوعيد الشديد والتحذير من الجلوس على المقابر ، ففى حديث مسلم عن أبى هريرة : « لَأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ فَتَخْلُصَ إِلى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرٍ » .

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر يبكى ، فقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتذكر القبر فتبكى ، فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ ، فإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ » .

قال وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَارَأَيْتُ مَنْظَراً قَطُّ إِلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ » رواه الترمذى عن هانىء مولى عثمان .

فإن كانوا يذهبون بحجة تلاوة القرآن ، فإن تلاوة القرآن على المقابر متفق على عدم مشروعيتها السلف والخلف ، «فمن الخلف انظر حاشية الشيخ العدوى على شرح أبى الحسن المسمى كفاية الطالب وكذلك فى كتاب الشرح الصغير للشيخ الدرديرى ، على أن القرآن لايصح أن يحترف به فى المعيشة فإن أنبياء الله تعالى وسلفنا كانوا محترفين كما جاء فى الحديث الشريف . فنوح وزكريا كانا نجارين ،

وسليمان كان خواصاً ، وداود كان حداداً ، وموسى وشعيب راعيين ، ونبينا صلى الله عليه وسلم كان تاجراً ، وكذلك أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بزازين وتجاراً وهكذا .

وها هو ذا حديث مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ » .

إذ أن القصد من الزيارة إنما هى عظة الموت وحديث : « اقْرَءُوا يٓس عَلَى مَوْتَاكُمْ » فهو ضعيف فى سنده مجهولان ، وأضر من هذا وذاك الصلاة فى الضريح والقراءة والتهليل والتسبيح ، وهو لون من ألوان البدع التى انتقلت إلينا من سلالات الأحبار والرهبان من النصرانية واليهودية ، وهى وإن كانت من مظاهر الحب والولاء ، إلا أنه حب ضلالة طغى على العقل وطمس على البصيرة ، تراه راكعاً خاشعاً ذليلا أمام صاحب الضريح ، كأنه واقف فى المحراب أمام رب العالمين .

أما البكاء على الميت ففيه تعذيب الميت إذا لم ينه عنه فى حياته ، فقد ورد أن عمر سمع صوت بكاء فدخل ومعه غيره فقام ضرباً حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها وقال : اضرب فإنها لا حرمة لها ، إنها تبكى بشجوكم ، وتهرق دموعها لأخذ دراهمكم ، وتؤذى موتاكم فى قبورهم ، وأحياءكم فى دورهم ، وتنهى عن الصبر الذى أمركم الله به ، وتأمر بالجذع وقد نهى الله عنه . وقد جاء فى الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » أخرجه مسلم عن أبي مالك الأشعرى .

كيف يُكرم الميت

نكرمه بماجاء عن الرسول ﷺ وهى : أن نحسن كفنه فيكون الكفن من أبيض لا من حرير ، ويكون للرجل إزار ورداء ولفافة ، وللمرأة إزار وخمار وقميص ولفافتان ، هـذا هو الأكمل ، وإلا فيكتفى بما يستر الجسم جميعه ، وإذا كان الميت له يتامى تشتد الحرمة فى اتخاذ الكفن من الحرير ، فقد قال ﷺ : «أَحْسِنُوا الْكَفَنَ وَلاَ تُؤْذُوا الَميِّتَ بِبُكَاءٍ وَلاَ عَوِيلٍ وَلاَ بِتَذْكِيَةٍ وَلاَ بِتَأْخِيرِ وَصِيَّةٍ وَلاَ بِقَطِيعَةٍ ، وَعَجِّلُوا بِقَضَاءِ الدَّيْنِ ، وَاعْدِلُوا عَنْ جِيرَانِ السُّوءِ ، وَأَعْمِقُوا إِذَا حَفَرْتُمْ وَوَسِّعُوا » للديلمى عن أم سلمة .

وعن أبى سعيد مالك بن ربيعة الساعدى أن رجلا قال يارسول الله ، هل بقى من برِّ أَبَوَيَّ شيء أبرُّهما بعد موتهما ؟ فقال : « نعم ، الصَّلاَةُ[1] عَلَيْهِمَا وَالاسْتِغفَارُ لَهُمَا ، وَإِنْفاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لاَ تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا ، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا[2] » .

هذا ومن السنة القيام للجنازة إذا مرت بالإنسان وإن كانت جنازة أجنبى عن الدين ، لأن الجنازة للموت لا للشخص ؛ كذلك من السنة أيضاً ألا يجلس متبعوها حتى توضع على الأرض ، وعند وضعه فى القبر يقول الدافن : بسم الله وعلى ملة رسول الله . ولم يثبت أن الرسـول وأصحابه كانوا يهيئون مكاناً خاصاً للتعزية ولا يجلسون لينتظروا المعزين ، بل كانت التعزية قاصرة على تشييع الجنازة أو حيثما اتفق . نعم يسن أن يصنع لأهل الميت طعام ، فقد قال رسول الله ﷺ :

« اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرَ طَعَاماً فَقَدْ أَتَاهُمْ مَايَشْغَلُهُمْ » رواه البخارى وغيره .

هل يجوز حضور الزوج زوجته فى الغسل أو بالعكس ؟ وهل يجوز تقبيل الميت ؟

---

(١) الصلاة : الدعاء . (٢) تيسير الوصول إلى جامع الأصول .

الجواب عن الأول : ليس هناك مانع من حضور أحدهما غسل الآخر ، وإن كان الأفضل النساء للنساء والرجال للرجال ، وقد ثبت أن علياً غسل زوجته فاطمة وغسل أبا بكر زوجتُه أسماء ، وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماغسل رسولَ الله إلا نساؤُه » أخرجه الترمذى .

والجواب عن الثانى : إن تقبيل الميت لا مانع منه ، فلقد قبل رسول الله ﷺ عثمان بن مظعون ، وكذلك قبل أبو بكر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلقد دخل عليه وهو مسجى بثوبه فكشف عنه الثوب وقال : « بأبى أنت وأمى يارسول الله طبت حياً وميتاً ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة . فعظمت عن الصفة ، وَجَلَلَت عن البكاء ، وخَصَصْت حتى صرت مسلاة . ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشئون[١] ، أما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد[٢] وإدناف[٣] يتحالفان ولا يبرحان ، اللهم فأبلغه عنا السلام » .

ومن البدع المنكرة التغالى فى الكفن وجعله من حرير ، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « لاَ تَغَالَوْا فى الْكَفَنِ فإِنَّهُ يُسْلَبُ سَلْباً سَرِيعاً » رواه أبو داود عن على . وقال ﷺ : « الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ » أخرجه أحمد وغيره .

كذلك منها حملهم الأطعمة إلى المقابر فى المواسم وفى الأخمسة ، بحجة تلاوة القرآن على الأموات مما لم يقم عليه دليل من القرآن والسنة ، ولا أعمال الصحابة والتابعين ، فى حين أن الناس دائماً مدفوعون إلى تكريم موتاهم . على أن القارىء قد أخذ أجره فى الدنيا ، فكيف ينال أجره فى الآخرة وثوابه عندالله تعالى حتى يوهب ثوابه للميت . أضف إلى ذلك أن تلاوة القرآن عبادة ، والعبادة لابد أن

(١) الشأن : مجرى الدمع (٢) الكمد : الحزن (٣) الإدناف : المرض .

تكون خالصة لله وحده ، فلو أن هؤلاء تصدقوا بثمن ما يسمونه رحمة على الأقارب الفقراء والجيران والحاويج من اليتامى والأرامل ، لكان خيراً للأموات والأحياء . ومما أحدثه الناس قراءة (سورة قل هو الله أحد) بعدد محدود ، لتعتق الميت من النار ، وإسقاط الصلاة كذلك.

كذلك من المنكرات الذبح تحت النعش أو عند القبر ، وكذلك مجاملة النساء فى النوح على الميت ، واعتقاد طيران النعش ، وخفته وثقله ، ولطم الخدود وشق الجيوب ، ودعاء بدعوى الجاهلية ، وقولهم بعد الصلاة (ماتشهدون) وما إلى ذلك من ارتفاع القبور وتجصيصها بالجص والكتابة عليها ، والجلوس كذلك والصلاة فيها وضرب القباب عليها .

روى أبو داود عن مالك بن أنس رضى الله عنه أنه قال : خرج رسول الله ﷺ فرأى قبة مشرفة فسأل عنها ، فأجاب أصحابها بأنها لرجل من الأنصار ، فأعرض عن الرجل مراراً حتى عرف الغضب فى وجهه ، والانصراف عنه . ولما شكا إلى أصحابه إعراض رسول الله ﷺ عنه ، سألوه عن السبب فى ذلك قال : خرج فرأى قبتك ، فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سوّاها بالأرض . وخرج رسول الله ﷺ يوماً فلم ير القبة فسأل عنها ، فقال من حوله : شكا صاحبها يوماً إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ إلاَّ مَالاَ بُدَّ مِنْهُ » .

عظة القبر

إن من زار القبور الزيارة الشرعية ، لابد أن يخطر فى ذهنه فكرة الفناء ، وتتملكه خواطر الرحيل ، ويصيح فى أذنه نذر الوداع . فيستدبر الحياة بعد أن يستقبلها ، ويودعها بعد أن أخذ نصيبه منها . هذه هى الحكمة من زيارة القبور ، سواء كان أهلها من عامة الناس أو أنبيائهم أو صالحيهم .

فما أحوجنا إلى زيارة موتانا الذين طفقوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة . إلى

خلود الأبد . جُعل لهم من الضريح أكنان ، ومن التراب أكفان ، ومن الرفات أخدان ، استبدلوا بظاهر الأرض بطناً ، وبالسعة ضيقاً ، وبالنور ظلمة ، إلا من آمن وعمل صالحاً .

فالمؤمن العاقل هو الذى يقف أمام القبر موقف المعتبر المتعظ ، يستعرض العمر الذى قضى من حياته ولا رجعة له ، ويأسف على مافاته من صالح العمل ، وأن نهاية الحياة الدنيا على مافيها من بؤس ونعيم لاتعدو قول الله تعالى : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً[1] » .

نعم ما أحوجنا إلى أن نذكر مصارع آبائنا ، ومضاجع أمهاتنا من الثرى ، فنثوب إلى رشدنا ، ويتمزق حجاب الغفلة الذى أحاط بقلوبنا ، فنعلم أن مصيرنا مصيرهم ، وعما قليل سنلحق بهم صدق القائل :

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف مما لابد من شربه

اللهم بصرنا بعواقب أمورنا ، وذكرنا بمصيرنا ، وأزل الغفلة التى رانت على قلوبنا . قال الإمام أحمد رضى الله عنه : سبحانك ما أغفل هذا الخلق عما أمامهم ، الخائف منهم مقصر ، والراجى متوان .

روى ابن عبد ربه فى العقد الفريد : أن الحجاج بن يوسف الثقفى قال حينما أشاع أهل العراق موته : يا أهل الشقاق والنفاق ، نفخ إبليس فى حناجركم فقلتم مات الحجاج ، مات الحجاج ، والله ما أحب ألا أموت ، وما أرجو الخير كله إلا بعد الموت ، ومارأيت الله عز وجل رضى بالخلود لأحد من خلقه إلا أهونهم عليه — إبليس ، ولقد رأيت العبد الصالح سأل ربه وقال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَيَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ، وكأن ذلك لم يكن » .

---

(١) الكهف الآية : ٤٥

ومن قوله لما مات له ولدان فى يوم واحد : أما والله لقد كنت أرجو أن يكونا معى فى الدنيا مع ما أرجو لهما من ثواب الآخرة ، وأيم الله ليوشكن الباقى منا ومنكم أن يبلى ، والحى منا ومنكم أن يموت ، وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها ، فتأكل من لحومنا ، وتشرب من دمائنا ، كما مشينا على ظهرها وأكلنا من ثمارها وشربنا من مائها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « وَنُفِخَ فى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فى الأَرْضِ إِلاَّ من شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ[٢] » . وتمثل بهذين البيتين :

عزائى نبى الله من كل ميت وحسبى ثواب الله من كل هالك[١]

إذا ما لقيت الله عنى راضياً فإن سرور النفس فيما هنالك

ويرى بعض العلماء أن القرآن إذا خرج مخرج الدعاء يصل ثوابه إلى الميت ، لأن الدعاء ينفع الميت من غير شك ، وإنما يكون ذلك بشروط :

أولا — أن يكون القارىء قريباً للميت أو صديقه .

ثانياً — أن تكون قراءته حسبة لله تعالى ، لا فى مقابلة نفع دنيوى .

ثالثاً — أن يعقب القراءة بالدعاء بأن يقول : اللهم ارحمه وأوصل ثواب هذه القراءة للميت .

رابعاً — أن تكون القراءة شرعية لا بالتغنى المعروف الذى يخرج الحروف عن مواضعها ، فإذا اختل شرط من ذلك فلا ينتفع الميت بالقراءة لا فى قليل ولا فى كثير . وهذا رأى ابن الحاج فى المدخل وابن حجر فى الفتاوى الكبرى .

وبدهى أن ما عليه الآن الكثيرون من القراءة التى على المقابر أو فى السرادقات ، أو تحريف القراءة ، أو الذين يقرءون على قوارع الطريق وعربات الترام ، هذا كله غير مشروع ، لأن القارىء يقرأ فى مقابل نفع دنيوى .

---

(١) الزمر الآية : ٦٨ (٢) من العقد الفريد لابن عبد ربه .

وعلى هذا فلم ينل القارىء الثواب حتى ينتقل منه إلى الميت ، لأن الله تعالى لايجمع لأحد بين ثوابين : ثواب الدنيا وثواب الآخرة ، كما أنه سبحانه لايثنّى العقوبة عليه ، عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة على المذنب .

وبهذا يتحقق العدل الإلهى بأجلى مظاهره فى الأولى ، والرحمة الواسعة فى الثانية .

قال الحسن : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه إلى بقيع الغرقد فقال : «السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاكُمُ اللهُ مِنْهُ مِمَّا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكُمْ » ، ثم أقبل على أصحابه فقال : « هٰؤُلاَءِ خَيْرٌ مِنْكُمْ » ، قالوا يا رسول الله ، إخواننا أسلمنا كما أسلموا ، وهاجرنا كما هاجروا ، وجاهدنا كما جاهدوا ، وأتوا على آجالهم فمضوا فيها ، وبقينا فى آجالنا ، فما تجعلهم خيراً منا ؟ فقال « إنَّ هٰؤُلاَءِ خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا ولم يأْكُلُوا مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتُمْ قَدْ أَكَلْتُمْ أُجُورَكُمْ ، وَلاَ أَدْرِى مَا تُحْدِثُونَ بَعْدِى » ؟

قال : فلما سمعها القوم والله عقلوها وانتفعوا بها ، فقالوا : وإنا محاسبون بما جمعنا من الدنيا بعدهم ، وإنه لمنتقص به من أجورنا ؛ فأكلوا طيباً ، وأنفقوا قصداً وقدموا فضلا [١] .

قال الأصمعى : حجت أعرابية ومعها ابن لها ، فأصيبت به ، فلما دفنته قامت على قبره وهى وجمة ، فقالت : والله يابنى لقد غذوتك رضيعاً ، وفقدتك سريعاً وكأنه لم يكن بين الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها ، فأصبحت بعد النضارة والغضارة ورونق الحياة ، والتنسم فى طيب روائحها ، تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ، ورفاتاً سحيقاً ، وصعيداً جُرزاً . أى بنى :لقد سحبت الدنيا عليك أذيال الفنا ، وأسكنتك دار البلا ، ورمتنى بعدك نكبة الردى . أى بنى : لقد أسفر لى عن

---

(١) من كتاب عدة الصابرين لابن القيم .

وجه الدنيا صباح داج ظلامه . ثم قالت : أى رب منك العدل ، ومن خلقك الجور وهبته لى قرة عين ، فلم تمتعنى به كثيراً بل سلبته وشيكاً ، ثم أمرتنى بالصبر ، ووعدتنى عليه الأجر ، فصدقت وعدك ، ورضيت قضاءك ، فرحم الله من ترحم على من استودعته الردم ، ووسدته الثرى . اللهم ارحم غربته ، وآنس وحشته ، واستر عورته يوم تنكشف الهنات والسوآت .

فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقفت على قبره فقالت ، أى بنى : إنى قد تزودت لسفرى ، فليت شعرى مازادك لبعد طريقك ، ويوم معادك ؟ اللهم إنى أسألك الرضا عنه ، برضائى عنه ثم قالت : استودعتك من استودعنيك فى أحشائى جنيناً ، وأثكل الوالدات ، ما أمضى حرارة قلوبهن وأقلق مضاجعهن وأشد وحشتهن ؟

فلم تزل تقول هذا ونحوه حتى أبكت كل من سمعها ، وحمدت الله عز وجل واسترجعت وانطلقت .

الصلاة على الميت فى المسجد

صح عن عائشة رضى الله عنها عن مسلم أنها قالت : « والله لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنى بيضاء ، سهل وسهيل ، أبوهما وهب بن ربيعة ، وأمهما البيضاء اسمها دعد — والبيضاء صفة لها فى المسجد — قالت عائشة رداً على من أنكر عليها صلاتها ، على سعد بن أبى وقاص فى المسجد فقالت : « ما أسرع ما أنسى الناس ، والله لقد صلى[1] الحديث » .

كذلك ورد أن عمر صلى على أبى بكر فى المسجد ، وأن صهيباً صلى على عمر فى المسجد .

---

(١) رواه مسلم .

زيارة النساء للقبور

لقد نهى رسول الله ﷺ فى بدء الإسلام عن زيارة القبور للنساء والرجال ، ثم أذن لهما . والحديث مشهور صحيح وهو أنه ﷺ قال : « كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا [1] » فإنها تذكر الآخرة . فالإذن لا يخص الرجال وحدهم ، بدليل الحديث الصحيح فى مسلم عن عائشة ، قالت : كيف أقول يارسول الله إذا زرت القبور ؟ فقال قولى : « السَّلامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، يَرْحَمُ اللهُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَّا وَالْمُتَأَخِّرِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ » .

وعلى هذا يكون حديث : لعن زائرات القبور قبل الإذن بالزيارة ، وإنما تكون الزيارة بشروط :

١ — ألا تكون الزيارة فى المواسم المبتدعة ، مثل طلعة رجب والأخمسة والأعياد الدينية ، لأنها لا تحقق الحكمة فى زيارة الأموات .

٢ — أن يصحبها زوج أو محرم .

٣ — أن تخرج متحجبة .

٤ — ألا تؤجر من يقرأ القرآن على الغير لأنها غير مشروعة .

٥ — ألا تنوح على القبر .

وبعض العلماء يرى حرمة زيارتهن لقلة صبرهن وجزعهن .

صيغة التعزية فى المسلم

وهى : أعظم الله أجرك ، وأحسن عزاءك وغفر لميتك . وأما تعزية الكافر (أخلف الله عليك) . والتعزية لم تكن مشروعة إلا عند التشييع أو عند المقابلة الأولى لمن لم يحضر التشييع . أما إقامة المآتم ليلة فأكثر ، فهى محرمة إذا كان

---

(١) الترمذى عن بريدة الأسلمى .

وارث الميت قاصراً ، أو كان أهل الميت فى حاجة إلى المال ، أو كان الحصول على المال من طريق محرم ، وإلا فمكروهة .

قال رسول الله ﷺ : « مَامِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّى أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ ، إِلاَّ كَسَاهُ اللهُ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . عن عمرو بن حزم لابن ماجه فى الجامع الصغير .

عظة الموت

أتى على بن أبى طالب كرم الله وجهه الأشعث يعزيه فى فقيده فقال :

« إن تحزن فقد استحقت ذلك منك الرحم ، وإن تصبر فإن الله خلف من كل هالك ، مع أنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت آثم مأزور » .

وقال آخر لمن فقد ابنه : « لو ذهب أبوك وهو أصلك ، وذهب ابنك وهو فرعك ، فما بقاء من ذهب أصله وفرعه ؟ » .

وقال الأصمعى : عزى صالح رجلا بابنه فقال له : « إن كانت مصيبتك لم تحدث لك موعظة ، فمصيبتك بنفسك أعظم من مصيبتك بابنك ، واعلم أن التهنئة على آجل الثواب ، أولى من التعزية على عاجل المصيبة » .

ولما ماتت رقية زوجة عثمان ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحزن فقال له الرسول ﷺ : « يَاعُثْمَانُ ، لَيْسَتْ زَوْجَتُكَ أَوَّلَ حَيٍّ يَمُوتُ ، النَّاسُ كُلُّهُمْ لِلْفَنَاءِ ، لِأَنَّهُمْ بُدِئُوا مِنْ تُرَابٍ وَلاَ بُدَّ أَنْ يَعُودُوا إِلَيْهِ فَلاَ تَذْهَلْ هٰذَا الذُّهُولَ وَتَنْسَى مَايَجِبُ عَلَيْكَ نَحْوَ اللهِ وَالنَّاسِ » فاختنقت العبرة عثمان ، وقال بصوت متقطع : والله يارسول الله ، مافعلت مافعلت إلا لخوفى أن تزول وشيجتى بك ، وآصرتى منك .

روى ابن عساكر عن ابن عمر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « مَا عَلَى

أَحَدِكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَصَدَّقَ لِلهِ صَدَقَةً تَطَوُّعاً أَنْ يَجْعَلَهَا عَنْ وَالِدَيْهِ إِذَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ ، فَيَكُونَ لِوَالِدَيْهِ أَجْرُهَا ، وَلَهُ مِثْلُ أُجُورِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهَا شَيْءٌ » .

جاء فى العقد الفريد لابن عبد ربه ، أن أختاً لعمر بن عبد العزيز توفيت ، فلما فرغ من دفنها دنا إليه رجل فعزاه ، فلم يرد عليه ، فلما رأى الناس ذلك أمسكوا ومشوا معه ، فلما دخل الباب أقبل على الناس بوجهه فقال : أدركت الناس وهم لا يعزون فى المرأة إلا أن تكون أماً .

وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « دَفْنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ » . رواه الخطيب وصححه السيوطى فى الجامع الصغير .

إن صح هذا الحديث فالقصد منه موت البنات فى حياة الأصول خير من أن يعشن فيفتتن . وفى الجامع الصغير أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ فى الْجَنَّةِ » رواه ابن عمر .

محاربة عمر للوثنية

قال عمر رضى الله عنه : « إنما ينقض الإسلام عروة عروة ، إذ نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية » وهذا يطابق ماقيل : إن من لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه . وكان إذا طاف بالبيت يقبل الحجر الأسود ويقول : إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك .

فحديث عمر هذا يدلنا على أن الحجر لامزية له عن سائر الأحجار ، وإنما استلامه أمر يقتدى به ، وقد جعل التوجه إليه كالتوجه إلى الله ، واستلامه كمبايعة الله الذى لا يحده مكان ، ولا ينحصر فى جهة من الجهات . يقرب هذا المعنى أن الطبائع البشرية مجبولة على تكريم البيوت والمعاهد والآثار ، والمشاهد

التى تنسب للأحياء أو تضاف للعظماء ، فالتعظيم والتكريم للديار فى حال غيبة الساكن ، لأن النفس إذا حرمت المشاهدة التى تذكى نار الحب ، تحاول أن تذكى تلك النار بالتعلل بالتعلق بالأطلال والآثار .

فيبدو لنا من كلام عمر أن تقبيل الحجر الأسود لالدفع شر ، ولالجلب نفع ، وإنما هو مظهر من مظاهر الخضوع لأمر الله ورسوله ، لهذا قطع الشجرة التى انعقدت عندها بيعة الرضوان ، خشية أن تعبد من دون الله ، وعزل خالد عن القيادة مخافة أن يفتتن الناس به حينما توالى عليه النصر فيعتقدوا أن له تأثيراً مع الله تعالى .

وأن من يتأمل ماعليه كثير من المسلمين فى التبرك بالمقاصير وتقبيلها لايفرق بينها وبين وثنيات العرب التى حار بها الرسول وأصحابه واستحل دماءهم وأموالهم . وإذا مانصحتهم يولون مدبرين ، أو يسلقونك بألسنة حداد ، زاعمين أنهم يحبونهم . ونحن وكل عاقل لايمترى طرفة عين فى أنهم أبغض الناس إلى الله ، وأشد الخلق كراهة لهم . هذا الحب الوهمى الخيالى الكاذب الذى صورته فى رءوسهم الخاوية ، ورسمته فى قلوبهم المظلمة جهلة المسلمين من أسراء التقليد ، وعبدة الطاغوت .

ويقينى أن الذى ورط الكثيرين فى هذه الضلالات ، إنما كان من النظام الحالى الذى تقوم عليه الأضرحة ، أضرحة الأولياء . فهل لى أن أقول بصراحة لعلماء الدين الذين لهم مكانتهم الرسمية أن يقضوا على هذا النظام الذى صرف الناس عن الله ، وأعاد الوثنية إلى الإسلام ؟ فقد أدت الحكومة واجبها السياسى ، فحررت الشعب من الطغيان والفساد ، والظلم والجبروت . أما نحن أيها العلماء فلا زلنا فى عزلتنا الأولى ، بل منا من يساعد العامة على ضلالهم .

وقد تتابعت آيات القرآن الكريم ، وتضافرت الأحاديث الصحيحة فى هذا المعنى ، من ذلك : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا

مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ[(١)] » .

وجدير بالذكر أن عبادة المشركين للأصنام لم تكن لذاتها بل لأصحابها الصالحين ، فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله . دليل ذلك التعبير بواو الجماعة التى هى للعقلاء : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى[(٢)] » .

وقد ضرب الله مثلا للذين انصرفوا عن الدعاء لله ودعوا غيره فقال سبحانه : « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[(٣)] » .

وقد كان قوم يدعون المسيح والملائكة فأنزل الله فى شأنهم آيتين هما : « قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً * أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً[(٤)] » .

تنبئنا الآيتان أن ماتدعونهم من الملائكة والمسيح والعزير ، هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، مع قربهم إلى ربهم ـ إذاً فأنتم أولى بالالتجاء إلى الله .

وقد روى الترمذى وصححه عن أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا : يارسول الله ،

---

(١) الأحقاف الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦ (٢) الزمر الآية : ٣
(٣) العنكبوت الآية : ٤١ (٤) الإسراء الآيتان : ٥٦ ، ٥٧

اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ، فقال لهم : « إِنَّهَا السُّنَنُ ، قُلْتُمْ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ كما قالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلٰهاً كما لَهُمْ آلِهَةٌ » .

يبين لنا الحديث أن عمل التبرك قرين الشرك .

وثبت أن عمر رضى الله عنه كان فى سفر فرأى قوماً يتهافتون على مكان للصلاة فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا مكان صلى فيه رسول الله ﷺ ، فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، إنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد ، فمن أدركته الصلاة فليصل و إلا فليمض » .

و إن الذى ورط المسلمين فى هذا هو ارتفاع القبور و بناء القباب والمقاصير ، وخلع الزينة عليها من عمائم وستائر ، و إطلاق مجامر البخور ، ووضع صناديق النذور ، واتخاذ المقابر مساجد توضع فيها المحاريب ، مع أن بجانبها مساجد تسع ماشاء الله أن تسع ، ولكن هى الضلالة رانت على القلوب ، هداهم الله إلى رشدهم ، وعرفهم أحكام دينهم . كل هذه أمور أحدثها الشيعة الضالون ، ولم يستندوا فى إحداثها إلى أثر صحيح ، بل ورد فيها الوعيد الشديد ، لأنها فتنت الزائرين ، فبدلوا دعاءهم لله بالدعاء منهم والاستعانة به بهم ، والنذر له وحده بالنذر لهم ، والطواف بالكعبة بالطواف لهم ، وتقبيل الحجر الأسود بتقبيل مقابرهم ، قال رسول الله ﷺ : « لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ[1] » وقالت عائشة : « يحذر ماصنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره » وفى حديث آخر قال ﷺ : « اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِى وَثَناً يُعْبَدُ ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ[2] » . وقال أبو الهياج الأسدى : بعثنى على رضى الله عنه وقال : « ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتجد قبراً مشرفاً إلا سويته ، ولا تمثالا إلا طمسته[3] » .

---

(١) فى البخارى (٢) رواه مالك فى الموطأ (٣) فى البخارى .

ومن كان فى شك من هذا فليقرأ كتاب الزواجر لابن حجر الهيتمى : فقد جاء فيه أن اتخاذ القبور مساجد و إيقاد السرج عليها واتخاذها أربابا والطواف بها واستلامها والصلاة إليها ، كلها من كبائر المعاصى[١] ، و بعد أن أورد بعض الأحاديث الصحيحة فى ذلك ذكر كلام الفقهاء الشافعية والحنابلة ، وفيه أنها من أسباب الشرك ، وآخر قولهم تجب المبادرة بهدمها ، وهدم القباب التى على القبور ، إذ هى أضر من مسجد ضرار لأنها أسست على معصية الرسول ، فإنه نهى عن ذلك وأمر بهدم القبور المشرفة ، و يجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر . ولا يصح وقفه حتى ولو كانوا أنبياء ومرسلين[٢] .

فإذا ما أرادوا الدعاء المقبول عند الله فإنما يكون فى الأماكن التى بينها الرسول ﷺ فى الأراضى المقدسة لأصحابه فى بلاد الحجاز ، وكذلك فى السجود كما جاء فى الحديث الصحيح : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ » والأوقات التى يكون الدعاء فيها أقرب إلى القبول هى : السحر ، وبين الأذان والإقامة ، وعند صعود الخطيب على المنبر ، وآخر ساعة يوم الجمعة ، وعند سماع الأذان . وهاهى ذى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التى تفند مزاعم هؤلاء المبتدعين الذين يروجون التمسح بالقبور ، والاستشفاع بأصحابها ، والتماس النفع منهم ودفع الضرر عنهم .

فعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ ، وَمَنْ عَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ[٣] اللهُ لَهُ » رواه أحمد .

وعن عمران بن حصين رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلا فى يده حلقة من صُفْر[٤] فقال : « ماهذا » ؟ قال : من الواهنة[٥] قال : انْزَعْهَا فإِنَّهَا

---

(١) راجع الكبيرة فى الزواج المذكورة ٩٣ ، ٩٨ (٢) صفحة ١٦٣ من الجزء الأول من الزواجر لابن الهيتمى طبع المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٢ هـ

(٣) فلا ودع الله له : لا تركه فى دعة وسعة (٤) مايعمل منه الأوانى .

(٥) الواهنة : مرض يأخذ فى العضد .

لَا تَزِيدُكَ إِلا وَهْنًا فإِنَّكَ لَوْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً » رواه أحمد .

عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه دخل على امرأته وفى عُنُقِها شىء معقود فجذبه فقطعه ثم قال : لقد أصبح آل عبد الله أغنياء أن يشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ » قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناها فما التولة ؟ قال : شىء يصنعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن . رواه ابن حبان فى صحيحه .

وهنا أنبه القارىء الكريم أن استعاذة الرسول صلى الله عليه وسلم من المسيح الدجال فى كل صلاة وأمر أمته بذلك ، لئلا يؤمنوا بصاحب الغرائب والخوارق من الشخص الذى ليس متبعاً للدين الصحيح ، لأن من صدق ذلك فقد أصابته فتنة الدجال الأكبر الذى يضل الناس بخوارقه ، فمن يخدع الناس بأوهام وتلبيسات تصرفهم عن الخير فهو من إخوان المسيح الدجال ، ومن آمن بصاحب الغرائب والخوارق ، فقد أصابته فتنة الدجال .

وقد ورد أن كل نبى حذر أمته من هذا المسيح وأتباعه الدين يضلون الناس بغرائبهم . وصدق القائل : « إذا رأيت الرجل يطير فى الهواء أو يمشى على الماء فلا تغتر بحاله وانظر وقوفه عند الأمر والنهى ، أى تمسكه بالكتاب والسنة ، فإن كان متمسكاً بهما كان ماظهر على يده كرامات ، و إن كان غير متمسك بهما كان من خلفاء الدجال » .

قال الشيخ أبو سليمان الدارانى : إنه لتقع فى قلبى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين : الكتاب والسنة .

وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث ، لايصح له أن يتكلم فى علمنا ، أو قال لايقتدى به . وقال أبو عثمان النيسابورى : من أمّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة ، لأن الله تعالى يقول فى كلامه القديم : « وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا » .

العبادات وقبول النيابة فيها

أولا — العبادات المالية تقبل النيابة مطلقاً فى حالتى الصحة والمرض كالزكاة .

ثانياً — العبادات البدنية لا تقبل النيابة ، لأن المقصود منها تزكية النفس والاتصال بالخالق كالصلاة .

ثالثاً — العبادة المركبة من الاثنتين كالحج ، فيها رأيان :

الجمهور يرى الصحة والقبول . وغير الجمهور لا يرى القبول إلا من الابن أو البنت مع الشروط التى اشترطها الفقهاء ، وهى : أن يكون المحجوج عنه ميتاً أو عاجزاً .

والنائب قد أدى الفريضة عن نفسه ، لأنه لا يصح أن يؤدى ديناً عن غيره وعليه دين .

واستدلوا على قبول العبادات المالية بما يأتى :—

أولا — بحديث الصحيحين من أن الرسول ﷺ ضحى بكبشين أملحين : أحدهما عن محمد وآل محمد ، والثانى عن محمد وأمته .

وثانياً — حديث أنس رضى الله عنه أنه سأل الرسول ﷺ ، فقال يارسول الله : إنا نتصدق عن موتانا ونحج عنهم وندعو لهم ، فهل يصل ذلك إليهم ، قال : نعم إِنَّهُ لَيَصِلُ إِلَيْهِمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَفْرَحُونَ بِهِ ، كما يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بالطَّبَقِ إِذَا أُهْدِى إِلَيْهِ [١] .

وقد جاء فى تفسير ابن كثير عند آية « وأن ليس للإنسان إلا ماسعى » أن الدعاء والصدقة مجمع على وصولها ، وأما غيرها من باب القربات فيقتصر فيها على النصوص ولا يصح فيها القياس .

---

(١) من سبل السلام للصنعانى .

كما استدلوا على قبول العبادات المركبة من الاثنتين بحديث البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما : «أن امرأة من قبيلة خثعم سألت رسول الله ﷺ ، فقالت : إن فريضة الله أدركت أبى شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ، قال : نعم » وذلك فى حجة الوداع .

ولا يقدح فى هذا قول الله تعالى : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى[1] » وذلك لدليلين :

أولهما — أن الآية واردة فى قانون العدل الإلهى ، وإنما هذا من طريق التفضل والإحسان .

ثانياً — يصح أن تكون الآية فى سقوط الفريضة ، والخروج عن العهدة ، لا فى حق الثواب والانتفاع به . وهذا كله فى غير الإبن والبنت ، أما فيهما فأمر مجمع عليه ، لأنهما من سعى أبويهما ، ولولاهما لما وجدا كما جاء فى الحديث : « إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ[2] » .

---

(١) النجم الآية : ٣٩

(٢) لابن كثير فى تفسير الآية : « وأن ليس للانسان إلا ماسعى » .

شبهات المبتدعين فى العبادات

لم يكن لهم دليل فيما ادعوا سوى حديثين : أولهما حديث موقوف ليس له سند صحيح ، وثانيهما حديث بعيد كل البعد عن المدعى .

أما أولها لحديث « مارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » .

والجواب عنه : أنه حديث موقوف على عبد الله بن مسعود .

اطلع أيها القارىء على كتاب الأشباه والنظائر للعلائى ، تجد نص عبارته : « لم أجده مرفوعاً فى شىء من كتب الحديث أصلا ، ولا بسند ضعيف بعد طول البحث ، وكثرة الكشف والسؤال ، وإنما هو من قول عبد الله بن مسعود موقوفاً عنه أخرجه أحمد » .

وقد اختلفوا فى العمل بقول الصحابى وعلى فرض العمل به ، فالمراد فيه ما أجمعوا على حسنه ، إما من جميع المسلمين ، أو من خصوص الصحابة . إذاً فلا يصح الاحتجاج بهذا الحديث .

ثانياً : احتجوا بحديث مسلم عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَنَّ فى الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنقُصَ ذلك مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً . وَمَنْ سَنَّ فى الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها من بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنقُصَ ذلك مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً » .

والجواب عنه : أن الحديث وارد فيمن تسبب فى عمل الخير باتفاق جميع المحدثين لأن الرسول ﷺ قاله حين قدم عليه قوم من مصر والجوع باد على وجوههم ، وعلى أجسامهم قطع لا تكاد تستر أجسامهم ، فأمر بلالا بالأذان ، وأقيمت الصلاة فصلوا ، ثم خطب الرسول ﷺ ، واستهل خطابته بقول الله تعالى : « يأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) » .

يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لاَ يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢) » . « أَلا فَلْيَتَصَدَّقْ رَجُلٌ من دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ من ثَوْبِهِ من صَاعِ بُرِّهِ ، مِن صَاعِ تَمْرِهِ إِلَى أَنْ قَالَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ » ، فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ثم تتابع الناس حتى تجمع كومان من طعام وثياب ، فتهلل وجه النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى من تلبية ندائه ، واستجابة دعوته ، وقيام الأغنياء بحق الفقراء ثم قال : « مَنْ سَنَّ فى الْإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ ذلك مِنْ أُجُورِهِمْ شيئاً ، وَمَنْ سَنَّ فى الْإِسْلاَمِ سُنةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ ذلكَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً » .

إذاً فسياق الحديث يدل دلالة واضحة لاشبهة فيها بأن الشخص الذى أجرى الله الخير على يديه له أجر من تبعه ، وكذلك من دعا إلى هدى واتبعه غيره ، كان له أجره وأجر من اتبعه ، ففى حديث مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ دَعَا إِلى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً » .

---

(١) النساء الآية ١ (٢) الحشر الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

وخلاصة القول أن العبادات حق لله ، خاصة به ، فلا يكون العبد مطيعاً لله تعالى إلا إذا امتثل ما رسم له سيده ، وفعل ما يعلم أنه يرضيه . لهذا لما تعبدت الفلاسفة بعقولهم ، ورفضوا الشرائع أغضبوا الله عز وجل ، وضلوا وأضلوا .

وهذا بخلاف المعاملات ، فإن أحكامها سياسية شرعية وضعت لصالحهم ، فإذا رأينا مصلحة سياسية ولم نجد لها نصاً خاصاً ، نرجع إلى الحديث الصحيح الذى رواه ابن حبان فى صحيحه « لَاضَرَرَ وَلَاَ ضِرَارَ » عن ابن عباس . وقول الله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[1] » .

وبهذا يتبين بجلاء ووضوح أن شرع الله تعالى قد أتى بكل ما فيه صالح للبشرية جمعاء .

وليكن معلوماً للقارىء الكريم أن العبادة لاتقبل إلا بشرطين ، الأول : أن تكون خالصة لوجه الله تعالى . والثانى أن تكون صواباً ، قال أبو العالية فى قوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . قال : خلتان يسأل عنهما كل واحد : ماذا كنت تعبد ؟ وماذا أجبت المرسلين ؟ فالأول تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، والثانى تحقيق الشهادة بأن محمداً رسول الله .

وفى هذا المعنى خطب الإمام أحمد خطبة رأيت أن أذكرها لمناسبتها هذا الموضوع :

أحمد الله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، ويتبصرون بنور الله أهل العمى . فكم من قتيل لإبليس قد أحيوْه ، ومن ضال تائه قد هدَوْه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين

(١) الأعراف الآية : ٣٣

وانتحال المبطلين » ، من كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم رحمه الله .

وهذه الخطبة مقتبس بعضها من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « يَحْمِلُ هٰذَا الْعِلْمَ مِنْ كلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ » . هذا الحديث فى كتاب الباعث على إنكار البدع والحوادث لمحيي السنة أبو شامة الشافعي المتوفى سنة ٦٦٥ هـ وقد روى عن أنس مرسلا ومرفوعاً من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهما رضى الله عن الجميع .

والخلاصة : أن الإسلام هداية روحية ، وسياسة اجتماعية .

فأما الهداية الروحية : فقد جاءت عن الرسول ﷺ تامة لا نقص فيها ولا تغيير ، ولكن غلا البعض فيها فزادوا طقوساً من المواسم والأحزاب مايستغرق العمل به جميع الأوقات ويستلزم نقصان دين الصحابة والتابعين ، إذ لم يكن لديهم شيء منه .

وأما السياسة الاجتماعية : فقد وضع الإسلام قواعدها وأساسها ، فشرع للأمة الرأى والاجتهاد فيها ، لأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وترتقى بارتقاء العمران . ومن قواعدها أن الحكم فيها بالشورى ، وأن سلطة الأمة لها ، ولا يتولى الحكم فيها إلا من توفرت فيه العدالة ، وألا يطلبها لنفسه ، لأن طلبها يؤذن بالطمع .

ومن مزاياها مايأتى :

أولا — أنها جمعت بين حقوق الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة .

ثانياً — لا حرج فيها ولا عسر بقلة تكاليفها وسهولة تفهمها .

ثالثاً — انقسام التكاليف إلى عزائم ورخص وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص ، وابن عمر يرجح جانب العزائم . قال رسول الله ﷺ : « يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا » في البخارى وغيره عن أنس .

رابعاً — معاملة الناس بظواهرهم وأن الله تعالى إنما رتب الأحكام على الألفاظ لدلالتها على قصد المتكلم بها و إرادته ، فإذا تيقنا أنه قصد الكلام . ولم يقصد المعنى ولم يقصد مخالفة ما التزمه ولا الحنث ، فإن الشارع لا يلزمه بما لم يقصده ، بل قد رفع المؤاخذة عنه بما لم يقصده ، من ذلك الطلاق .

الشريعــة الخــالدة

لمـا كان الإنسان من أكرم الكائنات على الله تعالى ، منحه العقل وأكمله بهداية الدين ، إذ أن عقل الإنسان مهما بلغ من الارتقاء ووصل من الكمال ، لايهتدى إلى مايوصله إلى ما فيه رشـده ، ويجنبه ما فيه شقوته ؛ لهذا لم يجرد الله تعـالى الدنيا من أنبياء مرسلين وهداة مرشدين ، قال تعالى : « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ[1] » ويقول علىّ كرم الله وجهه : لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة لـكيلا تبطل حجج الله وبيناته ومن ثم أفلست جميع التشاريع الوضعية وقضى عليها بالفشل .

اقرأ تاريخ الأمم المتحضرة والأمم المتبدية ، وأمعن نظرك فيما أصابها من سجلات النكبات ، وما انتابها من انحلال فى الأخلاق ، لاتجد سوى منازعات حزبية وعائلية ، وتفرقة بين العنصرية ، وحروباً فاجرة وأثرة طاغية ، حتى أضحت الـكرة الأرضية رجوماً من نار ، وصار أهلها على شفا جرف هار وخيبة الدمار ؛ وماذاك إلا لنقص فى التشريع ، وفقد الوازع الدينى ، وعدم إحياء الضمير بالعبادات الصحيحة التى تذكر الإنسان بربه ، فلا ينزع إلى شر ولايقدم على قبيح . إذ أن النفوس الشريرة لا يـكبح جماحها قانون إلا الوازع الدينى ، كما أنه يهون على الإنسان مصـائب الزمان ومحن الأيام . قال أفلاطون : إن أطباء النفس ليسوا إلا وعاظاً من نوع جديد ، فهم لايحضوننا على الاستمساك بالدين توقياً من الجحيم المنصوب فى الدار الآخرة ، وإنما يوصوننا بالتدين توقياً من الجحيم المنصوب فى هذه الحياة الدنيا ، جحيم الانهيار العصبى والقلق والجنون .

حقاً إن المتدين لايعانى قلقاً ولاشقاء ، لأن النفس إذا آمنت بربها واستوثقت من عدالة خالقها ، وعلمت أن ما أصابها من بأساء أو ضراء بقدر الله وإن خفيت

---

(١) فاطر الآية : ٢٤

عليها حكمته ، متى كانت كذلك هانت عليها كل مصيبة ، واستطاعت أن تصمد أمام الأزمات والكوارث التى تنزل بها . فليس من شك فى أن الدين سلوة للمصابين وعزاء للمنكوبين ، ومشكاة نستضىء بها إذا أظلمت علينا سبل الحياة . وليس أدل على ذلك مما تروعنا به الصحف اليومية صباح مساء من أنه لا يمضى فى عاصمة أمريكا خمس وثلاثون دقيقة إلا وتقع حادثة انتحار ، ولا يمضى مائة وعشرون ثانية إلا ويصاب شخص بالجنون ، وما ذاك إلا لفقد الوازع الدينى .

وهذه إنجلترا التى كانت فى الأيام الغابرة تدعى بريطانيا العظمى ، أصبحت أسرتها مهددة بالانقراض ، وأوشكت على الهلاك والدمار ؛ فماذا أفاد تشريعها ؟ الجواب : أتركه للواقع المشهود فهو أفصح منى لساناً وأبلغ بياناً .

وحسبى فى ذلك مانقلته صحيفة « الجمهورية » فى ٢١ ديسمبر ١٩٥٩ تحت عنوان (ثورة فى لندن من أجل فتيات) هذا نصها :

« إن الفتاة لاتكاد تبلغ السابعة عشر من عمرها حتى تسقط فى بحر الرذيلة ، وتضع مولودها فى المستشفى ، وكانت النتيجة أن يولد فى لندن (أعنى العاصمة فقط) كل يوم خمسمائة لقيط عدا لقطاء الشوارع » .

ونظرة فى عالمنا الحاضر تريك نظرية الشريعة الإسلامية وما أبعدها من نظرة وحكمتها وما أبعدها من حكمة ؟ ترى الشريعة الإسلامية إعدام القاتل ، ويجوز العفو عنه والدية ؛ أما شريعة اليهود فلا تجيز العفو ، وشريعة النصارى لا تجيز القتل ، فشريعة الإسلام وسط بين الاثنتين ، كما أنها ليست جسدية بحتة ولا روحية محضة ، وقديماً قيل : خير الأمور الوسط .

هذا ولقد جنح بعض المتشرعين الغربيين إلى استبدال عقوبة القتل بعقوبة أخرى ، محبذين رأيهم بأن إعدام القاتل أثر من آثار الوحشية وخسارة على الأمة ، هذه حجتهم . ولكن التجارب فندت مزاعمهم وردتهم على أعقابهم خاسرين . إذ أن الوحشية إنما هى فى هذا القاتل الذى استباح دم أخ لأمر ما ،

ومن استباح دم نفس واحدة سهل عليه الكثيرون ، قال سبحانه : « مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا [١] » .

أما إنه خسارة على الأمة ، فمنطق معكوس وحكم باطل تحيله بداهة العقل ويبطله الواقع المحس ، فإن إبقاء القاتل لا يطفىء نيران العداوة ويبقى الأخذ بالثأر أبد الآبدين حتى تفنى عائلات ، والموتور لاينام عن وتره ، وضعيف اليوم ربما يكون قوياً فى الغد .

فيا هؤلاء أجيبونى : إذا كان القصد الأول من التشريع تنظيم الحياة الإنسانية ، وتحقيق العدل والمساواة والحرية للفرد والجماعات ، فأين العدل الذى أقمتموه ، وأين الحرية والمساوة اللتان ملأتم الأرض بهما دعايات وسخرتم الصحف لنشرها فى الخافقين ؟ لم نجد غير مذابح بشرية وتفرقة عنصرية ، وضغط على حرية الآراء ، والعمل على بقاء الاستعمار وسلب الحريات . هذا هو نتيجة تشريعكم الخاطىء ، هذه هى مدنيتكم الماجنة ، فماذا نجد فيها ؟ نجد عبثاً متجسماً وصوراً عارية ، ومراقص ومسارح تسفك فيها دماء الفضيلة ، وتنشر فيها ألوية الرذيلة . أين هذا من شرعة الإسلام التى أوامرها كلها خير وبركات ، ونواهيها جميعها بعد عن الشر والعدوان ؟ هل وجدتموها تركت فضيلة من الفضائل إلا سنتها ودعت إليها ، أو رذيلة من الرذائل إلا نفرت منها وتوعدت فاعلها سوء عاقبتها « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [٢] » .

ألا وإن من محاسن هذه الشريعة الإسلامية أنها لاتخالف طبيعة الإنسان ، ولا تصادم أية مصلحة اجتماعية أو فردية ، ولا تناوىء التطور ولا تخاصمه ، بل تتمشى معه وتسايره ، ولقد تعاقبت عليها دهور قامت فيها حضارات ومحيت ، وسعدت شعوب وشقيت ، وأبرمت قوانين ونقضت ، ولاتزال تتجلى فى جلباب

---

(١) المائدة الآية : ٣٢ (٢) الإسراء الآية : ٨٢

العظمة والرفعة وتتراءى فى مظهر القوة والمنعة ، فيها لـكل حادثة حكم ولـكل ضلة هداية ولـكل ظرف تقدير . وإن النظريات العلمية والآراء الفلسفية لا يمضى عليها إلا قليل من الزمن حتى تأذن الأيام ببطلانها ، وتأتى على عكسها ، خلا الشريعة الإسلامية ، فلا تزال تتحدى الزمن وتغالب الأيام ، فمحال أن يصيبها شلل أو تدركها الشيخوخة ، ما دام فيها عنصر المرونة التى تنطبق على كل جيل وقبيل ، لأن الزمن متغير متجدد ، لا يقف وهل الشريعة إلا هداية روحية ، وسياسة اجتماعية ومدنية ؟

أما الهداية الروحية : فمبناها على العبادات التى فيها غذاء النفوس وإصلاح القلوب وإيقاظ الضمير ، وإخراج الناس من ذل العبودية إلا لله وحده ، يرجون رحمته ويخافون عذابه . فلـكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم الأخلاق وتهذيب النفوس متى أقيمت على وجهها الصحيح . والعبادة الصحيحة هى ما شرعهـا الله وأنزلها على نبيـه ، لا من تشريع الرسول ﷺ ولا لأحد من خلقه قال تعـالى : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ[1] » كما أن الأصل فى العبادة البطلان حتى يقوم دليل على الأمر ، إذ لا حرام إلا ما حرم الله ، كما أنه لا واجب إلا ما أوجبه الله ، ولا مندوب إلا ما ندب به الله ، ولا مكروه إلا ما كرهه الله ، ولا دين إلا ما شرعه الله . أما الأصل فى العقود والشروط الصحة إلا ما أبطله الشرع أو نهى عنه ، وهذا هو القول الصحيح ، فإن الحـكم ببطلانه حكم بالتحريم والتأثيم ولا يكون إلا من الله تعالى ، فـكل شرط وعقد ومعاملة سكت عنها الشرع فإنه لا يجوز القول بتحريمها ، فإن سكت عنه فهذه رحمة منه من غير نسيان أو إهمال . فعن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا وَحَدَّ

---

(١) الحاقة الآيات : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧

حُدُودًا فَلاَ تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلاَ تَبْحَثُوا عَنْهَا[١] » .

فهذه رحمة منه سبحانه من غير نسيان و إهمال . ألا و إن مما خالف فيه الناس تعاليم نبيهم أنهم انصرفوا عن الكتاب والسنة وعبدوا الله بآراء علماء لا يسلمون من الخطأ ، وحصروا الشريعة فى المذاهب الأربعة ، ولو كان ذلك فيه مخالفة لصريح السنة وظواهر الكتاب .

أما السياسة الاجتماعية والمدنية ، فقد طبقها المسلمون فى العصور الأولى للإسلام ، وساروا على منهجها ، فاستطاعوا أن يؤسسوا حضارة زاهية ، و يكونوا مجتمعاً صالحاً ، و يرفعوا الراية الإسلامية فى الصحارى والقفار والبر والبحر ، و يخاطبوا ملوك الأرض ، و يعبروا المحيطات ، و يشقوا الجبال ، و يتغلغلوا فى أحشاء أوروبا حتى دانت لهم الملوك ، وما كان ذلك إلا من قوة مبادىء الدين القويمة وتعاليمه الرشيدة التى لم تكن مقتبسة من أحد ، ولا مما تعارفه البشر ، و إنما كانت من مشكاة الوحى الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . هذا ولما أهملوا العمل بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ سلبهم الله ما بأيديهم وما ظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

هذا وقد أجمع علماء الأمة سلفهم وخلفهم على أن أصول التشريع أربع : الكتاب والسنة و إجماع الصحابة والاجتهاد . أما القياس فيراه جمهرة العلماء و بعضهم يقيده ، والاجتهاد إنما يكون فى الأمور التى ليس فيها نص من الكتاب والسنة و إجماع الصحابة ، فالعلماء يجتهدون فى استنباط الأحكام من الكليات التى تناسب كل عصر وجيل ، وأما العوام فيجتهدون فيما يلقى إليهم فيختارون ما تطمئن إليه نفوسهم من الدليل . أما التعصب المذهبى فليس من الدين فى شىء ، وهذا الاجتهاد لا يكون فى العبادات لأنها تمت أصلا وفرعاً . أما المعاملات فقد جاءت

---

(١) فى الأربعين للنووى .

كلية لم تنص على الجزئيات ، وفرضت للعلماء استخراج الأحكام منها التى تناسب تطور الزمان وارتقاء العمران ، واختلاف البيئة ، وفى ذلك يقول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : « تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا » والأمثلة فى ذلك كثيرة ، منها :

أنه كان غلمة لحاطب بن أبى بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة ، فأتى بهم عمر فأقروا ، فأرسل إلى عبد الرحمن بن حاطب فجاء فقال له : إن غلمان حاطب سرقوا ناقة رجل من مزينة وأقروا على أنفسهم ، فقال عمر : ياأبا كثير بن الصلت اذهب فاقطع أيديهم ، فلما ولى بهم ناداهم عمر ثم قال : « والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى أن أحدهم لو أكل ماحرم الله عليه حل له لقطعت أيديهم ، وأقسم بالله إذا لم أفعل لأغرمنك غرامة توجعك ، ثم قال : يامزنى ، بكم أريدت ناقتك ؟ قال : بأربعمائة ، قال عمر : اذهب فأعطه ثمانمائة . وذهب أحمد رضى الله عنه إلى موافقة عمر .

المثال الثانى[1] : أن عبد الرحمن بن الحكم الأموى أحد ملوك الأندلس باشر إحدى نسائه فى رمضان ثم ندم على جريمته ، وجمع الفقهاء وسألهم عما يكفر به ، فقال له يحيى بن يحيى تلميذ الإمام مالك بن أنس وفقيه الأندلس : فيما بعد تكفر بصوم شهرين متتابعين . فلما خرجوا قال له بعض الفقهاء : لم لم تفته بمذهب مالك وهو التخيير بين العتق والصيام والإطعام ؟ فقال يحيى : لو فتحنا له هذا الباب لسهل عليه أن يباشر كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود . هـ

وأرانى مضطراً إلى أن أبين بأن السنة هى الدرجة الثانية من الكتاب ، وأن السنة العملية مقدمة على السنة القولية فى عهد الرسول والصحابة ، أما بعدهم فلا . وكان الإمام مالك رضى الله عنه يقدم عمل أهل المدينة على قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه يرى أنهم ثقة وعملهم من عمل الرسول ﷺ .

---

(١) الاعتصام للشاطبى جزء ثان .

ولكن لما تأيدت دولة الحديث من بعده ظهر أن ثلث أقواله ﷺ تخالف مذهب الإمام مالك ، لأنه كان من تابع التابعين ، وقد مضى على عمل الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من قرن . وبدهى أن هذه المدة الطويلة جديرة بأن تحدث فيها أعمال تخالف أعمال الرسول ﷺ لسنة التطور ، مما لا يجعل عمل أهل المدينة حجة مضطردة . نعم يكون حجة فى زمن الصحابة فقط ، فأما غيرهم فلا تكون أعمالهم حجة إلا إذا وافق عملهم أعمال الرسول ﷺ .

هذا كله فى أمور الدين ، أما مايتعلق بسياسة الأمة فقد تركها الله للعقل البشرى ، فإنه يستطيع أن يهتدى إليها بالتجارب والممارسة ، . دليل ذلك حديث الرسول ﷺ : « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ » فى مسلم عن عائشة .

رحم الله أئمة الدين الذين جندوا أنفسهم وعقولهم للدين ، ووقفوا حياتهم المباركة عليه ، وكانت أدلتهم لاتخرج عن كتاب الله وسنة رسوله ، وإجماع الصحابة والقياس وهو إلحاق حكم حادثة منصوص عليه بحادثة أخرى ، بين الله حكمها لاشتراكهما فى علة الحكم ومناطه ، والاستحسان وهو استثناء مسألة جزئية من أصل كلى ، أو قاعدة عامة لوجه يقتضى ذلك ، ودليل خاص بهذه الجزئية أعم من أن يكون ذلك نصاً أو إجماعاً أو عرفاً أو مصلحة أو غيرها . ثم الاستصلاح وهو العمل بالمصلحة التى لم يرد دليل معين من الشارع باعتبارها أو إلغائها ، ثم العرف وسد ذرائع الفساد .

هذا وقد كتب الله البقاء لهذه المذاهب لأنهم وجدوا من يدونها من بعدهم ، وما كان يدور بخلدهم أن مذاهبهم سيتخذها المسلمون من بعدهم ديناً أبدياً وعقيدة سرمدية ، لأن دين الله تعالى لاينحصر فى مذهب وليس وقفاً على أحد .

على أن هناك مذاهب أخرى لو دونت لاشتهرت كما اشتهرت هذه المذاهب الأربعة ، وخشية أن يرى الناس أن آراءهم هو الدين الذى يجب اتباعه من غير نظر فى أدلتهم التى تحتمل الخطأ والصواب ، حذروا الاقتداء بهم فقد أثر عنهم جميعاً

أن آراءهم ليست ملزمة لأحد ، لأنهم يخطئون و يصيبون .

كان أبو حنيفة يقول إذا أفتى : « هذا رأى أبى حنيفة ، وهو أحسن ماقدرنا عليه ، فمن جاءنا بخير منه فهو أولى بالصواب » و يقول الإمام مالك : « كل أحد يؤخذ منه و يرد ، ماخلا رسول الله صلى الله عليه وسلم » و يقول الشافعى : « إذا وجدتم فى كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ، ودعوا قولى » . كذلك يقول الإمام أحمد بن حنبل : « انظروا فى أمر دينكم ، فإن التقليد لغير المعصوم مذموم ، وفيه عمى للبصيرة » .

لهذا أهيب برجال الوعظ والإرشاد أن يتخلصوا من هـذه الأغلال ، فلا يتعصبوا لمذاهبهم ، وأن يكون فقههم من الكتاب والسنة ، وطريق ذلك أن فيه كتباً تساعدهم على ذلك يتخذونها أساساً لتعليم الناس أمر دينهم .

من هذه الكتب : الروضة الندية لأبى الطيب صديق بن حسن . شرح الدرر البهية للشوكانى ، وسبل السلام للصنعانى ، وشرح بلوغ المراد لابن حجر العسقلانى . فلو أن كل واعظ أو إمام فى مسجد قرأ على الناس مافى هذه الكتب لنفعهم ، لأن هذه فيها جميع الفقه الإسلامى . لأننا قلنا إن كل صاحب مذهب كان يوصى تلاميذه بأنهم لايأخذون عنه إلا إذا عرفوا دليله ، و إذا وجدوا نصاً من الكتاب والسنة فلا يأخذون بقوله .

وأعظم قاعدة للفقه ، قاعدة الإمام مالك ، وهى مبنية على العمل بظاهر الكتاب والسنة . وأما أحكام السياسة والأعمال الدنيوية مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد وظواهر النصوص فإن تعارضتا يؤول النص لمراعاة المصلحة الراجحة . و يقينى لو أن علماء الدين اتسعت صدورهم وأفسحوا لها المجال ، واتبعوا فى الفقه كتب السنة مثل الكتب التى ذكرناها آنفاً ، ولم يتقيدوا بالمذاهب الأربعة ، لوجدوا فيها متسعاً لكل مايحتاجون إليه من تشريع ، ولما تشعبت الأحكام ، ولما دخلت القوانين الوضعية فى المحاكم ، ولما تبلبلت أفكار العامة مما يسمعونه ، هذا يقول بحل كذا ، وذاك يقول بحرمته ، وهكذا .

أحكام عامة فى المعاملات

أولا : إن كل معاملة ضارة أو يغلب ضرها على نفعها بالطرفين أو أحدهما ، فهى حرام والعقد عليها فاسد . فالأول مثل الربا ويدخل فيه الحيل التى يعملها الناس مثل (الْعِيَنَةَ) ، وقد نهى عنها النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث رواه أبو داود عن ابن عمر ، وهى أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى لايتكافأ مع الثمن ، ثم يشتريها بأقل من الثمن الأول حيلة لأخذ الربا ، وقد صح عن أنس وابن عباس رضى الله عنهما أنهما سئلا عن العينة فقالا : إن الله لا يُخدع هذا مما حرمه الله ورسوله .

ومثال الثانية التى يغلب ضرها على نفعها ، كبيع السلعة بأغلى من السعر الذى تواضع عليه أهل الجهة ، فإنه ضار بالمشترى . وكذلك بيعها بأقل من الثمن المتداول فى الجهة التى فيها السلعة ، فإن هذا ضار بجمهور التجار ، إذ أن فى ذلك بوار تجارتهم وهكذا .

أما مايغلب خيره على شره فهو حلال كالسلم والمساقاة ، وهى أن يعامل مالك النخل والعنب غيره ليتعهده بالسقى والتربية على أن يكون له جزء من الثمر . وكالعرايا ، وهى بيع البلح والعنب على شجره بعد بدو صلاحه بتمر جاف . فمثل هذين : الخير فيهما يغلب على الشر ، كذلك المزارعة وهى تسليم الأرض ليزرعها ببعض مايخرج منها والبذر من المالك ، والمخابرة كذلك ولكن البذر من العامل[1] .

---

(١) وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد عامل أهل خيبر بشرط مايخرج منها من ثمر وزرع حتى مات ، ولم تزل تلك المعاملة حتى أجلاهم عمر عن خيبر وكان قد شارطهم أن يعمروها من أموالهم وكان البذر منهم لامن النبى صلى الله عليه وسلم ، والذى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنه من المخابرة وكراء الأرض هو أنهم كانوا يشترطون لرب الأرض زرع بقعة معينة وهذا هو الراجح من أقوال العلماء .

ثانياً : أن احتكار الأقوات لحين الغلاء حرام ، كما جاء فى صحيح مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لاَ يَحْتَكِرُ إلاَّ خَاطِئٌ » وعلى الحاكم أن يكرهه على البيع . كما أنه لا يجوز للحاكم أن يسعر إذا كان الناس يبيعون سلعهم على الوجه المعروف من غير ظلم منهم وقد ارتفع السعر ، إما لقلة الشىء وإما لكثرة الخلق فهذا إلى الله ، فإلزام الخلق أن يبيعوا بقيمة يعينها الحاكم إكراه بغير حق .

وبهذا جاء الحديث الذى رواه أبو داود عن أنس رضى الله عنه ، قال : غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ ، فقالوا : يارسول الله ، لو سعرت ، فقال : « إِنَّ اللهَ هُوَ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ الْمُسَعِّرُ ، وَإِنِّى لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللهَ وَلاَ يَطْلُبُنِى أَحَدٌ بِمَظْلَمَةٍ ظَلَمْتُهَا إِيَّاهُ فى دَمٍ وَلاَ مَالٍ » .

نعم إذا امتنع الناس عن بيع ما يجب عليهم بيعه ، أو زادوا فى السعر كما هو حال تجار اليوم ، أو كانت حاجة الناس لا تندفع إلا بالتسعير العادى سعر عليهم تسعيراً عدلا لا وكس ولا شطط .

ثالثاً — من الغش والتدليس أن يذهب المشترى إلى تلقى السلع ليشتريها قبل أن تصل إلى السوق ، لأن فيها تغرير البائع فإنه لا يعرف السعر فيشترى منه المشترى بدون القيمة الموجودة فى السوق ، ولقد نهى النبى ﷺ عن ذلك وأثبت الخيار له إذا هبط إلى السوق ووجده غبن .

وكذلك أن يبيع حاضر لباد ، أى يتوكل الحاضر فى القرية عن القادم من خارج القرية فى بيع السلعة التى يحتاج إليها الناس والقادم لا يعرف السعر ، ففى ذلك ضرر بالمشترى . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « دَعُوا النَّاسَ يُصِيبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ فإِذَا اسْتَنْصَحَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَنْصَحْهُ[1] » .

---

(١) للطبرانى فى الكبير عن أبى السائب .

رابعاً — أن الشركة التى تجرى بين الناس فى الأرياف لا بأس بها لأن فيها صالح الطرفين . وما يراه بعض العلماء بأن فيها غرراً غير مقبول ، لأن الغرر ضئيل بالنسبة للمصلحة الراجحة التى بيناها ، وصورتها — أن يشترى ذو المال بهيمة ويدفع ثمنها كله ثم يعطيها للفلاح المحتاج بهذا الثمن ، على أن يكون لكل منهما النصف ويدفع الفلاح ثمن نصفه من نتاج البهيمة حتى إذا دفع الثمن الذى يخصه ينتفع بالنتاج الذى يخصه ، وهذا من غير شك نافع لصاحب المال لأنه ينتفع بالنتاج بادىء بدء ونافع للفلاح لأنه ينتفع بلبنها وسقى زرعه وحرث أرضه ونتاجها بعد أن يسد ثمن حقه منها .

خامساً — على الوالى أن يعاقب المبتدعين فى الدين المشوهين لجلاله المسيئين إلى سمعته ، كالذين يصفرون ويصفقون فى مساجد الله تعالى ظانين بأن هذا يقربهم إلى الله وهم يعصونه . ومن هؤلاء الذين يدعون علم الغيب من فتح الكتاب وضرب الودع والكف ، لأن هؤلاء يغررون بالسذج من الناس فيأكلون أموالهم بالباطل . وينبغى أن تكون العقوبة من جنس المعصية بحسب الإمكان فى غير المقدرة شرعاً . مثال ذلك ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى شاهد الزور ، أنه أمر بإركابه دابة مقلوباً وتسويد وجهه ، فإنه لما قلب الحديث قلب وجهه ، ولما سود وجهه بالكذب سود وجهه بالسواد . وكذلك أمر بتحريق قصر سعد بن أبى وقاص الذى بناه لما أراد أن يحتجب عن الناس ، فأرسل محمد بن مسلمة وأمره أن يحرقه عليه . وأمر على بن أبى طالب وعمر بتحريق المكان الذى يباع فيه الخمر . ومثل أخذ شطر مال مانع الزكاة ، وإنما كانت العقوبة من جنس المعصية لأنها أدعى إلى الزجر واقتداء بقول الله تعالى ، ففى سورة الإسراء : « وَمَنْ كَانَ فِى هَٰذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً » وفى سورة طه : « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا * وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى

وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى » .

سادساً : العقوبات المقدرة من الشارع لاينفذها إلا الحاكم إذ لو أباح الشارع أن ينتقم كل لنفسه لعمت الفوضى واضطرب النظام وحينئذ يكون الفساد أكثر ، ولاينافى قول الله تعالى : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ[1] » لأن هذه الآية فى مقام الدفاع عن النفس مثل قوله تعالى : « لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ[2] » .

يوضح ذلك ماحكاه الله عن يوسف عليه السلام حيث قال لإخوته : « أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ » حينما قالوا له : « إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » وكذلك قول نوح عليه السلام لقومه قال : « إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ[3] » . ولا يدخل فى ذلك ما كان حراماً فى نفسه كسب الوالدين وإتلاف الزرع وإحراق المتاع . فإن هذا لايجوز الاعتداء بالمثل ، لأن مقابلة العدوان بمثله فى هذا لايذهب الغيظ ولا يعوض الفاقد مافقده ، وإنما يفصل فى ذلك الحاكم ، فإذا لم ينصفه الحاكم يترك جزاءه لله تعالى يعوضه خيراً فى الدنيا ويأجره عليه فى الآخرة .

تنبيه : ليس من البدع المصالح المرسلة ، وقد اشتهر أنها مذهب مالك ، والحقيقة أنها مذهب الجمهور ، والخلاف فى التسمية ، وهى فى المعاملات لا العبادات . لأن العبادات شرعت لتكون وسائل للقربى والزلفى عند الله وهى حق تعالى ، وليس لأحد أن يتدخل فى ذلك ، كما لايمكن معرفة حقه تعالى . وعلى هذا لايدخلها نقصان ولا زيادة .

لهذا لم يكن التلفظ بالنية فى الصلاة ، وسائر العبادات من المصالح المرسلة لأنها من العبادات . وقول الشافعية إنها سنة ليساعد اللسان القلب خطأ

(١) البقرة الآية : ١٩٤ (٢) النساء الآية : ١٤٨ (٣) هود الآية : ٣٨

محض ، بدليلين . أولهما : أن السنة أقوال النبي وأعماله وإقراراته . وثانياً : أن الشافعي لم يقل بها ، وإنما قال في الأم تبدأ الصلاة بالذكر ، والذكر تكبيرة الإحرام لا التلفظ بالنية لأنها إعلان الله تعالى عما في القلب والله ليس في حاجة إلى ذلك « إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ[1] » .

مثال المصالح المرسلة : جمع القرآن في عهد أبي بكر وكتابته في المصاحف في عهد عثمان ، وتحديد ثمانين جلدة لشارب الخمر ، وتضمين الصناع . وقتل الجماعة بالواحد . وما نقل عن مالك من جواز الحبس في المتهم . وعن بعض الصحابة من جواز الضرب بالتهم ، لأنه قد تتعذر إقامة البينة . وما أجازه بعض العلماء من أن للإمام أن يعاقب بالمال إذا رأى المصلحة في ذلك .

(١) الانبياء الآية : ١١٠

خطر الوجودية

كيف نشأت هذه الفكرة

تولدت هذه الفكرة من ضغط رجال الدين المسيحى على حرية الآراء والغلو فى دين الآباء ، فلقد بالغت الكنيسة فى الزهد فى الدنيا ، والتقشف فى العيش وتعطيل الغريزة الجنسية حتى جعلت الرهبانية من أعظم القربات إلى الله تعالى ، وحرمت الجنة على الأغنياء .

ولقد نبأنا التاريخ الصحيح أن رجال الكنيسة حظروا على كل مسيحى أن يفكر فيما يلقى إليه ؛ بل يقبله وإن كانت تحيله بداهة العقل ، والويل كل الويل لمن قال : لم ؟ .

الضغط يولد الانفجار

لهذا قام ضد الكنيسة رجال فأعلنوا خروجهم عليها وكفرهم بها ، نتيجة لتشددهم وغلوهم ، دليلهم على ذلك : أن هذه الغرائز ماأودعت فى الإنسان عبثاً بل لابد لها من حكمة وغاية ، ولايتحقق ذلك إلا إذا استوفت حقوقها كاملة غير منقوصة ؛ فحرمانها من دوافعها تعطيل لها ، وتعطيلها لايحقق وجود صاحبها .

إذاً : فالوجودية الإلحادية خاضعة للدوافع الذاتية ، والغرائز الجنسية تتلقى أوامرها من هوى الإنسان ونفسه ، متخلية عن كل مسئولية ، (إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » . ولا يدخل فى حسابها شىء من حق المجتمع ، لأنها لاتؤمن به ، وتعتقد أن المجتمع كلمة جوفاء ، لاحقيقة لها ، أطلقت من غير وعى وتفكير . أما الفرد فله وجود حقيقى ملموس ، يخاف ويأمن ويحيا ويموت ، والمجتمع مجرد من هذا كله لايحمل أية صفة من صفات الفرد . فلا حقيقة للإنسان إلا إذا أشبع غرائزه الذاتية ، مما تتطلبه نفسه وتصبو إليه ، غير مبال بما ينجم عن ذلك من فساد وضرر .

الإنسان لايعيش وحده

مما لاريب فيه أن هذا المذهب من أخطر المذاهب على المجتمع الذى إذا صلح صلح الفرد ، و بدهى أن الفرد لا يمكنه قيادة نفسه قيادة مستقلة ، تكفل له رزقه وكساءه وحمايته من أعدائه ، لأنه جزء منه ، فحياته فى حياته ، وموته فى موته . فإن انفصل عنه هلك لامحالة ، وقديماً قيل : « الإنسان مدنى بطبعه » . فافتقار الفرد إلى بنى جنسه افتقار الراحة للخمس ، والدنيا للشمس ، فكيف يتنازل عن المجتمع وهو وليده ، إنها لإحدى الكبر أن يتنكر الإنسان لأصله الذى منه وجد ولولاه لما عاش ساعة من نهار ، ولما وصل إليه درهم ولا دينار ، وهل يقوم بناء إلا بالتضامن والاتحاد . فالشخص الذى يريد أن يحيا حياة طيبة ، عليه أن يبذل مجهوداً فى خدمة المجتمع .

رقى الفرد برقى المجتمع

هذا وقد قرر علماء الاجتماع وأساطين العمران أن الصلة بين حرية الأفراد فى المجتمع قوية ووثيقة ، ذلك بأن الحرية لايمكن أن تنمو وتزدهر إلا فى مجتمع ناهض ، والمجتمع الناهض لاوجود له إلا بحرية أفراده ، ونعنى بالحرية هنا أن يكون الفرد حراً فى ملكه وتصرفه ، لايتدخل أحد فى شئونه ؛ ولا يكون لأحد سلطان عليه إلا بحق الرياسة ، لاحرية الوجودية الداعرة التى انسلخت عن الفضائل ، وتشبثت بالرذائل .

نعم الحرية حق طبيعى لكل فرد ، إذا فقدها سلب إرادته ، وإذا حرمها فقد إنسانيته ، ولكن على شرط ألا يكون فيها هضم لحق الغير أو تفريط فى حق المجتمع الذى هو جزء منه ، فإنه مرتبط به ارتباطاً كلياً ، فسعادته من سعادته ، وشقاؤه من شقائه .

الوجودية تكفر بالدين والعقل

وكما أن الوجودية تنكر المجتمع وتماديه ، كذلك لاتحفل بالعقل وتعتبره

شيطانها الرجيم ، ولا تؤمن بالدين وتجعله عدوها اللدود ؛ فيا للفضيحة والعار . أى شخص عنده مسكة من التفكير يحكم على العقل الذى هو هبة الله للإنسانية بالإعدام ، ولايجعله رائداً له فى الحياة ، هذا العقل الذى استطاع أن يجعل من الصحراء جنات ويجرى فيها أنهاراً ، واستعمر الجو بعد أن ضاق به البحر ، وذلل كل الصعاب ، وشق حديثه الجبال ، وعبر الأنهار ، أيصح أن نضرب عنه صفحاً لمتعة جنسية ، وشهوة بهيمية ؟ هذا العقل الذى هو إحدى الهدايات الإلهية الأربع التى قام عليها صرح الإنسان ، وهى هداية الفطرة والحواس والعقل والدين .

أولاها : هداية الفطرة التى تلازم الطفل من أول حياته ، فتراه يحرك شفتيه حينما تقدم إليه أمه حلمة ثديها ، ويصيح إذا ما أحس بألم نزل به ، ليدرأ الخطر الذى حاق به .

الثانية : هداية الحواس ، وهى كثيرة أبرزها حاسة البصر ، وحاسة الشم ، وحاسة الذوق ، وحاسة السمع ، وحاسة اللمس ، وهذه حواس ظاهرة . ولقد اكتشف فى هذا القرن حواس غيرها ، منها حاسة الإيقاظ من النوم . فالشخص الذى تعود أن يقوم فى وقت معلوم من النوم توقظه هذه الحاسة فى الدقيقة والثانية قبل نومه أو كثر . وكذلك حاسة مقياس المقادير تتجلى فى الشخص الكفيف الذى مرن هذه الحاسة على المشى يعبر الشوارع ، فتراه يندفع نحو الحوارى ، مهما بعدت الشقة من غير رائد يقوده . ومن هؤلاء أيضاً حاسة الإنقاذ تظهر فى الإنسان حينما يكون على مقربة من الخطر ، تراه يتداركه بسرعة قبل أن يحل به ، وهذه الحاسة ليست خاصة بالإنسان ، بل هى فى الحيوان أظهر . فمنذ أشهر حدث فى حديقة الحيوان فى الجيزة ، صياح شديد من أنواع الحيوان فى وقت واحد ، وما إن مضت دقائق معدودة حتى زلزلت الأرض زالزالها . « صُنْعَ ٱللهِ ٱلَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ » .

وكما أن الله عز وجل خلق الكون على أساس التوازن والتجانس ، ولولا ذلك لما انتظمت دورة ذلك الملكوت العظيم ، كذلك نظام الحياة الدنيا ، لابد وأن يكون على أساس التوازن والتجانس و إلا هلك .

المجتمع الصالح

فلأجل تكوين مجتمع صالح يجب أن يضحى كل فرد من شخصيته لمجتمعه ، مثل البناء إذا لم تكن لبناته قوية متماسكة أوشك على الانهيار ، وكان على شفا جرف هار .

أليس من الجحود الآثم أن ينعم الفرد فى ظل المجتمع ، وأن يرتع فى بحبوحته ، ولا يجد أمناً ولا سلامة إلا فى رحابه ، كما أنه أصل الثروة التى بيده ثم يثور عليه فلا يرقب فيه إلا ولا ذمة ولا حرمة ، وكان جديراً به أن يقابل الإحسان بالإحسان « هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ [١] » . « إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ [٢] » .

الهداية الثالثة : هداية العقل الذى يميز بين الضار والنافع والخير والشر ، ولكنه تارة يضل تحت تأثير الشهوات ، فيستمرىء القذر القبيح ، و يعاف الطيب المرىء ، وتطفىء نوره ثورة الغضب الشديد فيستبيح سفك الدماء . والأمثلة فى ذلك كثيرة : منها أنه صنع من الحجر آلهة فى الجاهلية فعبدها ووأد ابنته التى هى قطعة من لحمه ودمه خشية العار ، وقتل ابنه خشية العالة والفقر : « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ [٣] » .

والهداية الرابعة : هداية الدين : وهى الهداية التى لا يتسرب إليها خطأ ولا يصيبها شلل ، لأنها من لدن حكيم خبير .

أما الهدايات التى قبلها فكثيرا ما تخطىء المرمى ، ولا تصيب الهدف .

---

(١) الرحمن الآية : ٦٠ (٢) العاديات الآيات ٦ ، ٧ (٣) الأنعام الآية : ١٤٠

مصادر هذه الهدايات

مصدر هداية الفطرة : طبيعة الإنسان فهى مغروسة فيه غرساً خلقياً ، يشهد لها الصراع القائم بين رغبات النفس وحقوق المجتمع ، فلولا هـذه الهداية لما كان هناك شعور بالمسئولية ووخز الضمير .

أما هداية العقل ، فمادتها التجربة والمشاهدات ، والتفكر والملاحظات فى عوالم المحسوسات .

وأما هداية الدين فمستمدة من طريق الوحى والنبوات ، وهـذه الهداية ضرورية لهذا الإنسان ، ولا يمكن استغناؤه عنها بحال ، فلو تجرد الإنسان منها ، وفرضنا تاريخه منقطعاً عنها إلى اليوم لزال معنى الإنسان ، وما كان على وجه الأرض أثر للانسان ، وما صح لنا أن نقول : « إن الأرض رأت إنسان أو رآها إنسان .

لهذا لم يجرد الله تعالى الدنيا من أنبياء مرسلين ، وهداة مرشدين: « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ[1] » ، وقال على كرم الله وجهه : لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، لئلا تبطل حجج الله و بيناته .

ذلك بأن الناموس الأخلاقى هو الدعامة الأولى فى بناء صرح المجتمع ، ولا بد له من نقطة يرتكز عليها ، تلك النقطة هى الشعور بالسلطة الغيبية التى تزلزل على الإنسان قواعد شره وتجزى على الخير خيراً ، وعلى الشر شراً : « يوم لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنت منْ قبلُ أو كسبتْ فى إيمانها خيراً » .

ولم يكن الشأن فى الحيوان كذلك ، لأن حياة الحيوان تقوم على التقام هضمات من الأعشاب و يتناول عليها جرعات من الماء ، فيستطيع أن يعيش منفرداً .

أما الإنسان فمطالبه كثيرة ، ومقاصده مختلفة ، ولا تنتهى إلى غاية ، كما أنها كما أنها ليست مجتمعة فى صقع من الأصقاع ، وهو وحده عاجز عن الوصول إليها

---

(١) فاطر الآية : ٢٤

بالحصول عليها ، مهما أنفق من قوة و بذل من جهد ، وعلى هذا فلابد أن يدفع الضريبة الغالية لهذا المجتمع الذى عاش فيه وهى التضحية من صالحه الشخصى .
ومحال أن نجد فى سبيله هذه التضحية فى غيرالعقيدة والإيمـان ، فكل مانراه من غرائز شريفة وعواطف نبيلة إنما هو من آثار هداية الدين ، و إن أمر الناس لايقوم إلا على صرح الأخلاق ، ومعرفة حكمة الله فى خلقه ، و إدراك البديع من صنعه . والعقيدة الدينية هى التى خلقت من الجبان شجاعاً ، ومن المتـكبر المتعجرف متواضعاً .

الدين أكبر حافز للخير

فإنه يصغر لصاحبه أحداث الدنيا ، فهو عزاؤنا إذا خابت مساعينا ، والمشكاة التى نستضىء بها إذا أظلمت علينا سبل الحياة ، وهوالذى يصلح مجتمعنا و يطهره من الأثرة والأنانية ، و يشيع فى جوانبه الثقة والصراحة والجرأة ، وتحقيق الإخاء الإنسانى بأجلى مظاهره ، والإخاء الدينى أقوى من أخوة الدم والنسب والقرابة .
ولولا الدين لمـا استطعنا أن نعالج هموم الدنيا فهوسلوة للفقراء وعزاء للمصابين ، وهو النجم الذى يلمع حيناً فى سماء الليلة المظلمة المدلهمة .

الوجودية خاضعة للأهواء

الوجوديون لا يقيمون وزناً للقيم التى تربط الأفراد بالمجتمع ، ولا يحفلون بما يوحى إليه العقل والنظام والدين مالم يكن ذلك متفقاً مع أهوائهم محققاً لشهواتهم .
فتئول الوجودية بعد التمحيص والتنقيب إلى أن الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم وفطره على أحسن فطرة شبيه بالحيوان الأعجم يعيش ليأكل و يتمتع وليست عليه أية مسئولية . وليس من شك فى أن فى ذلك لإهداراً للـكرامة الإنسانية ، وعدم تقدير للإلهية « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ[1] » .

---

(١) المؤمنون : الآية ١١٥

والوجوديون ينأون عن الدين لأنه يحدد من شهواتهم ، ويقف فى طريق نزواتهم فى سبيل إصلاح غيرهم . والوجودية تطلق لهم العنان فى كل ما يأتون ويذرون ، ولو كان فى ذلك ضياع أمتهم . فهى لاتمجد الفضيلة ولاتقبح الرذيلة ، والخير والشر عندها سواء فيما يتعلق بالمجتمع والجماعات . أما فى الأفراد فالخير هو كل ما صادف هوى وابى نداء غريزة ، فكأن هاتف الوجودية يصيح فى آذان الفرد : (خذ حظك من الحياة ماشئت ولا تدع أى فرصة تفوتك دون أن تظفر بلذة مشروعة أو غير مشروعة ، أو متعة مباحة أو غير مباحة) .

عقيدة الوجوديين

إن الوجوديين يعتبرون الحياة الدنيا أياماً تمر وأعواما تكر وأجيالا تتعاقب وأعماراً يطويها كر الغداة ومر العشى ، وأن متاع الحياة ولهوها هما منتهى مالهذا الإنسان فى الوجود ، وأن الموت هو النهاية الأبدية لوجود الإنسان ، فلا بعث ولا حساب ولا جزاء . وبنوا على هذه الظنون الآثمة أن سعادة الفرد فى هذه الدنيا التى لايؤمنون إلا بها لا تتم إلا بما يحقق وجوده فيها من حيث هو حيوان متحكم فى غرائزه ونزواته ، وتستعبده أهواؤه وشهواته ، وتنتهى هذه الفكرة الخاطئة إلى أن الإنسان خلق للأشغال الشاقة ثم حكم عليه بالإعدام ، كأنه خلق ليموت ويعيش ليأكل ويتمتع ، لامن حيث أنه إنسان جعله الله خليفته فى أرضه ، وفضله على سائر خلقه .

هذه هى مزاعمهم ، وتلك مفترياتهم ، وهذه آفة القديم والحديث . أنهم لايؤمنون إلا بالشىء الذى تراه أعينهم وتسمعه آذانهم وتلمسه أيديهم ، ويرفضون أن يصدقوا بما لايحيطون به علماً ، فأنكروا أن هناك عالماً آخر يرى فيه المحسن حسن عمله ، والمسىء سوء عمله ، ولو أنهم فكروا قليلا وقدروا فيما قالوا لوجدوا أن هذا المذهب معول هدم وتخريب يودى بالأمة إلى الفناء ، ويهوى بمعتنقه إلى الدرك الأسفل من الانحدار ، ويشد عجلة الحياة إلى الوراء ويمنعها من التقدم

إلى الأمام ، لأن إطلاق الغرائز التى قارنت وجود الإنسان فى الأرض وسارت معه فى جميع أطواره جنباً إلى جنب ، معناها مجاوزتها حدود الاعتدال ، وسلوك طريق الضلال ، لأن كل ما فى الدنيا من نعيم محدود ، فإذا لم يكن كل شخص مالكا زمام أطماعه وأهوائه ، كابحاً لثورة غرائزه وشهواته ، واقفاً بمطالب النفس عند حدود التوسط والاعتدال ، داخلا فى حسابه حق غيره ، انتهى الأمر إلى هلاك محقق ، وهل جاءت الأديان السماوية إلا لتنظيم هـذه الغرائز وتحديد مطالبها ، حتى لا يبغى أحد على أحد ، فتعيش الناس فى أمن وسلام ، وطمأنينة ورخاء ؟ وهل تألفت الحكومات إلا لتعاقب كل من تعدى حدود غرائزه فى هضم حق غيره .

فى الإسلام دنيا ودين

هذا وقد راعى الإسلام فى تعاليمه مصلح الروح والجسد ، فلم يسلك مسالك النصرانية والهندية فى تعذيب النفس وإذلالها ؛ ولا مسالك اليهود الذين أفرطوا فى الشهوات البدنية ، واللذات الجسمية .

ياهؤلاء : أجيبونى علام تنشرون الأباحية الفاجرة فى هذا العصر المنكوب الذى تكتنفه حيرة من منازعات حزبية وعائلية ، وتشاريع غير مجدية ، وتكالب على الدنيا فى حرب مستعرة ؟ حتى أصبحت الكرة الأرضية رجوماً من نار ، وعلى وشك الانهيار .

وكنا نظن أن الوجودية أعظم خطراً على الإنسانية من الشيوعية ، وإذا بالشيوعية تزداد عنها إثماً وتعظم جرماً ، إذ فيها كبت الحريات واستيلاء الطائفة الحاكمة على أموال الناس وكل ماوجدوه عندهم من الإنتاج .

وأى وأد للحرية من حرمان الفرد من التصرف فى ماله وشئونه الخاصة !
وأى جرم أعظم من الحكم بالموت أو بالحبس مدة عشر سنوات على كل من وجد عنده شىء من القوت قل أو كثر ؟

إن هذه المبادىء تشل قوى التفكير ، وتبعث على الكسل والخمول ضرورة أن العامل إذا تحقق له أن إنتاجه لغيره وأن يد الظلم مسلطة عليه ، لا بد أن تخمد جذوة نشاطه ، و ينضب معين اجتهاده .

و إن الاتصال الجنسى فى الشيوعية يتم بكل سهولة ودون حاجة إلى إجراء زواج ، وأن الفرقة بين الاثنين يملكها الطرفان .

ولقد كان من جراء هذا أن أصبحت المرأة مثالا للتهتك والابتذال ، وكسدت بضاعتها فى سوق الزواج .

وخلاصة القول : أن الشيوعية سرطان يمتص دم المجتمع مثل الميكروبات الوبائية تقتل غيرها ، ثم لاتلبث أن تقتل نفسها .

هذه هى الشيوعية ، وتلك فلسفتها ، هل تجد فيها فضيلة من الفضائل ، كلا بل أصيبت الفضيلة فيها بجزع أليم ، وهل تهدف إلى قصد شريف ؟ كلا أنها تدعو إلى الفوضى المروّعة التى ما استولت على شعب إلا أهلكته ، ولا أمة إلا أبادتها . فلاتراعى حق أب ولا أم ، ولا زوج ولا جار ولا قريب ، مادامت لم تستوف حقها . وما أحوجنا إلى مايشبع حاجاتنا الروحية ، التى إذا تمت وازدهرت أغنتنا عن كثير من شهواتنا .

ومماساعد على اعتناق هذا المذهب الهدام ، هو توهمهم بأن معايير السعادة التى يطمع فيها الناس ، إنما هى بالسؤدد والمال والتمتع بملذات الحياة فحسب ، وهذا خطأ محض ، لأن السعادة الحقيقية شعور فى القلب يمد صاحبه بالطمأنينة والغبطة ، و إن كان قليل المال ، دليل ذلك أن كبار القادة والمصلحين والمفكرين لم يجعلوا أكبر همهم جمع المال ، ولو أرادوا ذلك لادخروا لأنفسهم وذويهم أكبر قسم من ثروة الأمة التى كانت تفديهم بأرواحها ، فالذين يقيسون السعادة بالثروة واهمون ، أو بإشباع الغرائز مخطئون ؛ لهذا قال الإمام تقى الدين

ابن تيمية : إنه لتمر بى أوقات يرقص فيها القلب من الطرب فأقول : لو أن أهل الجنة فى مثل ما أنا فيه إنهم إذا لفى عيش طيب .

اشتراكية الإسلام الفاضلة

فياسادة التفكير ، ويأصحاب الرأى الضليع ، أين وجوديتكم المستهترة الماجنة المخزية المدمرة من اشتراكية الإسلام المثالية الحقة ، التى حفظت للإنسانية حقوقها وأعطت كل نفس حظها من غير اعتداء ولا تقصير ، ولا بغى ولا عدوان ولا إسراف فى النزعات ، ولا جموح فى الرغبات : فهى تحقق الدوافع الذاتية ، وتنميها وترعاها فى نظام تكافلى كامل ، فقد أباحت للإنسان التمتع بما ينمى جسمه ، ويربى روحه ليحيا حياة طيبة ، ويعيش عيشة هنيئة ويصل إلى ماهيىء له من الاكتمال ، من غير ضرر ولا ضرار .

هذا ولما كان الإنسان أسير شهواته ، وعبد أطماعه ، رسم الله له فى التمتع بما بما يريد حدوداً لايتعداها ، ورسوماً لايتخطاها ، أحل له التمتع بما يعود عليه بالمنفعة حسًا ومعنى ، من غير غلو ولا إسراف ، وحظر عليه اقتراف مايؤدى إلى ضرر فى جسمه ، أو روحه ، أو يكون فيه أذى لبنى جنسه ؛ وأباح له التجمل بأنواع الزينة ؛ والتوسع فى التمتع بمشتهياته مع حسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية ؛ وأوجب احترام الأنفس والأعراض والأموال ؛ ومنع من الاعتداء عليها ، وشرع عقوبات تزجر المخالفين .

هذه هى تعاليم الإسلام التي تُشعِر صاحبها بالمسئولية أمام رب العالمين ، وتهيب بالناس أجمعين إلى أن يضحوا بصالحهم الشخصى فى سبيل الصالح العام .

أما الشعور بالمسئولية أمام الضمير فإنها تضعف أمام الشهوات القاهرة والغضب الحاد ، وكذلك الشعور بالمسئولية أمام الحاكم والناس ، فهى محدودة ضيقة لاتعلو الجبال ، ولاتهبط إلى السهول والوديان .

والحق أن هذه الأفكار وما ماثلها هى التى حولت النهضة العلمية إلى آلات

حربية ومجازر دموية ، وأصبح العلم شراً على الإنسانية ، لأنه يكمن تحت أجنحته الموت الزؤام لاستخدامه فى ارتكاب الجرائم والجنايات حتى ولغ أهله فى الدماء ، وتمرغوا فيها إلى الأذقان ، وأصبح الْعِلْم كالنار جمعت بين الإحراق والنور ، فذهب النور وبقى الإحراق .

فلله تلك الأنفس العزيزة والأرواح الغالية التى صعدت إلى ربها شاكية إلى الله جور هؤلاء الذين لم تجد الرحمة إلى قلوبهم سبيلا ، كأن قلوبهم قد قدَّت من حجر جامس .

هذا وإن مساوئ هذه الوجودية أنها لا تربط الإنسان بغير شخصه ، ولا تربطه بفكرة مثالية سابقة على الوجود ، ولا تراعى حقاً من حقوق الغير ، فهى كالسيارة التى تنطلق دون أن تسير فى طريق معلوم ، وقد قطعت كل صلة بالسيارات الأخرى فلا ريب أنها قد تتصارع ، ويحطم بعضها بعضاً .

وإنه لجدير بك أن يتملكك العجب ، وتستولى عليك الدهشة حين ترى رجلا مثقفاً تثقف فى معاهد عالية ، وتربى بين أبوين مسلمين ، يصدح بهذا الرأى العقيم الذى يحرك الغريزة الجنسية فى الشباب فى هذه السن الهائجة ، وما أحوجهم إلى ركودها وأحوج الوطن إليهم فى هذا الصراع العالمى حتى ينتهوا من مراحل التعليم ! ثم هو يخلع على نفسه لقب الزعيم ، زعيم الوجوديين وليت هذه الفكرة ناشئة عن تفكير وتقدير ، بل عن هوى وتقليد لملاحدة الغرب الذين استباحوا لأنفسهم كل محظور وهم عن آيات الله غافلون .

الإسلام بين الجامد والجاحد

وإن من الفضيحة والعار أن ينشر هذا الرأى رجل له مكانته الرسمية على النشء فى الجامعات المصرية التى أنشئت لتضىء للناس سبل الحياة وتلقن أبناءنا مكارم الأخلاق ، وأن يعلنه فى الصحف من غير خجل ولا استحياء .

هذا ولو أننا عرضنا الوجودية على علماء الاجتماع وأساطين العمران الذين محضوا الحقائق وسبروا الوجود ، وحللوا الأشياء إلى عواملها الأولية ، لانتهى بهم القول إلى أن الوجودية ليس لها قاعدة تستقر عليها ولا تدعو إلى تنظيم سلوك عملي للفرد والجماعة ، ولا تغرى بالفضائل ، بل تحطم الناموس الأخلاقى ، الذى لولاه لانقرضت الإنسانية من لوح الوجود .

وإنما الأمم الأخلاق مابقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن ذا الذى ينكر أن الدعامة الأولى التى قام عليها صرح الإسلام ، إنما كانت من قهر النفوس ومغالبة الأهواء ، وضبط النفس ، والتضحية باللذات العاجلة فى سبيل الخير الآجل ، وما كان ذلك إلا من طريق الدين الذى هو أقوى سلاح نتسلح به فى رحلتنا الدنيوية والأخروية .

هذا وكنت أود أن أربأ بنفسى ألا أعير لهـذا اهتماماً ، أو أحرك قلماً ، لولا ماخشيت على أبنائنا من خطر محدق ، وشر مستطير .

اللهم إنى لاأستطيع أن أخوض معاركَ الحياة وحيداً ، فلا تكلنى إلى نفسى فأضل ضلالا مبيناً ، وهب لى من لدنك سلطاناً نصيراً .

حكم الشريعة فى الموالد

إن كانت حسناتها تزيد عن سيئاتها ومصالحها تغلب مفاسدها فلا بأس من إقامتها و إلا فمحظور شرعاً إقامتها ، لأن القاعدة الأصولية التى أطبق عليها علماء الدين أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح . وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَااسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ[1] » ففى جانب الأمر أمرنا بالقدر المستطاع ، وفى جانب النهى لم يصرح لنا بالشىء القليل ، على أنها الآن فقدت كل حسنة وصارت شراً لاخير فيه ، والواقع يشهد بذلك .

وإنى أهيب بإخوانى العلماء ومن ينشدون الحق ، أن يفتحوا عيونهم على الواقع ويحكموا عقولهم ، فلا يندفعوا وراء عواطفهم بحكم التقليد الممقوت والوراثة المزرية ، ليعلموا أى الناس أشد حباً لآل بيت النبى ﷺ والصالحين من عباده : الغالون الذين أعطوهم حق الله من حبهم حب عبودية من طواف ونداء واستمداد معونة واستغاثات ونذور وخوف ورجاء وكشف كروب واستنصار على العدو ؟ أم المقتصدون الذين يؤمنون بأنهم عباد الله لا يملكون نفعاً ولا ضراً ، كما قال سبحانه خطاباً لنبيه : « قُلْ إِنِّى لَاأَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَارَشَداً[2] » .

إقامة الموالد

تقام الموالد بحجة الإشادة بمناقب الأولياء ، فلا يحين حينها ويبزغ فجر يومها إلا ويهرع الناس إليها من كل فج عميق ، فمنهم من يقيم حفلات الذكر فى المسجد أو خارجه ، ومنهم من ينصب سرادقات ليقرأ فيها القرآن أو سيرة النبى المختار ، ومنهم من يحمل الرايات (البوارق) ويطوف حول المحتفل به حتى فى وقت الأذان والصلاة .

---

(١) فى المصابيح (٢) الجن الآية : ٢١

هـذه كل حسناتها ، ولو حللناها تحليلاً صحيحاً لما وجدنا فيها عنصراً من عناصر الخير . ودليلنا على ذلك أن الذكر الذى يقام قد تخلله عيوب أبطلت ثوابه وأضاعت حرمته وشوهت جلاله .

وأول عيوبه أن النطق بلفظ الجلالة غير صحيح إذ أنه بالمد لا بالقصر .

وثانيها : أنهم يذكرون بألفاظ لم ترد فى أسماء الله الحسنى بقولهم آه هو ، والله تعالى يقول : «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[1]» .

وثالثها أنهم يذكرون : بلفظ مفرد ، مع أن الذكر الوارد إنما يكون فى جمل صحيحة[2] .

ورابعها : أنهم يذكرون الله جماعة على صوت واحد ونبرة واحدة لم تكن من عمل السلف .

وقد روى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : أنه رأى جماعة فى المسجد يسبحون ويحمدون ويكبرون جماعة فوقف عليهم وقال : لقد جئتم ببدعة ظلماً ، أو فقتم محمداً وأصحابه علماً ؟ .

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه : أنه وجد قوماً مجتمعين يهللون برفع الصوت فقال لهم : ما أراكم إلا مبتدعين ، وأخرجهم من المسجد . وينبغى أن يذكر كل واحد على انفراد فى نفسه .

وخامسها : أن الجهر بالذكر مخالف نص القرآن وهدى النبى العدنان ، قال تعالى : «وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[3]» .

---

(١) الأعراف الآية : ١٨٠ (٢) اطلع على كتاب الأذكار للنووى والكلم الطيب لابن تيمية ولابن القيم (٣) الأعراف الآيات : ٢٠٥ ، ٢٠٦

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى سفر فكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا[١] عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِباً ، إِنَّهُ مَعَكُمْ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ[٢] » .

وسادسها : التمايل ذات اليمين وذات الشمال مما يذهب روعة الذكر وبهاء الرجل ، على أنه لايوجه القلب إلى الله ، ولا يبعد الغفلة عن الإنسان ، ولا يذكره بعظمة الله فى تبتل وخشوع .

وسابعها التصفير والتصفيق أثناء الذكر مما نعاها الله على المشركين فى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً[٣] وَتَصْدِيَةً[٤] » وأنه بهذا المعنى لايحقق قول الله تعالى : « أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ[٥] » . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : الذكر ينبت الإيمان كما ينبت الماء البقل . وقال عثمان رضى الله عنه : لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل . ورحم الله الإمام تقى الدين بن تيمية حيث يقول : إن حاجة الناس إلى ذكر لله تعالى كحاجة السمك إلى الماء ، فكما أن السمك لا يعيش بدون الماء كذلك المؤمن لايتحقق إيمانه إلا بذكر الله ، بالمعنى .

قال رسول الله ﷺ : « أَفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ » رواه الترمذى وغيره عن جابر . روى أحمد والطبرانى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ » قيل : يا رسول الله ، كيف نجدد إيماننا ؟ قال : « أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ » رواه أحمد بهذا المعنى .

والخلاصة : إن الذكر الذى ارتضاه الله تعالى لدينه أعمق أثراً وأرفع زخراً من هذه الطقوس التى أضفاها أرباب الطرق .

---

(١) اربعوا : ارفقوا بأنفسكم (٢) البخارى
(٣) المكاء : التصفير (٤) التصدية : التصفيق (٥) الرعد الآية : ٢٨

هذا ولقد أساءت هذه الطوائف إلى الإسلام أيما إساءة حيث قد نقل هذه الصور بعض الأجانب إلى بلادهم ، فنشروها بين قومهم ليوهموهم أن هذا هو الإسلام ، وأولئك أبناؤه . وإنى أهيب بقراء كتابى هذا أن يطلعوا على كتاب النصرانية والإسلام للمغفور له إمام المسلمين الشيخ محمد عبده ، الذى يرد به على وزير فرنسا الذى أخذ الإسلام عن هؤلاء الدراويش ومشايخهم ، يرى أن دعوة الإسلام وصلت إلى الأجانب مشوهة ، ويقينى لو وصلت هذه الدعوة سليمة من هذه الأضاليل لاعتنقتها أوربا وسائر بلاد الشرق .

نقل القرطبى عن الإمام الطرسوسى أنه سئل عن قوم فى مكان يقرءون شيئاً من القرآن الكريم ، ثم ينشد لهم منشد شيئاً من الشعر ، فيرقصون ويطربون ويضربون بالدف ، هل الحضور معهم ضلال أم لا ؟ فأجاب : (مذهب السادة الصوفية أن هذا بطالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى كما اتخذ لهم عجلا جسداً له خوار ؛ فأتوا يرقصون حوله ويتواجدون ، وهو أى الرقص دين الكفار وعباد العجل ، وإنما كان مجلس النبى ﷺ مع أصحابه فكأنما على رءوسهم الطير من الوقار . فينبغى للسلطان ونوابه أن يمنعوهم عن الحضور فى المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم . هذا هو مذهب مالك والشافعى وأبو حنيفة وأحمد وغيرهم اهـ[1]) .

أما إقامتهم السرادقات وتزيينها بالمصابيح والثريات ، وإقامة الزينات ومعالم الأفراح ، فكلها أمور لا تتجاوز الفخر والرياء ، ولا تعود على المجتمع والفرد بقليل ولا كثير ، ولا هى مما يحبذها الدين . وإن تعجب فعجب من هؤلاء أنه إذا كان طعام معدٌّ فى السرادقات ، فلا يقربه إلا كل من له محسوبية أو من

---

(١) انتهى من الهامش المسمى : بكتاب كف الرعاع ، عن محرمات اللهو والسماع ، للامام ابن حجر الهيتمى .

يمت إلى أصحاب السرادق بصلة قربى أو صداقة أو محسوبية ، والويل كل الويل لمن لم يكن من هؤلاء واقترب من السرادق ، ولو كان هذا الطعام يأكله الفقراء والمعوزون لخف المصاب ، ولكن واأسفاه لم يكن إلا فى بطون الأغنياء .

قال صلى الله عليه وسلم : « شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ يُدْعَى إِلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ[1] » .

أسفى على هؤلاء الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الموالد ، ويتكبدون المشقات من السفر إلى صاحب المولد ، ويتركون وراءهم ذوى القربى واليتامى والمساكين ، واهمين بأن هذا فيه قربى إلى الله ، ويرضى صاحب المولد فى قبره . ولعمر الله تعمل هؤلاء فى تباب وشرك بالله فى العبادة ، ونقض لقوله تعالى : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » . وفى الحديث القدسى : « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ » رواه مسلم .

وقد جاء فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا لِثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ : الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ، وَمَسْجِدِي هَذَا[2] » .

ينبىء هذا الحديث عن أنه لا يصح لأحد أن ينشىء سفراً إلى ضريح ولا مسجد إلا إلى المساجد الثلاثة المذكورة . وعلى هذا فالذين يذهبون من بلادهم إلى بلاد أخرى للاحتفال بموالد الأولياء مأزورون غير مأجورين ، وكان عليهم أن ينفقوا ما بأيديهم إلى أرحامهم الفقراء وجيرانهم ، ومن يستحقونها من أهل بلدهم .

ولو أنك أمعنت نظرك بالأحياء التى تحيط بصاحب الذكرى لرأيت عجباً : رأيت مراقص خليعة ، وأغانى هزلية ، ومزامير الشيطان ، وحلقات الحاوى ،

(١، ٢) فى الصحيحين عن أبى هريرة .

وحركات بهلوانية ولاعبي القرود ومايسمونه الغياترو . وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، بل تروج في ساحته تجارة المخدرات التي قضت على الشبان ، واختلاط الرجال بالنساء اختلاطاً مشيناً ، إلى غير ذلك وهذا خارج المسجد . وأما داخل المسجد فتعطل الصلوات وتنتشر القذارة انتشاراً مخزياً من آثار الأكل .

سئل الإمام أبوالسيد سليمان بن خلف الباجي من أئمة العلماء بالمغرب وشارح كتاب الموطأ ، أحد شيوخ الإمام ابن عبد البر الأندلسي (توفي سنة ٤٩٤) وقد سئل رحمه الله ورحمنا عن المولد فأجاب : لا أعلم لهذا المولد أصلا في كتاب ولا سنة ، ولا بنقل عمل عن أحد من علماء الأمة الذين هم القدوة في الدين المتمسكون بآياته المتعبدون ، بل كل هذا بدعة ابتدعها البطَّالون ، وشهوة نفس ، اعتنى بها الأكالون ، بدليل أنا إذا أوردنا عليها الأحكام الخمسة قلنا : إما أن تكون واجبة أو مندوبة أو مباحة ، أو مكروهة أو محرمة ، وليس هو الواجب إجماعياً ولا بمندوب . لأن المندوب ما طلبه الشرع من غير ذنب على تركه وهذا لم يأذن به الشرع ولا نقله الصحابة ولا التابعون ولا العلماء المتدينون فيما أعلم .

الأعياد الدينية ومشروعيتها

لكل أمة من أمم الأرض أعياد دينية ، تسكن فيها إلى زهو الحياة ، وتنسى ما لقيته في عامها من جهد وعناء ، وما بينها من ضغن وأحقاد ، كما أن لها مواسم أخرى لا تقل شأناً عن أعيادها ، تحتفل فيها بذكرى عظيم من عظمائها ، وتجدد فيها ذكريات انتصاراتها على أعدائها وثأرها لنفسها ، فيكون عيداً لقوم ومأساة لآخرين . هذا ولما أشرقت الأرض بنور الإسلام الذي جاء لسعادة الإنسان وقف منها موقف المصلح الاجتماعي والشارع القانوني فأباح منها ماوافق الحنيفية ، حيث لاجموح في الرغبات ، ولا إسراف في النزعات ، قال سبحانه : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ[1] » .

---

(١) الأعراف الآية : ٣٢

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ (١) » رواه أحمد وغيره عن ابن عمرو .

جاء الإسلام فوجد للعرب أعياداً يحيون فيها العصبية القومية ، بما يفخرون من أحساب وأنساب ، ويتنافسون فى الأدب من شعر وخطب ولعب الميسر ، ويردون كسبه على من مسه الضر أو أذلته الحاجة زلفى إلى آلهتهم ، وتقرباً إلى أصنامهم ليشفعوا لهم عند ربهم . كما حكى الله ذلك عنهم فقال : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢) » .

وكان من شأن رسول الله ﷺ ألا يصادرهم فى شىء مما كانوا عليه فى الجاهلية إلا بوحى من الله ، فلما هاجر إلى المدينة بدلهم الله من أعيادهم عيدين : عيد الأضحى وعيد الفطر المبارك ، ينعمون فيهما برضوان الله ويغتبطون برحمته ، ويأخذون فيهما زينتهم ، ويتبادلون من طيبات ما رزقهم الله ، ويتواصلون ويتآزرون ويحيون قلوبهم بما يسمعونه من الحكمة والموعظة الحسنة ، ويشكرون الله على ماهداهم . فيومان كلهما خير وبركات : إخاء ومساواة ، وبذل وسخاء ، وبر بذى القربى ، وصلة أرحام ، وغض عن محارم الله ، وزكاة وأضحية ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وتعظيم لشعائر الله « ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣) » .

فمن هذا تعلم أن الأعياد الإسلامية مواسم للخيرات ، وتجارة مع رب الأرض والسموات ، ومحطات بين الماضى والمستقبل ، يقف الإنسان عندها ليقرأ صحيفة عامه الراحل ، هل طويت على بياض ناصع فيطمئن على مستقبله ، ويزداد شكراً لربه

---

(١) الإمام أحمد فى بلوغ المرام لابن حجر العسقلانى .

(٢) يونس الآية : ١٨ (٣) الحج الآية : ٣٢

على هدايته ؟ أم طويت على سواد حالك فيرجع عن غيه وينيب إلى ربه ، ويقلع عن ذنبه قبل أن يبلغ الكتاب أجله ، وينزل الموت بساحته ، فلا تنفعه معذرته ولا تقبل توبته ، قال تعالى : « فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا[1] » .

فليكن هذا العيد حافزاً لنا على تذكر هذه المعانى والتنافس فى الطاعات ، وأن ننبذ كل ما فى نفوسنا من ضغن وأحقاد ، ونصلح بين الأفراد والجماعات ، والأزواج والزوجات ، حتى نفوز برضوان الله .

وإذا قارنا بين الأعياد الإسلامية وبين أعيادنا اليوم ، لا نجد من فضائلها إلا النزر اليسير ، ولم يبق منها إلا رسوم رسمتها الأهواء ، وابتدعتها الشهوات ، لا يتجاوز لذة الأجسام والتمتع بالأنظار . ومما يؤسف له كثيراً قضاء أيام العيد فى المقابر وهجر المنازل ، مما أذهب روعة الموت وجلاله . فواسوءتاه : مواطن العبرة والادّكار ، والعظة والاعتبار ، تصبح مواطن متعة للشهوات والطعام والشراب ، إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر . ! !

اللهم قونا باليقين وامنحنا التوفيق وأعد هذا اليوم المبارك على الأمة الإسلامية موحدة الكلمة ، عزيزة الجانب ، وتحية مباركة طيبة من صميم القلب إلى الشعوب الإسلامية جمعاء بهذا العيد أرجو الذى أن ينعم فيه الجميع بالراحة والطمأنينة والرخاء .

الحقيقة والشريعة

من الأضاليل التى دخلت فى الدين ، وفرقت بين المسلمين ، تجزئة ما جاء عن الوحى الإلهى إلى جزءين : حقيقة وشريعة ، وظاهر وباطن . فالأولى اختص بها من اصطفاه الله من عباده وحباه من أوليائه ، والثانية للدهماء وعامة الناس ، وليس لهم دليل فيما ادعو سوى قصة الخضر مع موسى ، بتأويلهم الباطل وحكمهم الجائر بأن الخضر وَلِيٌّ وموسى نبيٌّ ، وقد امتاز الولى عن النبى بعلم الحقيقة ، حيث إنه

---

(١) غافر الآية : ٨٥

خرق السفينة ، وقتل الغلام ، و بنى الجدار للذين ضنوا عليهما بحق الضيافة ، وما كان لموسى أن يفعل ذلك .

ولقد كان لهذا الفهم الخاطىء وهذا الزعم الباطل ، أثر سيء فى فساد العقائد الإسلامية ونقض عرى الإيمان ، إذ أنهم يرون المنكر بأعينهم ولا ينكرونه ، و يسمعونه بآذانهم ولا يغضبون له محتجين بهذه الحجة الواهية بأن من يفعل ذلك فهو من أهل الحقيقة ، وهى فى الظاهر معصية وفى الباطن طاعة و إيمان ، فإن ما فعله الخضر كان كذلك ، وهذا قياس فاسد وحكم باطل . إذ أن الخضر لم يكن عنده علم بذلك ولكن الله أمره بخرق السفينة وقتل الغلام و بناء الجدار ، دليل ذلك قوله تعالى : « وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى[1] » وهى تنطق بأنه نبى لأن الله لا يوحى أمراً لأحد من خلقه ولا نهياً إلا لنبى من أنبيائه ، ولهذا أمر الله الخضر بخرقها حتى لا يغتصبها غاصب ، و بقتل الغلام خشية أن يلحق أبويه كفر إذا كبر ، و بناء الجدار لأنه كان ليتيمين ، والإحسان إلى اليتيم فرض كفاية على كل مكلف .

ولو أن الله تعالى أعلم موسى نتيجة هذه الأمور لكان أسبق من الخضر فى فعلها لأنه من أولى العزم من الرسل . والحكمة فى أن الله تعالى اختار الخضر لذلك تأديباً لموسى بأنه ما كان له أن يقول حينما سألوه : أىّ الناس أعلم يقول أنا أعلم الناس . بل كان ينبغى له أن يقول : الله أعلم ، إذ أنه لم يطف أقطار الأرض و يشبرها حتى يجيب السائلين بهذا الجواب قال تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً[2] » ومن الحكمة أيضاً — أن العلم يسعى إليه ولو كان فى أقصى البلاد ، أضف إلى ذلك أن التواضع من أخلاق المرسلين .

على أنه قد تقرر أن كل نبى من الأنبياء آتاه الله علماً يناسب بيئته وطبيعة قومه ليس عند الآخر ، شأن كل شريعة من شرائع الله تعالى ، لأن كل شريعة مشتقة من فطرة الإنسان ، قال سبحانه : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا[3] » .

---

(١) الكهف الآية : ٨٢ (٢) الإسراء الآية ٨٥ (٣) المائدة الآية : ٤٨ .

ينبيء عن ذلك قول الخضر لموسى : يا موسى إنى على عـلم من الله علمنيه لا تعلمه ، وأنت على علم من الله علمكه الله لا أعلمه .

فيامن تحسنون ظنكم بالمجاذيب ، و يامن تعطلون الصلوات ، وتأتون المنـكر وتناجون الأموات . ارجعوا عن أفهامكم السقيمة ، وافهموا كتاب الله على حقيقته ، وسنة نبيكم الذى يقول : « تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا كِتابَ اللهِ وَسُنَّتِي ، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَى الْحَوْضِ » . ولقد خلت من قبلـكم المثلات ، ورد الله على أمثالـكم فى الآية : « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ، وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [(1)] » .

وقد سئل على كرم الله وجهه : هل خصكم الرسول ﷺ بشيء من العلم ؟ فقال : والذى فلق الحب و برأ النسم ، ما خصنا الرسول صلى الله عليه وسلم بشيء سوى ما فى هذه الصحيفة من هـذه الديات ، وفهم يعطاه العبد فى فهم كتاب الله . فلو أثبتنا أن هناك حقيقة و شريعة لاتهمنا الله تعالى بأنه أنزل شريعتين ، وعامل الناس معاملتين ، وحاشا لله أن يكون كذلك .

روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العـاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : العلم ثلاثة ، وماسوى ذلك فهو فضل علم : آيةٌ محكمةٌ ، وسنةٌ قائمةٌ ، وفريضة عادلة[(2)] .

ومن هنا نعلم أن ما فعله الجنيد رئيس الصوفية من قتل الحلاج الذى كان يقول : وما فى الجبة إلا الله . . . وما قاله الناس فيـه من أن دم قتله صوّر على الأرض : « لا إله إلا الله الحلاج ولى الله » كذب ، فلم يكن الجنيد ظالماً فى قتله لأنه لم يقتله إلا بعد أن جمع علماء عصره ، واستشارهم فى ذلك فأجمعوا على قتله ، وما

(١) الشورى الآية : ٢١

(٢) محكمة : غير منسوخة ، وسنة قائمة : ثابتة ، وفريضة عادلة : يراد بها الميراث .

قاله الناس فى أن دمه شهد له بالإيمان — كذب وافتراء ، والعبرة فى صحة العقيدة مردّها إلى كتاب الله وسنة رسوله ، لاحكم الناس ، وخاصة الذين ينخدعون بالخوارق التى يسمونها باطلا كرامات ، التى تجافى أبسط قواعد الإسلام . مثل هؤلاء لا يمكن أن يكون لرأيهم وزن ، ولا لحكمهم اعتبار ، وإنما مرد ذلك إلى موافقة الكتاب والسنة .

الزكاة ركن الإيمان
ولا يغنى عنها الخراج

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه   تملكه المال والمال مالكه

أوجب الله الزكاة فى رءوس الأموال ، وعروض التجارة والزروع والثمار ، أعنى كل ما أخرجته الأرض ، قوتاً كان كالحنطة والعدس والفول ، أم خضراً ، كالخيار حتى الكراث والبصل . والأنعام ، وفى الأسهم والسندات ، وتفصيل ذلك :

أولا — إذا اشتريت الأسهم والسندات بقصد التجارة فى الأسهم والسندات ، بمعنى أن المالك لها يبيع ويشترى فيها ، ففى هذه الحالة تجب الزكاة فى رأس المال والربح .

ثانياً — إذا اشتريت بقصد الاسترباح فقط ، ولم يكن القصد منها التجارة بالمستندات ، فتجب الزكاة فى صافى الربح وفى أصل المال كذلك . أما المصنع فلا تجب الزكاة فى ثمنه وقيمته ، ولكن تجب الزكاة فى إنتاجه وربحه ، ويكون ذلك بالشروط المعروفة فى زكاة المال .

وليس من شك فى أن الأزمات الاقتصادية وسوء الحالة الاجتماعية لم تكن إلا من غل أيدى الأغنياء عن إعطاء ذوى الحاجات وضنهم بالزكاة على الفقراء ، فإن للفقر طغياناً تعجز الحكومات عن دفعه ، ودرء خطره . إذ أن البطون متى

خلت ، والأجسام إذا عريت استساغت كل جريمة ، واستباحت كل رذيلة ، وفى هذا تصديق خاتم الرسل إذ يقول ﷺ : « اتَّقُوا الظُّلْمَ فإنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ وَحَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » رواه أحمد وغيره عن جابر .

لله ما أصدق رسوله ، وأحكم قوله ؟ فهذه الأمة الإسلامية لم ينتشر فيها الفقر ولم يصبها الإملاق إلا بعد أن ضن الأغنياء بالقدر القليل من مالهم ، وغلوا أيديهم إلى أعناقهم ولم يبسطوها بالبذل إلى هؤلاء المعوزين ، بل تركوهم فريسة بين يدى الفاقة ، وهم فى سعة من المال ، ورغد من العيش ، وليتهم أدوا الحق الذى عناه الله بقوله : « وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(١) » .

حسبنا ما تطالعنا به الصحف كل يوم من الكوارث الاجتماعية ، ومهاجمة البلدان ، وإسالة الدماء ، وهتك الأعراض ، وقطع الطرق على السابلة ، وإزعاج المطمئنين . وليس هناك من دواء يستأصل هذا المرض الخطير ، سوى إخراج الزكاة ، فهذا هو الدواء الناجع ، ولا تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : للإمام مالك .

ولأهمية الزكاة جعلها الله من أصول الأديان وأركان الإيمان ، كما حكى القرآن الكريم عن الأنبياء السابقين عن إسماعيل : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا(٢) » . وعن اليهود فى التوراة : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ(٣) » وعن عيسى : « قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ

(١) الذاريات الآية : ١٩ (٢) مريم الآية : ٥٥ (٣) البقرة الآية : ٨٣

آتَانِيَ الْكِتَابَ وجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنى مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا[1] » .

ولقد عنيت الشريعة الإسلامية أكثر من غيرها حيث لاتقبل إيمان أحد بدونها قال سبحانه : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فى الدِّينِ[2] » . كما أنها أناطت النجاح بها والخسران بتركها ، قال سبحانه : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ[3] » . ومن قرأ قوله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ[4] » وقول أبى بكر الصديق للذين عارضوه فى قتال مانعى الزكاة : والله لو منعونى عِقالاً[5] كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه — لعلم أن ولاة الأمور عليهم تبعة هذا الإثم ، فقد صح أنه ﷺ قال : « أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ فَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضَيَاعاً[6] فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ وَأَنَا وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» رواه مسلم عن جابر .

فالآية ترمى إلى أن الزكاة تطهر النفوس من دنس البخل والشح ، ومن خطرات السوء ، وبها ينمو المال ، وتنمو ملكة الكرم والسخاء ، حتى يسهل على الإنسان البذل والعطاء . فكثيراً ما يكون الكرم بعد التكرم ، والحلم بعد التحلم . وفى قتال أبى بكر مانعى الزكاة ، وعيد شديد لأمراء المسلمين ، وإنذارهم سوء المصير .

فياأصحاب الثروة وياأيها الأثرياء : إن من يتقلب فى نعم الله تعالى ولم يدخل فى حسابه شىء من آلام الفقراء وحاجات المساكين ، وضيعة اليتامى وبؤس

---

(١) مريم الآيات : ٣٠ ، ٣١ (٢) التوبة الآية : ١١

(٣) المؤمنون الآيات : ١،٢،٣،٤ (٤) التوبة الآية ١٠٣ (٥) عقالا : حبل جمل .

(٦) الضياع بفتح الضاد : العيال ، وإن كسرت الضاد كان جمع ضائع .

الأرامل وبكاء المنكوبين ، هذا المخلوق هو وحش فى صورة إنسان ، إذ أنه انسلخ من الإنسانية التى هى أخص صفاته والتى امتاز بها عن سائر الحيوانات . إذ أن الإنسان يعيش لنفسه ولغيره ، والحيوان يعيش لنفسه فقط . وحسب ذلك البخيل القاسى سقوط منزلته وإهدار كرامته فى الدنيا ، وعذاب الله فى الآخرة . على أن المال الذى يبخل به على غيره إنما هو لله منه أتى وإليه يعود ، وقد استخلفه عليه ينتفع به مدة حياته ، ثم يسلبه إياه ويعطيه غيره عند مماته .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : كل أحد فى هذه الدنيا ضيف وماله عارية ، والضيف مرتحل والعارية مردودة ؛ وقال تعالى : « آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ(١) » .

وقال تعالى حكاية عن كليم الله موسى لبنى إسرائيل : « قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ(٢) » ولله در القائل :

المال عندك مخزون لوارثه ... والمال مالك إلا يوم تنفقه
إن القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق فى ظلها همًّا يؤرقه

ومصداق ذلك من السنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ عِنْدَ وَفَاتِكُمْ زِيَادَةً فِى حَسَنَاتِكُمْ لِيَجْعَلَهَا لَكُمْ زِيَادَةً عَلَى أَعْمَالِكُمْ » رواه أحمد والدارقطنى عن أبى الدرداء .

الحق أن منع الزكاة كفر بنعم الله ، وغصب لحقوق الضعفاء ، وكنود لله ، وعمى فى القلب . إذ أنه سيفقد أعز شىء لديه ، وهى خسران نفسه التى بين جنبيه ، قال تعالى : « قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(٣) » ، « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ

---

(١) الحديد الآية : ٧ (٢) الأعراف الآية : ١٢٩ (٣) الزمر الآية : ١٦

وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ[1] » وقال ﷺ : « مَامِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لاَ يُؤَدِّى زَكَاتَهُ إِلاَّ أُحْمِيَ عَلَيْهِ فى نَارِ جَهَنَّمَ فَيُجْعَلُ صَفَائِحَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبَاهُ وَجَبِينُهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا فى الْجَنَّةِ وَإِمَّا فى النَّارِ[2] » .

هـذه قطعة من حديث وبقيته ينبىء عنه صدر الحديث من أن الجزاء من جنس العمل . قال تعالى : « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[3] » وقال ﷺ : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ » رواه مسلم .

فمن أدى زكاة ماله بارك الله له فيه وزاده من فضله ، وانتفعت به ورثته من بعده . ومن منعها ذهبت بركته وسلط الله عليه من يمحقه إن لم يكن فى الآباء فيكون فى الأبناء ، وله فى الآخرة عذاب شديد .

عن ابن عمر عن النبى ﷺ : أنه قال « الْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِمَنْ تَرَكَ عِيَالَهُ بِخَيْرٍ وَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ بِشَرٍّ[4] » وجاء فى الصحيح أن النبى ﷺ قال : « يَمِينُ اللهِ مَلْأَى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فى يَمِينِهِ[5] » وقال تعالى : « وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[6] » .

---

(١) التوبة الآية : ٣ (٢) فى مسلم الجزء السابع شرح النووى .
(٣) سبأ الآية : ٣٩ (٤) فى مسند الفردوس (٥) يغيضها : ينقصها . سحاء : دائمة الصب . لابن القيم فى طريق الهجرتين (٦) آل عمران الآية : ١٨٠

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما من صاحب مال لم يؤد زكاته ولم يحج منه إلا سأل الله الرجعة عند موته . ثم قرأ قول الله تعالى : «وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[١]» .

وإذ قد علمت أيها القارىء الكريم أن الشح والبخل رذيلتان مهلكتان تحرمان الإنسان التمتع بلذيذ العيش ، وتجعلان المرء يجمع لغيره ويصطلى بناره فى الآخرة وينال المعرة والنقص فى الدنيا ، وأن مايطلبه الله منه إنما هوجزء يسير .

مقادير الزكاة

فالنقود التى مضى عليها سنة كاملة وعروض التجارة ، كذلك يخرج منها ربع العشر أعنى قرشين ونصف فى المائة ، وتقوّم فى آخر الحول ، ولايشترط فيها النصاب أولا . والحبوب إذا حصدناها نخرج منها نصف العشر ، أعنى خمسة فى المائة ، إن كانت تسقى بالآلات ، ونخرج العشر ، أعنى عشرة فى المائة ، إن كانت تسقى بغير الآلات . ولايخفى عليك أن كل مايستثمر من عقار أو صنعة أو حرفة أوغيرها عليه شكر وشكره مواساة المحتاجين وتفريج كربة المكروبين . وهذا القدر بحسب الحاجة فإن ذلك استبقاء للنعم ، قال تعالى : «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ[٢]» . فإن لم يكن ذا مال ولاحرفة ولاعمل ولاقوة ، فالكلمة الطيبة صدقة ، وبشاشته فى وجه أخيه صدقة ، وكل تسبيحة صدقة ، وكل معروف صدقة .

عن أبى كبشة الأنمارى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «ثَلاَثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ : مَانَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَلاَظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً

---

(١) المنافقون الآيات : ١٠ ، ١١ (٢) إبراهيم الآية : ٧

صَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللهُ عز وجل عِزًّا ، وَلَا فتحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فتحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ . وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ . قال : إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ : عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَعِلْماً فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ . وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْماً وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ . وَيَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ . وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْماً يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلَا يَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ . وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالاً وَلَا عِلْماً فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ » رواه الترمذى وأحمد .

مصارف الزكاة

وهى مذكورة فى قول الله تعالى : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ : لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْغَارِمِينَ ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ[1] » .

العاملين عليها : هم القائمون بتحصيلها ، فيعطون أجورهم منها . المؤلفة قلوبهم : هم الذين أسلموا حديثاً ، فتتألف قلوبهم بإمدادهم بشىء منها لتطمئن قلوبهم ، وتتحقق لهم سماحة الإسلام ، وأن أهله رحماء بينهم ، وفى الرقاب : يأخذ الأرقاء جزءاً من الزكاة لتعينهم على أن يحرروا أنفسهم من رقهم ، وفى هذا مقصد نبيل ، وهو أن الإسلام يحب الحرية ، وأن الرق لم يضرب إلا لضرورة الحرب الدينية حفظاً للأسارى من ذل التعطل . والغارمين : هم الذين استدانوا ديناً لأنفسهم فى ضرورة الحياة أو لإصلاح ذات البين . وفى سبيل الله : المصالح

(١) التوبة الآية : ٦٠

العامة . و يشمل العلماء الناشرين لدين الله والغازين . وابن السبيل : هو المسافر الذى انقطع عن أهله ، ليس معه مال يعينه على سفره ، أو يعول به نفسه مدة سفره .

ما للخراج وما للزكاة

بربك أيها القارئ الكريم ماوجدت شيئاً أضر على الإسلام والمسلمين ، وأفسد لعقيدة الموحدين ، من تعطيل موهبة العقل ، ووأد الفكر ، والركون إلى التقليد فى الدين ، من غير تدبر وتفكير ، ولاسند من القرآن الحكيم ، وسنة النبى الكريم ﷺ . لهذا نعى القرآن الكريم على الذين كبلوا عقولهم بالأغلال ، ولم يفسحوا لها المجال ، فى النظر والاستدلال . قال تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(١) » ، « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ مَاخَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ(٢) » .

وهذه تعاليم رسوله ﷺ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْأَمْرُ ثَلَاثَةٌ : أَمْرٌ بَيِّنٌ رُشْدُهُ فَاتَّبِعْهُ ، وَأَمْرٌ بَيِّنٌ غَيُّهُ فَاجْتَنِبْهُ ، وَأَمْرٌ اخْتُلِفَ فِيهِ فَكِلْهُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ(٣) » .

وعن وابصة بن معبد رضى الله عنه قال : « أتيت رسول الله ﷺ فقال : « جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ » قُلْتُ : نَعَمْ . فقَالَ : « اسْتَفْتِ قَلْبَكَ : الْبِرُّ مَااطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالْإِثْمُ مَاحَاكَ فِى النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِى الصَّدْرِ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ(٤) » .

وأى إثم أعظم من جحد مال الأرملة والمسكين واليتيم والمجاهدين فى سبيل

---

(١) محمد الآية : ٢٤ — (٢) الروم الآية : ٨

(٣) فى المصابيح للبغوى — (٤) فى رياض الصالحين للنووى .

الله ، وهدم ركن من أركان الدين قاتل عليه أول خليفة من خلفاء المسلمين ، وبه تستل الضغائن من القلوب ، وتستحكم أسباب الصداقة والتآلف بين المسلمين ، وتقوى الروابط الاجتماعية ، فيتوادون ويتراحمون ، ويستظلون براية الاتحاد التى تزلزل قلوب الأعداء ، فلا يكون للعدو عليهم سلطان ويعيشون فى أمن وسلام .

يرى بعض علماء الفقه بأن الخراج يغنى عن الزكاة من غير دليل ولا برهان ، سوى تقليد رأى ارتآه أبو حنيفة رضى الله عنه لحديث صح عنده ولم يصح عند علماء الحديث قاطبـة : « لا يجتمع الخراج والعشر » .

ولقد حكم أئمة الدين سلفهم وخلفهم ببطلان هذا الحديث وخطىء أبى حنيفة وأن وجوب أحدهما لا يمنع وجوب الآخر ، من هؤلاء الأئمة الشافعى ومالك وأحمد وأبو داود والثورى وإسحق والأوزاعى والليث وغيرهم من الأئمة المبرزين الذين سبقوا أبا حنيفة فى الحديث .

دليل ذلك الحديث المتفق عليه ولفظه : « فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ أَوِ الْعُيُونُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا[1] الْعُشْرُ . وَمَا سُقِيَ مِنْ نَضْحٍ نِصْفُ الْعُشْرِ » .

فهذا الحديث ينطق بصريح لفظه بأن الزروع والثمار إن احتاجت فى سقيها إلى آلات وتعب ، ففيها نصف العشر وإلا ففيها العشر . وأن الزكاة فيما تنبته الأرض لا فى الأرض نفسها ، وأن مصارفها هى ما ذكره القرآن فى قوله : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ » . أما الخراج فإنه لا يصرف إلا لتنظيم شئون الدولة . على أن الخراج الذى لا يجتمع مع العشر عند أبى حنيفة إنما هو الخراج الذى يضرب على الكفار ، نظير انتفاعهم بالأراضى التى صولحوا عليها ، وهى ملك للمسلمين الفاتحين .

(١) العثرى : هو الذى يشرب بعروقه من غير آلة .

راجع تاريخ فتح العراق تجد بوناً شاسعاً بين خراج مصر الذى كان معروفاً فى العصر الأول عند أبى حنيفة والذى ضرب به عمر بن الخطاب على سواد العراق .
لقد كان أبو حنيفة يحذر تلاميذه من تقليده خشية الخطأ فى التأويل ، أو عدم الاهتداء للدليل . فقد نقل عنه أنه قال : لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ بِقَوْلِي حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ أَيْنَ قُلْتُهُ . وكذلك نقل عن مالك : إنما أنا بشر أخطىء وأصيب ، فانظروا فى رأيى ، فكل ماوافق الكتاب والسنة فخذوه ، وكل مالم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه . وقال الشافعى : إذا صح الحديث فهو مذهبى واضربوا بقولى عرض الحائط .

ولم يؤلف الإمام أحمد كتاباً ، وإنما جمع أصحابه قوله وفعله وأجوبته ، وغير ذلك خشية ألا يصيب شاكلة الصواب فتقع عليه التبعات .

فأنت ترى من كلام هؤلاء أن تقليدهم من غير النظر فى أدلتهم خطأ وجهل لايغفر لصاحبه[1] .

وها هو ذا الحوار الذى دار بين جعفر الصادق وأبى حنيفة ، فقد دخل على جعفر بن شُبْرُمة ومعه أبوحنيفة فقال : هذا رجل فقيه من العراق ، فقال جعفر : لعله ممن يقيس الدين برأيه ، أهو النعمان بن ثابت ؟ فقال له أبو حنيفة : أنا ذاك أصلحك الله ، فقال له جعفر : اتق الله ولا تقس الدين برأيك ، فإن أول من قاس برأيه إبليس إذ قال أنا خير منه ، فأخطأ القياس فضل ، ثم قال : أتحسن أن تقيس رأسك من جسدك ، قال : لا . قال جعفر : فأخبرنى لم جعل الله الملوحة فى العينين ، والمرارة فى الأذنين ، والماء فى المنخرين ، والعذوبة فى الشفتين ، لأى شىء جعل الله ذلك ؟ فقال : لا أدرى ، قال جعفر : إن الله تعالى خلق العينين وجعلهما شحمتين وخلق الملوحة فيهما مَنًّا منه على ابن آدم ، ولولا ذلك لذابتا

---

(١) راجع القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد للشوكانى ، وهو كتاب صغير الحجم لايتجاوز ثمنه ٨ قروش .

فذهبتا . وجعل المرارة فى الأذنين مَنًّا منه عليه ، ولولا ذلك لهجمت عليه الدواب فأكلت دماغه . وجعل المـاء فى المنخرين ليصعد منه التنفس و ينزل و يجد منه الريح الطيبة من الرديئة . وجعل العذوبة فى الشفتين ليجد ابن آدم لذة المطعم والمشرب ، ثم قال لأبى حنيفة : خبرنى عن كلمة أولها شرك ، وآخرها إيمان . قال : لا أدرى ، قال جعفر : هى كلمة لا إله إلا الله ، فلو قال لا إله ثم سكت كان مشركاً . ثم قال : ويحك أيهما أعظم عند الله إثماً : قتل النفس التى حرم الله بغير حق أو الزنا ؟ قال : بل قتل النفس . قال جعفر : إن الله تعالى قد قبل فى قتل النفس شهادة شاهدين ، ولم يقبل فى الزنا إلا شهادة أربعة ، فأنى يقوم لك القياس ؟ ثم قال : أيهما أعظم عند الله : الصوم أو الصلاة ؟ قال : الصلاة . قال : فما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟

اتق الله ياعبد الله ، ولا تقس الدين برأيك ، فإنا نقف غداً ومن خالفنا بين يدى الله فنقول قال الله وقال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتقول أنت وأصحابك سمعنا ورأينا فيفعل الله بنا وبكم مايشاء .

والجواب فى أن الزنا لايقبل فيــه إلا أربعة طلباً للتستر ، وفى أن الحائض لاتقضى الصلاة دفعاً للمشقة ، لأن الصلاة متكررة فى اليوم خمس مرات بخلاف الصوم فإنه فى السنة مرة والله أعلم .

من هذا تعلم أن أبا حنيفة لايضيره أخطأ أم أصاب ، وأن المقلدين أساءوا إلى أئمة الدين ، حيث إنهم اتبعوهم من غير أن ينظروا أدلتهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ[1] » .

ألا فليخبرنى صاحب هذا الرأى ماحظ المؤلفة قلوبهم من الخراج الذى يغنى عن الزكاة ، واليتيم الذى لم يترك له والده تراثاً ، والأرملة التى فقدت عائلها ،

(١) البقرة الآية : ١٧٠

والثكلى التي فقدت واحدها ، والشيخ الفاني الذي قوس الدهر ظهره ، وجلل المشيب رأسه ، والشاب الذي أذبل السقم زهرته ، وأطفأ بهجته . كل هؤلاء لم يغفل الله تعالى عنهم بل جعل لهم حقاً معلوماً . ففي رءوس الأموال ، وعروض التجارة ربع العشر ، وفي الزروع والثمار العشر ، أو نصف العشر ، وفي الخمس من الإبل شاة ، وفي الثلاثين من البقر تبيع سنة سنة ، وفي الأربعين من الغنم شاة ، فإذا زاد يتغير الحكم . وهذا شيء يسير لم يكلف الله تعالى أصحابها شططاً ولم يرهقهم عسراً ، وكأني بك تقول إن الخراج يصرف منه على ملاجىء الأيتام ورعاية الأطفال ومعاهد العلم ودور المستشفيات .

حقاً إن المذكورات من مصارف الزكاة الذي عبر القرآن عنها ، وفي سبيل الله ، وإن كان بعضها أسس على الأوقاف المرصودة والصدقات الممنوحة ، ولكننا نريد أن نحمي البائسين من ذل السؤال ونوفر لهم العزة والكرامة . فإذا ماصرف لهم الحاكم المال الذي تجمع من الأغنياء يشعرون بكرامتهم ولايكون في صدرهم حاجة مما أوتوا ولا يمن عليهم أحد ، لأن المال مال الله والأغنياء مستخلفون عليه لأن لله عوناً فيه كما قال تعالى : « وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ[١] » .

وإذا كانت الثروة التي بيد الفرد أصلها الجماعة ، لأن الإنسان مهما اجتهد فلا يستطيع أن يجمع المال إلا بغيره ، فما باله يبخل بها عليه ، في حين أن حماية المجتمع والدفاع عن الوطن هو حماية للفرد ؟ وإن التهافت المزري على جمع المال وحبسه من غير أن يخرج زكاته ، وإنفاقه في مظاهر التبرج والترف لايكون إلا من سقطت همتهم ، وهانت عليهم نفوسهم .

وتخيير الله تعالى نبيه سليمان في قوله تعالى : «هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ[٢]» يقصد به الشياطين : إما أن يمسك من شاء منهم في وثاقه ، أو يخلى عنه فيما يتعاطاه .

(١) الحديد الآية : د (٢) ص الآية : ٣٩ .

نعم إن فكرة الضمان الاجتماعى حسنة ، ولكن لم تعزز بالمال الذى يسد حاجات المحتاجين الذين يغزوننا فى كل بقعة ومكان ، حتى ضاقت بهم الأرصفة والأضرحة والشوارع والمنتديات . ومن السهل أن يؤخذ حقهم من مال الأغنياء . ويقينى لولا أن حكومة هذا العهد اتسعت مشروعاتها حتى حفظت لمصر حريتها ، لعممت الضمان الاجتماعى حتى شمل كل من أضرعته الحاجة وشاكته الضرورة . ولنا فيها أمل كبير إن شاء الله تعالى ، فى أن تخصص جزءاً أكبر من ميزانية الدولة بعد فرض الزكاة ، لتستطيع وزارة الشئون الاجتماعية أن تقوم بهذا العبء الثقيل ، فلا تترك هؤلاء يستجدون الناس ويسألونهم إلحافاً . ورحم الله عمر بن الخطاب ، لقد وجد يهودياً متسولا ففرض له جزءاً من المال وقال : ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه فى هرمه[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ، مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلِأَهْلِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضَيَاعاً فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ » رواه مسلم عن جابر .

يريد الرسول ﷺ أنه مسئول عن أمته ، لأنه راع ، وكل راع مسئول عن رعيته . وحسبكم أيها الأغنياء ما قصه القرآن فى سورة القلم عن أصحاب الجنة ، قال سبحانه وتعالى : «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَلَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا

---

(١) الضياع بالفتح : العيال .

أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۞ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْمَلُونَ[1] » .

تتلخص هذه الآية الكريمة فى أنه كان لرجل صالح حديقة يدعو الفقراء حين جمع ثمارها ، يمنحهم حقوقهم ولايضن عليهم بشيء من ثمارها . فلما قضى نحبه بخل أبناؤه بما كان يفعله أبوهم ، فتقاسموا أن يقطعوا ثمار هذا البستان فى الصباح الباكر حتى لايدخلها عليهم مسكين فقير ، هكذا بيتوا النية ولم يقدموا مشيئة الله تعالى . فأرسل الله على بستانهم حادثاً كحريق أو نحوه وهم نائمون ، فأبادها . ولما قاموا من نومهم تواصوا همساً بحرمان هؤلاء الذين يضايقونهم فى رزقهم ، فلما وصلوا إلى مكان البستان وجدوه كالصريم[2] ، فقالوا إنا لضالون بل نحن محرومون ، فقال خيرهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون ، هلا سبحتم ربكم وقدستموه ، وحفظتم حقه لفقرائه ، فاعترفوا بذنبهم ، وصاروا يقلبون الأكف ندماً ، ويعضون الأنامل حسرة ، ويقولون : ياويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون .

وتلك عاقبة الذين بخلوا بما آتاهم الله من فضله فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، وما أحسن قول الأديب :

إذا جادت الدنيا عليك فجدبها على الناس طراً قبل أن تتفلت

فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت ولا البخل يبقيها إذا ماتولت

ألا فافتحوا أعينكم أيها الأغنياء ، وارحموا هؤلاء الضعفاء ، فلا تبخلوا عليهم بما آتاكم الله لئلا يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء من خسران الدنيا وعذاب الآخرة .

قال على رضى الله عنه : بَشِّر البخيل بحارث أو وارث .

وأخرج أبو دواد وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت

(١) القلم الآيات : من ١٧ إلى ٣٣ (٢) الصريم : الليل المظلم .

هـذه الآية : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ [(١)] » كبر ذلك على المسلمين وقالوا : ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالا يبقى بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم . فانطلق واتبعه ثوبان فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يانبى الله ، إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية ، فقال : «إِنَّ اللهَ لم يَفْرِضْ الزَّكَاةَ إِلاَّ لِيُطَيِّبَ بِهَا مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ ، وَإِنَّمَا فَرَضَ الْمَوَارِيثَ مِنْ أَمْوَالٍ تَبْقَى بَعْدَكُمْ» فكبّر عمر رضى الله عنه ، ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرْءُ : الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الَّتِي إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ ، وَإِذَا أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ » .

ومن فضل الله تعالى على عباده أن جعل الزكاة ليست منة يهبها الغنى للفقير ، وإنما هى حق استودعه الله تعالى يد الغنى ليؤديه إلى أهله ، وليوزعه على مستحقيه قال سبحانه : « وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ [(٢)] » . نعم لأن المال لم يصل إلى يد الغنى إلا بعون من الله ، ثم من المجتمع الذى نعيش فيه .

وهنا أنبه القارىء بأن الزكاة إذا لم تف بحاجة الفقير ، وجب فى المال حق آخر يجنب الفقير شظف العيش وألم الحرمان وذل السؤال ، كما جاء فى الحديث عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينما نحن فى سفر إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يميناً وشمالا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ » فذكر من أصناف المال ما ذكره ، حتى رأينا

---

(١) التوبة الآية : ٣٤ ، ٣٥ (٢) الذاريات الآية : ١٩

أنه لاحق لأحد منا فى فضل . رواه مسلم . وقول الله تعالى : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا [1] » .

وقد كانت الزكاة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تؤدى من الحنطة والشعير والذرة والتمر والزبيب فقط ، لأنها كانت هى الموجودة إذ ذاك ، أما وقد وجدت أقوات فى جهات أخرى فتجب فيها الزكاة لتتحقق حكمة الزكاة ، لهذا تجب فى كل قوت مدخر ، كالقمح والأذرة والشعير والأرز والتمر والزبيب والحمص والفول والحلبة والبسلة والعدس والفاصوليا واللوبيا والسمسم .

أما غير المدخر كالخضر ففيها رأيان أرجحهما الوجوب لحديث البخارى عن سالم بن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ قال : « فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ أَوِ الْعُيُونُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا [2] الْعُشْرُ ، وَمَا سُقِيَ مَنْ نَضْحٍ نِصْفُ الْعُشْرِ » وقول الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [3] » .

وأما فى النقود ففى الذهب والفضة فقط ، ولكن التعامل الآن بالفضة والورق ، فتجب الزكاة فى نصاب الفضة لا الذهب ، فمن كانت عنده أربعة أوراق بنكنوت فئة الجنيه ، وخمسة وأربعون قرشاً تقريباً فأكثر ومضى عليها الحول تجب فيها الزكاة . هذا هو المعول عليه الآن لأن الأوراق المتداولة الآن حافظة لقيمة الفضة الموجود رصيدها فى خزينة الحكومة .

---

(١) البقرة الآية : ١٧٧ (٢) العثرى الذى يشرب من الأرض (٣) الأنعام الآية : ١٤١

دخل الحسن بن أبي الحسن على عبد الله بن الأهتم يعوده في مرضه فرآه يصوب بصره في صندوق في بيته و يصعد ، ثم قال : ياأباسعيد ، ماتقول في مائة ألف في هـذا الصندوق ، لم أؤد منها زكاة ولم أصل منهـا رحماً . قال : ثكلتك أمك ، ولمن كنت تجمعها . قال : لروعة الزمان ، وجفوة السـلطان ، ومكاثرة العشيرة . قال : ثم مات ، فشهده الحسن ، فلما فرغ من دفنه قال : انظروا إلى هذا المسكين أتاه شيطانه فحذره روعة الزمان ، وجفوة السلطان ، ومكاثرة عشيرته عما رزقه الله إياه ، وغمره فيه . انظروا كيف خرج منها مسلوباً محزوناً ، ثم التفت إلى الوارث فقال : « أيها الوارث لاتخدعن كما خدع صويحبك بالأمس ، أتاك هذا المال حلالا فلا يكون عليك وبالا ، أتاك عفواً صفواً مما كان له جموعاً منوعاً ولعله من باطل جمعه ، ومن حق منعه ، قطع فيه لجج البحار ، ومفاوز القفار ، لم تـكدح فيه بيمين ولم يعرق لك فيه جبين . إن يوم القيامة ذو حسرات وإن من أعظم الحسرات أن ترى مالك في ميزان غيرك ، فيالهـا عثرة لاتقال ، وتوبة لاتنال » ؟ !

تـكملة لأحكام الزكاة

أولا — تجب إخراج الزكاة الآن على أساس الفضة ، لأنها هي المتعامل بها الآن ، أما الذهب فالعمل به مفقود الآن . فمتى بلغ النصاب مائتي درهم ومضى عليها حول تجب فيها الزكاة .وما زاد فبحسابه .

ثانياً — اتفق العلماء أن الزكاة لا تجب في الماس والدر والياقوت واللؤلؤ والمرجان والزبرجد ونحو ذلك من الأحجار الـكريمة ، إلا إذا اتخذت للتجارة ففيها زكاة التجارة .

ثالثاً — حلى المرأة الذى تمرن به يرى بعض العلماء وجوب الزكاة ، ويرى آخرون عدم الوجوب ما دام اتخذ للحلية ، أعنى حلية المرأة ، فإذا اتخـذ لروعة الزمان أو للأوانى أو للرجال ، فهو حرام وتجب فيه الزكاة ، على أن من الحيطة

إخراج الزكاة اتقاء للشبهات لحديث الرسول : « الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ[1] » .

رابعاً — لايضم أحد الجنسين إلى الآخر ليكمل النصاب ، فلايضم الذهب إلى الفضة ، ولا الذرة مثلا إلى القمح إلا إذا اتفقا فى الجنس .

خامساً — اليتيم كغيره يجب على الولى إخراج الزكاة عنه من ماله .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : « إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى أَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَذَرَنِي النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ ، وَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً . قال : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْإِبِلُ ، أَوْ قَالَ : الْبَقَرُ ، شَكَّ من الرَّاوِي ، فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ ، فَقَالَ : بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا . فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعْرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هذا الَّذِي قَذَرَنِي النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَناً . قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْبَقَرُ فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً . فَقَالَ : بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا . فَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ النَّاسَ ، فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ ، قَالَ : فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْغَنَمُ ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هٰذَانِ وَوَلَّدَ هٰذَا ، فَكَانَ لِهٰذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ ، وَلِهٰذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ ، وَلِهٰذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ .

---

(١) الحديث بتمامه فى الأربعين النووية .

ثُمَّ أَنَّهُ أَتَي الْأَبْرَصَ فى صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فى سَفَرِى فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِى أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فى سَفَرِى فَقَالَ : الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ فَقَالَ : كَأَنِّى أَعْرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ ؟ فقالَ : إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ . وَأَتَى الْأَقْرَعَ فى صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ هَذَا ، فقال : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ عَلَيْهِ . وَأَتَى الْأَعْمَى فِى صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فقال : رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فى سَفَرِى فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِى رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِى سَفَرِى ، قَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِى ، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ ، فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَقَالَ : أَمْسِكْ مَالَكَ ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ » متفق عليه .

والناقة العشراء بضم العين وفتح الشين وبالمد هى : الحامل ، قوله : أنتج وفى رواية فنتج معناه : تولَّى نتاجها والناتج للناقة كالقابلة للمرأة ، وقوله : ولد هذا هو بتشديد اللام ، أى تولى ولادتها ، وهو بمعنى أنتج فى الناقة ، فالمولّد والناتج والقابلة ، بمعنى لكن هذا للحيوان وذاك لغيره ، قوله : انقطعت بى الحبال : هو بالحاء المهملة والباء الموحدة ، أى الأسباب ، وقوله : لا أجهدك ، معناه : لا أشق عليك فى رد شيء تأخذه أو تطلبه من مالى .

حـكى عن على كرم الله وجهه أنه قال : « ياسبحان الله ! ماأزهد كثيراً من الناس فى الخير ! عجبت لرجل يجيئه أخوه فى حاجة ، فلا يرى نفسه للخير أهلا ، فلو كنا لانرجو جنة ، ولا نخاف ناراً ، ولا ننتظر ثواباً ولا نخشى عقاباً ، لكان ينبغى لنا أن نطلب مكارم الأخلاق ، فإنها تدل على سبيل النجاح » فقام رجل فقال : فداؤك أبى وأمى يا أمير المؤمنين ، أسمعته من رسول الله ، قال نعم ، وماهو خير منه .

لما أتينا بسبايا طيء ، كان فى الناس جارية حسناء تقدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : « يامحمد هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت ألا تخلى عنى ، فلا تشمت بى أحياء العرب ، فإنى بنت سيد قومى كان أبى يفك العانى[1] ، ويحمى الذمار[2] ، ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ويفشى السلام ، ولم يردّ طالب حاجة قط . أنا بنت حاتم طيء ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يَاجَارِيَةُ ، هٰذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ ، خَلُّوا عَنْهَا فإِنَّ أَبَاهَا كانَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » .

(١) العانى : الأسير .

(٢) الذمار : مايجب على المرء حمايته بحيث لو لم يحمه لامه الناس وعنفوه .

الحجاب فى الإسلام

إن الحجاب الذى أمر به الإسلام لايقصد به ستر الوجه واليدين ، وإنما يقصد به عدم اختلاط النساء بالرجال ، وليس فى ذلك هضم لحقها أو تقييد لنهضتها ، أو القعود بها عن العمل ، وإنما كان محاربا للفتنة خشية أن تعم ، وللرذيلة كى لاتهدم الفضيلة ، وحتى لاتكون مثار الريبة لدى زوجها ، فيتزلزل يقينه فى ثقته بزوجته ، فلا يطمئن على حرثه ، ولا يثق بزرعه ، فينضب معينه فى رعايته بولده ، إذ أن السر فى تهالك الآباء على تربية الأبناء ، إنما كان من استيقانهم بأن هـذا المولود منحدر من أصلابهم ، وقطعة من لحمهم ودمهم ، فإذا ضعف هذا الإيمان قل التهالك على الأبنـاء ، وفى ذلك مضيعة وأى مضيعة للأبناء ! .

ومعروف أن المرأة هى الخلية الأولى فى المجموعة البشرية ، كما أنها هى الوحدة فى بناء الأسرة لهذا حظر الشرع الشريف على المرأه التبرج للأجنبى ، والسفر والخلوة بغير محرم أو زوج ، وإمعان النظر الذى هو سهم مسموم من سهام إبليس ، حرم عليها ذلك صيانة لشرفها وحفظاً لعرضها ، وإبقاء على عفافها الذى هو رأس مالها ، إذا فقدته فقدت أمنيتها فى الحياة ، وأى شخص يرتاب فى أن هذا كله يجعل المرأة هدفاً للأنظار الساخرة وأقاويل السوء ، ويطمع الرجل فيها فتقع فى حبائل الشيطان فتكسد بضاعتها فى سوق الزواج ، وبذلك انصبت المصيبة عليها وحدها ، وأصاب المجتمع من شرورها مايعيا البيان ببيانها ويعجز القلم عن وصفها ، واختلاطها فى المتنزهات ودور الخيالات ملأ المجتمع فساداً وشروراً ، وحلل الروابط الزوجية ، وهدم الكيان العائلى . وحسبنا فى ذلك ماتنشره الصحف اليومية من مآسى اجتماعية ونكبات خلقية مما تتقطع له نياط القلوب ، وتذهب النفس حسرات على ما أصاب المجتمع من مصائب جمة ما كنا نحلم بها فى الأيام الغابرة ، يوم أن كانت المرأة محافظة على

شرفها ، وتربية أولادها وتدبير منزلها .

هذه نتائج الحرية التي يتمشدق بها هؤلاء المغرورون ، كلمة جوفاء يلقونها من غير وعى ، فيجعلونها عماد فلسفتهم الحمقاء ، فياللفضيحة والعار والخسة والدناءة .

ياهؤلاء افتحوا عيونكم على الواقع المشهود ، وأعطوه حقه من الوعى والتمحيص . ماشأن المرأة بكم حتى تخرج من بيتها حاسرة ذراعيها ، كاشفة عن ساقيها ، فتخلع ثياب الحشمة ، وتنخلع عن قيود الآداب ، وإذا كان العمل خارجاً عن المنزل حقاً للأزواج ، أليس تقليدها ذلك إلا قلباً للأوضاع ، وشللا فى الأعمال وتيسيراً لسبل الفساد ، فأى فائدة ترجوها من إهمال بيتها ومزاحمتها للرجل فيما خلق لأجله ، أيهما أحق : الرجل الذى حباه الله بالجلد والصبر ، وقوة العزيمة ، أم المرأة ضعيفة القوى والإرادة ، لاتفكر إلا فى التزين والتبرج ، ولا تنظر إلى المستقبل البعيد ، بل إلى الحاضر القريب .

وقد أثبت علم التشريح أن الرجل أقوى من المرأة جسماً من جميع الحيثيات وأن التلافيف المخية فيها أقل من الرجال ، وإذ قد ثبت أن المرأة قد رشحتها الطبيعة التى هى سنن الله تعالى الكونية إلى أعمال البيت وإدارة المنزل ، وتربية الطفل ، وشئون الحياة الداخلية الفقيرة بنفسها ، والغنية بالإشراف عليها إشرافاً فعلياً، فلماذا لم يتوفر كل عنصر من عنصرى الاجتماع إلى ماخلق له وأعد ، فينجو المجتمع من هذا الخطر الجسيم ، وهذا الخلط والتشويش .

وهذه شهادة من الفيلسوف الألمانى « شوبنهور » فى رسالته :

« إن شكل المرأة وحده لكاف فى الدلالة على أنها لم تخلق لعظيم الأشغال العقلية ، ولا لجسيم الأعمال البدنية ، وأنه لا نصيب لها من حياتها غير مقاساة سقام الحمل وآلام الوضع ، وعناء القيام بتربية الأطفال ، وإنها دائماً مضطرة لأن تخضع لرجل تعيش معه رفيقة صابرة ، تهيىء له ما لذ وطاب ، وكما أنها لم تخلق للكد والنصب ، كذلك لا قدرة لها على تحمل

شديد الحزن والفرح ، إنما يملكها قضاء حياتها فى سكون وعزلة ، وجعلها حياة طيبة أرغد من حياة الرجل بدون أن تكون الطبيعة غاية فى الهناءة أو متدلية فى الشقاء ، والذى يجعل المرأة كفئاً للقيام بتربية الأطفال ، أنها مهما قضت من العمر فهى فى جميع أطوار حياتها كاليافع وسطاً بين الناشىء فى ضعفه والفتى فى قوته ، لا تخرج عن حد طفوليتها ، ولا تفترعن صغائرها . وأبسط دليل على ذلك مشاهدتها وهى صائمة طول يومها ، تحمل طفلا فى يدها ، ترقصه وتغنى له ، ولا تجد من الرجال بين العالم طراً من يقدر على القيام بعملها ، مهما عظمت قوة إرادته » .

هذه شهادة عالم درس طبيعة الإنسان بنوعيه الذكر والأنثى ، لهذا تعلم مبلغ إصابة الشرع الشريف فى توزيع أعمال الرجل والمرأة على الحياة ، زد على ذلك ما ينتاب المرأة من الأمراض الطبيعية من الحيض والنفاس والولادة والرضاع . وغير خفى على كل ذى عقل سليم أن السياسة تحتاج إلى جهود جبّارة ، ولقد صدق الله تعالى فى قوله : « وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا(١) » . ألا يخبرنى مخبر أى القانونين أحكم : البقاء على العفاف الذى إذا خدش لا يعادله سبك كالزجاج ، أم التعرض للخنا والفجور ؟ وإذا كان الرجل خليقاً بالأعمال الشاقة ، فلماذ لا يتوفر كل عنصر لما خلق له .

وهذه قصة امرأة مؤمنة طلبت من رسول الله ﷺ حينما ظاهرها زوجها أن تكون قعيدة بيتها ومطمئنة لزوجها وقائمة على تربية أولادها ، فقد شق عليها فراق زوجها وأن يكون أمرها فى شتات ، توجهت إلى الله شاكية ضارعة : (ربّ أشكو إليك وحدتى وشدة فاقتى وما شق على من فراق زوجى) .

---

(١) الأحزاب الآية : ٣٣

بهذه الشكوى الضارعة ، تقبل الله ضراعتها ، ورحم ضعفها ، وحلّ معضلتها وأنزل عليه قوله سبحانه : « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا — إلى قوله تعالى — وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ[١] » .

أين هـذه من التى تريد أن تحتل مقاعد الرجل وتتبوأ مكانه ، وتدع أولادها للخدم والشوارع . وا أسفاه ! لقد أصبح الدفاع عن الفضائل رجعية ، والإباحة حرية ، والتهتُّك تمديناً ، والآداب قيوداً ، والنساء سيدات ، والطبيعة ربًّا ، والمـادة إلهاً ! وهكذا انقلب الخـير شراً ، والشر خـير ، مما تنفطر له القلوب ، وتنشق له المرائر .

فيا أيتها المرأة لا تتعدى طورك ، ولا تتجاوزى حدّك ، وأعرفى قدرك ، فما هلك امرؤ عرف قدره ، فإنك لازلت مكفولة لا كافلة ، وفى حاجة إلى من يعولك ، فقد أكرمك الإسلام إكراماً لم تجديه فى غيره ، فقد جعل لك النفقة عند أبيك وأخيك وابنك وزوجك ، كما أوجب على زوجك المهر نحلة لك لا ثمناً للزواج ، وإنما كان آية من آيات المحبة وتوثيقاً لعرى المودة ، كما فرض عليك من الحقوق له ، كذلك فرض عليه واجبات لك ، قال تعالى : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ[٢] » والدرجة هى درجة الرياسة ، لأن الحياة الزوجية حياة اجتماعية تحتاج إلى قيادة ، والرجل أجدر بها لأنه أقدر منها على ضبط عواطفه ، وأبعد منها نظراً وأكثر تدبراً لعواقب الأمور ، وهذا أمر بدهى يقره الواقع المحس والتجارب العديدة .

ياهؤلاء لايهولنكم ماتسمعونه عن المرأة الغربية التى زاحمت الرجل فى عمله ، فحسبنا أن تقرءوا الجواب من الناحيتين فتعلموا ماأصاب بلادها من ضحايا الشرف

(١) المجادلة الآيات من ١ إلى ٤ (٢) البقرة الآية : ٢٢٨

والعفاف وكثرة الشاردات ، وهـذه عجائب الصناعات و بدائع الاختراعات التى غص بها فراغ الدنيا لم يكن لها فيها أدنى أثر . فأى عدل أجل وأعظم مما قاله نبى الإسلام ﷺ : «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي، مَا أَكْرَمَ النِّسَاءَ إِلاَّ كَرِيمٌ وَلاَ أَهَانَهُنَّ إِلاَّ لَئِيمٌ » رواه ابن عساكر عن على وهو صحيح .

تعدد الزوجات

من محاسن الإسلام

فى هذه الأيام قامت حركة شعواء ضد تعدد الزوجات شنهـا ذوو المقاصد السيئة على الإسلام ، ليصرفوا أهله عن تعاليمه الرشيدة ، وما هم بالغيه ، ومامثلهم فى ذلك إلا كطنين الذباب لايؤلم سمعاً ولايثقل وزناً . و إنى أهيب بهؤلاء أن يقرءوا الإحصائيات الأخيرة التى تناقلتها الصحف اليومية بعد الحرب الثانية عن نسبة النساء للرجال حتى يعلموا نظرية الشرع وما أبعدها من نظرة ؟ ! وحكمة الله وما أبلغها من حكمة !

منذ أشهر قرأنا فى الصحف أن نسبة الرجال أصبحت فى ألمانيا على السدس من النساء ، وفى غيرها على الخمس ، وفى إنجلترا تقرب من الربع . فالمشرع الحكيم الذى يقول . « وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ(١) » لم يجعل أحكامه لجيل دون جيل ، أو لزمن دون زمن ، بل جعلها عامة تشمل كل زمان ومكان ، ولقد تجلت الحكمة ظاهرة فى هذه الأيام ، فأخذ المصلحون فى البلاد الأجنبية ينادون بتعدد الزوجات ليخففوا من الويلات التى نزلت ببنات بلادهم ، من قلة الرجال الذين أكلتهم الحروب ، وكثرة النساء اللاتى أصبحن مابين شاردة تأكل بعرضها ، وتلهو بمن ليس له الحق فى الاتصال بهـا ، وما بين فتاة مهذبة تتلمس أملها فى الرجال لتتزوجه فلم تجده . وكم من هموم وأحزان تساور الآباء ؟ وتنهدات

(١) المؤمنون الآية : ١٧

موجعات تنتاب الأمهات ، على ما أصاب بناتهن من حرمانهن الزواج ، الذى هو أكبر أمانيهن فى الحياة .

فياللمنطق المعكوس ، فى الوقت الذى يدعو فيه أعداء الإسلام إلى تعدد الزوجات يقوم فريق من أهله والذين تربوا فى حجره وربما كان لآبائهم فضل فى نصرته ونشر مبادئه ، يعلنون خروجهم عليه ، ويوجهون إليه طعناتهم ، اتباعاً لأهوائهم ولحاجة فى نفوسهم ، ولو أنهم تحاكموا إلى التجارب التى هى أعظم برهان وأقوى دليل لحطموا أقلامهم ورجعوا إلى حكم الله : « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » .

وهذه كلمة امرأة إنجليزية يهمها شأن بلادها :

« لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وعم البلاء ، وقل الباحثون عن أسباب ذلك . وإنى وإن كنت امرأة ترانى أنظر إلى هاتيك البنات وقلبى يتقطع شفقة عليهن وحزناً ، وماذا عسى أن يفيدهن بثى وحزنى وتوجعى وتفجعى ، وإن شاركنى فيه الناس جميعاً ، لا فائدة إلا فى العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة » .

وكذلك صرح العالم المعروف « توماس » :

بأنه لا يزول البلاء وتصبح بناتنا ربات بيوت إلا بإباحة تعدد الزوجات ، والبلاء كل البلاء فى إجبار الرجل الأوربى على الاكتفاء بامرأة واحدة .

هذه شهادة صدرت من أفواه قوم استقوها من الواقع المشهود ، لا عن تعصب دينى ، ولا تقليد قومى . أفلا يخجل هؤلاء اللائى ملأن الأرض دعايات وسخرن الصحف لنشر مبادئهن الهدامة التى عمت الطرق والملاهى والمراقص فى ربوع البلاد . فلا ترى مكاناً فى الهواء والجدران والمراكب إلا وفيه هذه الإعلانات الوقحة والحماقات الدنسة التى استجابت لها الجماهير ، فتتدفق إليها من كل سبيل وماذا أصاب المجتمع من ذلك غير الويلات والنكبات .

ولقد صدقت الأيام نظرية الإسلام ففى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٩ نشرت جريدة «الجمهورية» مقالا تحت عنوان (ثورة فى لندن) جاء فيه أنه يولد كل يوم خمسمائة لقيط فى مستشفيات لندن عدا ما فى الشوارع ، وعللوا هذا بأن ذلك يرجع إلى اقتصار الرجل على زوجة واحدة .

على أن تعدد الزوجات لم يكن بدعاً فى الإسلام ، بل أباحته الشرائع السماوية والقوانين الوضعية ، فالعرب فى وثنيتهم ، وقدماء اليونان ، أباحوه من غير شرط ولا قيد ، كذلك أهل الكتاب فى عهد موسى ، بل جعله إلزاماً عليهم فى بعض الظروف ، كما إذا مات الرجل وترك زوجته ، فيجب على أخيه أن يتزوجها وإن كان متزوجاً . وقد كان لداود عليه السلام مئات من النساء ، فقد ورد فى سفر صموئيل : أن الله تعالى امتن عليه بأن أعطاه نساء كثيرات ، وكذلك كان لسليمان بن داود عليه السلام عدد كثير من النساء .

هذا ولما جاء المسيح عليه السلام أقر بنى إسرائيل على ما هم عليه ، لهذا لم نجد أية إشارة فى الإنجيل تدل على التحريم ، بل صرح القديس أوغسطين بأن التعدد حلال ما لم تحرمه الشريعة المدنية . أما بولس رسول المسيحيين وخليفة المسيح كما يقولون ، فلم يحرم التعدد إلا على الشمامسة والأساقفة ، وهكذا بقى المسيحيون يبيحون التعدد ويكثرون منه حتى القرن التاسع عشر ، و بمنعه كثر السفاح واستعاضوا عنه باتخاذ الأخذان والخليلات .

هذا وإن الإحصائيات التى أجريت سنة ١٩٦٠ أثبتت أن عدد الإناث أكثر من الذكور فى الجمهورية العربية المتحدة .

وبدهى أن داعى التناسل ملازم للرجل فى حياته ، والمرأة تطرأ عليها فترات تعدم فيها القابلية للرجل ، كالحمل والوضع والنفاس ، فماذا يصنع الرجل فى هذه الفترات ؟ الجواب : يقع فى مساوىء الرذيلة . وإن علاقة كل منهما بالآخر

لا تبلى كما يبلى غيرها ، فكل منهما شطر ناقص ولا يتم وجوده إلا بصاحبه ، ولذلك سمى كل منهما زوجاً .

والإسلام لم يوجب تعدد الزوجات ولم يندب له ، وإنما أباحه فى حالات مخصوصة ، ومقيد بعدد محدود ، وبشروط قاسية ، فإذا ما توفرت كان فى التعدد مصلحة راجحة تتلاشى بجانبها المفسدة النادرة . ولقد استقرت حكمة الله تعالى أن العمل إذا دار بين صالح وفاسد يقدم أرجحهما . فالمفسدة الراجحة يتجنب تركها والمصلحة الراجحة يؤمر بفعلها . أما التعدد فأربع فقط ، وأما الشروط فأولها أن يأنس من نفسه العدل بين الزوجات ، وذلك يكون فى النفقة والمسكن والملبس والمبيت وما إلى ذلك مما قضى به العرف .

أما الحب وهو الميل الطبيعى فلم يوجب الشرع التسوية فيه لأنه خارج عن قدرة الإنسان فلا يؤاخذ عليه صاحبه مالم يخرج إلى العمل ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللَّهُمَّ هٰذَا قَسْمِى فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِى فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ » رواه أصحاب السنن الأربعة وابن المنذر عن عائشة رضى الله عنها .

وبهذا تفسر الآية الشريفة آية النساء : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ[1] » .

والعدل فى الآية الشريفة هو الحب ، وهو طبيعى ، وبهذا لا تضارب بين هذه الآية والآية الأخرى من هذه السورة وهى قوله تعالى : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً[2] » لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضاً وإنما يصدق بعضه بعضاً .

وثانى الشروط المقدرة المالية والجسمية ، وقد جاء فى الحديث عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « يَامَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ

(١) النساء الآية : ١٢٩ (٢) النساء الآية : ٣

الْبَاءَةَ[1] فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ[2] » رواه البخارى عن ابن مسعود .

أسباب إباحة التعدد

إذا كثرت النساء وقلت الرجال ، فيكثر من لا كافل له من النساء ، فمن الخير لهن أن يكن ضرائر ، بدلا أن يكن فواجر . وقد أدرك الأجانب الحكمة فأخذت النساء تطالب بتعدد الزوجات حتى لايأكلن بأعراضهن ، وتصبح كل امرأة ربة بيت وأم أولاد شرعيين ، وتارة يكون التعدد لصالح المرأة ، كما إذا قامت بها علة طبيعية ، تمنع حق الزوجية أو عقم وهو لا يصبر على شيء منهما ، فأى شخص يرتاب فى أن بقاءها فى عصمة زوجها مع ضرائر خير لها من تطليقها وهى معلولة لايرغب أحد فى زواجها لدمامتها ولكبر سنها أو مرضها .

فياهؤلاء أجيبونى : أيهما خير لمثل هذه المرأة المعلولة ؟ أتبقى فى حماية زوج يكفلها ويراعيها وتطالبه بنفقتها وإن كان لها شريك فى حياتها ؟ أم يترك حبلها على غاربها فتكون عالة على غيرها ، وربما لاتجد قريباً يعولها ، فتصبح عالة على المجتمع ، معرضة نفسها للخنا .

تخففوا من غلوائكم وقللوا من بكائكم على المرأة ، فقد نطقت الحوادث اليومية بأن كل تشريع مدنى أوسياسى أو اجتماعى مقضى عليه بالفشل ، خلا التشريع الإسلامى ، فقد كتب الله له البقاء . وإذا كان هناك عيب فى محيط الجماعات فليس هذا ذنب الإسلام ، وإنما هو عدم تطبيق أحكام الإسلام كما ذكرنا آنفاً .

وهذه شهادة عالم أجنبى يدعى « توماس كارليل » :

« جاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدل وتتخبط بالحجج الجائرة ، وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر .

---

(١) الباءة : القدرة على مؤن النكاح (٢) الوجاء : يراد به إضعاف شهوة النكاح .

لقد جاء الإسلام على تلك النحل الـكاذبة والملل الباطلة فابتلعها ، وحق له ذلك ، لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة ، فما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية وكل ما لم يكن بحق ، فإنه حطب ميت أكلته نار الإسلام ، فذهب والنار لم تذهب . ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به أمة خاملة ، لاتسمع لها صوتاً ، ولاتحس منها حركة منذ بدء العالم ، فأرسل الله نبياً بكلمة من لدنه ورسالة من قبله ، فإذا الخمول شهرة ، والغموض قد استحال نباهة ، والضعة رفعـة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقاً . وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوءه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بين هـذا الحادث حتى صـار لدولة العرب رجل فى الهند ، ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديدة ودهوراً مديدة ، بنور الفضل والنبل ، والمروءة والبأس والنجدة ، ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة .

والخلاصة : أنه مهما يكن من ضرر تعدد الزوجات ، فهو لايبلغ ضرر قلة النسل الذى منيت به بعض الأمم الأجنبية مثل فرنسا ، وانتشـار الزنا ، وقلة الزواج ، والاضطرار إلى الاتجار بالأعراض . لذلك أخذ زعماؤهم يفـكرون فى التلقيح الصناعى الذى أثبتنا أضراره آنفاً .

تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

من التهم الباطلة التى توجهت لنبي الإسلام تعدد زوجاته ، ولا يزال يتردد صداها بين أعداء الإسلام ، وهذا ناشىء عن قصور فى التفـكير ، وعدم الإحاطة بالتاريخ الصحيح الذى دون حياة النبى صلى الله عليه وسلم . فقد أجمع المؤرخون أنه قضى حيـاته الأولى مع سيدة تقدمت فى السن ، وهى السيدة خديجة ، وهو فى كمال الرجولة وزهرة الشباب وريعان الفتوة حتى تجاوز الخمسين من حياته الشريفة ، وكان من السهل عليه بعد أن أغناه الله تعالى من

التجارة أن يتزوج بغيرها من العذارى والثيبات ، ولو كان ممن تغريه مفاتن النساء لما صبر على الإقامة مع ثيب تقدمت فى السن هذا العمر المديد . فلقد اقترن بها وهو تقريباً فى الخامسة والعشرين من عمره وهى بنت الأربعين ، وقد كان قبل الاقتران مضرب الأمثال فى العفة وعزة النفس ، ولقد كشفت التجارة عن طهارة نفسه ، فما حملق عينيه فى وجه امرأة ، ولا وضع يديه فى يدها ، ولا روج تجارته بيمين كاذبة ولا بقول مغر .

وأكبر شاهد على ذلك أن هذا التعدد لم يكن إلا بعد القيام بأعباء الرسالة ، والاشتغال بسياسة البشر ، والدفاع عن الدين . إذاً لابد أن يكون فى هذا التعدد مندوحة ، اقتضتها الرسالة المحمدية التى ستوجه العالم توجيهاً صحيحاً إلى حياة أسمى من هذه الحياة ، وترشد الإنسانية إلى خالقها رب السموات والأرض ، فلا حجر ولا شجر فى الأرض ولا كوكب فى السماء إلا وهو مخلوق مربوب لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

هذه الدعوة لا تحتاج إلى من يؤيدها ويدعو إليها ، ومن أحق بهذه الدعوة أليست زوجاته اللاتى يتعلمن منه العلم وينشرنه بين الناس جميعاً ، وخاصة النساء اللاتى هن شقائق الرجال[1] ، فإنهن فى حاجة ماحة إلى من يعلمهن الأحكام التى تختص بالنساء مما يستحى أن يسأل عنها الرجال ، كأحكام الزوجة والجنابة والطهارة ، فكأن الله الحكيم اختار له بطانة تساعده فى تبليغ الرسالة ، ونشر الدين . لذلك نرى معظم أحوال الرسول ﷺ وأفعاله منقولة عن زوجاته .

ولأجل أن يتخذ مثلا يحتذى به فى حسن معاشرته لزوجاته ، وإقامة العدل بينهن فى حضره وسفره ، ومرضه وصحته ، وسلمه وحربه .

هذه حكمة إجمالية ، وأما التفصيلية فلكل واحدة من التسع سبب خاص .

---

(١) كما قال صلى الله عليه وسلم « النساء شقائق الرجال » .رواه الإمام أحمد فى مسنده .

أما زواجه بالسيدة عائشة والسيدة حفصة فكان إكراماً لأبويهما أبى بكر وعمر اللذين كانا وزيريه ومن أكبر أنصاره على نشر الإسلام . الدليل على ذلك أن الأولى عقد عليها وهى بنت تسع و بنى عليها بعد سنتين . والثانية ثيباً ولا يرغب فيها ، أما زينب بنت جحش فقد كانت ابنة عمته وقد زوجها صغيرة لمولاه زيد ابن حارثة ليشهد العالم أن الإسلام يرفع الخسيس ، فها هو ذا زيد الذى كان مملوكاً يصبح زوجاً لابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما طلقها أمر رسوله بأن يتزوجها ليبطل عادة الجاهلية التى تحرم على المتبنى أن يتزوج زوجة متبناه ، وأن يخلع عليه كل ما للأبناء من ميراث وغيره ، ولذلك يقول الله تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ(١)) .

هذا ولما أمره تعالى بزواجها خشى الملامة من قومه ، كيف يتزوج زوجة ابنه المتبنى ، لما كانوا عليه فى الجاهلية من المنع ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم ينصح زيداً أن يمسكها ، وزيد يريد طلاقها ، لأنها كانت تفخر عليه بنفسها وتعيره بما كان عليه من رق ، وهى ابنة عبد المطلب أشرف بيت فى العرب .

وقد أنزل الله هذه الآيات تبين بجلاء ووضوح حكمة الزواج وحسنه ، قال تعالى : «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً * مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللهِ فى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً(٢)» .

---

(١) الأحزاب الآية : ٣٦ (٢) الأحزاب الآيات : ٣٧ ، ٣٨

عتاب الله لنبيه إنما كان لقوله لزيد أمسك عليك زوجك بعد أن أخبره بأن يتزوجها ، فما كان له بعد أن أعلمه الله إلا أن يمضى فى الزواج ويترك زيداً يطلقها وذلك ليكون زواجه صلى الله عليه وسلم ، وهو رسول الله وزعيم القوم ، حجة قوية ، وتعزيزاً لحكم يبقى مابقيت الأرض والسموات ، كما قال سبحانه : « وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ[1] » .

أما زواجه بجويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق وأم حبيبة رملة بنت أبى سفيان وصفية بنت حيى بن أخطب ، تعزيزاً لعشائرهم ، وتوثيقاً لعرى المودة بينهم حتى يكونوا للإسلام أنصاراً بعد أن يكونوا أعداء . أما زواجه بالسيدة هند أم سلمة والسيدة ميمونة بنت الحارث ، ليكفلهما ويكفل أولادهما ، وليصل رحمه فى الثانية ، وليجبر مصاب الأولى فى فقد زوجها ، وهاتان الزوجتان قد تقدمتا فى السن فلا يرغب فى زواجهما .

فمن هذا يتبين أن زواجه صلى الله عليه وسلم لهؤلاء جميعاً إنما كان بعد أن توفيت السيدة خديجة التى قضى معها زهرة شبابه ، وتجاوز الخمسين من حياته ، ولم يكن منهن بكر سوى الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر ، وأنه ما كان يبتغى من وراء ذلك مايبتغيه الناس من حب النساء ، لأن معظمهن غير مرغوب فيهن لتقدم سنهن وكثرة أولادهن .

يؤيد ذلك زواجه بزينب بنت جحش ، فإنه تزوجها صلى الله عليه وسلم بعد أن فقدت معظم جمالها وتزوجت بمملوكه ، وكان من السهل عليه أن يخطبها لنفسه وهى بكر ، لأنها ابنة عمته أميمة ابنة عبد المطلب . وبهذا تبطل الروايات التى أقحمت فى كتب التفسير من اليهود الذين دخلوا فى الإسلام بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وبهذا تمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم .

---

(١) الأحزاب الآية : ٤

مشروعية الطلاق

يسرف طائفة من الناس فى الطعن على الإسلام، من تشريع الطلاق وتعدد الزوجات، وليس لهم حجة فيما ادعوا سوى ما يرونه من جهلة المسلمين الذين يجهلون دينهم ولا يقدرون الزوجية حق قدرها، فيتزوجون و يطلقون لنزوات نفسية وشهوات بهيمية، حتى ضاقت بهم المحاكم. ومثل هؤلاء السذج لا يمثلون الإسلام، فلا يكونون حجة عليه، لأن الإسلام دين البشرية جمعاء، تصلح تعاليمه لكل زمان ومكان وتسير بالعاملين به قدماً إلى الأمام، لأنها من تشريع فاطر الإنسان الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولو أنها أقيمت على وجهها الصحيح لأثمرت ثمرتها وعم خيرها، ولما استطاع هؤلاء المرجفون أن يوجهوا إلى الإسلام أى نقص فى التشريع.

وها هو ذا الطلاق شرعه الإسلام ولم يطلقه إطلاقاً، بل قيده بشروط وقيود تخفف من ويلاته، وتقلل من شروره.

جاء فى حديث رواه الإمام أحمد عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: « أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ ».

وأخرج أبو داود عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم: « أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللهِ الطَّلَاقُ ».

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لَا تُطَلِّقُوا النِّسَاءَ إِلَّا عَنْ رِيبَةٍ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الذَّوَّاقِينَ وَلَا الذَّوَّاقَاتِ » للطبرانى فى الكبير.

وكذلك روى الطبرانى عن أبى موسى مرفوعاً أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « لَا أُحِبُّ الذَّوَّاقِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالذَّوَّاقَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ». يريد الرسول ﷺ الذين ليس لهم مأرب فى الزواج سوى شهوات تقضى، أما الأمنية الصادقة التى يبتغيها الإسلام وهى الذرية الصالحة وغض البصر وتحصين الفرج، فهذه هى

التى كانت مطمع أنظار المؤمنين : « وَالذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً(١) » .

فمن هذا نعلم أن الطلاق فى الإسلام مضيق فيه ، وأنه لايباح إلا إذا صار الزوجان متناشزين ، إما لسوء خلقهما ، أو لانصراف أحدهما عن الآخر ، لفقد الخواص المعنوية التى تتعارف بها الأرواح ، كما قال صلى الله عليه وسلم : «النّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ خِيَارُهُمْ فى الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فى الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا ، وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » رواه مسلم عن أبى هريرة .

وقد تطرأ عليهما أمور لايصبر أحدهما أو كلاهما عليها ، كعسر الزوج عن النفقة ، أو الحكم عليه بالسجن مدة غير قصيرة ، أو تتطلع إلى غيره ، أو يظهر بأحدهما عيب خفى عليهما لم يظهر قبل الاقتران ، فكيف تكون المعيشة مع هذا أو ذاك .

إن المنطق الصحيح والعقل السديد ليعتبران الطلاق من محاسن الإسلام ، ومن التيسير الذى بنيت على قواعده هذه الشريعة الإسلامية . وقد نطقت الحوادث ودلت التجارب ، أن الأضرار التى أصابت الطوائف التى تمنع الطلاق جسيمة ، ففى كل يوم تطالعنا الصحف بحوادث مروعة ، ومصائب متنوعة : هذه فتاة انتحرت لضيق صدرها بمعاشرة زوجها ، وآخر أسلم ليتخلص من هذا الغل الذى وضع فى عنقه ، وثالث استبدل بالزوجة الأخدان والخليلات وهكذا . فعلام تعيبون ياهؤلاء الإسلام فى شرعة الطلاق ، وقد رأيتم بأعينكم وسمعتم بآذانكم أن كثيراً من المطلقات أصابت ضالتها ووجدت راحتها بعد الطلاق ، وهل التشريع الإسلامى إلا مراسيم رسمها العليم الخبير لعباده ، فمن سار على سننها أمن خطر الدنيا وعذاب الله فى الآخرة . قال سبحانه : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ(٢) » .

---

(١) الفرقان الآية : ٧٤ (٢) الأنبياء الآية : ٩٤

هذا و إن من الواجب على الدعاة إلى الله تعالى أن يعنوا بتعليم الناس أحكام الزوجية فى مشروعية الطلاق ، وأن يختاروا لأنفسهم الزوجات الصالحات للدنيا والدين ، الحافظات للغيب بما حفظ الله ، كما علمهم نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم . ويقينى أن كثرة الطلاق إنما ترجع إلى أسباب : أهمها فقد ثقة الرجل بها لتهتكها و إبداء زينتها لغيره ، أو عدم القدرة على تكاليف الحياة . فترى الرجل يكره الزوجة و يبغضها لنقص فى جمالها و يتغاضى عما فيها من خلق كريم وطهارة عرض وذرية صالحة ، ومعاونة على فعل الخيرات من صلة الأرحام ، و بر الآباء والأمهات . فمثل هذه الصفات جديرة بالتقدير والاحترام ، لايقاس بجانبها نقص فى الجمال ، أو اعوجاج يسير فى المعاملات .

وبدهى أن الشر الضئيل يتلاشى فى جانب الخير الكثير ، كما قال الله تعالى : « وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً(١) » يفسر الآية حديث مسلم عن جابر : « لَا يَفْرَكْ(٢) مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقاً رَضِيَ آخَرَ » يريد الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن ينبه المتزوجين إلى أن بعض عيوب الزوجة لايقدح فى زوجيتها ، ولا ينقص من قدرها حتى يطلقها زوجها ، ما دام بجانب هذا العيب خلق مرضى ، فإن كمال المرأة أمر غير ميسور ، لأنها خلقت من ضلع أعوج . فقد روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ أَعْوَجَ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فى الضِّلَعِ أَعْلَاهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ » .

ومن إكرام الله تعالى للمرأة أنها إذا وجدت المصلحة فى طلاقها ، أن تطلب الطلاق وتفدى نفسها بشىء من المال ، وعليه أن يجيبها ، فقد جعل الله لها مخرجاً

---

(١) النساء الآية : ١٩ (٢) الفرك بالكسر والفتح : البغض .

عند تضايقها ، كما أن لها فسخ الزواج ، إذا ظهر عنده عيب كالعنة ، أو مرض معد ، أو مرض متوطن .

ومما يدل على أن الإسلام جعل الطلاق ضرورة تزول بزوالها ، أن الزوج إذا وجد نشوزاً من زوجتـه يبدؤها أولا بالوعظ ، ثم بالهجر ، ثم يلجأ إلى الضرب . فعـلم من هذا أن الضرب لا يلجأ إليه إلا بعد أن تعييه الحيل فى علاجها ، كما قال سبحانه : «وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً[1]» .

وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن الضرب المبرِّح ، فقد روى البيهقى من حديث أم كلثوم بنت الصديق رضى الله عنهما قالت : كان الرجال نهوا عن ضرب النساء ثم شكوهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهن تمردن عليهم حتى قال عمر : يارسول الله ، ذَئِرت النساء على أزواجهن ، فخل بينهم و بين ضربهن . فقال صلى الله عليه وسلم : « وَلَنْ يَضْرِبَ خِيَارُكُمْ » . يريد عمر أن النساء تمردن على الرجال ، ويريد الرسول صلى الله عليه وسلم أن الضرب لا يكون من صفات الأخيار ، فما أشبه هذه الرخصة بالحظر ! !

فإذا لم يُجْدِ هذا كله نفعاً فى رجوع المرأة عن نشوزها ، التجىء إلى التحكيم كما قال سبحانه : « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا[2]» .

حكمة بالغة غفل عنها الكثيرون إصلاح الزوجين ، وهى أمر المؤمنين المتكافلين فى مصالحهم ومنافعهم ، أن يتعجلوا بإرسال حكمين لإزالة الشقاق الذى ينجم بين الزوجين قبـل أن يستفحل ، فإن أفلحا فى مهمتهما ، فذاك خـير

---

(١) النساء الآية : ٣٤ (٢) النساء الآية : ٣٥

وإلا فيحكمان بالتفريق حيث وجدا المصلحة فى ذلك : « وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ[١] » .

علاج الإسلام لنشوز الرجل

قال الله سبحانه وتعالى : « وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ، وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً[٢] » .

وقد أرشد الله تعالى الزوجين إلى الصلح عند نشوز الزوج أو إعراضه عنها ، فلاجناح عليها ولا عليه فى الصلح الذى يتفقان عليه بينهما ، كأن تسمح له ببعض حقها عليه فى النفقة أو المبيت معها أو بحقها كله ، فبذلك تبقى فى عصمته مكرمة أو تسمح له فى بعض المهر أو كله ، يؤيد ذلك قوله تعالى : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ[٣] » .

ومما جاء فى تفسير هذه الآية ، أعنى الصلح ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : هى المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها ، أى من معاشرتها لكبر سن أو مرض أو غير ذلك ، فيريد طلاقها أو يتزوج غيرها ، فتقول أمسكنى ولا تطلقنى ثم تزوج غيرى ، فأنت فى حل النفقة على والقسمة لى الخ . رواه البخارى وغيره عنها ومثل هذا يقع كثيراً باختيار المرأة لمصلحتها .

ومن أحكام الطلاق أنه لا يقع إلا بالتدريج إعذاراً وإنذاراً كما قال سبحانه : « الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ[٤] » ، فلعل الطلاق يكون ناشئاً عن عدم تفكير أو عدم تدبر لعواقب الأمور ، فيرجع إلى رشده فيراجعها ، وإذا كان السبب منها فلعل هذا يزجرها فترجع عن غيها وتثوب إلى

---

(١) النساء الآية : ١٣٠ (٢) النساء الآية : ١٢٨

(٣) البقرة الآية : ٢٢٩ (٤) البقرة الآية : ٢٢٩

رشدها فيراجعها ، وقد أطال الله العدة رحمة منه وعدلا ليحرقهما أو أحدهما نيران البعد والفرقة فيعودا ليستأنفا حياة جديدة ، لا يعتورها خلاف ولا ينقصها شقاق ، فإذا لم يفدها الإنذار الأول أعقبه بالطلاق الثانى ، فإذا لم يغير من حالتها الإنذار الثانى ، كان فى الطلاق الثالث الحيلولة بينهما حتى تتزوج آخر زواجاً عن رغبة وحاجة . ففى ذلك الزواج عرفان بالجميل إن كانت ظالمة للأول ، ودرس عظيم فى الحياة ، وربما تؤثر العودة إلى الأول بعد أن عرفت الفرق بين الزوجين ، فترجع إليه صاغرة بعد هذا الدرس القاسى و بعد أن يطلقها الثانى ، و يمضى على طلاقها زمن العدة ، و يعقد عليها الأول بعد أن ثبرت الحياة حلوهـا ومرها ، فترجع عما كان سبباً فى الشقاق حينئذ وتستقر الحياة .

الطلاق الثلاث بلفظ واحد

اختلف علماء السلف والخلف فى الوقوع وعدمه .

فالجمهور يرى الوقوع ، من السلف الأئمة الأربعة ومن الخلف رئيس الجمعية الشرعية ورجالها ، ولهم أدلة لا يسعها هذا الـكتاب .

والأقلية ترى عدم الوقوع ، وهذا الرأى و إن خالف رأى الجمهور إلا أنه يناسب مجتمعنا المنـكوب الذى استهان بحقوق الزوجة ، فجعلها سلعة رخيصة يبيع فيها و يشترى ، و إليك الأدلة :

من ذلك أن رسول الله ﷺ أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام فغضب فقال : « أَيُلْعَبُ بِكِتَابِ اللهِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ [1] » .

فأنت ترى من غضب الرســول ﷺ أن وقوعه دفعة واحدة ينافى قاعدة التيسير التى اختصت به الشريعة الإسلامية ، وماجاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه بُعث ميسراً لا معسراً [2] ، وأنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن

(١) النسائى بإسناد صحيح . (٢) قال صلى الله عليه وسلم : (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولاتنفروا) فى البخارى وغيره عن أنس .

إثماً ، وقوله أيضاً : « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ[1] » . وكذلك كانت بعثته صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين .

وبدهى أنه ليس من التيسير والرحمة أن تحرم زوجة الإنسان تحريماً كلياً بلفظ يلفظه الشخص من غير أن يترك له فرصة يتدارك فيها خطأه ، إن هذا من الأغلال التى يتبرأ منها الإسلام الذى ختم الله به الأديان وجاء رحمة للعالمين . على أنه جاء فى السنة الصحيحة أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد كان يقع طلقة واحدة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى عهد أبى بكر ، وفى عهد سنتين من خلافة عمر ، غير أن عمر رضى الله عنه وجد الناس قد أكثروا منه ، فعاقبهم بأنه يقع ثلاثاً تأديباً لهم .

ومن محاسن هذه الشريعة أن جعلت للإمام العام المسلم أن يسن عقوبة تزجر الذين يتمادون فى الأمور التى أباحها الله إليهم ، تمادياً يترتب عليه ضرر . فالذى فعله عمر لم يكن تشريعاً ولا ابتداعاً ، وإنما كان عقوبة وقتية لها نهاية ، تنتهى بانتهاء المخالفة ، والأئمة الأربعة اتبعوا عمر فيما رآه .

وظاهر أن الشريعة الإسلامية لم تنحصر فى المذاهب الأربعة . فمن يرى أنها انحصرت فى المذاهب الأربعة فقد حجر واسعاً وأهدر علم الصحابة والتابعين .

وهناك مذاهب أخرى لها مكانتها ، وإنما كانت الأغلبية والشهرة للأئمة الأربعة ، لأنهم وجدوا لهم تلاميذ دونوا آراءهم ، جزاهم الله خيراً على ماقدموا .

هذا هو السبب فى أن الناس قد اعتنقوا مذاهبهم وتركوا غيرها ، دليل ذلك حديث مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا فى أمر قد كانت لهم فيه أناة[2] ، فلو أمضيناه

---

(١) الخطيب فى التاريخ . (٢) أناة : مهلة .

عليهم فأمضاه[١] عليهم[٢] » . والتأويلات التى تحاول وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد لاتنهض دليلا على النسخ ، لأنه لايصح أن يبقى الحكم إلى خلافة عمر وهو منسوخ .

ومما ينبغى ذكره أن الله تعالى رتب الأحكام على الألفاظ لدلالتها على قصد المتكلم بها و إرادته ، فإذا تيقنا أنه قصد الكلام ولم يقصد المعنى ، ولا مخالفة ما التزمه ولا الحنث ، فإن الشارع لايلزمه بما لم يقصده بل قد رفع المؤاخذة عنه بما لم يقصده من ذلك الطلاق . ولو أن العلماء راعوا ذلك فى فتواهم لما التجأ الناس إلى المحلل المخزى الذى هو سبة فى الإسلام وتبرأ الرسول ﷺ منه ولعن من فعله وسماه التيس المستعار ، فقد روى ابن ماجه عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟» قالوا : بَلَى يارسول الله . قال : « هُوَ الْمُحَلِّلُ ، لَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ » .

وجاء رجل إلى ابن عباس رضى الله عنهما فقال له : « إن عمى طلق زوجته ثلاثاً أيحلها رجل ؟ فقال : من يخادع الله يخدعه .

وقال عمر : لا أوتى بمحلل ومحلل له إلا رجمتهما .

وقد سئل ابن عمر رضى الله عنهما عن رجل طلق زوجته ثلاثاً ، فتزوجها أخ له من غير مؤامرة بينه ليحلها لأخيه ، هل تحل للأول ؟ قال : لا إلا نكاح رغبة ، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ ، و إجمال القول إن عملية المحلل جريمة عظمى ، ومعرة كبرى . كم من امرأة عفيفة مصونة صارت بعد هذه العملية من البغايا الفاجرات ، بعد أن كانت من المحصنات الغافلات . بقى سؤال : الخلع هل هو طلاق أم فسخ ؟ صح عن ابن عباس وبعض الأئمة أنه فسخ .

---

(١) رواه مسلم . (٢) أمضيناه : أجريناه .

تحديد النسل

إن تحديد النسل على وجه عام بحيث يكون شاملا لأفراد الأمة فلا ، لأنه يتعارض مع روح الإسلام الذى يحرص كل الحرص على تكاثر عدد المسلمين . وإن نظر إليه من ناحية الاقتصاد ، فإن لدى الحكومة المصرية الآن أراضى زراعية صالحة للزراعة لاتقل عن المزروع الآن ، ولا ينقصها إلا مشروعات الرى والصرف ، وقد دلت البحوث أن الصحارى المصرية تبلغ نحو ٩٧٪ من مساحة مصر ، وأن قسما منها كان يزرع فى العصور القديمة وخاصة فى عصر الرومان .

وأما تحديد النسل للفردية الخاصة فإنها تجوز بشروط ، والضرورة تتفاوت عند الناس ، فما يكون ضرورة عند البعض لا يكون ضرورة عند الآخر . فالضرورة تترك لرأى الزوجين ، كما أن التحديد كذلك لابد أن يكون برضاهما ، فلا يصح أن يقدم عليه أحدهما إلا برضا الآخر . ومن الضرورة تقارب الحمل الذى من شأنه أن يؤثر فى صحة المرأة ولا يمكنها من تربية النشء تربية كاملة ، أو تجد إرهاقاً شديداً فى ولادتها لعدم انتظام الجهاز التناسلى وهكذا .

وهذه كلمة فضيلة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر :

إن التفكير فى تحديد النسل لأفراد الأمة كلها ، أمر لا يجيزه الدين بحال ، ولا ترضاه الشريعة الإسلامية السمحة ، وإلى جوار ذلك فإنه عمل لا يمكن تحقيقه بقانون عام يطبق على جميع الأفراد .

ومضى فضيلته يقول: وفيم هذا الهلع من كثرة النسل ، ونحن فى هذه الحياة قد تكفل المولى جل شأنه بأرزاقنا إذ يقول : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ[1] » ويقول جل شأنه : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ[2] نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ[3] » .

---

(١) هود الآية : ٦ (٢) الإملاق : الفقر (٣) الإسراء الآية : ٣١

النســـل

ثم قال فضيلته وهذا الكلام — أعنى الالتجاء إلى تحديد النسل — لا يقال في هذا البلد الذى وهبه الله النيل ليحيل صحراءه إلى نعيم ، وأرضه إلى ثروات .

وتساءل فضيلته قائلا : هلا حاول الذين ينادون بتحديد النسل قبل مناداتهم بهذه الدعوة البحث عن وسيلة فعالة تحقق للبلاد الانتفاع بمياه النيل التى تذهب إلى البحر سدى أيام الفيضان ، والانتفاع بهذه المياه لاشك يساعد على النهوض باقتصاديات البلاد وإنتاجها ، ويساعد على قيام عديد من المشروعات النافعة الهامة ، هلا فكروا فى شىء من هذا وإبداء الآراء النافعة للنهوض بموارد البلاد .

مشكلة الأيدى العاملة

وماذا يمكن أن يجدى تحديد النسل على الجميع ، غير الضيق ونقص الأيدى العاملة المنتجة . إننا نرى الرجال فى الريف يفرحون بكثرة الأبناء لأنهم يساعدونهم فى أعمالهم الزراعية ويضاعفون إنتاج آبائهم ، فكيف إذن يحدد نسل هؤلاء .. إن لدينا مساحات واسعة يمكن تعميرها والمشكلة مشكلة الأيدى العاملة لا كثرتها .

تقسيم صـــورى

أما قلة الدخل وكثرته الذى تجعله الهيئة الصحية العالمية مقياساً لتقسيم الأمم إلى متأخرة ومتوسطة ومتقدمة . ففى نظرى يكاد يكون تقسيما صورياً لا غير ، ذلك أننا إذا قسنا متوسط الدخل فى مصر وهو ثلاثون جنيهاً تقريباً للفرد فى العام بمتوسط دخل الطبقة الأولى وهو مائتا جنيه فى العام ، كما هو الحال فى أمريكا وبعض ممالك أوربا فإننا نجد النسبة محفوظة ، لأن الحالة المعيشية فى مصر أرخص جملة مرات من الحياة فى أمريكا أو أوربا ، والفرد الذى يعيش فى مصر بثلاثين جنيهاً فى العام لا يستطيع أن يعيش بمائتين أو ثلاثمائة فى أمريكا أو أوربا ، أفلا كان من الواجب مراعاة رخص الحياة أو غلوها فى مثل هذا الإحصاء .

أصحاب الضرورة

وتحدث فضيلته عن أصحاب الضرورة والحالات الخاصة فقال : أما أصحاب الضرورات كالمرضى مثلا ، فإن هـذه الضرورة تقدر بقدرها وفى غير حالات المرض من الزوجين لايجوز تحديد النسل فى حالات فردية خوفاً من الفقر ، وقد كان العزل جائزاً فى أول الإسلام ، ثم نهى رسول الله ﷺ عنه بقوله : « إنَّ العَزْلَ هُوَ الوَأْدُ الخَفِيُّ » . وذهب ابن حزم إلى أن العزل قد نسخ بهذا الحديث الشريف ، ولا يباح إلا لضرورة المرض .

الأمة النـــاهضة

وأكد فضيلة الأستاذ المعنى بقوله : ألسنا أمة ناهضة ؟! ألسنا فى حاجة إلى إعداد جيشنا إعداداً يتفق ومقتضيات العهد الجديد ، وهذا لايتأتى إلا عن طريق أبناء الأمة وإكثار عددهم ؟! . . وختم فضيلته الحديث بقوله إن دعوة تحديد النسل هدم لـكيان الأمة وجريمة فى حقها .

أحكام فى الرضاع

أولا — لايحرم من الرضاع إلا ما أنشز العظم ، وأنبت اللحم ، وذلك يكون على ماهو الأرجح بخمس رضاعات متفرقات بحيث يشبع الطفل من كل رضعة ، وأن يكون الرضاع قبل الفطام ولو فى أقل من حولين . ويرى بعض العلماء أن التحريم لا يكون إلا لسبع رضاعات ، وآخرون بخمس عشرة رضعة ، ويثبت بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين إذا صدقا .

الحـكمة فى ذلك أن الرضيع قد نما جسمه من هذا اللبن الذى انفصل من مرضعته ، فصار قطعة منها ، وزوجها صاحب اللبن أباً له . وعلى هذا يسرى التحريم إلى أصول المرضعة وفروعها وحواشيها ، وكذلك صاحب اللبن ، لأنه أب الرضيع . فالرضيع إن كان ذكراً حرم عليه بنات المرضعة مطلقاً سواء وجدن

قبل الرضيع أو بعده ، وكذلك عماتها وخالاتها وهكذا . وكذلك إذا كان الرضيع أنثى يحرم على أولاد المرضعة ، وجدوا قبل الرضيع أو بعده . وكذلك أخوتها ، لأنهم يعتبرون أخوالا وهكذا .

ثانياً — إن زوج المرضعة صاحب اللبن يصير بالرضاع أباً للرضيع تثبت له الحرمة حتى إذا كان له أولاد من زوجة أخرى يعتبرون للرضيع إخوة لأب تثبت لهم الحرمة . أما زوج المرضعة غير صاحب اللبن فلا تثبت له الحرمة .

ثالثاً — أن كل مايثبت للنسب من التحريم يثبت للرضاعة إلاّ فى صورتين :

الصورة الأولى : مرضعة أخ الرضيع وأخته وفروعها وأصولها وحواشيها .

الصورة الثانية : مرضعة الفروع وذرياتها وأصولها وحواشيها .

وعلى هذا إذا كان للرضيع أخ يحل للأخ أن يتزوج مرضعة أخيه و بناتها مطلقاً ، كذلك إذا كان للرضيع أخت فإنها لاتحرم على أولاد مرضعته .

ومثل ذلك إذا كان للأب ابن ، ورضع من امرأة ؛ فإن هذا الرضاع لاتسرى حرمته للأب ولا لأصوله . لأن للبن الذى يثبت به التحريم بعيد عن هؤلاء ، أعنى أخوة الرضيع وأخواته وأب الرضيع وأمه كذلك .

تنبيه

من المسائل التى تخفى على الكثيرين ، أن الرضيع الذكر تحرم عليه مرضعته وبناتها سواء كانوا من قبله أو بعده ، وكذلك الرضيع الأنثى يحرم عليها أولاد مرضعتها ، سواء وجدوا قبلها أو بعدها .

خطر المخدرات والتدخين والمسكر

قبل أن نتحدث عن الدخان ، أوثر أن أبدى كلمة قصيرة عن الحشيش ، لأنه أعظم جرماً وأشد فتكاً بالجسم وأعظم حرمة ، لأنى وجدت الدروس العملية فيه أكثر منى بياناً ، وأفصح لساناً . إذ أن متماطيه لا يكاد يصل إلى درجة الشيخوخة حتى تتبدل صحته سقماً ، وقوته ضعفاً ، ونضرته ذبولا ، وأعصابه اضطراباً ، وكثير منهم يموت بالسكتة القلبية . وكذلك الأفيون ، فهو أشد ضرراً منه ، إذ أن مدمنه يصاب بفقر فى دمه ، و إمساك معوى حاد ، واضطراب فى الأعصاب ، وضعف فى الذاكرة . وكذلك باقى المخدرات الأخرى ، ومثل ذلك التبغ « الدخان » .

الدخان

نبات خشبى تابع للفصيلة الباذنجانية مخدر مر الطعم كريه الرائحة يبلغ ارتفاع شجرته متراً تقريباً ، وأوراقه تشبه أوراق القلقاس ، واستعماله على أنواع خمسة :

الأول : يدخن بواسطة مايسمونه « شيشة » وما يماثلها .

الثانى : يستعمل تدخيناً بواسطة ورق رقيق جداً .

الثالث : يستعمل سعوطاً فى الأنف بعد أن يدق ناعماً ، ويوضع عليه جزء من أملاح النطرون ، وقد يوضع عليه أجزاء أخرى تكسبه رائحة ذكية .

الرابع : يستعمل مصاً بأن يوضع مع جزء صغير من النطرون فى الفم .

الخامس : ما يستعمل بواسطة « جوزة » بعد أن يضاف إليه جزء من العسل . وهو فى جميع استعمالاته حرام ، وترجع حرمته إلى الأضرار التى تنجم عنه ، وتلك الأضرار اقتصادية واجتماعية وجسمانية .

أما الاقتصادية : فلا مرية فيها ، وقد أطبقت شرائع الله على حرمة ضياع المال . وأما الاجتماعية : فلأن مدمنه يغتصب حقوق أسرته ليشبع شهوته منه ، سيما إذا كان فقيراً . أما أضراره الجسمانية : فحسبى ما قرره الأطباء ونشروه فى

المجلات وأذاعوه فى المجتمعات ، وها هى ذى أقوالهم بالنفى حينما سئلوا عن المكيفات النافع منها والضار ، ومن تعليل إقبال الناس على المكيفات ، وهل يمكن الاستغناء عن جميعها ، وماهى أحسن طريقة لتخليص مدمنى المكيفات .

١ — قال الدكتور سليمان عزمى وزير الصحة الأسبق :

(ا) كلا بل كلها ضارة وضررها شديد ، ويختلف ضررها حسب نوعها ودرجة تعاطيها ، والمكيفات الثقيلة مثل الكوكايين والحشيش والأفيون أضر بحالة الشخص النفسية والحسية .

(ب) ويدخل فى إقبال الناس على المكيفات ، التقليد الأعمى والمحاكاة ، وتأثير البيئة ، وضعف إرادة الشخص ، وقوة إرادة من يؤثر .

(ح) نعم ممكن ، وقد رأيت بعينى آلافاً من الناس لم يتذوقوا فى حياتهم شيئاً منها ، كما أننى أعرف كثيراً ممن يتعاطونها ثم أقلعوا عنها بإرشادات طبية ، ومنها ما يحتاج إلى العلاج بالمصحات بواسطة الأطباء .

٢ — وقال الدكتور محمد سليمان مدير مستشفى الملك سابقاً :

(ا) لا أعتقد أن هناك نافعة أبداً حتى الدخان .

(ب) إنى أرجعه إلى استهتار متعاطى المكيفات بالقيم الأخلاقية التى عليها معول الأمم ، ثم إلى البيئة وعدم مراقبة الآباء لأبنائهم ، ولا سيما فى دور المراهقة .

(ح) يمكن الاستغناء عن جميع المكيفات ، وإن كنت أعتقد أن الدخان يحتاج إلى إرادة غير عادية من جانب المريض للاستغناء عنه .

(ء) قوة إرادة كفيلة بتخليصه من جميع المكيفات ، وإنه ليحزننى أن أرى حكومتنا تسمح بوضع إعلانات مضاءة عن الخمر ، إن فى هذا تحريضاً لاتستقيم معه دعوة محاربة الخمور . ولنا فى حكومتنا الرشيدة التى رفعت رأس مصر إلى السماء أمل كبير فى منع الإعلان عنها ، والضرب على أيدى المتجرين بها وشاربيها ، كما ضربت على أيدى العابثين بحقوقها .

٣ — وقال الدكتور عبد رب النبي مدير مستشفى المنيل الجامعى :

(ا) القهوة والشاى والدخان كلها واحد ، والإفراط فيها يحدث أثراً سيئاً ولا سيما الأنواع الرخيصة منها . أما المخدرات فهى ضارة على طول الخط ، الغالى منها والرخيص .

(ب) يقبل الناس على المكيفات لأسباب ، أهمها التقليد ، وسوء المعاشرة لقرناء السوء ، وضعف إرادة الشخص .

(حـ) لا أعتقد أن هناك عادة يستعصى إبطالها والاستغناء عنها ، ولاشك فإن ذوى العزيمة الصادقة يستغنون عن جميع المكيفات .

(ء) قوة الإرادة ، أما المدمنون فيفضل علاجهم فى مصحات خاصة ، وكذا أجمع المحققون من العلماء على تحريم المكيفات ومنها الدخان .

٤ — وقال الدكتور فى أدب المحلى ص ١٢٢ « الطنباك والدخان » لحضرة النطاسى إسماعيل رشدى مفتش صحة الغربية :

(ا) هو نبات سمته العرب « الطباق » و بتحليله اتضح أنه يحتوى على مادة سامة ، إذا وضع منها نقطتان فى فم كلب مات فى الحال ، وخمس نقط منها تكفى لقتل جمل ، والأمم المتوحشة تمضغه ، وهذه الطريقة أكثر الطرق ضرراً لدخوله فى المعدة مع الريق . وقد نشأ استعمال الطباق بين الأمم على ما به من الضرر . وقد أثبت الأطباء أن الطباق يؤثر فى القلب فيحدث فيه الخفقان ، وفى الرئتين فيحدث سعالا ، وفى المعدة فينشىء فيها ضعفاً فى شهوة الأكل وفى العينين فيحدث فيهما رمداً ، وفى المجموع العصبى فتوراً .

أسباب التدخين والمخدرات

مما لاشك فيه أن تعاطى التبغ (الدخان) وسائر المخدرات بادىء بدء ، لاتكون إلا بالتكلف واحتمال المكروه والألم ، لأنها مكروهة بالطبع ، كما أخبر المجربون ، وإنما يتكلفون عجباً وخيلاء أو طلباً للذة متوهمة ، يقلد بها الشارب

غيره ، ثم يصير المؤلم بالتعود ملائماً بإزالته للألم المتولد منه إزالة مؤقتة ، ذلك بأن هذه الأشياء سموم مكروهة فى نفسها ، ومتى أثر سمها فى الأعصاب بالتنبيه الزائد وغيره ، أعقب ذلك ضده من الفتور والألم ، وهما يطاردان بالعود إلى الشراب . كما قال أحد المدمنين فى السكر « داونى بالتى كانت هى الداء » اهـ من المنار .

هذا وقد أثبت العلم الحديث أن النيكوتين الذى اشتمل عليه التبغ مادة سامة أشد فتكاً من المورفين والاستركنين والكوكايين ؛ لهذا لم يستطع الطب أن يستخدمه لصالح البشر كدواء ، كما استخدم غيره من السموم ، ولو أن العلم استخدمه فى قتل الحشرات والأوبئة التى تصيب بعض الأشجار .

كلمة الدكتور دمرداش أحمد

ولم أر فى عيوب الناس عيباً ... كنقص القادرين على التمام

لا أظن الجنس البشرى منذ الخليقة ضعف واستكان أمام عدو من أعدائه كما فعل أمام تدخين التبغ ، كما أسرته هذه العادة وأوثقته ، وأذلت كبرياءه ، استوى فى ذلك صغار العمال الكادحين الذين يقتطعون من أقواتهم وأقوات عيالهم ، وكبار الأطباء والفلاسفة المفكرين الذين أضاءت الكون عبقرياتهم ، وكشفوا هذه الآفاق البعيدة فى مختلف العلوم والفنون .

وقد كان السائد المعروف أن التدخين باعتدال قليل الضرر أو عديمه للشخص السليم ، ولكن البحوث العلمية المتصلة فى السنوات الأخيرة ، أثبتت أن الضرر الذى يحدثه التدخين لم يخطر أبداً على بال مدخن . وإليك الحقائق التى أثبتتها هذه البحوث :

قام الأستاذ (ريموند بالمير) يتتبع عشرون ألف حالة منهم مسرفون ومعتدلون وممتنعون ، أنشأ لكل منهم سجلا خاصاً بجامعة (جون هوبكنز) أثبت فيه كل مايتعلق بصحتهم وأمراضهم وعوائدهم ، وبدأت أبحاثه سنة ١٩١٩ ، وانتهت سنة ١٩٤٠ بالنتيجة الآتية :

يؤثر تدخين التبغ على حياة الإنسان أثراً بالغاً ، فتقصر هذه الحياة قصراً بيناً يتناسب مع كمية التبغ ، والممتنعون أطول أعماراً من المعتدلين ، والمعتدلون أطول من المسرفين اهـ .

كثير من الناس — وربما كانوا متعلمين — يبيحون التدخين وتعاطى الحشيش ، ويتعلق بالأول الأحكام الخمسة ، وهذا جهل بدين الله ، لأن دين الإسلام لم يحرم شيئاً إلا إذا كان فيه ضرر أو يؤدى إلى الضرر . مثال المؤدى إلى الضرر النهى عن اختلاط النساء بالرجال ، والخمر القليل الذى لا يسكر كما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد عن جابر مرفوعاً : « مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ » ودليل ذلك حديث لرسول الله ﷺ : « لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ » ، وكذلك الحديث : « نَهَى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلِّ مُسْكِرٍ وَمُفْتِرٍ » رواه الإمام أحمد عن أم سلمة .

ودليل ذلك من القرآن : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[1] » .

فالإثم فى الآية الشريفة كما جاء فى كتب اللغة هو الضرر ، وأى ضرر أكبر من إتلاف الصحة وإحراق المال ، وهضم حق الزوجة والأولاد لمن كان له أولاد . وذلك لأن المال الذى بيده ليس خاصاً به بل لزوجه وأولاده فيه حقوق . يتبين من هذا أن أضراره أربعة : جسمانى واقتصادى واجتماعى وتبذير . والله تعالى يقول : « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً[2] » .

رأى علماء الفقه فى تحريم الدخان

قال العلامة الشيخ محمد فقهى العينى الحنفى :

وجه تحريم الدخان من أربعة أوجه : الأول : كونه مضراً بإخبار الأطباء ،

---

(١) الأعراف الآية : ٣٣ (٢) الإسراء الآية : ٢٧

وفى الحديث الذى رواه ابن حبان فى صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ » .

والثانى : كونه من المفترات ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر . رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أم سلمة .

والثالث : كون رائحته كريهة تؤذى من لا يستعمله ، ولاسيما فى مجامع الصلاة وغيرها ، بل تؤذى الملائكة . وعن جابر أن النبى ﷺ قال : « مَنْ أَكَلَ الثُّوْمَ وَالْبَصَلَ وَالْكُرَّاثَ فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ » رواه الشيخان .

ومعلوم أن رائحة الدخان ليست أقل خبثاً من رائحة الثوم والبصل .

وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ آذَى مُسْلِماً فَقَدْ آذَانِى وَمَنْ آذَانِى فَقَدْ آذَى اللهَ تَعَالَى » أخرجه الطبرانى فى الأوسط .

وبدهى أن الدخان من الخبائث لكراهة رائحته وضرره .

وقد كتب الله الرحمة لهؤلاء فقال سبحانه : « وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ[1] » . قال بعض المتشرعين : إن الدخان من الخبائث .

والرابع : كونه إسرافاً ، إذ لا نفع فيه بل ضرره محقق .

وكذلك أفتى ابن عابدين فى الدر المختار وفى شرح الوهابية للشرينبلانى بمنع بيع الدخان وشربه ، وغيرهم من الأئمة الذين وجدت هذه الشجرة فى أزمانهم ، لأنها وجدت بعد الهجرة النبوية بألف سنة تقريباً . والله أعلم .

---

(١) الأعراف الآية : ١٥٧

نقلت إلينا صحيفة الأهرام فى يوم ١٦ يناير سنة ١٩٥٩ تحت عنوان « حملة شديدة على التدخين » :

فى روسيا ثبت لدى الأطباء فى موسكو بأبحاثهم الدقيقة أن أسباب سرطان الرئة والفم واللسان من التدخين ، حيث وجدوا تسعين فى المائة مصابين فى الأول من التدخين ، وثمانين فى المائة مصابين فى الثانى من التدخين . لهذا أخذت جماهيرهم من طلبة المدارس والمدرسين ورجال الصيدلة يعلنون و يخطبون فى الناس على إبطال هذا السم القاتل ، وقد صوروا صورة إنسان من زجاج مبينين فيه آثار التدخين التى تقشعر منه الأبدان ، حتى أصبحت السجاير لاتباع إلا فرطة .

وكذلك أثبت الطب الحديث العالمى أن أضرار المخدرات على الصحة وعلى العقل والنفس والمجتمع أكثر ألف مرة من أضرار الخمر . فإذا كان مدمن معتل الصحة ، مهزول الجسم ، سقيم التفكير ، مريض النفس ، مفش للأسرار الدفينة التى بين الزوج وزوجته ، والتى تضر بصالح الدولة ، فإن المخدرات تزيد عليها بقتل العزيمة ، وشل الإرادة ، ونهك القوى ، وتوتر الأعصاب .

وإنما لم يرد نص صريح فى تحريمها ، لأنها لم تكن موجودة فى زمن الوحى كما فى التبغ ، ولكنها داخلة فى النهى عن الإثم فى قوله تعالى : «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ[1]» والإثم فى لغة العرب : الضرر . وكذلك جاء تحريمها ، فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » : لاتضر نفسك ، ولا تضر غيرك .

الخمـــر

الخمر هو ماخامر العقل ، سواء كان من العنب أو التمر أو الحنطة أو الشعير أو القصب أو العسل ، وهى محرمة فى جميع شرائع الله . أما فى التوراة : « ولمن الويل ، لمن الكروب ، لمن الشقاء ، لمن ازورار العينين ، الذين يذهبون فى طلب

---

(١) الأعراف الآية : ٣٣

الشراب المزوج » وفى الإنجيل : « ملعون من يُسْقِى أخاه كأس خمر ، السكيرون والزناة لايدخلون ملكوت السماء » .

أما فى الإسلام فقد ذمها مرتين وحرمها فى الثالثة علاجاً للنفوس ، شأن الطبيب الحاذق الحكيم ، الذى لايحمل الناس على الحق مرة واحدة ، فينفرون منه ولاينتفعون بوعظه وإرشاده .

دخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه فقال : يا أبت ، مالك لاتنفذ وأصحاب الحوائج راكضون ؟ قال يابنى ؛ إن الله تعالى ذم الخمر مرتين وحرمها فى الثالثة ، وإنى أخشى أن أحمل الناس على الحق مرة واحدة فيتركونه مرة واحدة ، فيكون فتنة وفساد كبير .

فأول الآيات قول الله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا [1] » .

وثانيها : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى [2] » .

وثالثها : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ [3] » .

هذا وقد ورد فى تحريمها أحاديث كثيرة منها حديث : « إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْخَمْرَ وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ لَهُ وَبَائِعَهَا وَمُشْتَرِيَهَا وَآكِلَ ثَمَنِهَا » . وقد سأل رسول الله ﷺ أحد الصحابة عن الخمر : أفأبيعها وأنتفع بها ، فقال : « لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ شُحُومُ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ فَأَذَابُوهَا وَبَاعُوهَا ، وَاللهُ حَرَّمَ الْخَمْرَ وَثَمَنَهَا » .

---

(١) البقرة الآية : ٢١٩ (٢) النساء الآية : ٤٣ (٣) المائدة الآيات : ٩٠ ، ٩١

ومن تفسير ابن كثير جاء فى حديث رواه الإمام أحمد أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام فى حجره ورثوا خمراً فقال : أهرقها ، قال أفلا تجعلها خلا ، قال : لا .

وكفى شارب الخمر أن كبده مقروحة ، وكليتيه ممزقة ، وأعصابه مضطربة ، ومعدته ضعيفة ، وأنه حليف الأمراض . وليت أضرارها قاصرة على شاربها بل تتعدى إلى النسل : الأبناء والأحفاد ، فتراهم منهوكى القوى ، شاحبى اللون ، سقيمى التفكير ، قصيرى العمر . وقد ثبت أن النقطة الواحدة تتعدى إلى النسل ، وقد ثبت أن ذرية مدمنى الخمر ليس عندهم ما لغيرهم من مقاومة الأمراض ، كما ثبت أيضاً أن شارب الخمر مستهين بكل فضيلة ، حتى أنه لايتورع بين فعل الفاحشة بأمه ورحمه ، لأنه فاقد العقل الذى هو الفيصل بين الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ، وبين الحيوان البهيم .

هذا ولما كان أضرار الخمر من الكحول التى فيها ، ومن شأن هذه الكحول أنها تضعف قوة المقاومة ، بأن الله سبحانه أوجد فى الإنسان جيوشاً تحارب جراثيم الأمراض فتقتلها ، ولولا ذلك لما عاش الإنسان ساعة من نهار ، تلكم هى الكرات البيضاء وأعظم شىء فى الإنسان المخ ، فهو الذى اخترع هذه المدهشات ، وهو الذى يقوم بمهمة الإرشاد والمراقبة والقيادة ، وجميع خلايا الجسم خاضعة للمخ ، فهو المركز العظيم الذى يدير جميع حركات الجسم ، ويبعث بأوامره إلى أكثر من خمسمائة عضلة ، ثم هو يتلقى الأنباء من أعضاء الحواس الخمس ، ويستشعر بها الإنسان . وبيان ذلك أننا نبصر ونسمع ونشم ونتذوق ونحس ، بسبب وصول الرسائل إلى المخ ، من العين والأذن والأنف واللسان ، ومن جميع سطح الجسم .

فمثلا إذا وقعت العين على سيارة قادمة بسرعة ترسل العين نبأ ذلك فى الحال إلى المخ ، فيذهب النبأ على الأثر إلى العضلات ، وبهذا يتمكن الإنسان من

الانتقال إلى مكان يأمن فيه على نفسه من الخطر ، والأعصاب التى تقوم بإيصال هذه الأنباء ، والمخ أشبه بسنترال عظيم مثل السنترال الذى يقوم بتوزيع الإشارات التلغرافية ، أو التليفون ، والأعصاب هى بمثابة الخلايا الكهربية التى ينبعث منها التيار ، وتبلغ خلايا المخ ثلاثة مليون ، ومثلها من ألياف الأعصاب التى تربطها جميعاً ، بحيث تمر فيها الرسائل فى جميع الاتجاهات على السواء . وإذ قد ثبت أن المخ هو مركز الإحساس ، وأنه ينمو فى الإنسان من حين أن يولد ، وكلما كان الغذاء جيداً كان النماء أكثر ، وأن الخمر تقلل من نموه ، وإذا ماقل نموه نما الجسم ، كان صاحبه ساذج العقل ، سقيم التفكير . أضف إلى ذلك إفشاء الأسرار التى هى أكبر خطر على الفرد والمجتمع ، وربما أودت بأمة برمتها إلى هوة الشقاء . ولذلك ننصح إلى ولاة الأمور ألا يجعلوا الرياسة أو القيادة بيد من يشربون الخمر حتى لاتتسرب أسرار الدولة إلى أعدائها .

ومن أضرار الخمر أيضاً إصابة الرئة بمرض السل والتدرن الرئوى ، وضعف القلب ، دليل ذلك سرعة دقات القلب بعد الشرب . وقد انتهى رأى العلماء أن الإنسان إذا تناول ست أوقيات من الكحول فى خلال ٢٤ ساعة فإن عدد دقات قلبه تزيد أكثر من ٧٢٠ دقة فى الساعة فوق العدد الطبيعى المقرر لدقات القلب فى حالته العادية ، حيث لايتناول غير الماء القراح . كما أنه قد ثبت أن النقطة الواحدة من الكحول لو جردت من الماء لأتلفت الشفة والفم ، ولو وضعت تحت جذر نبتة من النبات لأماتتها ، كما إذا وضعت نقطة على قطعة لحم أو خضر جفت وجمدت .

هذا قليل من كثير ، مقتبسة من كتاب الخمر للدكتور غلوش ، ومن أراد المزيد فليطلع على كتابه فى الخمر ، هذا وقد صدقت الأيام نظرية الإسلام . فمن ذلك ماجاء فى أخبار اليوم فى ٢٢ مارس سنة ١٩٦٠ ، بعنوان : (مدمن الخمر يفقد عشرين عاماً من حياته) :

« إن حياة مدمن الخمر تقل فى متوسطها عشرين عاماً عن متوسط حياة الأشخاص العاديين ، ثبت ذلك من دراسة قام بها الدكتور اندوإيفى بجامعة (إيلينوى) وتبين منها أن متوسط عمر مدمن الخمر ، هى واحد وخمسون سنة ، و إذا بدأ إدمان الخمر فى سن متقدمة ، فإنه لايتوقع أن يعيش فى المتوسط أكثر من ست عشرة سنة أخرى . وهذه الأرقام مأخوذة من السجلات الطبية (إحصاءات شركات التأمين) .

وشر من هذا وذاك ، إفشاء الأسرار حتى مايتعلق بالأرواح وأسرار الدولة التى تضر بصالح الدولة ، وكذلك عدم التورع فى إتيان الفواحش ، ماظهر منها وما بطن حتى بالأمهات .

المخـــدرات

أنواع المخدرات كثيرة ، ولقد فشت فى الشرق ، وخاصة فى مصر حتى كادت تقضى على الكثير من شبانها ، ومن بينها مايسمونه المعسل ، فقد نكب بتعاطيه الملايين من أبناء مصر ولاسيما صغار المزارعين ، والعمال الكادحين . فتراهم يقتطعون من أقواتهم وأقوات من يعولونهم ، ويشترون به هذا السم القاتل والخطر الداهم ، ومن بين هؤلاء من يستبدلونه بالحشيش ، فيتناولونه إما تدخيناً أو مذاباً مع غيره ، أو معجوناً بمواد أخرى .

فهذا الصنف من الناس تراه هزيلا ضعيف القلب ، هائج الأعصاب ، ضعيف الإبصار ، لا يكاد يبلغ الخمسين من عمره حتى تراه محطماً ذابل الوجه ، فاتر العزيمة والرشد والصواب ، و بعد أن كان ذا ثروة طائلة قد تسربت إلى جيوب تجار المواد السامة ، فأصبح جيبه أفرغ من عقله .

فكم من أسرة كانت ناعمة البال ، تتمتع ببحبوحة العيش ورغد الحياة ، أصبحت بائسة تعيش من فضلات المحسنين . و إنه لجدير بك أن يتملكك العجب وتستولى عليك الدهشة حين ترى إنساناً يقدم على تناول مايفسد عقله ، و يضعف قوته ، و يبدد ثروته ، و يسير وراء شهواته الجنونية مدفوعاً بعامل متعة

نفس أو إطالة سهر أو نسيان هموم وآلام ، ولا يمكث طويلا حتى يأسر المخدر عقله ، فلايستطيع أن يحل نفسه من وثاقه ، و يصبح أسير عادته ، وينقاد إلى وحى مخدره انقياداً ينتهى عادة إلى سلب الأموال وتأخير الأعمال ، وتقريب الآجال ، وسقوط كرامته . صدق الله : « إِنَّهَا لاَتَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فى الصُّدُورِ » .

أضرارها

منها : فقر فى الدم ، إمساك معوى حاد ، اضطراب الأعصاب ، ضعف الذاكرة ، وهو يدخل فى بعض الأدوية بنسب ضئيلة جداً يقررها الطبيب ، ولـكن وا أسفاه !! استعمل فى غير موضعه . وناهيك بالأفيون فهو أكثر خطراً وأعظم ضرراً من الحشيش . وهكذا بقية المخدرات فهى أعداء الإنسان ، ضحاياها جمة و بلواها عامة . فـكم من منازل أخربتها ، وكم من عقول أفسدتها ، وكم من ثروة بددتها . ومن بين هؤلاء المخدرات : الهوريين ، والموادالبيضاء ، والمورفين ، وكلها من تزيين الشيطان ، خارجة عن فطرة الإنسان . لو يعلم الحيوان ما يعلم ابن آدم من أضرارها يستحيل أن يقدم عليها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتاب السياسة الشرعية ماخلاصته :

إن الحشيشة حرام يحد متناولها ، كما يحد شارب الخمر ، وهى أخبث من الخمر من جهة أنها تفسد العقل والمزاج حتى يصير فى الرجل تخنث ودياثة ، وغير ذلك من المفاسد ، وأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهى داخلة فيما حرمه الله ورسوله فى الخمر والمسكر لفظاً ومعنى ، و بعدأن سماها ملعونة وأن مستحلها يستتاب فإن تاب و إلا قتل مرتداً ، لا يصلى عليه ولايدفن فى مقابر المسلمين ، وأن القليل منها حرام أيضاً بالنصوص الدالة على تحريم كل مخدر وكل مسكر .

ونقل عن الحافظ ابن حجر أن من قال : إن الحشيشة لاتسكر و إنما هى مخدر مكابر ، فإنها تحدث ماتحدثه الخمر من الطرب والنشوة .

الرق الشرعى
والتسرى فى الإسلام

كان الرق فاشياً فى الأمم السابقة على الإسلام ، وكان يُضرب بأسباب كثيرة منها الفقر . فكان الدائن يسترق المدين حتى يوفى دينه ، ومنها بيع الوالدين بناتهم ممن يتسرون بهن ، وكذلك الأمم المغلوبة تصير عبيداً . فلما جاء الإسلام وهو دين البشرية العام لم يبطله دفعة واحدة لأن فى ذلك أضراراً بالسادة والموالى معاً ، بل أبطله بالتدريج حسب المصلحة للطرفين ، ولم يوجبه ، بل جعل للإمام الشرعى الحق فى الاسترقاق إذا كان فيه المصلحة التى لاتعارضها مفسدة راجحة وفى ذلك خير لهم وللنساء ، كما أن للإمام أن يمن على الأسرى ويخلى سبيلهم ، وله أن يفتدى بهم أسرى من المسلمين .

ولم يُبح الإسلام الرق إلا فى حالة واحدة ، وهو إذا وقعت حرب أهلية بين المسلمين وغيرهم ممن يعتدون على الإسلام و يصدون عن سبيل الله ، أو يفتنونهم فى دينهم ، فإذا ما أسروا منهم جماعة جرت عليهم هذه الأحكام .

و بغير هذا لايجوز استعباد الأحرار بأى سبب غير ما ذكر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى : « ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : رَجُلٌ أَعْطَى بِى ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا وَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيراً فَاسْتَوْفَى وَلَمْ يُوفِّهِ أَجْرَهُ » رواه ابن ماجه فى الجامع الصغير .

ومع أن الإسلام ضيق دائرة الرق فقد أمر بالإحسان إلى الموالى فى معاملتهم ورغّب فى العتق وأغرى السادة بالثواب العظيم . قال النبى ﷺ : « أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِماً اسْتَنْقَذَ اللهُ تَعَالَى بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْواً من النَّارِ » رواه البخارى بل جعل الله سبحانه للأرقاء من الزكاة المفروضة نصيباً يفتدون به أنفسهم من

ساداتهم ، قال تعالى : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ » ، وقال سبحانه : « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ[1] » .

ومن ذلك أمر الله تعالى لمن يملكون العبيد أو الإماء أن يستجيبوا لهم إذا طلبوا إليهم أن يفدوا أنفسهم من الرق بالمال فقال سبحانه : « وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ[2] » . صيغتها كاتبتك على كذا من المال فى مدة كذا فإذا أديتها فأنت حر ، فيقول : قبلت وعلى السادة بعد ذلك أن يضيفوا لهم شيئاً مما التزموه ، كما قال سبحانه : « وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ » .

هـذا وقد استفاضت النصوص بأن على السيد أن يطعم مملوكه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق . ونكتفى بوصية الرسول ﷺ وهو فى آخر حياته : « اتَّقُوا اللَّهَ فِى الصَّلَاةِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » .

بهذا يتبين أن الإسلام مع إباحته الرق فإنه شديد العناية به ، عظيم الرغبة فى حريته . من ذلك أن من كان له نصف عبد وأعتق نصيبه ، سرى العتق إلى جميع العبد ، وغرم لشريكه عن النصف الآخر .

وإن شريعة اليهود كانت تضرب الرق على المذنب وعلى المدين حتى يستكمل صاحب الحق حقه ، فلما جاء المسيح لم ينسخ شيئاً من أحكام هذا الرق ولم يأمر السادة بعتقهم ، بل أوصى العبيد فى مواضع شتى بطاعة ساداتهم .

ومن عناية الإسلام بالرقيق ، أن جعل هناك ذنوباً لا تُكفّر إلا بالعتق ، ولا يقوم شيء مقامه عند القدرة عليه ، وذلك كما فى القتل الخطأ ، يقول الله تعالى : « وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » ثم يقول : « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ

---

(١) البلد الآيات : ١١ ، ١٢ ، ١٣ (٢) النور الآية : ٣٣

«فصيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ» فانظر كيف جعل العتق هو الواجب الأول فى تكفير ذنب القاتل خطأ . وكذلك الحنث فى اليمين ، ومن أتى المرأة فى الصيام متعمداً ، وكذلك من جعل زوجته حراماً كأمه وأخته ، وهذا مايسمى ظهاراً ولم يجعل الله لهؤلاء مخرجاً سوى العتق عند القدرة .

التسرى فى الإسلام

ذكرنا فيما مضى أن الإسلام لم ينفرد بالاسترقاق بل أباحته جميع الشرائع ، واختص الإسلام بأنه سوّى بين الرقيق وسيده فى المطعم والملبس وغيرهما . كذلك جعل الإسلام اللاتى تسرى بهن السادة كالزوجات فى حضانتهن وشرفهن وضمان رزقهن وحفظ كرامتهن ، وأنهن يعتبرن أمهات أولاد شرعيين ، كسائر أمهات الأحرار متى ولدن منهم أولاداً ، فإن الجارية التى تلد لسيدها تعتق بموته ولا يصح بيعها . وبدهى أنه ليس للسيد أن يتسرى بها إلا إذا كانت غير متزوجة وإلا فلا يحق له أن يتسرى بها ، وليس له إلا الخدمة فقط .

هذا هو حكم الله فى الأرقاء والإماء «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» . وحسبنا فى ذلك أنه قد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِى وَأَمَتِى وَإِنَّمَا يَقُولُ : فَتَاىَ وَفَتَاتِى» .

الفتاوى

وردت على أسئلة من المواطنين وغيرهم للاجابة عليها ، ولـكنى رأيت من الخير أن أبين للسائلين رأى صاحب المنار السيد رشيد رضا فيهـا ، ثم أعقب عليها ببيان رأيى فيها :

أولا — طهارة الاسبرتو أو الـكحول .

ثانياً — المسح على الجورب .

ثالثاً — الصلاة بالنعلين ، وحسر الرأس .

رابعاً — قراءة القرآن ومس المصحف وكتب الدين للمحدث والحائض .

خامساً — جعل الـكتاب والسنة للتبرك دون الهداية .

سادساً — الاستغفار عقب الصلاة برفع الصوت .

سابعاً — الـكلام الدنيوى فى المسجد .

ثامناً — مدح النبى ﷺ بالشعر عند صعود الخطيب المنبر .

تاسعاً — قراءة الموالد فى المنارة .

عاشراً — الصلاة بالعمامة .

الحادى عشر — حلق اللحية والشارب .

الجواب عنها

١ — طهارة الاسبرتو أو الـكحول :

الاسبرتو طاهر بل مطهر يزيل النجاسات والأقذار التى لا يزيلها الماء وحده إلا بمشقة ، كما هو ثابت بالتجربة ، ولا يتوضأ به لأن الوضوء قد شرع بالماء وهو عبادة ، وعلى من يدعى نجاسته أن يأتى بالدليل لا على من ينكرها لأنها خلاف الأصل ، فإن الأصل فى الأشياء الطهارة ، وقد كنت أفتيت بطهارته فى جواب سؤال عن الأعطار الإفرنجية ، وبأن الخمر التى يعلل بعضهم نجاسته بأخذه منها

أو بعضه منها لا يقوم دليل على نجاستها الحسية التي تزال بالماء ، وإنما هي رجس معنوي شرعي كالميسر والأنصاب والأزلام التي قرنت بها في الحكم ، ونشر ذلك في (ص ٥٠٠ — ٥٠٣ من مجلد المنار الرابع) . وقد رد علينا رجل من وجهاء الشام ، ففندنا رأيه في مقالة عنوانها (طهارة الكحول ، والرد على ذي فضول) نشرت في (ص ٨٢١:٨٦٦) من المجلد الرابع أيضاً .

ثم أراد بعض علماء الأزهر أن يرد على هذه المقالة ، وكاشفنا برأيه في مجلس فيه جماعة من كبراء علماء الأزهر منهم مفتي الديار المصرية المرحوم الشيخ أبو بكر الصدفي ، فناظرناه في ذلك مناظرة صرفته عن الرد الذي كان ينوي كتابته ونشره ، وذكرنا خبر هذه المناظرة في المنار .

ثم إن بعض علماء الهند من الحنفية أفتى بتحريم استعمال الكحول (اسبيرتو) في الأصباغ والأدهان والعطور ، معللا ذلك بكونه خمراً نجسة ، وعرض فتواه على العلماء فقرظها له بعضهم وأرسلها إلينا فنشرناها بنصها ونصوص من وافقوه عليها ، ورددنا عليها رداً طويلا نشرناه في المنار .

(راجع ٥٦٧ — ٦٧٩ من المجلد ٢٣) ونشرنا لها ملحقاً طبياً صيدلياً في الجزء الأول من المجلد ٢٤ .

حـ ٢ — المسح على الجورب :

المسح على الجورب جائز ، وقد بينا دليله في مواضع من المنار ، ولعالم الشام الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى رسالة في ذلك فيحسن أن تراجعوها .

وقد اشترط بعض الشافعية في جواز المسح على الجورب أن يكون صفيقاً لا يشف وأن يكون منعلا ، كما ذكره الشيخ أبو إسحق في المهذب . ولكن قال النووي في شرحه ما نصه : والصحيح بل الصواب ما ذكره القاضي أبو الطيب والقفال وجماعات من المحققين أنه إن أمكن متابعة المشي عليه جاز كيف كان وإلا فلا ، وهكذا نقله الفوراني في الإبانة عن الأصحاب أجمعين .

ثم قال فى بيان مذاهب العلماء فى المسألة : وحكى أصحابنا عن عمر وعلى رضى الله عنه جواز المسح على الجورب و إن كان رقيقاً ، وحكوه عن أبى يوسف ومحمد وإسحق وداود . وعن أبى حنيفة المنع مطلقاً ، وعنه أنه رجع إلى الإباحة اهـ المراد منه .

فهذا كلام المحققين ، فلماذا لا يأخذ إلا بقول السائل المضيقين على الأمة بغير دليل ؟ فى هذا العصر الذى نحن أحوج فيه إلى اليسر ورفع الحرج من الدين كما رفعه الله عنا ؟ إن كثيراً من المسلمين لا يجدون شيئاً من الضيق فى الصلاة إلا غسل الرجلين فى الوضوء .

وأننى عندما أفتيت أول مرة فى المنار بجواز مسح الجورب كالخف ، أخبرنى كثير من الوجهاء المترفين أنهم صاروا يواظبون على الصلاة .

حـ ٣ — الصلاة بالنعلين وحسر الرأس :

الصلاة بالنعلين جائزة ، بل كانت هى الأصل الذى عليه العمل الغالب فى عهد النبى ﷺ ، ولعل خلع النعلين لأجل الصلاة لم يصر عادة غالبة ، ثم عامة إلا بعد أن صاروا يفرشون المساجد . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى بأصحابه على التراب وقد يقع المطر فى المسجد ، فيسجدون فى الماء والطين كما ترى فى حديث ليلة القدر فى البخارى وغيره .

والأحاديث فى الصلاة بالنعلين معروفة ، كحديث أنس فى الصحيحين وغيرهما أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى فى نعليه ، و يذكر بعضها فى التفسير المأثور لآية : « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مسجد » فراجع الدر المنثور للسيوطى — وفى كتب الفقه أيضاً .

وأما حسر الرأس فى الصلاة فهو خلاف الأصل ولكنه جائز لا يشترط فى صحة الصلاة من اللباس إلا ما يستر العورة ، و يجتنب الإكثار منه ، ويحظر إذا كان فيه تشبه بغير المسلمين فى صلاتهم ، كما أنه يجب فى حال الإحرام بالحج أو العمرة .

ح ٤ — قراءة القرآن ومس المصحف وكتب الدين للمحدث والحائض :

قراءة القرآن لغير المتوضىء جائزة لاخلاف فيها ، ومس المصحف له فيه خلاف فقد منعه الجمهور ، والجنب أولى بالمنع . وذكر النووى فى المجموع أن الحكم بن عتبة وحماداً ، يعنى ابن أبى سليمان شيخ الإمام أبى حنيفة ، وداود ، جوزوا مسه وحمله . وفى رواية عن الأولين جواز مسه بظهر الكف لا بباطنه .

وأما قراءة الجنب والحائض للقرآن ، فجمهور الفقهاء ومنهم الأربعة على تحريمه على تفصيل لبعضهم فى القليل منه كبعض آية وفيما لا يقصد به التلاوة . قال النووى فى المجموع : وقال داود يجوز للجنب والحائض قراءة كل القرآن . ويروى هذا عن ابن عباس وابن المسيب ، قال القاضى وابن الصباغ وغيرهما واختاره ابن المنذر . وقال مالك : يقرأ الجنب الآيات اليسيرة للتعوذ ، وفى الحائض روايتان عنه : (إحداهما) تقرأ (والثانية) لاتقرأ .

وقال أبو حنيفة : يقرأ الجنب بعض آية ولا يقرأ آية وله رواية كمذهبنا اه ثم ذكر أدلة المانعين والمجوزين بالتفصيل ومنه يعلم أنه ليس للمحرمين دليل قوى ، وقد قال الأذرعى كما فى حاشية المجموع المطبوع (ص ١٥٩ ج ٢) مانصه :

مذهب داود قوى فإنه لم يثبت فى المسألة شيء يحتج به لنا كما أوضحه ، وقد نقل البيهقى فى معرفة السنن والآثار عن الشافعى أنه قال : لاأحب للجنب أن يقرأ القرآن لحديث لايثبته أهل الحديث ، وهذا المذهب هو اختيار ابن المنذر والأصل عدم التحريم اه .

وأقول : هذا الذى أعتقده ولكنى أعمل بقول الجمهور ، احتياطاً وأدباً مع القرآن لاتحرجاً وتأثماً . على أننى لاأحمل الجنابة زمناً طويلا لاأستغنى فيه عن التلاوة . والتحقيق أن التحريم لايثبت إلا بدليل قطعى ، وهذه المسألة لم يثبت فيها دليل ظنى ، كما قال الأذرعى وهو من كبار فقهاء الشافعية المشددين فى المسألة .

ومن أدلة المجوزين الآيات القرآنية أن فيها ذكر الله على كل حال ، والقرآن كله ذكر الله ، وأفضل مافيه توحيد الله وتسبيحه وتكبيره وحمده ، وكل هذه الأذكار جائزة للجنب والحائض بالإجماع ، كما أن صلاة الجنب جائزة لفاقد الطهورين . ومن هذا يستدل أن كون تلاوة الجنب للقرآن ينافى تعظيمه — وهم من الأوهام ، لأنه لو صح لكان كل ذكر لله من الجنب والحائض منافياً لتعظيمه .

ح ٥ — جعل الكتاب والسنة للتبرك دون الهداية :

من يقول إنه لم تبق للكتاب والسنة فائدة ، ولا حاجة للمسلمين إلا التبرك بهما ، وأن العمل يجب أن يكون بأقوال علماء المذاهب الأربعة دونهما ، فهو من أكبر المجرمين المحايدين لله ولرسوله ، والصادين عن الإسلام . وما ضاعت هداية الإسلام وتبعها ضياع ملك المسلمين وعزهم إلا بهذه الضلالة التى ابتدعها بعض المقلدين الجاهلين لدين الله تعالى . والأدلة على هذا كثيرة ، بسطناها فى مواضع كثيرة من المنار ولا سيما التفسير .

فعلماء المذاهب الأربعة المجتهدون وأمثالهم ، أدلاء للمسلمين على معانى الكتاب والسنة ومعلمون لها ، لاحائلون دونهما ، ولا صادون عن دوام الاهتداء بهما ، ولم يقل أحد منهم للأمة أننى بينت لكم كل ماجاءكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ، بما يغنيكم عن كتابه وسنة رسوله فى بيانه ، بل كانوا يقولون لهم : هذا ماظهر لنا ، فإن رأيتم فى الكتاب أو السنة مايخالفه فخذوا به واضربوا بكلامنا عرض الحائط .

وأما مااشترطه الأصوليون والفقهاء فى الاجتهاد ، فليس مما يتعذر على من يريده من الناس ، وهم يشترطونه فى المجتهد المطلق ، المستعد لاستنباط الأحكام فى جميع المسائل غير المنصوصة فى الشريعة ، لافى كل من يهتدى بالكتاب والسنة ويعمل بنصوصهما فى عقيدته وعبادته وآدابه وأخلاقه ، مستعيناً على ذلك بأقوال المفسرين وحفاظ السنة ، ولم يقل أحد منهم : أنه لايوجد أحد مطلقاً

فى هذا الزمان يقدر على استنباط حكم من الأحكام ، إلى آخر ماذكر فى السؤال .
بل قالوا إن الاجتهاد يتجزأ ، وأننا نرى جميع المتفقهة بكتب هذه المذاهب يفتون الناس فى المسائل الحادثة بعد أزمنة أئمتهم ، ويسمون فتاويهم شرعية .

وترى مثل الإمام الغزالى يصرح فى إحياء العلوم بأن أهم أمور الدين لاتوجد فى كتب الفقهاء . وانظر ماكتبناه فى تفسير هـذا الجزء من المقابلة بين المؤمنين والمنافقين ، وقد فصلنا هـذه المسألة مراراً ، وحسبكم منها ماجمعناه فى كتاب يسر الإسلام ، وكتاب الوحدة الإسلامية ، ومحاورات المصلح والمقلد .

ح ٦ — الاستغفار عقب الصلاة رفع الصوت :

الاستغفار عقب الصلاة مشروع ومأثور عن النبى ﷺ ، ولـكن رفع الصوت به بدعة ، ولا سيما التزامه من جماعة المصلين ، لأن مثل هذا من قبيل الشعائر لايثبت إلا بنص من الشارع ، أو عمل الجماعة فى العصر الأول ، لأنهم لايلتزمون مثله إلا بتوقيف .

ح ٧ — الكلام الدنيوى فى المسجد :

الكلام المباح فى غير المسجد يباح فى المسجد إذا لم يكن فيه مايشغل المصلين عن صلاتهم ، أو يخل بحرمته ، كاللغط ورفع الأصوات والخصام ونشد الضالة .
وتجدون فى الجزء الثالث من كتاب الآداب الشرعية والمنح المرعية فصولا فى أحكام المساجد وآدابها وما تصان منه يحسن أن تطالعوها ، ومنها ماينكر فيها من ليالى المواسم والموالد وهى من صفحة ٢٩٣ — ٤٢٩ .

ح ٨ — مدح النبى ﷺ بالشعر عند صعود الخطيب المنبر :

إنشاد الشعر فى مدح النبى صلى الله عليـه وسلم ، عند صعود الخطيب المنبر أو قبله ، بدعة ليس لهـا أصل فى الـكتاب ولا فى السنة ، ولا فى عمل السلف الصالح . وصلاة الجمعة من شعائر الإسلام التى يجب فيها الاتباع بغير زيادة

ولا نقصان . وأما مدح النبي ﷺ بالشعر الذى لاغلو فيه فى المسجد ، فهو حسن كإنشاده فى غير المسجد ، مالم يكن بهيئة مخصوصة دائمة تشبه المشروع بحيث يظن غير العالم بالسنة أنه مشروع .

ح ٩ — قراءة المولد فى المنارة :

قراءة هذه القصص التى ألفت فى المولد النبوى بدعة فى المنارة وغير المنارة ، ولكن قراءتها فى المنارة المبنية لأجل الأذان الشرعى ، توهم العوام أنها مشروعة ديناً ، فبهذا تكون بدعة دينية محضة . وأما قراءة قصة المولد بحد ذاتها كما تقرأ كتب العلم والحديث من غير أن تشتمل على منكر فى موضوعها ، ولا فى الاجتماع لها فهى مستحبة . وقد بينا أقوال العلماء فى احتفال المولد النبوى ، وتحقيق الحق فيها فى مقدمة كتابنا (ذكرى المولد النبوى) فراجعوه إن شئتم .

ح ١٠ — الصلاة بالعمامة :

كان النبي ﷺ يعتم ويصلى بالعمامة ، وكذلك أصحابه . فالصلاة فى العمامة أفضل للاتباع ، ولأنه فى عرف المسلمين أكمل الأحوال فى زينة المؤمن للمسجد ، التى أمرنا بها فى قوله تعالى : « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » .

ح ١١ — حلق اللحية والشارب :

حلق اللحية مكروه للأمر بإعفائها فى الحديث الصحيح ، وأما حلق الشاربين فكرهه بعض العلماء والأفضل قصهما . والأصل فى ذلك حديث « أَحْفُوا الشَّارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحَى » رواه البخارى ومسلم من حديث ابن عمر مرفوعاً ، وهذان من خصال الفطرة المتعلقة بالزينة وحسن الهيئة لا التعبد ، والإعفاء : الترك ، والإحفاء : المبالغة فى القص ، وأوسطه أن يقص منهما مايغطى الشفتين وهو المشهور عن السلف ، ومنهم من بالغ فى ذلك وسن حلقه ، ولكن قال الإمام مالك : حلق الشارب بدعة ظهرت فى الناس . والظاهر من إعفاء اللحية تركها على حالها .

وقال بعضهم : يستحب قص مازاد منها على قبضة اليد ، ونقلوه عن بعض السلف ، وصرحوا بأن حلقها مكروه . وقال الإمام أحمد : لا بأس بحلق ماتحت حلقه من لحيته .

فترى كثيراً من الحنابلة فى هذا العصر يحلقون أسفل الذقن كله عملا بهذه الرواية ، ولكن الحلق من الخارج محل الذبح ومن الداخل مساغ الطعام ومخرج النفس . فحلق مافوق الحلق وهو أسفل الذقن كله لايدخل فى معنى هذه الرواية ، وهو ينقص من جمال اللحية .

وهذه الأجوبة لا يصح الاعتراض عليها حيث أنها مدعمة بالأدلة ، غير أنى أرجح أن حلق اللحية حرام ، لأن فى حلقها تغييراً لخلق الله تعالى ، وقلباً للأوضاع لأن الخشونة من خواص الرجل ، لهذا ملأ الله صدره وذراعيه بالشعر الخشن . أما النعومة فهى من خواص النساء . ومن هذا تتجلى الحكمة فى أن الله حرم على الرجل أن يلبس الحرير ويتزين بالذهب ، وأحلهما للأنثى . وإذا كان الله تعالى فرق بينهما فى أصل الخلق : فهذا ذكر وتلك أنثى ، وكلاهما منحدر من صلب واحد ، ومن رحم واحدة ، فلماذا كان هذا خشن الصوت ، قوى العضلات ، وتلك رخيمة الصوت ، ضعيفة العضلات ، أليس ذلك إلا لأنهما خلقان متباينان تباين السلب والإيجاب ، فعلام نخالف حكمة الله تعالى ؟ أليس ذلك إلا خروجاً على الفطرة وخرقاً لنظام الله تعالى الذى قام عليه الوجود ، وتشبهاً بالنساء وانسلاخاً عن الرجولة .

كذلك مسألة الصلاة بالحذاء ، نعم وإن كانت ثابتة قطعاً بالسنة العملية والقولية ، ولكن لما كان الشرط فى صحة الصلاة بها الدلك فى التراب بحيث لا يبقى جرم النجاسة تجعلنا دائماً فى شك فى بقاء النجاسة أو إزالتها لا فى الحكم ، فإنه مسلم به ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول :

« دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ » فى الأربعين النووية .

هذا ماأراه والله أعلم .

بيع الدين بالدين

فيه صــور :

١ — منها بيع الدين لمن هو عليه بثمن مؤجل ليس نقداً .

منعه الأئمة الأربعة عملا بما ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الــكالىء بالــكالىء ، وأجازه ابن القيم محتجاً بما يأتى :

أولا — هــذا تصرف لغرض صحيح وفيه منفعة للمتعاقدين ، فــكان جائزاً شرعاً ، لأن التعامل إنما شرع لمصالح العباد .

ثانياً — يجوز أن يشغل أحد ذمته بدين فيه ربح لآخر ، وذلك فى بيع العين بالدين ، فيجوز أن يخلى المدين ذمته من دين و يشغلها بآخر أو بقرض أو معاوضة .

ثالثاً — قياساً على الحوالة وهى مقتضى بتحويل الدين من ذمة إلى ذمــة ، و إذا جاز ذلك مع غير المتعاقدين فأولى مالو كان الدين فى ذمة أحدهما . أما الحديث فلا يصلح للاستدلال لضعفه ، وأما الإجماع فلا وجود له فى هذه الصورة .

٢ — ومن صور بيع الدين بيعه لغير المدين بثمن حال :

أجازه طائفة محتجين بقول النبي ﷺ : « مَنِ ٱبْتَاعَ دَيْناً عَلَى رَجُلٍ فَصَاحِبُ الدَّيْنِ أَوْلَى إِذَا أَدَّى مِثْلَ مَا أَدَّى صَاحِبُهُ » . فقد أقر الرسول ﷺ البيع وجعل المدين أولى من المشترى . و يؤثر عن جابر أنه سئل عن رجل له دين على آخر فاشترى به غلاماً فقال : « لا بأس » والحديث و إن كان ضعيفاً والأثر و إن كان فتوى صحابى إلا أن ذلك يرجح بموافقته لأصول الشريعة السمحة التى ترمى إلى التيسير على المتعاملين .

٣ — ومنها بيع الدين من غير المدين بثمن مؤجل :

ذهب الفقهاء إلى فساده محتجين بأنه من باب بيع الــكالىء بالكالىء الذى ورد النهى عنه ووقع الإجماع على منعه ، وقد عرفت هذا .

وأجازه ابن تيمية وابن القيم مستندين إلى قياسه على الحوالة ، و بأن فى هذا التصرف مصلحة للمتعاقدين ، وليس هناك ضرر يلحق المدين ، ولا مانع شرعى يمنع من ذلك .

٤ — ومنها ابتداء الدين بالدين : بأن يبدأ المتعاقدان التعامل بدين منهما ، كأن يبيع أحدهما قنطاراً من القطن موصوفاً فى الذمة بثمن معلوم كذلك ، على أن يتأجل كل من البيع والثمن إلى أجل معلوم ، وجرى علماء الشريعة ومعهم ابن تيمية وابن القيم على القول بمنع هذا البيع محتجين بما يأتى :

أولا — النهى عن بيع الكالىء بالكالىء مع الإجماع وقد عرفت .

ثانياً — فى هذا التصرف شغل لذمة المتعاقدين بدون فائدة ، فلا البائع أخذ الثمن ، ولا المشترى تسلم المبيع ، فضلا عن أن الأصل فى عقد البيع أن يكون البدلان مقبوضين فور التعامل .

ودعوى عدم الفائدة غير مسلمة ، فإن التجار والصناع كثيراً مايتنافسون على تصريف بضائعهم أو الحصول عليها ، وترى التاجر المحتاج إلى البضاعة يسرع بالذهاب إلى صاحب المصنع ، ففى هذا التعاقد ضمن الصانع تصريف بضاعته وضمن التاجر الحصول عليها فلم يبق بعد هذا محل للقول بأن هذا التعامل خلو من الفائدة .

و بهذا يتبين أن الإجماع الذى نقل فى بيع الكالىء بالكالىء ، لا ينطبق على مثل هذه المعاملة ، و إنما يراد به أن يكون البدلان من الأموال الربوية ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الغائب بالناجز منها ، وحرم بيع بعضها ببعض إلا يداً بيد . وعلى هذا فالذى نراه أن شغل الذمتين من الطرفين فيما عدا الأموال الربوية لا بأس به ، وقد عهد فى الشريعة جوازه فى الإجارة والكراء والجعالة وغيرها . و إذاً فلا بأس من جواز هذا النوع من التعامل ، ما لم يتضمن شيئاً من المفاسد المحرمة ، كالربا والغرر والمخاطرة .

٥ — ومنها بيع الكمبيالات : فإن كان بنقد أقل من قيمتها كان رباً وهو

محرم ، وإن كان غير المدفوع فى الكمبيالة ، كأن كان الدين نقداً فبيع بثوب أو عقار أو نحوها ، كان البيع جائزاً على ماسبق ترجيحه .

٦ — ومنها بيع السندات : التى تعطيها الشركات والهيئات الحكومية مثلا للمقرضين .

وعلى العموم فهذا البيع جائز مالم يشتمل على محرم كالربا ، بأن يباع بنقد أقل من ثمنه أو أكثر . أما اشتراط الفائدة فلا يؤثر فى صحة البيع على رأى الحنفية ، والذى يحرم هو أخذها . والله الهادى إلى سواء السبيل (١) .

---

(١) هذا الملخص مأخوذ من أعلام الموقعين لابن القيم ، ونيل الأطار للشوكانى ، والمحلى لابن حزم ، والمغنى لابن قدامة .

البهـــائية

بعد أن كدت أنتهى من طبع هـذا الـكتاب عَنّ لى أن أكتب فى موضوع البهائية ، كيف نشأت ؟ ومن أين صدرت ؟ وما الهدف التى ترمى إليه ؟ ولـكنى وجدت الوقت شحيحاً لايسع البحث والتنقيب ، ويضن على بالزمن القليل — رجعت إلى من كتب فى هـذا الموضوع ودرسه دراسة واسعة ، وهو الأستاذ العبقرى والفذ الألمعى محب الدين الخطيب ، فأرشدنى حفظه الله إلى مايدفع الغلة ، ويشفى العلة مما نشره فى المجلات الدينية .

الأساس التى قامت عليه !

هى نحلة قامت على أساس أنه ليس لله وجود مطلق بأسمائه وصفاته التى وصف بها نفسه فى كتب أنبيائه — ولا سيما خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم — بل إن وجوده تعالى مفتقر إلى مظاهر أمره الذين جاءوا — بزعمهم — ليبشروا بمظهره الأبهى الذى لقبوه ببهاء الله ، فبهاء الله هو الرب الذى بشرت به الديانات كلها ، وهو المشرع الأعلى الذى تنبأت بظهوره البوذية والبرهمية واليهودية والمسيحية والإسلام ، وكل هـذه الديانات وغيرها كانت — بزعمه وزعمهم — مقدمات لظهوره ، والبهاء هو مظهر صفات الله ، فهو المتصف بها من دون الله ، وهو مصدر أفعال الله ، فهو فاعلهـا من دون الله . وهو المعنىّ بالقيامة ، وبالساعة الـكبرى ، وهو وجه الله ، وهو جمال الله البهى الأبهى ، وهو الموعود فى البشارات التى سبقت فى كل الأديان ، ولا إله إلا هو ، ولا قيامة إلا قيامته ، ولا آخرة إلا بدايته ، ولا دين إلا دينه . وكما أن الإسـلام نسخ الديانات السابقة ، فالبهائية نسخت الإسـلام ، وكل الأديان كانت ناقصة وبدائية ، وإنما جاءت لتـكمل بدين البهاء الـكامل . ومع ذلك فإن البهاء يتظاهر باحترام الأديان الأخرى ليقول لأتباعها إن دياناتـكم جاءت لتبشر بقيامى !

الإرهاصات التى تقدمت البهائية :

والدين البهائى الجديد منبثق عن العقيدة الشيعية ، وقد تمخضت عنه بيئتها فى إيران، وصنعه نفر من أذكياء أهلها .

وقد سبقته إرهاصات :

أولها دعوة رجل من شيعة العراق يدعى أحمد زين الدين الأحسائى (١١٥٧ — ١٢٤٢ هـ) ، وله أتباع إلى الآن يسمونه (الشيخية) .

وتلاه داعية آخر من شيعة إيران يدعى كاظم الرشتى (١٢٠٩ — ١٩٥٧) ، وله تاريخ .

ثم تأثر بهما و بتلاميذهما شاب عامى من تجار إيران اسمه على محمد الشيرازى (١٢٣٥ — ١٢٦٦ هـ) .

إن هؤلاء الثلاثة وكثيرين غيرهم معهم ، كانوا طلائع البهائية والتجارب الأولى لظهورها ، وكانوا يرمون إلى غرض واحد هو إكمال الخطوة التالية التى كان يطمع فيها غلاة المنحرفين من ألف سنة ، وهى إعلان تغيير دين الإسلام فى عقائده وتشريعه وأنظمته وجميع أهدافه .

كان هـذا الشخص الثالث (على محمد الشيرازى) فتى غراً يتدين تدين العوام ، ويغلو فى ذلك على طريقة الأعاجم ، ويستعيض فى تدينه عن العلم بدعوى الفهم ، وكان يتردد على مجالس كاظم الرشتى فى أخريات أيامه ، فتعرف به — فى مجالس الرشتى — شيطان من شياطين الشيعة يدعى ملا حسين البشرونى . فلما هلك كاظم الرشتى سنة ١٢٥٧ هـ خطر ببال البشرونى أن يستغل سذاجة هـذا الشاب وغروره وغلوه فى الدين ، فواصل الاجتماع به ، وأوهمه أنه يوشك أن يكون له شأن ، وأن هذا أوان « المنتظر » ، وقد يكون فى مقام « الباب » الذى يقوم بتبليغ الشيعة الأمامية عن المهدى . فإن تم ذلك

له فإنه — أى البشروئى — يرجو أن يكون له « باب الباب » ليمده بكل مايحتاج إليه من وسائل الجدل إذا قاومه المجتهدون والعلماء .

الباب والبابية :

وفى يوم ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٦٠ أعلن على محمد الشيرازى أنه «الباب» للمهدى المنتظر ، وكان على محمد الشيرازى يومئذ فى الخامسة والعشرين من عمره على ماورد تفصيله فى كتابهم (الكواكب الدرية فى تاريخ ظهور البابية والبهائية) المطبوع فى القاهرة سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤م) ومعنى الباب فى الاصطلاح الشيعى : الشخص الذى يكون واسطة بين الشيعة الإمامية و إمامهم الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى الذى يقولون إنه ولد سنة ٢٥٥ هـ والذى غاب (الغيبة الصغرى) فى سرداب سامر سنة ٢٦٠ وهو ابن ست سنين . وتقوم عقيدتهم على أنه (المهدى) ، وهو الذى يسمونه (المنتظر) من مدة تزيد على أحد عشر قرناً ، وهم إذا ذكروه يدعون الله بأن يعجل فرجه ، وبذلك تكون (الرجعة) . ولهذا الموضوع تفصيل ليس هذا موضعه .

ولما كان من تقاليد الشيعة أن الشخص الممتاز الذى يكون واسطة بين المهدى الغائب و بين شيعته يسمى (الباب) فقد رأى هذا الشاب العامى المشتغل بالتجارة — وهو على محمد الشيرازى — أن يزعم لنفسه أنه هو (الباب) ، ثم ادعى بتسويل ملا حسين البشروئى وأبحاثه أنه هو (المهدى) . وكان مجتهدو الشيعة وعلماؤهم يمتحنونه و يقترحون عليه كتابة تفسير لبعض السور — كسورة الكوثر ، وسورة العصر ، وسورة يوسف — فيكتب لهم فى ذلك خواطر سريعة يسبح بها فى عالم الخيال ، و يضمنها ما كان يسمعه من كاظم الرشتى وما يلقنه إياه ملا حسين البشروئى ، غير أنه يكتب ذلك بلغة سخيفة ملحونة ، فيزدادون نفوراً منه واستخفافاً به وتحريضاً للحكومة عليه بما يرونه من جهله .

قال داعية البهائيين الأول فى مصر أبو الفضائل الجرفادقانى فى كتابه الحجج

البهية) الذى طبعه المحفل البهائى الروحانى المركزى بمصر سنة ١٣٤٣ (١٣٢٥) ص ١٢٧ وهو يتحدث عن (الباب) ويسمونه « النقطة الأولى » .

وأما النقطة الأولى والمثال الأعلى المبشر بجمال (ربنا الأبهى) جل ذكره وعز اسمه ، فقام بالأمر وهو ابن خمس وعشرين سنة . وكان قبل قيامه مشتغلا بالتجارة مع خاله . فلما قام حضرته بإذن ربه الأبهى ، وصدع بالأمر فى مكة المكرمة . رجع إلى مدينة بوشهر ، ونزل على خاله . وسافر إلى شيراز فوقع فى يد أعدائه ، وانقضت أيام دعوته التى تعد سبع سنوات تقريباً كلها فى الحجز والحبس والنفى ، إما فى بيته أو بيت الحكومة ، إلى أن نفى إلى أذربيجان .

وعقب اقتناع الباب بدعوته سنة ١٢٦٠ بتسويل شيطانه ملاحسين البشروئى الذى قام له بوظيفة « باب الباب » استطاع باب الباب أن يجمع له ١٨ مريداً من الذين استجابوا قبل ذلك لأحمد زين الدين الأحسائى وكاظم الرشتى ، وأبلغوا الباب أنهم آمنوا به وصاروا أتباعاً له ، وصار يرمز لهم بكلمة (حى) لأن الحاء بحروف الجمل تدل على العدد ٨ والياء تدل على العدد ١٠ ، ووزعوهم فى أنحاء البلاد ليدعوا له .

مؤتمر بدشت :

وفى سنة ١٢٦٤ — وكان الباب معتقلا فى (قلعة ماكو) قرر الشياطين الذين يسيِّرون الباب ويتخذونه ذريعة لإكمال مهمة أحمد الأحسائى وكاظم الرشتى أن يجمعوا الدعاة الثمانية عشر الذين يرمزون لهم بكلمة «حى» وأن يحضروا معهم كل الذين استمالوهم وأدخلوهم فى هذه الدعوة ، وأن يعقدوا منهم مؤتمراً فى صحراء (بدشت) الواقعة على نهر (شاهرود) بين خراسان ومازندران ، وكان على رأس القائمين بهذا التدبير (باب الباب) وهو ملاحسين البشروئى ؛ وملا محمد على البارفروشى الذى يسمونه (القدوس) ، وأم سلمى خانم ، زرين تاج بنت ملا صالح القزوينى البرقانى التى يسمونها (قرة العين) ويلقبونها (الطاهرة) ،

وميرزا حسين على المازندرانى الذى تلقب فيما بعد بلقب (بهاء الله) وصار (ربهم الأبهى) .

فهؤلاء الشياطين دعوا إلى عقد هذا المؤتمر ليقرروا فيه إعلان نسخ دين الإسلام ، وجعلوا الدعوة الظاهرة له التفكير فى مسألة اعتقال الباب ، والوسائل الممكنة لإخراجه ، قال مؤرخ البهائية ميرزا عبد الحسين آواره فى ص ٢١٨ — ٢٢٣ من كتابه (الكواكب الدرية فى تاريخ ظهور البابية والبهائية) .

« لما تم عقد اجتماع الأحباء فى (بدشت) شرعوا فى البحث ، وكانت مجالسهم منقسمة إلى طبقتين ، الطبقة الأولى : المجالس الخاصة ، وهى التى تعقد بكبراء الأصحاب وعظمائهم . والطبقة الثانية : المجالس العامة ، وهى التى تعقد بين سواهم . أما المجالس الخاصة فكانت المذاكرات التى تجرى بين خواص الأحباء وأكابرهم فيها تدور حول (تغيير الفروع ، وتجديد الشريعة) وبعد أن أقر الرأى العام على وجوب السعى فى تخليص حضرة الباب وإنقاذه ، قرر أيضاً إرسال المبلغين (أى الدعاة المبشرين) إلى النواحى والأكناف ليحثوا الأحباء على زيارة الحضرة (أى الباب) فى ماكو (القلعة المعتقل فيها) مستصحبين معهم من يتسنى استصحابه من ذوى قرباهم وودهم ، وأن يجعلوا مركز اجتماعهم ماكو ، حتى إذا تم منهم العدد الكافى طلبوا من محمد شاه الإفراج عن حضرة الباب ، فإذا لبى الشاه طلبهم فبها ونعمت ، وإلا أنقذوا الحضرة (أى الباب) بصارم القوة وحد الاقتدار .

وبعد أن تم تقرير هذه الأمور وتقبلها وعرفها الجمهور . . . دار البحث حول الأحكام الفرعية (أى الصلاة والصوم والحج) من حيث التبديل وعدمه . وتبين بعد المذكرات الطويلة التى دارت فى المجالس الخاصة بين أكابر الأحباء أن أكثرهم يعتقد بوجوب (النسخ) و (التجديد) ، ويرى أن من قوانين الحكمة الإلهية فى التشريع الدينى أن يكون (الظهور) اللاحق أعظم مرتبة وأعم دائرة من

سابقه وأن يكون كل خلف أرقى وأكمل من سلفه ، فعلى هذا القياس يكون حضرة (الباب) أعظم مقاماً وآثاراً من جميع الأنبياء الذين خلوا من قبله ، ويثبت أن له (الخيار المطلق) فى تغيير الأحكام وتبديلها . وذهب قلائل إلى عدم جواز (التصرف) فى الشريعة الإسلامية ، مستندين إلى أن حضرة الباب ليس إلا مروجاً لها ومصلحاً لأحكامها مما دخل عليها من البدعة والفساد .

وكانت قرة العين من القسم الأول وهم المعظم ، لذا أصرت على وجوب إفهام جميع الأحباء و إشعارهم بأن للقائم مقام المشرع حق التشريع ، وعلى وجوب الشروع فعلا فى إجراء بعض التغييرات كإفطار رمضان ونحوه . وأما القدوس فإنه و إن كان على هذا الرأى إلا أنه كان متمسكا بالعادات الإسلامية فصعب عليه تركها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى خشى إحجام (الجماعة) عن الموافقة ، ووقوع الخلاف والشقاق بينهم . ولكن الطاهرة كانت مصرة على رأيها وكثيراً ما كانت تقول : « إن هذا العمل سيبرز إلى ساحة الوجود لامحالة ، وسيطرق هذا القول آذان العام والخاص ، و إذن فكلما أسرعنا فى الكشف عن هذه الغوامض كان أليق وأوفق وأنفع للأمر وللعمل الذى سنقوم به ، حتى ينفصل عنا كل ضعيف لايحتمل التجديد ، ولايبقى معنا إلا كل قوى مخلص يفدى بنفسه هذا السبيل القويم البديع » . وجاءت قرة العين ذات يوم فطرحت هذا الاقتراح الآتى على بساط البحث بين جماعة الأصحاب وقالت : إن ارتداد النساء فى الشريعة الإسلامية لايستوجب حد القتل ، بل يستلزم بذل النصائح اللازمة لهن واستتابتهن وتفهيمهن مايرجع بهن إلى ورد التوبة والإيمان . فلايتعسر على إذن أن أميط اللثام وأرفع الستار عن أسرار هذه المسائل حين غياب القدوس عن باحة المجلس ، حتى إذا وقعت تصريحاتى موقع القبول وصادفت محل الاستحسان من الأحباب تم المرام و بلغنا الغاية ، و إلا فعلى القدوس أن يباشر نصحى لأعود عن هـذا الجنون ، وأنفض اليد من الكفر ، وأتوب وأرجع إلى أحضان الإسلام ، فاستحسن

الأصحاب هذا المقترح ، ولبثوا يتحينون سانح الفرص إلى أن ألم بحضرة بهاء الله زكام ، وتمارض القدوس ، فعند ذلك شرعت الطاهرة فى تفهيم الأحباء حقيقة المقصود ، وكشفت السر المكنون من تبديل الفروع وتغيير الأحكام . فلما رنت فى آذان الجميع هذه التصريحات ، دار التهامس والتناجى بينهم ، ففريق أعجب بأفكارها ، وآخر أخذ بأطراف انتقادها ، وذهبوا إلى القدوس يرفعون شكواهم منها إليه . فهدأ القدوس هياجهم ولطف من ثورتهم بلسان اللين والملاطفة ، وأرجأ الحكم الفاصل فى القضية إلى حين ملاقاتها واستطلاع الحقيقة منها . ولما أن وقعت الملاقاة والمقابلة بينهما تباحثا ملياً وقررا أخيراً أن يعودا إلى الاجتماع والبحث مرة أخرى . وقالت الطاهرة إنها ستلزمه الحجة وتقيم عليه البرهان القاطع ، وفى الميعاد المضروب اجتمعا وتحقق ماوعدت به الطاهرة من الإقناع والإلزام ، ولكن بالرغم من ذلك لم تهمد الضوضاء ، وماسكنت دمدمة الصاخبين الناقدين لرأى الطاهرة ، حتى كان من بعضهم أن جمع أمتعته وتناءى عنهم ولم يرجع إليهم .

« وفى أخريات الأمر تدخل حضرة بهاء الله فى المسألة وأبرز من أساليب الحكم ولطائف الحزم ماهدأ به روع الجميع ، وذلك أنه طلب إحضار المصحف الشريف ، فأحضر إليه أمام الجمع كله ، ففتحه وتلا سورة (الواقعة) وأخذ فى تفسيرها وتأويلها وأفاض فى شرحها وبيانها (أى مايوافق اقتراح تغيير دين الإسلام) وأن القرآن نفسه أشار إلى ذلك وأنبأ بوقوعه حتى اطمأنت قلوب الجميع وعلموا بأنه لابد من « وقوع هذه الواقعات » وحدوث هذه الحادثات كلها .

« وفى خاتمة المجلس تقرر تحرير هذه المسألة ورفعها إلى حضرة الباب ما كو والتماس إصدار الحكم الفاصل الجازم منه فيها ، وهذا ماقد كان . ومما علم فيما بعد وتبين أن خواص الأحباء كانوا على حق ، وأن رأى حضرة بهاء الله كان متفقاً على حكم حضرة الباب على (وجوب تغيير الشريعة) وأن القدوس وباب الباب

والطاهرة كانوا أيضاً قائمين على سواء السبيل وجادة اليقين فى إدراكهم وفهمهم (أسرار الأمر).

« أما الذين ضاقت صدورهم ولم تقسع لقبول هذا التجديد العظيم فإنهم قاموا بتشويش الأفكار و إفساد الناس على زمرة الأحباء ، ونجم عن ذلك مانجم من إغارة عصابة من المسلمين عليهم واعتدائهم بالضرب والسلب وطردهم من الجهة ، فتفرق عند ذلك جمع الأحباء إلى ثلاث فرق : ففرقة سارت بركاب حضرة بهاء الله متجهة إلى طهران ، وأخرى ذهبت مع القدوس والطاهرة إلى مازندران وثالثة تحت لواء باب الباب وانتحت أولا سمت مازندران ثم ولجت آخراً ناحية خراسان ، ولكن الجميع أجمع العزم وعقد النية على تنفيذ ماتقرر فى (مؤتمر بدشت) هذا من التجمع ولم الشعث فى ماكو ، والعمل على إنقاذ حضرة الباب » .

انتهى بالحرف من كتابهم (الكواكب الدرية) المطبوع فى القاهرة سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) من ص ٢١٨ إلى ٢٢٣ .

المناظرات بين (الباب) وعلماء الشيعة :

وفى خلال اعتقال الباب أو تحديد محال إقامته كانت الحكومة الإيرانية تجمعه بعلماء الشيعة ومجتهديها فيناقشونه و يناظرونه على غير طائل ، وكان يكتب لهم كتابات حول الموضوعات التى يدور عليها الجدل ، قال أكبر دعاة البهائية أبو الفضائل الجرفادقانى فى (الحجج البهية) صفحة ١٢٨ :

« ولعمرى لم يجدوا مغمزاً فى آياته ، وشبهة فى كلماته ، إلا أنهم قالوا : فيما مايخالف قواعد النحو والصرف ، ويخرجها عن حدود الفصاحة والبلاغة . وهو — جل ذكره — أفحمهم بما جاء مثله فى القرآن والسفر القديم » وقد أكملنا البحث فى هذا المقام فى كتاب (الفرائد) مبسوطاً مفصلا » .

وفى كتابهم (مقالة سائح فى البابية والبهائية) الذى طبعه محفلهم الروحانى بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٤١ (١٩٢٢) صفحة ١٥ : « و بعد وروده

(أى ورود الباب) على تبريز بأيام ، عقدوا مجلساً وجاءوا بالباب إلى ذلك المجلس ، وحضره من العلماء الأعلام نظام العلماء ، وملا محمد مامقانى ، وإمام الجمعة ، وشيخ الإسلام على أصغر و بعض آخر من المجتهدين . وأخذ أعضاء المجلس يسألونه عن دعوته ، فأجابهم بأنه (المهدى) . فعند ذلك عم الهياج ... وطالبوه بالبرهان ، فتلا الآيات دون تأمل وقال : إن هذا برهان عظيم لبقائه إلى الأبد . فما كان جوابهم إلا الاعتراض على الكلام بأنه غير منطبق على القواعد النحوية فاحتج عليهم بالقرآن ، وأتى منه بعدة شواهد لاتنطبق على تلك القواعد ، وفى أثر ذلك تفرق المجلس ، ورجع الباب إلى مستقره . وكان حاكم أذربيجان فى ذلك العهد ولى العهد ، فلم يصدر منه أمر بشأن الباب » .

ثم قال فى صفحة ١٨ : « عند ما وصلت دعوى المهدوية إلى مسامع فحول المجتهدين والعلماء المتبحرين قاموا على المنابر صارخين صائحين : إن من ضروريات الدين المبين ، بل من أقوى دعائم المذهب الجعفرى (غيبوبة) الإمام المعصوم الثانى عشر عليه السلام (ثم ذكروا علامات ظهوره بحسب النصوص التى يتوارثونها وقالوا) : ما الذى جرى بجابلقا ، وأين ذهبت جابلصا ، وما معنى الغيبوبة الصغرى ، وماذا حدث للغيبوبة الكبرى ؟ وما معنى أقوال حسين ابن روح ، وأين ذهبت مرويات ابن مهزيار ، وكيف نعمل بطيران النقباء والنجباء ، و إلى أين نذهب بفتوح الشرق والغرب ، وأين حمار الدجال ، ومتى ظهر السفيانى ؟ وأين العلائم المذكورة فى أحاديثنا ؟ فلا يخلو الحال : إما أن ننكر أحاديثنا ونتبذ المذهب الجعفرى ، ونحسب النصوص الصريحة للإمام أضغاث أحلام ، وأما إن نقضى بتفكير هذا الشخص بل نعد محوه أعظم فريضة .

الحكم على (الباب) بالإعدام :

وحكم على (الباب) بالإعدام ، ونفذ الحكم فى تبريز يوم ٢٨ شعبان سنة ١٢٦٦ ، فأخرجوا جثته إلى خارج المدينة ووضعوها على حافة الخندق ، ثم

تفقدوها فى اليوم التالى فلم يجدوها ، وقيل إن الوحوش أكلتها ، فاحتج مجتهدو الشيعة بذلك على فساد دعوى الباب بأنه هو المهدى لأن المقرر عندهم أن أجساد الأئمة الإثنى عشر محفوظة ومصونة عن السباع والحشرات ولا يعتريها البلى ، وأنهم أحياء بعد موتهم فأجسادهم لاتبلى . فإذا كانت جثة الباب قد أكلتها الوحوش فهذا دليل على كذبه فى دعوى المهدية . وقابلهم أتباع الباب بادعاء أنهم اختطفوا الجثة بالليل وأنهم وضعوها داخل صندوق فى مصنع رجل ميلانى ونقلوها من أذربيجان إلى جهة مجهولة .

استغلال البهاء تركة الباب وخلافته :

وزعم البهائية أيضاً فى كل كتبهم (ومنها مقالة سائح صفحة ٣٠) أن الباب لما علم بأنه سيعدم جمع مكتوباته وخاتمه ومقلمته فى جعبة ، وأرسلها مع مفتاحها بصحبة شخص اسمه ملا باقر ليسلمها إلى ملا عبد الكريم القزوينى فى مدينة قم . فلما وصلت الجعبة إلى الملا عبد الكريم أعلن أنه مأمور بإيصالها إلى ميرزا حسين على المازندرانى (١٢٣٣ — ١٣٠٩) .

وبسبب ذلك انتحل حسين على المازندرانى اسم (بهاء الله) ونازع كبار البابيين مقام الرآسة عليهم ، وأكثرهم بل كل المتخلفين منهم فى إيران — لم يسلموا له بذلك ، وظلوا على بابيتهم فلم يدخلوا فى البهائية .

وحتى أخوه يحيى المازندرانى خالفه وادعى أنه أحق بالرآسة منه ، وانفصل عنه لما كانا منفيين فى (أدرنة) فلم ينتقل معه إلى عكا ، واختار أن يكون منفاه الجديد فى بلدة ماغوسة فى جزيرة قبرس . فلم يبال حسين المازندرانى بكل ذلك وأصر على دعوى أن الباب كان (نقطة) وأنه (أى الباب) كمحمد وعيسى وموسى إنما جاء ليبشر بمجىء البهاء ، وهذه هى مهمة جميع الأنبياء بظهور الله فيه ، وأن الباب اشتق من كلمة (بهاء الله) ثلاثمائة وستين اشتقاقاً ، إلى غير ذلك من السخافات التى بنى عليها أساطيره .

عقيدة البهائيين :

استقرت عقيدة البهائيين — كما قررها لهم البهاء حسين على المازندرانى (١٢٣٣ — ١٣٠٩) فى ألواحه ووحيه ، وكما فسرها دعاته فى كتبهم ونشراتهم — على أن الله ليس له أسماء ولا صفات ولا أفعال ، وأن كل مايضاف إليه من أسماء وصفات وأفعال هى رموز لأشخاص ممتازين من البشر قديماً وحديثاً هم مظاهر أمر الله ومهابط وحيه فى زعمهم . وآخرهم وأكملهم هو مفسر سورة الواقعة فى مؤتمر بدشت ميرزا حسين المازندرانى الذى لقب نفسه (بهاءالله) ، فهو عند نفسه وعند أذنابه مظهر الله الأكمل ، وهو الموعود ، ومجيئه الساعة الكبرى ، وقيامه القيامة ، ورسالته البعث ، والانتماء إليه الجنة ، ومخالفته هى النار . وعندهم أن الديانات السابقة والأنبياء ، كانت مهمتهم التبشير بسخافاتهم ، وأن ظهوره هو ظهور جمال الله الأبهى . وأن أتباعه — حتى الذين يمتازون عليه بالعلم والذكاء والخبث ، مثل أبى الفضائل الجرفادقانى — كلهم يدعونه « ربنا » ، وليس ذلك تعظيما له ، ولا اعتقاداً بتفوقه عليهم ، ولكن بغضاً فى الإسلام ، وحقداً عليه ، وتآمراً مع ربهم على الكيد للرسالة المحمدية .

كتاب (الإيقان) :

ولقد نسبت إلى ربهم كتب يؤمنون بأنها هى وحى الله ، ومنها — ولعله أولها — كتاب (إيقان) الذى طبعه محفلهم المركزى فى مصر سنة ١٣٥٢ ، وهو فى ٢٠٠ صفحة ، ويقول عنه أعظم دعاتهم الجرفادقانى فى رسالته الثانية من مجموعة رسائله المطبوعة بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٣٩ (١٩٢٠) صفحة ٣٦ عند كلامه على « المعاد والرجعة » :

« إن إرادة حضرة المحبوب — لازالت أقطار الأرض منورة بأنوار وجهه ، ورياض العالم مزينة بأزهار أمره — قد تعلقت باتحاد كلمة أوليائه ، وأمره المبرم قد نفذ باتفاق قلوب أحبائه ، فعليك بالاغتراف من معين (الإيقان) الذى

من قلم الرحمن ، هذه الأزمان ، فإنه — مع وجازته — تبيان الزبر والألواح ، ومترجم كتب الله فالق الإصباح . به فلك ختم النبيين ، وحل عقد إشارات السابقين . فابذل غاية الجهد والتدبر فى هذا الكتاب المستطاب ، ليلهمك الصواب فى كل باب ، واحفظ قلوب الأحباب ، عن نطاق الشك والارتياب ، إن (ربنا) لبالمرصاد ، وهو ولينا فى المبدأ والمعاد » .

تنازع الأخوين على كتاب (الإيقان) :

ومن العجيب أن كتاب (إيقان) هذا يتنازعه عدو الله البهاء المازندرانى وأخوه المخالف له يحيى المازندرانى ، فكل منهما يدعيه لنفسه . ومعلوم أنهما كانا معاً فى إيران ، وانتقلا معاً إلى العراق ، ثم إلى القسطنطينية وأدرنة ، فلما تقرر نفيهم إلى عكا سنة ١٢٨٥ أبى أخوه يحيى أن يبقى فى عشرته ، وتمرد على ربوبيته ، وطلب الانفصال عنه ، فأرسل إلى قلعة ماغوسة فى جزيرة قبرص ، ومن هناك ادعى يحيى أن كتاب (الإيقان) من إنشائه باللغة الفارسية ، وقال أخوه حسين (البهاء) : بل هو من وحيي وتنزيلى ، حتى قال فى (الإشراق التاسع) ص ١٠٤ من ترجمة الإشراقات المطبوعة فى القاهرة سنة ١٣٤٣ مع (نبذة من تعاليم حضرة بهاء الله) :

« ولما وردنا العراق ألفينا أمر الله خامداً ، ونفحات الوحى مقطوعة ، وشاهدنا الأكثرين جامدين ، بل أمواتاً غير أحياء . لذا نفخ فى الصور مرة أخرى ، وجرت هذه الكلمة المباركة من لسان العظمة (نفخنا فى الصور مرة أخرى ، وأحيينا الآفاق من نفحات الوحى والإلهام) . والآن قد خرجت نفوس من خلف كل حجاب مسرعة تقصد ضر هذا المظلوم ، ومنعوا هذه النعمة الكبرى وأنكروها . فيا أهل الإنصاف لو ينكر هذا الأمر فأى أمر فى الأرض قابل للاثبات ، أو لائق للاقرار ؟

« ولقد اهتم المغرضون بجمع آيات هذا الظهور وأخذوها بالتملق ممن وجدوها

عنده . وكانوا يتظاهرون عند أهل كل مذهب من المذاهب أنهم منهم . قل موتوا بغيظكم ، إنه أتى بأمر لاينكره ذو بصر وذو سمع وذو دراية وذو عدل وذو إنصاف . يشهد بذلك قلم القدم فى هذا الحق المبين » .

وقد علق ابنه (ع . ع = عبد البهاء عباس) على جملة « وأخذوها بالتملق ممن وجدوها عنده » بقوله : حتى يسرقوا منها و يسندوها إلى أنفسهم كما أسندوا « سورة الملوك » و « رسالة الإيقان » إلى يحيى فى مكتبة باريس ومكتبة لندن . فالذى غاظ ربهم البهاء وعبده عبد البهاء وسائر عبيد البهاء أن يكون « إيقان » فى مكتبة باريس وفى المتحف البريطانى على اسم يحيى أخى البهاء .

مجموعة الألواح :

ومما يسميه البهائيون وحياً من ربهم البهاء كتاب يسمونه (مجموعة الألواح المباركة) وهو مطبوع بأمر عبد البهاء فى مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠م) وقد جاء فى ص ١٦١ منه فى لوح من ألواحه عنوانه (هو الناظر من أفقه الأعلى) مخاطباً شخصاً اسمه عبد الوهاب :

« ياوهاب ، إذا اجتذبك ندائى الأحلى ، وصرير قلمى الأعلى ، قل : إلهى إلهى ، لك الحمد بما فتحت على وجوه أوليائك أبواب الحكمة والعرفان . . . أى رب ، أسألك بالذين أسرعوا إلى مقر الفداء شوقاً للقائك ، ومامنعتهم سطوة الأمراء عن التوجه إليك بما أنزلته فى كتابك ، ثم بالذين أقبلوا إلى أفقك بإذنك وقاموا لدى باب عظمتك ، وسمعوا نداءك ، وشاهدوا أفق ظهورك ، وطافوا حول إرادتك ، أن تقدر لأوليائك مايؤيدهم على ذكرك وثنائك وتبليغ أمرك . إنك أنت المقتدر على ماتشاء ، لا إله إلا أنت الغفور الرحيم . ياقلمى الأعلى ، بدّل اللغة الفصحى باللغة النوراء » .

وهذا الخطاب — وكثير غيره من أمثاله — مبنى على أن البهاء حسين على المازندرانى هو الله ، وأنه لا إله إلا هو الغفور الرحيم المقتدر على مايشاء و إن أساس

عقيدتهم أن الله ليس له وجود الآن إلا بظهوره فى مظهر البهاء . وكان يظهر قبلا بمظاهر تافهة فى الديانات السالفة ، لكنه بظهوره فى البهاء الأبهى ، بلغ الكمال الأعلى . وإنه ليس لله — عندهم — أسماء ولا صفات ولا أفعال ، إلا مايتصف به من صفات مظهره وهو البهاء ، ومايصدر عن البهاء من أفعال إلهية .

محاربتهم اللغة المشتركة فى العالم الإسلامى :

وقبل أن ننتقل إلى آفاق أخرى من آفاق النحلة البهائية ، أحب أن أوضح الكلمة الأخيرة من لوح (هو الناظر من أفقه الأعلى) ، فإنه يقول فى خاتمته : « ياقلمى الأعلى ، بدّل اللغة الفصحى ، باللغة النوراء » . وهذا خبىء له تفصيل : إن الباب والبهاء نشآ فى بيئة عمل فيها العاملون منذ ألف سنة — ولاسيا الدولة الصفوية فى أوائل القرن العاشر الهجرى — على تغيير رسالة الإسلام باسم الإسلام ، وإيجاد دين آخر غير الدين المحمدى الأصيل ، كما تلقاه الصحابة والتابعون والتابعون لهم بإحسان . غير أن أولئك اللاعبين كانوا يحرصون — مع مايسعون إليه من التغيير — على أن يبقى للإسلام اسمه . فلما أعلن البابيون فى مؤتمر بدشت سنة ١٢٦٤ انسلاخهم عن الإسلام اشتد بهم الحرص على محاربته من كل ناحية ، ومنها لغة الإسلام العالمية وهى لغة القرآن (العربية) ، فكان من عناصر دعوتهم استنكار عالمية اللغة العربية وكونها اللغة المشتركة — لغة الصلاة والعلوم الإسلامية — فى العالم الإسلامى فتآمروا على قطع الصلة بين المسلمين وتراثهم العلمى الذى تعاون أعلام المسلمين على تكوينه ذخيرة ثمينة للإنسانية فى بضعة عشر قرناً ، ولذلك قام عدو الله البهاء بالدعوة إلى إيجاد لغة أخرى تكون لغة الأمم بزعمه ، وهو يعلم أن لغته الفارسية لاتصلح لذلك ، لأنها — كما قال عنها علامة الدنيا أبو الريحان البيرونى : « لاتصلح إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية » وكان أحب إليه أن يهجى بالعربية على أن يمدح بالفارسية . ثم إن الفارسية تحوى ولو قليلا من التراث الإسلامى ،

وهذا ماتريد البهائية أن يزول من الدنيا ، لذلك أخذ البهاء يدعو إلى اختراع لغة صناعية جديدة ، والبهائيون يفتخرون على دعاة لغة الاسبرانتو بأن ربهم قد سبق إلى هذه الفكرة ودعا إليها قبل أن تظهر الدعوة إلى لغة الاسبرانتو . ولهذا الموضوع تفصيل آخر ليس هنا موضعه .

عقيدتهم فى الله وأنبيائه :

يقول عبده وداعيته الأكبر أبو الفضائل الجرفادقانى فى ص ٥٤ — ٥٦ من كتابه (الدرر البهية) المطبوع بمطبعة الموسوعات بالقاهرة سنة ١٣١٨ (١٩٠٠) :

« نحن معاشر الأمة البهائية نعتقد بأن مظاهر أمر الله ومهابط وحيه هم بالحقيقة مظاهر جميع أسمائه وصفاته ، ومطالع شموس آياته و بيناته . لاتظهر صفة من صفات الله تعالى فى الرتبة الأولية إلا منهم ، ولايمكن إثبات نعت من النعوت الجلالية والجمالية إلا بهم . و « لايعقل » إرجاع الضمائر والإشارات فى نسبة « الأفعال » إلى الذات إلا « إليهم » . لأن الذات الإلهية والحقيقة الربانية غيب فى ذاتها ، متعال عن الأوصاف بحقيقتها ، منزه عن النعوت بكينونتها ، لاتدركها العقول ولاتبلغ إليها الأفهام ولاتحويها الضمائر ولاتحيط بها المدارك . فلا توصف بوصف ، ولاتسمى باسم ولاتشار بإشارة ، ولاتتعين بإرجاع ضمير ، لكن منزع كل هذه هو المدارك الحسية وهى فوق الإدراك ، لأن كل مدرك محاط ، وكل محاط محدود ذو وضع ، وهذا من صفات الجسم والجسمانيات ، تعالت عنه المجردات فكيف الذات الإلهية والحقيقة النورانية . فكل ماتوصف به ذات الله و يضاف و يسند إلى الله — من العزة ، والعظمة ، والقدرة ، والقوة ، والعلم ، والحكمة ، والإرادة ، والمشيئة وغيرها من الأوصاف والنعوت — يرجع بالحقيقة إلى مظاهر أمره ومطالع نوره ، ومهابط وحيه ومواقع ظهوره . وقد رقمت هذه المسألة من القلم الأعلى ، مبينة مفصلة فى ألواح ربنا الأبهى ، فأظهر الله تعالى جواهر أسرارها فى الصحف المطهرة ببيانه الأحلى » .

تفضيلهم ضلالتهم على جميع الأديان :

ويقول هذا الداعية البهائى الأكبر أبو الفضائل الجرفادقانى فى ص ٩٨ من من كتابه الآخر (الحجج البهية) الذى طبعه المحفل البهائى الروحانى فى القاهرة بمطبعة السعادة سنة ١٣٤٣ ﻫ ١٩٢٥ م .

« اعلموا أضاء الله وجوهكم البهية بنوره الوضاح ، وأيد كلمتكم العالية بآيات اليسر والنجاح ، أن هذه الأدلة والبراهين تثبت حقية مظهر أمر الله فى زماننا هذا أكثر وأوضح وأجلى مما كانت عليه حقية مظاهر أمر الله (أى الأنبياء) فى الأزمنة السابقة .

« إن هذه البراهين قائمة ومتوفرة فى هذا الظهور الأعظم الأسنى ، والطلوع الأفخم الأبهى ، ونعنى به ظهور سيدنا (البهاء) جل اسمه وعز ذكره ، أكثر مما توفر فى الظهور من سبقه من الأنبياء ، بحيث لو أنكر أحد هذا الظهور الأعظم وأنكر أدلته وبراهينه الواضحة الجلية لا يمكنه إثبات حقية دين من الأديان الماضية » .

إنكارهم إعجاز القرآن إلا فى البشارة بالبهاء :

وبعد أن استعرض الأنبياء السابقين قبل موسى ، ثم أنبياء التوراة وديانة المسيح — مدعياً أن إثبات مقامهم فى الظهور الإلهى ، أضعف من إثبات مقام البهاء فى الظهور الإلهى — قال فى آخر ص ١١٨ وما بعدها إلى ص ١٢٢ :

« ثم انظروا أيها الأحباء فى أمر الإسلام ، والأدلة التى يريد المسلمون أن يستدلوا بها على حقية سيدنا الرسول عليه السلام .

« أما الكتاب السماوى والوحى الإلهى — باعتقادهم فيه — فهو القرآن الشريف والمصحف المجيد ، وهو قد كتبت آياته وحفظت سوره فى زمان الرسول عليه السلام ، ودونت ورتبت فى زمان خلفائه فى مجمع من أكابر أصحابه وأوليائه ، واتفقت الملل الإسلامية على اختلافهم وتفرقهم شيعاً ، ومذاهب على مصحف

واحد من دون اختلاف كلمة وتغير حرف . إلا أنه لا يزيد على مجلد واحد ، أى ثلاثين جزءاً ، نزلت على النبى عليه السلام نجوماً متفرقة فى مدة ثلاث وعشرين سنة . وسيدنا النبى — كما هو معلوم عند الجميع — كان من قريش ، أى أشهر قبائل العرب فصاحة وبلاغة ، حتى عدّ أكثر علماء الإسلام فصاحة بيانه فى القرآن ، حجة بالغة ، وبلاغة كلامه معجزة دامغة . ولكننا فندنا هذا الرأى فى كتب عديدة ، وأظهرنا سبب إعجاز الوحى السماوى ووجوه تمييزه عن كلام البشر بما لم يبق شك فيه لأرباب البصائر والنظر .

« وأما نفوذ كلمته وغلبة ديانته فلم تظهر ظهوراً تاماً فيما عدا العرب من الفرس والخزر والترك والهنود إلا فى القرن الثانى من الهجرة . الخ .

إنكارهم المعجزات المحمدية إلا فى أحاديث (عكا) :

« وأما معجزاته وعجائبه — مما اقترح عليه أعداؤه منها ، ويحاول علماء الإسلام أن يثبتوها له عليه السلام — فينفيه صريح آيات القرآن . . (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . .) . وأمثال هذه الآية كثير فى الكتاب ، وقد استوفينا الكلام ، فيها فى (الفرائد) وفى (الدرر البهية) وفى فصل الخطاب .

« وأما ماظهر منه عليه السلام من المعجزات — من غير اقتراح — فليس لها مصادر إلا روايات وأحاديث قلما يمكن الاعتماد عليها إلا من باب حسن الظن !

« ولكنه يوجد فى القرآن الشريف والأحاديث الصحيحة المروية عنه عليه السلام إخبار عن الأمور الآتية ، مما لا يستهان به ولا ينكره إلا المجادل المتعنت . فقد أخبر عليه السلام بجميع حالات أمته ، وما دارت عليه من الأطوار من الصعود والنزول والنشاط والخمول . . . . وكذلك أخبر عن الأمور الحادثة فى انقضاء الدهور : من ظهور المهدى ، ونزول روح الله ، وقيام الأنبياء الكذبة ، وظهور الدعاة الكاذبين ، والقيامة الصغرى والقيامة الكبرى وأشراطها وعلاماتها ،

كل هذه الأمور أيضاً بجزئياتها وكلياتها ومواقعها وميقاتها بما لا يمكن أن يدركه الإنسان بالمدارك البشرية ، ويخبر عنه بالأنظار السياسية ، بل لم يشاهد مثله فى آثار من سبقه من المظاهر القدسية .

« . . . وليس مرادنا من الأحاديث الصحيحة ما اصطلح عليه علماء الإسلام من الشيعة والسنية ، فإن أهل السنة والجماعة يعتبرون أن الحديث الصحيح مايوافق مذهبهم والراوى على مذهبهم ، ويضعفون كل حديث دونه مهما كان راوى الحديث ثقة وأميناً ، وهكذا علماء الشيعة لايعتبرون أخبار من لم يكن على طريقتهم ومذهبهم .

ثم قال فى آخر ص ١٢٣ وما بعدها : «فإذا عرفتم أيها الأبرار كيفية انتشار الديانات السابقة ومقدار ماعند أصحابها من الأدلة ، فاعلموا — أفاض الله عليكم نوراً من ملكوته الأبهى — أن تلك الأدلة المذكورة تدل على (هذا الظهور) الأعلى دلالة أظهر وأجلى وأتم وأقوى مما كانت تدل على الديانات الأخرى (أى البوذية والبرهمية واليهودية والمسيحية والإسلام) بحيث لو أنكرها أحد أصحاب تلك الديانات يستحيل عليه إثبات حقية دينه . فلنتكلم فى نسبة كل دليل من الأدلة المذكورة إلى (هذا الظهور) الأعظم . . ليظهر الفرق جلياً لأهل الإيمان .

تبجحهم بالوحى البهائى :

أما الكتاب الإلهى — أى الوحى السماوى — فمع ما كانت تصادف ربنا الأبهى طول أيام ظهوره من البلايا والمصائب الجسيمة والدواهى العظيمة مما ليس هنا محلى ذكره . ومع أنه لم يكن من أهل العلم ، ولم يدخل المدارس العلمية ، فقد ملأ الآفاق من ألواحه المقدسة الفارسية والعربية ، مما لا نبالغ إذا قلنا إنها تزيد على ما عند ملل الأرض جميعاً من كتبهم السماوية وصحفهم الإلهية .

« وخلاصة القول أنه جرت فى مدة أيامه المباركة من قلمه الأعلى وبيانه الأحلى أربعة أنهار من تلك المعارف الإلهية والحكم السامية السماوية ، ماحييت

به القلوب ، وابتهجت به النفوس ، وقامت به الأموات ، وانشرحت به الصدور وهذه هى الأنهار الأربعة الجارية من عرش الله فى الجنة العليا ، والينابيع الفائضة بماء الحياة فى الملأ الأعلى ، كما بشرت به حفظة الوحى ، وأخبر الله عنه بلسان موسى « يهطل كالمطار تعليمى ، ويقطر كالندى كلامى ، وكالطل على الكلأ ، وكالوابل على الأعشاب » .

هلاك البهاء وقيام عبده بعده :

« وأما الفرع الكريم ، المتشعب من الأصل القديم (يعنى ابنه وعبده عبد البهاء عباس) والنور الساطع من سماء إرادة ربنا الرحمن الرحيم ، فكاد أن يعجز قلم الكاتب البليغ عن وصف ألواحه المقدسة وبياناته ، وتشخيص ماهية أخلاقه المعجزة وحالاته ، وها هى ألواحه الكريمة التى تربو على الآلاف منثورة فى الأقطار ، انتثار أوراق الزهور فى الربيع من الأشجار ، ونفحات قلمه السيال فائحة فى الأمصار ، فوحان نسيم الصبح فى الأسحار . وإنى فى سنة ١٨٩٤ من الميلاد (١٣١٢ هـ) لما سافرت إلى الأرض المقدسة ، وساعدتنى العناية الإلهية ، للتشرف بالحضرة القدسية ، قد دهشت وتحيرت فيما شاهدت من عظيم أطواره وآثاره . . . حتى ملئت من ألواحه المقدسة جميع الآفاق ، وبلغ نداء ربه الأبهى إلى السبع الطباق » .

هذه صورة جامعة وجيزة للبهائية ، وما تقدمها قبلها من مساعى الكيد للدين الإسلامى ابتغاء تغييره وتحويل أهله عنه ، ومقتطفات من نصوص القوم مأخوذة من كتبهم ، مدلولا عليها بصفحاتها . ومن شاء المزيد على ما تقدم فليتخذ ما أوردناه أساساً وليتوسع بعد ذلك بما شاء من المصادر التى سمينا أمثالها . وأظن أن فيما أوردته ما يكفى للحكم على هذه الضلالة بما تستحقه هى والذين سموا لها ، والله حسيبهم فى الدنيا والآخرة .

القاديانية

لقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة ، وأجمعت الأمم الإسلامية التى لاتجتمع على ضلالة ، على أن دين الإسلام دين البشرية جمعاء كتب الله له البقاء إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، لاينسخه دين ولايبطله جور جائر ولا جاحد مهما تذرع بمعاول الهدم ، لأنه حق ، والحق دائماً منصور ، كما أن الباطل دائماً مهزوم ، ذلك لأن الله أقام الوجود على دعائم الحق ، فمن سار على سننه انتهى أمره إلى ظفر ونجاح ، ومن خرج عليه سار عليه الوجود ففضحه ليسأر إلى نفسه ، وانتهى أمره إلى فشل وخسران ، وهذا معنى قول الله تعالى : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ(١) » .

كما ثبت ثبوتاً قطعياً أن رسالة سيدنا محمد خالدة ، وأن الله تعالى ختم بها النبوات والرسالات ، ولا أدل على ذلك من أن الكثيرين قد ادعوا النبوة من بعده فتلاشت نبوتهم وانكشف أمرهم ، وصارت كفقاقيع الماء تظهر ثم تختفى ، من ذلك قول الله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ(٢) » .

ومن الأحاديث الصريحة فى هذا المعنى ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ » فشق ذلك على الناس ، فقال : « وَلَكِنِ الْمُبَشِّرَاتُ » قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : « رُؤْيَا الْمُسْلِمِ وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ » رواه الترمذى .

ومنها حديث عبد الله بن عمر : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال : « أَنَا مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ ـ ثلاثاً ـ وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي » رواه الإمام أحمد .

---

(١) الأنبياء الآية : ١٨ (٢) الأحزاب الآية : ٤٠

ومنها حديث أبي هريرة : « وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخَتَمَ بِيَ النُّبُوَّةَ » رواه مسلم ، إلى غير هذا من الأحاديث الصريحة الصحيحة المختلفة الأسانيد .

و بعد هذه الأحاديث إجماع الأمة على أن من ادعى النبوة بعد رسـول الله ﷺ فهو من الضالين المضلين ، وكافر بالله تعـالى ، و إذا مات يدفن فى مقابر المشركين ومن هؤلاء « غلام أحمد القاديانى » فقد زعم هذا الغر أنه يوحى إليه (وما أشبه دعوته بدعوة مسيلمة الـكذاب ، والأسود العنسى) ! ! .

أخذ هو وأتباعه يؤولون الآيات القرآنية تأويلا يجافى العقل والمنطق ، منها أن معنى خاتم النبيين : بمعنى زينة ، مأخوذ من الخـاتم الذى هو زينة الملابس ، ومنها : « اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِـكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ [(١)] » أن الفعل مضارع ، وهو يدل على الحال والاستقبال ، وعلى هذا فلايدل على انقطاع النبوة .

هذه هى أكبر حججهم ، وإن من يقرأ كتب اللغة مثل المصباح والمختار الصحيح ، وصاحب القاموس ، وصاحب أساس البـلاغة وغيرها ، يتبين له أن معنى قوله خاتم النبيين زينتهم وأفضلهم باطل ، وأما الفعل المضارع فإنه مستعمل فى المـاضى للدلالة على التجدد فى المـاضى ، لأن هذه الآية وما يماثلها قد نزلت والوحى الذى تتحقق به الرسالة لم يزل جارياً ، والأحكام التى تنتظم بها الشريعة ويـكمل بها الدين ، ما زالت تنزل على حسب ما تقتضيه الحـكمة . وقد استعمل كثيراً فى القرآن مع القرينة على ذلك ، مثل : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وإسماعيلُ [(٢)] » وقوله تعالى : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً [(٣)] » .

هذا ومما يدل على أنه من إخوان المسيح الدجال وأن مايدعيه زور وبهتان ، أنه زعم فى تأليفه المسمى (إعجاز أحمد) أن من علامات صدقه سـير القطار بين

(١) الحج الآية ٧٥ (٢) البقرة الآية ١٢٧ (٣) يوسف الآية ٣٦ .

الحرمين الشريفين ، يقول هذا وهو لم يدخل الحرمين الشريفين ولو لأداء فريضة الحج ، وإلى الآن لم يسر القطار بين مكة والمدينة .

ثانياً — من آيات كذبه أنه قد رغب فى التزوج بفتاة من بنات بعض أقاربه وسبق إلى ظنه أن والدها لا يحجم عن تزويجه إياها ، وعزموا على أن يزوجوها برجل غيره ، فلما بلغه هذا العزم زعم أنه أوحى إليه مرة أخرى أنه إذا تزوجها غيره يموت فى مدة لاتتجاوز ثلاث سنين ، ثم تصير الفتاة زوجاً له ، ولكن أهل الفتاةموقنون بأن غلام أحمد غير صادق فيما يزعم ، فزوجوا ابنتهم من رجل مسلم يدعى « ميرزا محمد سلطان » ودامت العشرة بين الزوجين واستمر فى حياة . وقد مات القاديانى فى ٢٦ من مايو سنة ١٩٠٨ . وبقى محمد سلطان يعيش مع زوجه عيشة راضية إلى مابعد سنة ١٩٢٠ . وهكذا صدق الله : « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ »(١) .

وإجمال القول أن النحلة القاديانية شعبة من الشعب التى انسلخت من الإسلام وأن منتحلها ومتبعيه ضالون ومضلون ، وأن دعواه أنه مسيح الدولة الإسلامية وأفضل من مسيح الدولة الإسرائيلية ، لم تستند إلى دليل ولا برهان . وقد كشفت ثورة الكونغو الأخيرة أن الأجانب استخدمت من هؤلاء من يروج هذه الدعوة وأغروها بالمال ، ليزعزعوا عقائد المسلمين هناك ويشككوهم فى دينهم ، لينضووا تحت لوائهم ، ويصرفوهم عن دينهم ، ويخلعوا على هذه الدعوة أسماء مزيفة يطلقون عليها منظمات دولية وثقافة أجنبية ، ولكن الله تعالى خذلهم وكشف عن سوء نياتهم ، قال سبحانه : « إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٢) .

ومن هنا يتبين للقارىء أن البهائية والقاديانية من سلالة الشيعة الضالين.

---

(١) آل عمران الآية ١٧٩ (٢) النحل الآيات ١١٦ ، ١١٧ .

الذين ليسوا بمؤمنين ، ومن الشيعة الزيدية وهم أتباع زيد بن على بن الحسين بن على كرم الله وجهه ، وفقههم مأخوذ من الكتاب والسنة والإجماع ، وآراؤهم قريبة من آراء أهل السنة ، ومذهبهم منتشر ببلاد اليمن وبعض البلدان الأخرى و يرون أن علياً أفضل من أبى بكر ، ولكنهم يقرون خلافتهما وأحقيتهما بالخلافة .

ومنهم أيضاً الإمامية : وهم الذين يعتقدون إمامة اثنى عشر من آل البيت ، وعصمتهم ونيابتهم عن الرسول ﷺ . أولهم الإمام على كرم الله وجهه ، ومنهم الحسن والحسين ، وزين العابدين على بن الحسن ، ومحمد الباقر بن زين العابدين ، وجعفر الصادق بن محمد الباقر . ومذهبهم مأخوذ من الكتاب والسنة ، وعن فتاوى أئمتهم ، ولا يعتبرون الإجماع حجة فى الدين إلا بكون على قائلا بما أجمع الصحابة عليه ، ولا يقولون بالقياس ، فأصول الدين عندهم الكتاب والسنة وفتاوى أئمتهم . وهذا المذهب منتشر ببلاد فارس ، وكبار علمائهم يقيمون بالنجف ، وهى بلدة بالعراق .

وقد طبعت وزارة الأوقاف فى السنين الأخيرة كتاباً لهم فى الفقه ، يسمى « المختصر النافع فى فقه الإمامية » من تأليف أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن الحلى المتوفى سنة ٧٧٦ هـ .

أما باقى الشيعة فهم بعيدون عن دين الإسلام كل البعد ، أو أقرب إلى الكفر من الإيمان فمنهم من يعتقد أن الخلافة كانت لعلى ، ولكن جبريل أخطأ وهؤلاء كفرهم ظاهر ، ومنهم من يطعن فى أبى بكر وعمر لا لنقص فيهما وإنما انتقاماً منهما ، لأنهما هما اللذان فتحا بلادهم وجعلوها تحت سلطان العرب وسموا بالرافضه لأنهم رفضو كل بيعة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم إلا لعلى ، وهذا إثم مبين و إن كانوا لم يخرجوا به عن الإسلام .

خطب مأثورة

خطبته ﷺ حينما قدم على أهل المدينة

قال ابن إسحق : كانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، ونعوذ بالله من أن نقول عن رسول الله ﷺ مالم يقل ، أنه قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« أَمَّا بَعْدُ : أَيُّهَا النَّاسُ فَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ تَعْلَمُنَّ وَاللهِ لَيُصْعَقَنَّ أَحَدُكُمْ ثُمَّ لَيَدَعَنَّ غَنَمَهُ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ ، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ رَبُّهُ لَيْسَ لَهُ تَرْجُمَانٌ وَلَا حَاجِبٌ يَحْجُبُهُ دُونَهُ ، أَلَمْ يَأْتِكَ رَسُولٌ فَبَلَّغَكَ ؟ وَآتَيْتُكَ مَالًا وَأَفْضَلْتُ عَلَيْكَ ، فَمَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ ؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يَمِيناً وَشِمَالًا فَلَا يَرَى شَيْئاً ثُمَّ لَيَنْظُرَنَّ قُدَّامَهُ فَلَا يَرَى غَيْرَ جَهَنَّمَ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَّقِيَ بِوَجْهِهِ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقٍّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ فَإِنَّهَا تُجْزَى الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ » .

خطبته صلى الله عليه وسلم فى آخر غزوة غزاها
وهى غزوة تبوك

ذكر البيهقى فى الدلائل والحاكم من حديث عقبة بن عامر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فاسترقد رسول الله ﷺ ليلة لما كان منها على ليلة ، فلم يستيقظ منها حتى كانت الشمس قِيدَ رمح[1] قال : « أَلَمْ أَقُلْ يَا بِلَالُ اُكْلَأْ[2] لَنَا الْفَجْرَ » . فقال : يارسول الله ذهب بى النوم الذى ذهب بك . فانتقل رسول الله ﷺ من ذلك المنزل غير بعيد ثم صلى بقية يومه وليلته

(١) القيد : بالكسر . المقدار . (٢) كلأه : رعاه وحفظه .

فأصبح بتبوك ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال :

أما بعد : « فإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ تَعَالَى وَأَوْثَقَ الْعُرَا كَلِمَةُ التَّقْوَى ، وَخَيْرَ الْمِلَلِ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَخَيْرَ السُّنَنِ سُنَّةُ مُحَمَّدٍ وَأَشْرَفَ الْحَدِيثِ ذِكْرُ اللهِ وَأَحْسَنَ الْقَصَصِ هٰذَا الْقُرْآنُ وَخَيْرَ الْأُمُورِ عَوَازِمُهَا ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَشْرَفَ الْمَوْتِ قَتْلُ الشُّهَدَاءِ ، وَأَعْمَى الْعَمَى الضَّلَالَةُ بَعْدَ الْهُدَى ، وَخَيْرَ الْأَعْمَالِ مَانَفَعَ ، وَخَيْرَ الْهُدَى مَااتُّبِعَ وَشَرَّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ وَالْيَدَ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَمَا قَلَّ وَكَفَى ، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى ، وَشَرَّ الْمَعْذِرَةِ حِينَ يَحْضُرُ الْمَوْتُ وَشَرَّ النَّدَامَةِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لا يَأْتِي الصَّلَاةَ إِلَّا دَبْراً[1] ، وَمِنْهُمْ مَنْ لا يَذْكُرُ اللهَ إِلَّا هُجْراً[2] . وَمِنْ أَعْظَمِ الْخَطَايَا اللِّسَانُ الْكَذُوبُ . وَخَيْرُ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ ، وَخَيْرُ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَرَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَخَيْرُ مَاوَقَرَ فِي الْقُلُوبِ الْيَقِينُ ، وَالِارْتِيَابُ مِنَ الْكُفْرِ ، وَالنِّيَاحَةُ مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَالْغُلُولُ[3] مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ ، وَالْكَنْزُ كَيٌّ مِنَ النَّارِ ، وَالشِّعْرُ مِنْ إِبْلِيسَ ، وَالْخَمْرُ جِمَاعُ الْإِثْمِ ، وَالنِّسَاءُ حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ ، وَالشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنُونِ ، وَشَرُّ الْمَكَاسِبِ كَسْبُ الرِّبَا ، وَشَرُّ الْمَآكِلِ مَالُ الْيَتِيمِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، وَإِنَّمَا يَصِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى مَوْضِعِ أَرْبَعَةِ أَذْرُعٍ وَالْأَمْرُ بِآخِرِهِ ، وَمِلَاكُ الْعَمَلِ خَوَاتِمُهُ ، وَشَرُّ الرَّوَايَا رَوَايَا الْكَذِبِ ، وَكُلُّ مَاهُوَ آتٍ قَرِيبٌ ،

---

(١) بالفتح وتسكين الباء : أي في آخر وقتها .

(٢) الهجر بضم الهاء : القبيح من الكلام . (٣) الغلول : الخيانة في الغنيمة .

وَسِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وقِتَالُهُ كُفْرٌ ، وَأَكْلُ لَحْمِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ . وَمَنْ يَتَأَلَّ عَلَى اللهِ يُكَذِّبْهُ ، وَمَنْ يَغْفِرْ يُغْفَرْ لَهُ ، وَمَنْ يَعْفُ يَعْفُ اللهُ عَنْهُ ، وَمَنْ يَكْظِمِ الْغَيْظَ يَأْجُرْهُ اللهُ ، وَمَنْ يَصْبِرْ عَلَى الرَّزِيَّةِ يُعَوِّضْهُ اللهُ ، وَمَنْ يَتْبَعِ السُّمْعَةَ يُسَمِّعُ اللهُ بِهِ (١) ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُضَعِّفِ اللهُ لَهُ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ يُعَذِّبْهُ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا » .

خطبته صلى الله عليه وسلم
فى حجة الوداع

الْحَمْدُ لِلهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ ، وَنَعُوذُ بِهِ مِن شُرُورِ أَنْفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَاشَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ ، وَأَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَأَسْتَفْتِحُ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ . أَيُّهَا النَّاسُ : اسْمَعُوا قَوْلِى فإِنِى لاأَدْرِى لَعَلِّى لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هٰذَا بِهٰذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا ، أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هٰذَا ، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هٰذَا . وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ وَقَدْ بَلَّغْتُ . فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا ، وَإِنَّ كُلَّ رِباً مَوْضُوعٌ ، ولٰكِنْ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ، قَضَى اللهُ أَنَّهُ لَا رِبَا ، وَأَنَّ رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ . وَأَنَّ

---

(١) أى إذا أظهر عمله للناس رياء ، فضحه الله يوم القيامة .

كلَّ دمٍ كانَ فى الجاهليَّةِ مَوْضُوعٌ ، وَإنَّ أَوَّلَ دِماَئِكُمْ أَضَعُ دَمُ ابْنِ رَبيعةَ ابْنِ الحَارِثِ — وَكانَ مُسْتَرْضَعاً فى بَنِي لَيْثٍ ، فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ — فَهُوَ أَوَّلُ مَاأَبْدَأُ بهِ مِنْ دِماَءِ الجَاهِلِيَّةِ ، أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ : إنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ بأَرْضِكُمْ هٰذِهِ أَبدًا ، وَلٰكِنَّهُ إنْ يُطَعْ فيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مِمَّا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ . أَيُّهَا النَّاسُ : إنَّ النَّسِيءَ[1] زِيَادَةٌ فى الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً ، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَاحَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَاحَرَّمَ اللهُ ، ويُحَرِّمُوا مَاأَحَلَّ اللهُ ، وإنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَإنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاَثٌ مُتَوَالِيَةٌ[2] وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِى بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ . أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ : فإنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ ، وَعَلَيْهِنَّ أَلَّا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، فإنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فى المَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، فإنِ انْتَهَيْنَ فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بالْمَعْرُوفِ ، وَاسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْراً ، فإنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ[3] لا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئاً ، وَإنَّكُمْ إنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بأَمَانَةِ اللهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَاتِ اللهِ ، فاعْقِلُوا أَيُّهَا الناسُ قَوْلِي فإنِّى قَدْ بَلَّغْتُ وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إنِ اعْتَصَمْتُمْ بهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا أَمْراً بَيِّناً ، كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ . أَيُّهَا النَّاسُ : اسْمَعُوا قَوْلِي وَاعْقِلُوهُ

---

(١) النسيء : التأخير فى الوقت . كان العرب يؤخرون بعض الأشهر الحرم فى أشهر أخر .
(٢) ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . (٣) عوان : معينات .

تَعْلَمُنَّ أن كلَّ مُسْلِم أَخٌ لِلْمُسْلِم ، وَأَنَّ المُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ فَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِم مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ ، فَلَا تَظْلِمُنَّ أَنْفُسَكُمْ ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ فَقَالَ النَّاسُ : اللَّهُمَّ نَعَمْ — فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اللَّهُمَّ اشْهَدْ[1] » .

تعزية رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل

كتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل يعزيه بابن له :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم . مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ . سَلَامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنِّى أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ[2] الَّذِى لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ . أَمَّا بَعْدُ : فَعَظَّمَ اللهُ لَكَ الأَجْرَ ، وَأَلْهَمَكَ الصَّبْرَ ، وَرَزَقَنَا وَإِيَّاكَ الشُّكْرَ ، ثُمَّ افْتَرَضَ عَلَيْنَا الشُّكْرَ إِذَا أَعْطَى ، وَالصَّبْرَ إِذَا ابْتَلَى . وَكَانَ ابْنُكَ مِنْ مَوَاهِبِ اللهِ الْهَنِيئَةِ ، وَعَوَارِفِهِ[3] الْمُسْتَوْدَعَةِ ، مَتَّعَكَ بِهِ فِى غِبْطَةٍ وَسُرُور ، وَقَبَضَهُ مِنْكَ بِأَجْرٍ كَثِيرٍ . الصَّلَاةَ وَالرَّحْمَةَ وَالْهُدَى إِنْ صَبَرْتَ وَاحْتَسَبْتَ[4] ، فَلَا تَجْمَعَنَّ عَلَيْكَ يَا مُعَاذُ خَصْلَتَيْنِ أَنْ يُحْبِطَ جَزَعُكَ صَبْرَكَ فَتَنْدَمَ[5] عَلَى مَا فَاتَكَ ، فَلَوْ قَدِمْتَ عَلَى ثَوَابِ مُصِيبَتِكَ ، قَدْ أَطَعْتَ رَبَّكَ وَتَنَجَّزْتَ[6] مَوْعُودَهُ ، عَرَفْتَ أَنَّ الْمُصِيبَةَ قَدْ قَصُرَتْ عَنْهُ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْجَزَعَ لَا يَرُدُّ مَيِّتاً وَلَا يَدْفَعُ حُزْناً ، فَأَحْسِنِ الْجَزَاءَ وَتَنَجَّزِ الْمَوْعُودَ ، وَلْيُذْهِبْ أَسَفَكَ مَا هُوَ نَازِلٌ بِكَ فَكَأَنْ قَدْ[7] .

---

(١) من رواية ابن هشام فى سيرته .

(٢) أى أحمد معك الله أو إليك بمعنى عندك . (٣) العوارف : النعم .

(٤) احتسبت بكذا أجراً عند الله : أنوى به وجه الله . (٥) أحبطه : أبطله .

(٦) تنجز حاجته واستنجزها : استعجلها ، والوعد : سأل إنجازه .

(٧) أى كأن قد نزل فالفعل محذوف وهذا كثير بعد قد .

من دعائه صلى الله عليه وسلم

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُوراً ، وَفِي صَدْرِي نُوراً ، وَفِي سَمْعِي نُوراً وَفِي بَصَرِي نُوراً . اللَّهُمَّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ وَسْوَاسِ الصَّدْرِ ، وشَتَاتِ الْأَمْرِ وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ . اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا يَلِجُ فِي اللَّيْلِ ، وَشَرِّ مَا يَلِجُ فِي النَّهَارِ ، وَشَرِّ مَا تَهُبُّ بِهِ الرِّيحُ وَشَرِّ بَوَائِقِ[1] الدَّهْرِ .

خطبة أبي بكر الصديق رضى الله عنه

حين بايع الناس البيعة العامة

حمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس : إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ماأطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلاطاعة لى عليكم . ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

خطبته رضى الله عنه يوم السقيفة

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : ياأيها الناس ، نحن المهاجرون ، أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأبسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادة فى العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ . أسلمنا قبلكم وقدمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا

(١) البوائق : المهلكات .

فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء . لاتدين العرب إلا لهـذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله .

وصية أبى بكر عند وفاته
لعمر بن الخطاب

إنى مستخلفك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله . إن لله عملا بالليل لايقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لايقبله بالليل ، وإنه لاتقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة ، باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لايوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً .

إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء ، وَذَكَرَ أهل النار فذكرهم بأسوإ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم ، وإذا ذكرتهم قلت إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء .

وذَكَرَ آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ، ولا يلقى بيده إلى التهلكة[1] ، فإذا حفظت وصيتى فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ، ولست بمعجز الله .

---

(١) الهلاك .

خطبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

إذ ولى الخـــلافة

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليــه ثم قال : يا أيها الناس ، إنى داع فأمّنوا ، اللهم إنى غليظ فلينى لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة . وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك أهل الدعارة(١) ، والنفاق من غير ظلم منى ولا اعتداء عليهم . اللهم إنى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعــة ، واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة . اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين . اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان فألهمنى ذكرك على كل حال وذكر الموت فى كل حين . اللهم إنى ضعيف عن العمل بطــاعتك فارزقنى النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التى لاتــكون إلا بعزتك وتوفيقك . اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى ، وذكر المقام بين يديك ، والحياء منك ، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى ، والمحاسبة لنفسى وصلاح شأنى والحذر من الشبهات . اللهم ارزقنى التفكر والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر فى عجائبه والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شىء قدير .

---

(١) الخبث والفجور .

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين

إلى عبد الله بن قيس

بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام عليك . أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متَّبعة ، فافهم إذا أُدْلِيَ إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالا . لا يمنعك قضاء قَضَيْتَهُ اليوم ، فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهمَ الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهى إليه ، فإذا أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى ، المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً فى ولاء أو نسب . فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان . وإياك والقلق والضجر ، والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام .

خطبته رضى الله تعالى عنه فى الوعظ

إنما الدنيا أمل مُخْتَرَمٌ[١] ، وأجل مُنْتَقَضٌ[٢] ، و بلاغ إلى دارٍ غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج[٣] ، فرحم الله امرأ فكَّر فى أمره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه ، بئس الجار الغنى يأخذك بمالا يعطيك من نفسه ، فإن أبيت لم يَعْذِرك . إياكم والبِطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم . ومؤدية إلى السقم ، وعليكم بالقصد فى قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن ، وأقوى على العبادة ، و إن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه .

من خطبة خطبها عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه

بعد أن بويع بالخلافة

حمد الله وأثنى عليه . أما بعد : فإنى قد حُمِّلتُ وقد قبلت ، ألا و إنى متبع ولست بمبتدع ألا و إن لكم علىَّ بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ثلاثاً : اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وَسَنَّ سُـنةَ أهل الخير فيما لم تسنُّوا عن ملأ ، والكفَّ إلا فيما استوجبتم . ألا و إن الدنيا خضرة قد شُهِّيت إلى الناس ، ومال إليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها ، فإنها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها .

---

(١) منقطع غير محقق . (٢) غير مبرم . (٣) إقامة .

ومن خطبته أيضاً

وهى آخر خطبة خطبها رضى الله عنه

أما بعد : فإن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكموها لتركنوا إليها . إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى ، فلا تبطرنكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية ، فآثروا مايبقى على مايفنى ، فإن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله — اتقوا الله عز وجل فإن تقواه جنة من بأسه ووسيلة عنده واحذروا من الله الغِيَر ، والزموا جماعتكم لاتصيروا أحزاباً « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » .

خطبة على بن أبى طالب كرم الله وجهه

بعد التحكيم

الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح[1] ، والحدث الجلل[2] . وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله . أما بعد : فإن معصية الناصح الشفيق ، العالم المجرب ، تورث الحيرةَ وتُعقب الندامة ، وقد كنت آمرتكم فى هذه الحكومة[3] أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأيى ، لوكان يطاع لقصير أمر[4] فأبيتم علىَّ إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن الزَّند بقدحه ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن[5] :

أمرتهم أمرى بمنعرَج اللِّوى فلم يستبينوا النصحَ إلا ضُحَى الغدِ

---

(١) من فدحه الدين : أثقله . (٢) العظيم .

(٣) أى حكومة الحكمين عمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى .

(٤) هو مولى جزيمة الأبرش وكان حاذقاً ، وكان قد أشار على سيده جذيمة أن لايأمن للزباء ملكة الجزيرة ، فخالفه وقصدها إجابة لدعوتها إلى زواجه ، فقتلته فقال قصير « لا يطاع لقصير أمر » فذهبت مثلا .

(٥) هو دريد بن الصمة .

ومن خطبة له حين خاطبه العباس وأبو سفيان في أن يبايع له بالخلافة

أيها الناس : شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة ، وعرّجوا[1] عن طريق المنافرة ، وضعوا عن تيجان المفاخرة . أفلح من نهض بجناح[2] ، أو استسلم فأراح ، هـذا ماء آجن[3] ولقمة يَغَصُّ بها آكلها ، ومجتنى الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه ، فإن أقل يقولوا حرَص على الملك ، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت ، هيهات بعد اللتيـا[4] والتي ، والله لابن أبي طالب آنَسُ بالموت من الطفل بثدى أمه ، بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربت اضطراب الأرشية[5] في الطوِىّ[6] البعيدة .

من حكمه كرم الله وجهه

الناس أعداء ماجهلوا . الناس من خوف الذل في ذل . الصبر مطية لاتـكبو وسيف لايذبو . إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه . المرء مخبوء تحت لسانه . ماهلك امرؤ عرف قدره . خير إخوانك من واساك . خير أموالك ما كفاك . إذا تم العقل نقص الـكلام . يعيش البخيل في الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء . الناس أبناء الدنيا ولا يلام المرء على حب أمه . الحرمان خير من الامتنان . من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . بشر مال البخيل بحادث أو وارث . من عذب لسانه كثر إخوانه . قيمة كل امرىء مايحسن . من أكثر فـكره في العواقب لم يشجع . العلم خير من المال . العلم يحرسك وأنت تحرس المـال . المال تنقصه النفقة والعلم

---

(١) ميلوا . (٢) أى بمساعد ومعين . (٣) متغير الطعم واللون .

(٤) يضرب مثلا لمن خاض الشدائد والمصائب صغيرها وكبيرها .

(٥) جمع رشاء وهو الحبل .

(٦) البئر المطوى بالحجارة أى المبنية بها .

يزكو على الإنفاق . بالعلم يكسب الإنسان الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته . العلم حاكم والمال محكوم عليه . كل وعاء يضيق بما وضع فيه ، إلا وعاء العلم فإنه يتسع . العلم مقرون بالعمل فمن عمل علم . والعلم مقرون بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه . عامل أخاك بالإحسان إليه واردد شره بالإنعام عليه . من استبد برأيه هلك ، ومن شاور الرجال شاركها فى عقولها . الدهر يومان : يوم لك ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تَبْطَرْ ، وإن كان عليك فلا تَضْجَرْه . بكثرة الصمت تكون الهيبة ، وبالتواضع تتم النعمة . من نظر فى عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره . من رضى برزق الله لم يحزن على مافاته . ومن كثر كلامه كثر خطؤه . الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك . إن الله سبحانه وتعالى فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما شح به غنى ، والله تعالى سائلهم عن ذلك .

خطبة السيدة عائشة رضى الله عنها لما توفى أبوها

قالت نضّر[١] الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مُذِلا بإدبارك عنها ، وللآخرة مُعزاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أجلَّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك . وأعظمَ المصائب بعد فقده فقدك . إن كتاب الله ليعد بحسن الصبر فيك بحسن العوض منك وأنا أستنجز[٢] موعود الله بالصبر فيك ، وأستقضيه بالاستغفار لك . أما لئن قاموا بأمر الدنيا لقد قمت بأمر الدين ، لما وهَى شعبه[٣] وتفاقم[٤] صدعُه[٥] ، ورجفت[٦] جوانبه . فعليك سلام الله توديع غير قالية[٧] لحياتك ، ولا زارية[٨] على القضاء فيك .

---

(١) نضر : حسن : كناية عن حسن المثوبة .
(٢) أطلب الإنجاز والوفاء .
(٣) وهى شعبة : ضعف ، والشعب : الالتئام والاتصال .
(٤) تفاقم : عظم . (٥) شقه .
(٦) اضطربت . (٧) كارهة . (٨) قالية .

خطبة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

وهى آخر خطبة خطبها

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنكم لن تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شىء ، وحُرم جنة عرضها السموات والأرض . واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف اليوم وباع قليلا بكثير وفانياً بباق .

ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، حتى تردوا إلى خير الوارثين . ثم إنكم فى كل يوم تشيعون غادياً رائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وبلغ أجله ، ثم تغيبونه فى صدع الأرض ، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب غنياً عما ترك فقيراً إلى ماقدم .

وايمُ الله إنى لا أقول لكم هذه المقالة . وما أعلم عند أحد منكم أكثر مما عندى ، فاستغفر الله لى ولكم وما تبلغنا حاجة يتسع لها ماعندنا إلاسدَّدناها ، ولا أحد منكم إلا ودِدت أن يده مع يدى ولحمتى الذين يلوننى حتى يستوى عيشنا وعيشكم .

وايمُ الله إنى لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقاً ذلولا عالمًا بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ، دل فيهما على طاعته ونهى عن معصيته ، ثم بكى فتلقى دموع عينيه بردائه ونزل فلم يعد بعدها على تلك الأعواد حتى قبضه الله تعالى .

عظة سفيان الثورى لهارون الرشيد

ذكر الإمام ابن بليان والغزالى وغيرهما ، أن الرشيد لما ولى الخلافة ، زاره العلماء بأسرهم إلا سفيان الثورى ، فإنه لم يأته وكان بينه و بينه صحبة ، فشق عليه ذلك ، فكتب إليه الرشيد كتاباً يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى أخيه فى الله سفيان بن سعيد الثورى . أما بعد : ياأخى فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين ، وقد آخيتك فى الله مؤاخاة لم أصرم فيها حبلك ، ولم أقطع فيها ودك ، و إنى منطو لك على أفضل المحبة ، و إنه لم يبق أحد من إخوانى و إخوانك ، إلا زارنى وهنأنى بما صرت إليه . وقد فتحت بيوت الأموال ، وأعطيتهم المواهب السنية بما فرحت به نفسى ، وقرّت به عينى ، وقد استبطأتك ، وقد كتبت كتاباً منى إليك أعلمك بالشوق الشديد إليك . وقد علمت يا أبا عبد الله ماجاء فى فضل زيارة المؤمن ومواصلته . فإذا ورد عليك كتابى هذا ، فالعجلَ العجل ، ثم أعطى الكتاب لعباد الطالقانى . وأمره بإيصاله إليه ، وأن يحصى عليه بسمعه وقلبه ، دقيق أمره وجليله ليخبره به .

قال عباد : فانطلقت إلى الكوفة فوجدت سفيان فى مسجده فلما رآنى على بعد قام وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير . قال : فنزلت عن فرسى بباب المسجد . فقام يصلى ولم يكن وقت صلاة ، فدخلت وسلمت ، فما رفع أحد جلسائه رأسه إلىّ ، فبقيت واقفاً وما منهم من أحد يعرض على الجلوس . وقد علتنى من هيبتهم الرهبة ، فرميت الكتاب إليه .

فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد عنه كأنه حية عرضت له فى محرابه ، فركع وسجد وسلم وأدخل يده فى كمه وأخذه وقلبه بيده ورماه إلى من كان خلفه . وقال : ليقرأه بعضكم فإنى أستغفر الله أن أمس شيئاً مسه ظالم بيده .

قال عباد : فمد بعضهم يده إليه وهو يرتعد كأنه حية تنهشه . ثم قرأ فجعل سفيان يبتسم بسمة المتعجب . فلما فرغ من قراءته قال : اقلبوه : واكتبوا للظالم على ظهره .

فقيل له : ياأبا عبد الله ، إنه خليفة ، فلو كتبت إليه فى بياض نقى لكان أحسن ، فقال : اكتبوا للظالم فى ظهر كتابه فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به ، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ، ولا يبقى شىء مسه ظالم بيده عندنا فيفسد علينا ديننا .

فقيل له : مانكتب إليه . قال : اكتبوا إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من العبد الميت سفيان ، إلى العبدالمغرور بالآمال هارون الذى سلب حلاوة الإيمان ولذة قراءة القرآن . أما بعد : فإنى كتبت إليك أعلمك أنى قد صرمت حبالك وقطعت ودك ، وأنك قد جعلتنى شاهداً عليك بإقرارك على نفسك فى كتابك فيما هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه وأنفقته بغير حكمه ، ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت إلى تشهدنى عليه ، فأما أنا فقد شهدت عليك أنا وإخوانى الذين حضروا قراءة كتابك ، وسنؤدى الشهادة غداً بين يدى الله الحكم العدل .

ياهارون : هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله والمجاهدون فى سبيل الله ، وابن السبيل ، أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم يعنى العاملين ، أم رضى بفعلك الأيتام والأرامل ، أم رضى بذلك خلق من رعيتك ، فشدّ ياهارون مئزرك وأعد للمسألة جواباً ، وللبلاء جلباباً . واعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل . فاتق الله فى نفسك ياهارون ، إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذة قراءة القرآن ، ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً .

يا هارون : قعدت على السرير ولبست الحرير وأسبلت ستوراً دون بابك ، وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون ، ويشربون الخمر ويحدون الشارب ، ويزنون ويحدون الزانى ، ويسرقون ويقطعون يد السارق ، ويقتلون القاتل . أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن يحكموا بها على الناس ؟ فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادى من قبل الله الحكم العدل المنتقم الجبار ! احشروا الظلمة وأعوانهم ، فتقدمت بين يدى الله ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم إمام أو سائق إلى النار ، وكأنى بك يا هرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق والتفّت السّاق بالساق ، وأنت ترى حسناتك فى ميزان غيرك ، وسيئات غيرك فى ميزانك على سيئاتك ، بلاء على بلاء ، وظلمة فوق ظلمة ،

فاتق الله يا هارون فى رعيتك ، واحفظ محمداً ﷺ فى أمته ، واعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا وهو صائر إلى غيرك ، وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحد بعد واحد . فمنهم من تزود وزاد نفعه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته . وإياك ثم إياك أن تكتب إلى بعد هذا فإنى لا أجيبك والسلام .

وألقى الكتاب منشوراً من غير طى ولا ختم .

قال عباد : فأخذته وأقبلت به إلى سوق الكوفة ، وقد وقعت الموعظة بقلبى فناديت : ياأهل الكوفة : من يشترى رجلا هرب إلى الله ؟ فأقبلوا إلى بالدراهم والدنانير ، فقلت : لا حاجة لى بالمال ، ولكن جبة صوف وعباءة قسطوانية ، فأتيت بذلك ، فنزعت ما كان معى إلى أن أتيت باب الرشيد حافياً راجلا فهزأ بى من كان على الباب ثم استؤذن لى ، فلما رآنى على تلك الحالة قام وقعد وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والثبور والحرب . ويقول . انتفع

الرسول وخاب المرسل «الرشيد» مالى وللدنيا ، والملك يزول عنى سريعاً ! ! .

فألقيت إليه الكتاب مثل مادفع إلى فأقبل يقرأه ، ودموعه تنحدر على وجهه وهو يشهق ، فقال بعض جلسائه : ياأمير المؤمنين ، قد اجترأ عليك سفيان ، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه السجن فجعلته عبرة لغيره ، فقال هارون : اتركوا سفيان وشأنه ياعبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه ، والشقى والله حقاً من جالستموه ، إن سفيان أمة وحده ، ولم يزل كتاب سفيان عند الرشيد يقرؤه دبر كل صلاة ، ويبكى حتى توفى رحمه الله تعالى .

وصية عبد الله بن شداد لابنه

يابنى : إنى أرى داعى الموت لايقلع ، وأرى من مضى لايرجع ، ومن بقى فإليه يَنْزِع[1] وإنى موصيك بوصية فاحفظها :

عليك بتقوى الله العظيم ، وليكن أولى الأمور بك شكر الله ، وحسن النية فى السر والعلانية ، فإن الشكور يزاد ، والتقوى خير زاد ، ولكن كما قال الحطيئة :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد

وما لابد أن يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

أى بنى : لاتزهدن فى معروف فإن الدهر ذو صروف ، والأيام ذات نوائب على الشاهد والغائب . فكم من راغب كان مرغوباً إليه ، وطالب أصبح مطلوباً مالديه ؟ واعلم أن الزمان ذو ألوان ، ومن يصحب الزمان ير الهوان .

أى بنى : كن جواداً بالمال فى موضع الحق ، بخيلا بالأسرار عن جميع الخلق ، فإن أحمد جود المرء الإنفاق فى وجه البر ، وإن أحمد بخل الحر الضن بمكتوم السر .

أى بنى : وإن غلبت يوماً على المال فلا تدع الحيلة على حال ، فإن الكريم يحتال ، والدنىّ عيال ، وكن أحسن مايكون فى الظاهر حالا ، أقل ماتكون فى الباطن مالا ، فإن الكريم من كرمت طبيعته وظهرت عند الانفاد[2] نعمته .

أى بنى : وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالشاهد ، فإنك إن أمضيتها[3] حِيالَها رجع العيب على من قالها .

---

(١) يشتاق . (٢) الإنفاذ : الفقر .

(٣) ظرف بمعنى إزاء أى إن تركتها تذهب فى طريقها .

أى بنى : لا تؤاخ امرأ حتى تعاشره وتتفقد موارده ومصادره ، فإذا استطعت العشرة ورضيت[1] الخبرة ، فواخه على إقالة العثرة ، والمواساة فى العُسرة .

أى بنى : إذا أحببت فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط[2] ، فإنه قد كان يقال : أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وابغض بغيضك هوناً[3] ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما .

(١) العلم بالشىء كالاختبار . (٢) تشطط : تتجاوز الحد .

(٣) الهون : الرفق ، وما : إما زائدة ، وإما صفة لهونا .

وصية أعرابية لابنها أراد سفراً

أى بنى : اجلس أمنحك وصيتى وبالله توفيقك .

أى بنى : إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً ، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقلما اعتورت[١] السهام غرضاً إلا كلمته[٢] حتى يَهِيَ[٣] ما اشتد من قوته ، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك ، وإذا هززت[٤] فاهزز كريماً يلين لهزتك ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها ، ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيب نفسه . ومن كانت مودته بِشْرَة وخالف من ذلك فيه فعله كان صديقه منه على مثل الريح فى تصرفها .

إلى أن قالت : والعذر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ريطَتَها[٥] وسِرْبالها .

---

(١) اعتورت : يقال اعتوروا الشىء : تداولوه بينهم (٢) كلمه : جرحه
(٣) وهى : ضعف (٤) من هز الشجرة إذا سقط ثمرها .
(٥) الريطة : الملاءة ، والسربال : القميص ، والحلة : ثوبان فأكثر (البدلة) .

قسم المحاضرات

١ — الصلاة ومشروعيتها

أحمدك يا من خلقت فأبدعت ، وأنعمت فأسبغت ، وشرعت فأحكمت ، وأعطيت فأجزلت . سبحانك قلت وقولك الحق : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١) » وأصلى وأسلم على أشرف خلقك سيدنا محمد عبدك ورسولك الذى كانت قرة عينه فى الصلاة .

أيها المستمعون : قد أساء كثير من الناس الفهم فى حكم الصلاة ، حيث زعموا أنها عبادة روحية بحتة لا تمس حياتنا الاجتماعية والصحية لا فى قليل ولا كثير . وكان من بين آثار هذا الفهم الخاطىء وذاك الظن الفاسد ، أن اقتضبوا أركانها ، وأضاعوا طمأنينتها ، وأهدروا روحها وخشوعها ، فلم تثمر ثمرتها ولم تحقق حكمتها التى ذكرها الله تعالى فى قوله : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٢) » وصارت لا سلطان لها على القلوب ولا تأثير لها على النفوس ، وكيف لا تكون لها علاقة بحياتنا الدنيا . وحكم الله بأنه لا يقبل صلاة إلا إذا سبقت بوضوء من الحدث الأصغر ، وغسل من الحيض والنفاس والجنابة .

ففى الأولى : نظافة الأطراف التى هى محل للكسب ، وعليها عماد الحياة . فالوجه فيه السمع والبصر والشم والذوق ، واليدان اللتان بهما البطش والأخذ والعطاء ، والرجلان التى بهما المشى ، والشعر والرأس ، وقد اكتفى بمسحه لئلا يكون فى غسله حرج ومشقة مما ينافى ما اختصت به الشريعة الإسلامية من السماحة « رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٣) » .

---

(١) الأعلى الآيات : ١٤، ١٥ (٢) العنكبوت الآية : ٤٥ (٣) البقرة الآية : ٢٨٦

ففى الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَراً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ؟ » قالوا : لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ . قال : « فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مِفْتَاحُ الصَّلاَةِ الطُّهُورُ ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ » فى مسند أحمد وغيره عن علىّ .

أما الجنابة ودم الحيض : فإن المتعة الجنسية تسرى فى جميع البدن ، فما من شعرة إلا وتحتها جنابة ، كما جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ تَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ جَنَابَةً فَاغْسِلُوا الشَّعْرَ وَأَنْقُوا الْبَشَرَ » رواه الترمذى وغيره عن أبى هريرة .

لهذا كان من الحكمة أن يعم الماء جميع البدن ويصل إلى أصل كل شعرة فتبرد حرارة الشهوة فتسكن النفس وتطمئن إلى ذكر الله وتلاوة كلامه والوقوف بين يديه ، وتنشط الجوارح ويقوى القلب ، ويزول العرق الذى يسد مسام الجسم ، وإذا كان الجسم فى حاجة إلى تحريكه دائماً لتقوى عضلاته وتنمو عظامه ، فالصلوات الخمس تحقق ذلك للجسم وتكفل هذا المعنى

وجدير بهذا الجسم الذى تناله هذه العناية من النظافة فى هذه المواطن أن يعيش صحيحاً سالماً من الآفات بعيداً عن الأسقام . قال سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[1] » .

---

(١) المائدة الآية : ٦

ولقد عنيت الشرائع السماوية بها وعلى رأسها الشريعة الإسلامية ، كما جاء فى القرآن الكريم . فقد حكى مادعا به خليل الله إبراهيم : «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي[1]» ومانطق به عيسى فى مهده : «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا[2]» وعن إسماعيل : «وكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا[3]» . ومثل ذلك عن كليمه موسى عليه السلام : «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ، إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي[4]»

وكان مما امتازت به الشريعة الإسلامية أن جعلتها مؤقتة بميقات معلوم لاتقدم عليه لحظة ولاتؤخر إلا فى حالتين : أولاهما : النسيان ، وثانيهما : النوم . ولا عذر لأحد فيما عداهما . قال تعالى : «إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً[5]» .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقيمونها فى الحرب والسلم ، والصحة والمرض ، وفى الحضر والسفر ، فلاتسقط عن المكلف إلا فى النزع الأخير أو الجنون .

ومما يدل على أن الصلاة قرينة الإيمان أنه لايصح إسقاطها بحال من الأحوال قال الله تعالى : «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً[6]» أى صلوا ماشين أو راكبين ، ولا يمنعكم من تأديتها الخوف على النفس أو العرض أو المال ، والسبب فى إسقاطها عن المكلف أنها عمل قلبى ، وإنما فرضت فيها تلك الأعمال الظاهرة ، لأنها مساعدة على العمل القلبى المقصود بالذات ، وهو تذكر المصلى بالسلطان الأعلى المستولى علينا وعلى العالم كله ، فإذا عجز عن العمل البدنى ولو بالإشارة أجرى الصلاة على قلبه ،

(١) إبراهيم الآية : ٤٠ (٢) مريم الآية : ٢١ (٣) مريم الآية : ٥٥
(٤) طه الآية : ١٤ (٥) النساء الآية : ١٠٣ موقوتاً : مقدراً وقتها
(٦) البقرة آيات : ٢٣٨ ، ٢٣٩

فمن تأمل فى هذا كله ، وهو أن الله أوجبها فى حال الملاحم فى القتال ومقاومة العدو ودفع الصائل والفرار من الأسد ، وكذلك إذا فقد الطهورين فى الوقت أو استدبر القبلة ، كل هذا يحقق لك أن تارك الصلاة إن لم يكن كافراً فإنه يكون على خطر عظيم ، وفقنا الله للقيام بها حتى نلقاه سالمين .

ولم يجعل سبحانه الخيرة للإنسان فى أوقاتها لئلا تركن النفوس إلى التواكل والتسويف وحتى لا يطول الأمد بين المصلى و بين الله تعالى فيقسو القلب . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِى الْمَضَاجِعِ » رواه أحمد وغيره .

أيها المستمعون : إن الصلاة التى شرعها الله تعالى قد اشتملت على مقاصد نبيلة وغايات شريفة تتعلق بدينكم . ففى الوضوء والغسل من الجنابة والحيض وقاية الأجسام من الأمراض ، وسلامة الأعضاء من الأقذار ، وفيها نضارة الوجه وتنشيط الجوارح . كما أنها توقظ الضمير وتحيي الوجدان ، وتقوى فى المصلى الحياء من الله والاستغراق فى عظمته ، وتغسل القلوب من الضغائن ، وتصقلها من صدأ الخبث والرذائل ، وتطبعها على مكارم الأخلاق ، وتغرس فى النفوس الصدق والأمانة اللذين بهما تصفو النفوس من الشرور والآثام ، وتذل النفوس العاتية إلى خالقها فلا تعلو على غيرها ولا تشمخ بأنفها على أحد من خلق الله ، وتجعل القلوب متصلة بالله تعالى ، فلا تنسى واجبها الذى عليها ولا أنفسها التى بين جنبيها ، فتعمل على تزكيتها والسمو بها إلى درجة الكمال والبعد بها عما يدنس سمعتها و يشقيها و ينزل بها إلى الدرك الأسفل من الانحطاط فتنعش الهمم وتحفز العزائم .

ولا تنسوا ما فيها من الاجتماعات التى كلها تعارف واتحاد ، وتضامن و إخاء وتعاون وولاء ، و إخلاص وعلم ، وآداب وتوثيق لعرا المحبة والوداد ، وفى ذلك تحقيق لقول الرسول ﷺ : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً »

رواه البخاري . إذ أن الاجتماعات الجزئية في الأوقات ، وفي كل جمعة من كل أسبوع ، وفي الأعياد من كل عام ، وفي الاجتماع العام يوم الحج الأكبر ، كلها ترمي إلى غرض نبيل ومقصد شريف ألا وهي دراسات حال الأفراد والجماعات حتى يقف الغني على حال الفقير فيوسع عليه ، والعالم على الجاهل فيعلمه ، والقوي على حال الضعيف فيزيل ما به من ضعف ، وما يصيب أممهم من شرور وأضرار فيعملون على تلافيها ودفع خطرها . فهذا الاجتماع الطاهر ، وهذا النادي الزاهر ، لينبيء على أن المسلمين كالجسم الواحد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى .

فهذه المبادىء السامية حققها الغربيون في بلدانهم ، فتراهم ينشئون الأندية والمجتمعات في جميع الأصقاع والجهات ، ويحببون الناس فيها ويغرونهم بأنواع المغريات ، لينالوا بذلك أغراضهم التي عليها صلاح أوطانهم وحظوظهم الجسمانية . أما الاجتماعات الإسلامية ففيها دين ودنيا : إذ أنها تربط القلوب برباط الإخاء ، وتجمع القلوب على التقوى والخوف من الله تعالى ، فلا يفكرون في إضرار أحد ولا استعباد غيرهم ، كما يفعله الأجانب في اجتماعاتهم التي لا تخلو من أغراض فاسدة وشهوات دنيئة ومطامع خسيسة ، وأي شيء أجل وأعظم من تنظيم الصفوف وتسوية المناكب وتأديتها في أوقات محدودة والتنقل في مراتب العبادة من التلاوة قبل الركوع ، والركوع قبل السجود ، وكذلك الترتيب في الوضوء .

أليس في ذلك تقرير للنظام وغاية الحكمة ومنتهى الإبداع ، فهلا كان لهذا أثر في حياتنا الاجتماعية لا ، بل أعمال مختلة عليلة وحركات مضطربة وسقيمة لا تدرك للنظام معنى . وهذا راجع إلى أننا نؤدي الصلاة صوراً وحركات خالية من روح الإخلاص والطمأنينات . وكان الرسول ﷺ يقول : « أَرِحْنا بالصَّلَاةِ يا بِلَالُ ، ويقول : « وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصّلاةِ » لما يحس بها من الرحمات ، والفيوضات والانسلاخ من عالم الماديات والظلمات ، والاستغراق في عظمة رب الأرض والسموات .

هذا ولما كان الإنسان فى هذه الحياة عرضة لحوادث الزمان ومحن الأيام ، ولا ينفك عن مصيبة فى نفسه أو فى ماله أو فى ولده ، كان فى حاجة إلى دروس عملية توطنه على مواجهة الحوادث وأن يصمد أمامها ، فلا يغلبه الجزع ولا يتملكه اليأس الذى ليس من صفات المؤمنين ، ويحرمه اتصاله بالله فيقسو قلبه كما قال سبحانه : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ(١) » .

و بدهى أن المنزل الذى يوالى الإنسان كنسه وتنظيفه فى أوقات معينة يكون أقرب إلى الطهارة وأبعد عن القذارة من المنزل الذى تترك نظافته للظروف .

بدء الصلاة : بعد كمال الطهارة التى ذكرناها آنفاً يقيم الإنسان الصلاة بعد سماع الأذان أو أذانه لنفسه ، إن لم يسمعه ، ويقف متجهاً إلى بيت ربه ، ثم يستأذن بالدخول على سيده « بالله أكبر » من غير أن يتلفظ بالنية لأنها عمل قلبي وليس للنطق بها دليل شرعى . فإذا مانطق بهذه التكبيرة ورفع يديه ، كان ذلك إيذاناً بأنه أقبل على ربه ، وأسلم جوارحه وقواه له عز وجل ، وأعرض عما سواه ، وانفصل عما كان فيه من أعمال الدنيا ، وصغر فى عينيه كل ما كان يطلبه الناس من مال وسلطة وجاه و ولد ، وعظم الخالق فى نفسه .

فيالها من كلمة جامعة لمعانى العبودية ، وأصول الثناء !! فيها كل معانى العبادة تشعر النفوس بأنه أعظم من كل عظيم وكل ماسواه صغير حقير ، ملك الملوك ، الأرض وما أقلّت ، والسموات وما أظلّت ، عنت لجلاله ، وخضعت لسلطانه ، فلو أن المصلى راعى هذه المعانى عند النطق بها لامتلأ قلبه عزاً وإيماناً بالله ، واستصغاراً لما سواه ، ولتجرد من الملق والرياء ونذالة النفس فى الحصول على حطام الدنيا .

(١) الحديد الآية : ١٦

وبعد أن ينطق بها يعقبها بالتوجه اعترافاً وإشهاداً بأن ذاته كلها فى الصلاة لله وحده . ثم يبدأ بفاتحة الكتاب التى طوى فيها أصول الإسلام . فأولها حمد وثناء على الله الذى ربى أجسامنا بما أخرج لنا من الأرض وقلوبنا بما شرعه على لسان الأنبياء ، فهى تعلن عن ربوبيته للناس جميعاً ورحمته بهم . وثانيها تمجيده بالمالك الأعظم فى اليوم الذى لا يكون فيه ملك سواه . وأن أرباب التيجان والنفوذ والسلطان يجيئون إليه فى ذلك اليوم حفاة عراة غُرْلاً[1] ، لا يغنى عنهم مالهم ولا سلطانهم من الله شيئاً حين يجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ليجزى الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين .

ثالثاً — إفراده بالتوحيد فى إلهيته ، واستمداده المعونة منه وحده ، بهذين الأصلين وهما اختصاص الله بالعبادة من صيام وصلاة وحج وصدقة ونذر وذبح وحلف وطواف وما إلى ذلك مما لا يكون إلا لله وحده ، واختصاصه بتدبير شئون خلقه والاستعانة به وحده وتفريج كروبهم . بهذا وذاك أرسل الله الرسل وأنزلت الكتب ، صدق الله : « وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ[2] » .

من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ » أخرجه الترمذى .

ألا فليعلم هؤلاء الذين يجعلون النذور لعباد الله الصالحين ، ويطوفون حول قبورهم ويستغيثون بهم ، إنما هم فى ضلال بعيد ، وأين هم من قول الله تعالى :

---

(١) يسيرا مختتنين (٢) البينة الآية : ٥

« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » فوالله لو كانت هذه السورة لها تأثير فى نفوسهم وامتزجت بقلوبهم لما وقعوا فى الشرك الذى وقع فيه العرب فى جاهليتهم والذى كان يخافه عمر بن الخطاب ويحذر الأمة منه حيث قال : من لم يعرف الوثنية فإنما ينقض الإسلام عروة عروة . « وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ »(١) .

ومما تضمنته هذه السورة سؤاله عز وجل الهداية إلى الصراط المستقيم الذى نصبه لأنبيائه ورسله وأتباعهم ، وهو الطريق الذى اختصهم بنعمه فعرفهم الحق وجعلهم متبعين له دون صراط أمة الغضب الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه وأهل الضلالة الذين ضلوا عن معرفته واتباعه .

ومن هداية الله تعالى لبنى الإنسان أن خلق لهم مشاعر يدركون بها ، وعقولا يهتدون بها مالا يدركه الحس ، وشرح لهم أحكاماً وآداباً لا تستقل عقولهم بالوصول إليها ، وكلها سائقة إلى الخير ، صارفة عن الشر .

فلله كم فى هذه السورة من علم ومعارف وعبرة : فتوحيد وموعظة وتبصرة وذكرى وعبر . وليس من شك فى أن لتكرار هذه المعانى لمن يتدبرها تربية وتهذيباً ، أقل ماتعطيه المهابة والخشية والإنابة إلى الله تعالى ، فلم يغفل قلبه عن الله ولايختمر فى نفسه عوامل الشر .

جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ يقول الله تعالى : «قَسَّمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِى نِصْفَيْنِ : فإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قال الله : حَمِدَنِى عَبْدِى ، فإذا قال : الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ قال الله : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِى فإذا قال : مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ قال الله : مَجَّدَنِي عَبْدِى ، فإذا قال : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ قال الله : هٰذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ ، فإذا قال :

(١) يونس الآية ١٠٦

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ، قال الله : هٰذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » .

فأى نعيم وقرة عين ، ولذة قلب وابتهاج وسرور لاتحصل له فى هذه المناجاة والرب سبحانه وتعالى يسمع لكلامه جارياً على لسان عبده ويقول حمدنى عبدي أثنى على عبدى ، مجدنى عبدى ، فإذا ما فرغ من تلاوة الفاتحة ، قرأ ماتيسر من القرآن ثم عاد إلى التكبير وخر راكعاً ، جاثياً له ظهره خاضعاً لعظمته ، متذللا لعزته ، مستكيناً لجبروته ، مسبحاً باسمه العظيم ، فيقابل تلك العظمة بهذا الذل والانحناء والخضوع ، وقدطأطأ رأسه وطوى ظهره ، وربه فوقه يسمع كلامه ، ويرى خضوعه وذله . فإذا ما نال حظه من التعظيم لله تعالى عاد إلى حاله من القيام حامداً ربه مثنياً عليه بأكمل محامده ثم يعود إلى التكبير ، فيقع ساجداً على أشرف مافيه وهو الوجه فيعفره فى التراب ذلا بين يديه ومسكنة وانكساراً . وقد أخذ كل عضو من أعضائه جزيل حظه من هذا السجود حتى أطراف الأنامل ورءوس الأصابع ، وأمر بأن يكون رأسه أسفل ما فيه تكميلا للخضوع والتذلل ، وأن يسبح ربه الأعلى فيذكر علوه سبحانه فى حال سفوله هو ، وينزهه عن مثل هذه الحالة وهو فوق كل شىء .

لهذا كان أقرب ما يكون الرب منه فى هذه الحالة . فما من سمع ولا بصر ولا أذن ولا قدم ولا قطرة دم فى المصلى إلا وهى لله ، فكل مستخف فى صلاته مستخف بالإيمان .

ثم شرع تكرار السجود مرتين فى كل ركعة وتكرار الركعات ، ليشبع القلب من هذا الغذاء والدواء ، وهذا أيسر اليسير من حقه على عبده . فهذا الترتيب العجيب والتنقل فى مراتب العبادة من الحمد والثناء والخضوع والتذلل مثنى وثلاث ورباع . ثم يختم ذلك بأن يقعد قعدة العبد الذليل ، فيعترف بلسانه بأن جميع التعظيمات والتحيات التى صدرت منه ومن غيره له وحده واعترافاً بالجميل

ثم يسلم على صاحب الرسالة ، ومن جاء الخير على يديه ، وعلى من شاركوه فى هذه العبودية ، ثم يشهد شهادة الحق التى من أجلها خلق الجن والإنس ، ثم يصلى على من علم الأمة هذا الخير . ثم شرع له أن يسأل حوائجه و يدعو بما أحب ، فإذا قضى ذلك أذن له فى الخروج منها بالتسليم على المشاركين له فى الصلاة .

و إجمال القول أن الصلاة من الدين بمكان ، وهى آخر وصية كل نبى لأمته ، ووصية نبينا ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فقد أخرج أحمد وغيره عن أنس رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « اللهَ اللهَ فى صَلاَتِكُمْ وَمَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » .

هـذه كلمة موجزة فى الصلاة ، فهل تجدون منزلة من منازل السير إلى الله ولا مقاماً من مقام العارفين إلا وهو فى ضمن الصلاة .

فالكيسون هم الذين ذهبوا بخيرى الدنيا والآخرة ، وأقاموا الصلاة فى أوقاتها قبل أن يأتى اليوم الذى فيه يدعون إلى السجود فلا يستطيعون .

صدقت يا ألله : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ[(١)] » .

التلفظ بالنية فى الصلاة

غير مشروع فى الصلاة و فى غير الصلاة

لم يثبت عن الرسول وأصحابه أنهم كانوا يتلفظون بالنية ، لأن محلها القلب ، بل كانوا يفتتحون الصلاة بتكبيرة الأحرام بحيث يسمع كل واحد نفسه فقط إلا الإمام فإنه يجهر بها ليعلم المأمومون أنه نوى . وكذلك يجهر بكل دعاء ليؤمِّنوا على دعائه ، ورفع اليدين فقط هذا أمر لايشك فيه أحد ، ولوكان النطق بها خيراً لشرعه الله وفعله الرسول ﷺ .

فما يقوله الشافعية من أن التلفظ بالنية سنة ، مستدلين بأن النطق باللسان يساعد القلب . و يقول الإمام الشافعى فى الأم : تبدأ الصلاة بالذكر — قولهم

(١) المؤمنون الآية : ١

هذا جهل بمعرفة السنة فى الأول ، وخطأ فى فهم كلام الشافعى فى الأم ثانياً .

أما حكمهم أولا بأن النطق باللسان سنة لأجل أن يساعد اللسان القلب ، بديهى البطلان ، لأن السنة أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأعماله وإقراره .

وأما حكمهم ثانياً بقول الإمام فى الأم تبدأ الصلاة بالذكر : فإنه يريد بالذكر تكبيرة الإحرام لا التلفظ بالنية ، لأن التلفظ بالنية لايعد ذكراً ، وإنما هو إعلان الله عما فى القلب . والله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فليس فى حاجة إلى أن نعلمه بتعيين الصلاة وعدد ركعاتها .

وهنا ننبه القارىء الكريم أن رفع الصوت ولو بالقرآن فى المسجد حرام لما روى أن النبى ﷺ كان معتكفاً فى المسجد فسمع الصحابة يقرءون ويجهرون على بعضهم بالقرآن فى الصلاة ، فكشف صلى الله عليه وسلم الستر وقال لهم : « أَيُّهَا النَّاسُ كُلُّكُمْ يُنَاجِي رَبَّهُ فَلَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقُرْآنِ » .

وفى رواية بالقراءة ، رواه مالك فى موطئه .

قال الله تعالى : « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (١) » .

بهذا سقطت أدلة الشافعية وقامت عليهم الحجة .

الحد الشرعى للطمأنينة فى الصلاة

يخطىء كثير من الناس حتى من أهل العلم فى فهم الطمأنينة فى الصلاة ، فيزعمون أن القدر الذى تصح به الصلاة بقدر سبحان الله ، وقد كان من آثار هذا الفهم الخاطىء أن أصبحت الصلاة عبارة عن حركات وعادات خالية من روح الدين وسره كما هو حال أكثر المسلمين اليوم ، ولم تحقق الغرض المنشود منها وهى تهذيب النفوس وإصلاح القلوب ، وانطبق عليهم وصف الرسول ﷺ :

---

(١) سورة طه الآيات : ٦ ، ٧ .

« أَسْوَأُ النَّاسِ الَّذِى يَسْرِقُ مِنْ صَلاَتِهِ » قالوا : يارسول الله ، كيف يسرق من صلاته ؟ قال : « لاَ يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلاَ سُجُودَهَا » .

وليتهم أحسنوا فى هذا الخطأ واقتصدوا فيه ، بل أفرطوا فيه حتى اقتضبوا سبحان الله فهضموها حقها ولم يقدروها قدرها ، وحذفوا مدها من لفظ الله ، بل يقولونها مجردة من ذلك وهذا إلحاد فى أسماء الله ، وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[1] » .

لم يكن لهؤلاء الواهمين دليل فيما ادعوا سوى قول الرسول ﷺ للمسىء صلاته ثلاث مرات : « صَلِّ فإِنَّكَ لَمْ تُصلِّ » ، فلما قال يارسول الله لم أحسن غيرها ، قال له : « إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ ، ثُمَّ اقْرَأْ مَاتَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعاً ، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِماً ، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِداً ، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا ، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِى جَمِيعِ صَلاَتِكَ » أخرجه البخارى .

وفسروا الطمأنينة تفسيراً لغوياً ، وهو سكون بين حركتين ، وهدروا القدر الذى كان عليه الرسول وأصحابه والأئمة مما استفاضت به كتب الحديث استفاضة لامطمع بعدها لمنكر فى أنه كان ركوعه وسجوده كقراءته .

وجاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد : « إِنَّ الرَّجُلَ يُصَلِّى سِتِّينَ سَنَةً وَمَا لَهُ صَلاَةٌ » قيل : وكيف ذلك ؟ قال : « يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَلاَ يُتِمُّ السُّجُودَ وَيُتِمُّ السُّجُودَ وَلاَ يُتِمُّ الرُّكُوعَ » .

---

(١) الأعراف الآية : ١٧٠

وفى صحيح البخارى عن زيد بن وهب قال : رأى حذيفة رجلا لايتم الركوع ولا السجود فقال : ما صليت ، لو مت مُتَّ على غير الفطرة التى فطر عليها محمد صلى الله عليه وسلم . وكان ﷺ لايقل عن عشر تسبيحات فى كل ركن من أركان الصلاة . ومعروف أن قراءته كانت تختلف باختلاف الأحوال ، فتارة كان يقرأ السور الطوال ، وتارة القصار .

فهل فى القرآن سورة تكون بقدر سبحان الله المبتورة . نعم يحق لهم أن يرجعوا إلى اللغة إذا أعوزهم الدليل الشرعى . كيف والصلاة أتت عملياً بطريق التواتر . وقوله صلى الله عليه وسلم : « صَلُّوا كما رَأَيْتُمُونِى أُصَلِّى » رواه البخارى ومسلم . وقوله للصحابى كما جاء فى النسائى وأبى داود : « إِذَا رَكَعْتَ فَقُلْ سُبْحَانَ رَبِّىَ الْعَظِيمِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَذَلِكَ أَدْنَاهُ ، وَإِذَا سَجَدْتَ فَقُلْ سُبْحَانَ رَبِّىَ الْأَعْلَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَذَلِكَ أَدْنَاهُ » .

فهذان الحديثان يقطعان على المقلد الذى يكذب على الحنفى و بقية الأئمة كل دليل ، و يسدان عليه باب التأويل ، بأن معنى أدناه أدنى الكمال . إذ أن العدول عن الظاهر لا يكون إلا بدليل . وأين الدليل ؟ إن كنتم تستدلون بحديث معاذ : « أَفَتَّانٌ أنتَ يامعاذ » ، فإن النهى كان لإطالته فى القراءة لأنه قرأ بسورة البقرة .

والحديث معروف فى الصحيحين ومتفق على صحته . فما كان لأحد بعد هذا أن يؤدى هذه الصلاة المبتورة ويقول : أناحنفى مثلا . فالحنفى براء من هذا ولم يكن يصلى هذه الصلاة ، إذ أنها لاتثمر ثمرتها إلا إذا سكنت الجوارح وخشع القلب والله يقول : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ[(١)] » « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ[(٢)] » .

---

(١) المؤمنون الآيات ١ ، ٢ (٢) التغابن الآية : ١١

المحاضرة الثانية

صلاة الجماعة وما يجب فيها

حمداً لله ، وصلاة وسلاماً على خاتم رسل الله .

أيها المستمعون : إن مما تهاون فيه كثير من الناس وخالفوا فيه هدى نبيهم ، هجر الجماعات في المساجد ، وهذا جهل بين وغضب من العزيز الحكيم ، ولو علموا خطرها وما أعده الله تعالى من الثواب لمن فعلها ، والعقاب لمن تركها ، لأتوها ولو حبْواً . ففي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنَ لها ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيَؤُمَّ النَّاسَ ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ » .

لهذا ما كان يتخلف عنها زمن الرسول إلا منافق ، حتى كان الرجل يهادى بين الرجلين ليقيماه في الصلاة . ومع هذا الوعيد الشديد فقد جاء عن جابر رضي الله عنه قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم : « بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسَاجِدِ » . قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ، فقال الرسول ﷺ : « يَابَنِي سَلَمَةَ دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ » فقالوا : مايسرنا أنا كنا تحولنا .

ذلك بأن الله تعالى جعل بكل خطوة يخطوها المصلى إلى المسجد درجة يرفعه بها ، ويحط عنه بها خطيئة . وكيف يتخلف عنها من كان سليم الجسم خالياً من العاهات لايجد في سبيلها مشقة ولا إعنات ، ومما خالف الناس فيه أمر ربهم سبق الإمام في الصلاة كما قال الرسول ﷺ : « أَمَا يَخْشَى الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ » رواه الإمام أحمد في كتابه الصلاة .

وهذه هى تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

روى أبو داود عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أَقِيمُوا الصُّفُوفَ وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ وَسُدُّوا الْخَلَلَ وَلِينُوا بِأَيْدِى إِخْوَانِكُمْ ، وَلَا تَذَرُوا فُرُجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ ، وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللهُ ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللهُ » .

وفى مسلم عن جابر بن سمرة رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا» فقلنا : يارسول الله ، وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِى الصَّفِّ» .

كما أنه رأى فى أصحابه تأخراً فقال لهم : «تَقَدَّمُوا فَأْتَمُّوا بِى وَلْيَأْتَمَّ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ ، لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ » .

وقد ورد أن بلالا كان يسوى الصفوف فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ويضرب عراقيب الصحابة بالدرة حتى يستووا .

أليس عجيباً أن نرى بعد هذا طائفة من الناس تعطل الجماعة فى المساجد بحجة أنهم يذكرون الله فى بيوتهم ، ولم يعلموا أن من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله ، كما أخبر بذلك المعصوم . وليتهم يذكرون ذكراً شرعياً ، بل ذكراً بدعياً فيه إلحاد فى الأسماء ، واعتداء فى رفع الأصوات ، وحركات تخرج الإنسان عن الآداب وتبعده عن الخشوع . وقد استعاذ الرسول ﷺ من هذا فقال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هٰؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ » رواه الترمذى وغيره عن ابن عمرو .

أيها المسلمون : لا يغرنكم ماترونه فى المساجد الكبيرة من عدم إتمام الصفوف

والتباعد بينها و بين بعضها ، فإذا رأيتم ذلك فى أى مسجد من مساجد الله تعالى فعليكم بالنصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، و إلا فقد دخلتم فى طاعة وخرجتم فى معصية . فقد جاء فى الحديث عن ابن مسعود أنه قال : « مَنْ رَأَى مَنْ يُسِيءُ فى صلاتِه فلم يَنْهَهُ شَارَكَه فى وِزْرِها وَعَارِها » .

وروى مامعناه أن الرجل يجىء يوم القيامة متعلقاً بجاره فيقول : يارب هذا خاننى فيقول : يارب وعزتك ماخنته فى أهل ولامال ، فيقول : صدق يارب ، ولكنه رآنى على معصية فلم ينهنى عنها .

ومعروف أن التخلف من أعظم المعاصى ، فاحذر تعلقه بك غداً وخصومته إياك بين يدى الجبار ، ولاتدع نصحه اليوم و إن عاداك ، لأن معاداته لك اليوم أهون من تعلقه بك غداً وخصومته إياك .

ألا فليعلم هؤلاء الأئمة وغيرهم ممن يشاهدون المصلين ينقرون الصلاة نقراً ، فلا يتمون ركوعها ، ولايتمون صفوفها ولايسوونها . يسبقون إمامهم فى الركوع والسجود أن عليهم تبعتهم ، ويوم القيامة يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم ، فإذا مانصحوهم وصدوهم عما نهوا عنه ، كان لهم مثل أجرهم ومانقص ذلك من أجورهم شيئاً .

أيها المسلمون : اتقوا الله تعالى فى صلاتكم فأقيموها كما أقامها نبيكم ، ولاتستخفوا بها ، فإن من استخف بها فقد استهان بها ، واعلموا أن حظكم من الإسلام على قدر حظكم فى الصلاة ، واحذروا أن تفرطوا فيها فإنها آخر ماتفقدون من دينكم ، ومن ذهب آخر دينه ذهب كله .

قال الله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ[1] » .

---

(١) البقرة الآية : ١٧٠

أحكام يجب على كل مصلى أن يعرفها

أولا — صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة غير جائزة ، لأن صلاة الجمعة إن كانت صحيحة ، فتكون صلاة الظهر زيادة عن الفرائض الخمسة التى شرعها الله ، وإن كانت فاسدة ، يجب أن تقام صلاة جمعة غيرها .

ومايقال من أن الجمعة لمن سبق ، ليس من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم والقائلون بهذا اشترطوا أن يكون تعدد الجمعة فى البلد الواحد أو الناحية لغير حاجة . وبديهى أن مساجد القاهرة ومعظم البلاد غاصة بالمصلين ، بل ضاقت عنهم المساجد ، فنرى الكثيرين يصلون على قوارع الطريق ، على أننا لو اعتبرنا تعدد الحاجة بمن تجب عليهم الصلاة ، لاحتجنا إلى ضعف هذه المساجد فى المدن والأقاليم حتى تسع المصلين .

إذاً فصلاة الظهر لمن صلى الجمعة جهل بالدين ، وتشريع مالم يشرعه الله .

ثانياً — من دخل المسجد والإمام يخطب سن له أن يصلى ركعتين تطوعاً لله تعالى ، والدليل على ذلك أن الخطبة وسيلة ، والصلاة مقصد ، ولا يصح أن تؤثر الوسيلة على المقصد ، وقد دخل أحد الصحابة ويسمى سليكا الغطفانى يوم الجمعة المسجد والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب فجلس فقال له : « يَاسُلَيْكُ قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا » ثم قال : « إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ وَلْيَتَجَوَّزْ فِيهِمَا(١) » رواه مسلم .

وهذا الحكم هو الذى ينبغى أن يعول عليه ، لأن من يمنع الصلاة ليس له دليل سوى أحاديث ضعيفة لاتصل إلى درجة حديث مسلم المذكور . وحمل الحديث على أن الرسول قصد لفت نظر المصلين لسليك لأجل التصدق عليه ، بعيد كل البعد عن الصواب ، لأنه لايصح أن يغير الرسول حكماً شرعه الله من

---

(١) تجوز فى صلاته . خفف : أى اقتصر على إتمام الأركان فقط .

نفسه لأجل صدقة على فقير ، وكان من السهل أن يأمرهم بها وهو المطاع فى أمره بالصدقة . على أن الدين لايبتغى به أمر من أمور الدنيا ، فكيف يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكل ماجاء من الأحاديث يخالف ماقلناه ضعيف لا يصح أن يستدل به .

ثالثاً — أن الجمعة تصح بعدد يطلق عليه اسم الجماعة ، فتنعقد بثلاثة مع الإمام ، وليس بضرورى أن تكون فى بلدة فيها سوق أو حاكم عادل مما اشترطه الفقهاء ، فيصح أن تقام فى الصحراء ، والشروط التى اشترطها الفقهاء لادليل عليها من الكتاب والسنة . كما يصح أداؤها فى أكثر من موضع ولا يصح صلاة الظهر بعدها ، لأنه لم يرد به كتاب ولا سنة ، وما جاء فى بعض المذاهب ضعيف لا يعبأ به .

رابعاً — إذا وافق أحد العيدين يوم الجمعة وصلى العيد ، تسقط الجمعة عمن حضر صلاة العيد ، إلا إمام المسجد مالم يكن له خليفة .

كما قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه حينما صلى بهم العيد : « قَدِ اجْتَمَعَ فى يَوْمِكُمْ هٰذَا عِيدَانِ ، فَمَنْ شَاءَ أَجْزَأَهُ عَنِ الْجُمُعَةِ ، وَإِنَّا مُجَمِّعُونَ » رواه أبو داود عن أبى هريرة .

خامساً — لاصحة لما يعتقده العوام من أن فيها ساعة نحس ، والتحقيق أن فيها ساعة إجابة . فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال : « فِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلى يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى شَيْئاً إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ » وأشار بيده يقللها[1] . رواه البخارى وغيره .

سادساً — أن الجمعة لاتسقط إلا عن المرأة ، والعبد المملوك ، والصبى والمريض ، والمسافر . فمن تركها بحجة أن مذهبه يشترط فيها إمام يحكم بالشرع أو كذا ، أو كذا . فلا عذر له عند ربه . قال ﷺ : « مَنْ تَرَكَ ثَلاَثَ جُمَعٍ

(١) يقللها : يضيق وقتها .

تَهَاوُنًا طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ » رواه أبو داود عن أبي الجعد الضمري .

سابعاً — ينبغي الإكثار في هذا اليوم من الصلاة وتلاوة القرآن ، وخاصة سورة الكهف ، لأنها تذكر القارىء بالمبدإ والمعادِ . أما أن يقرأها واحد والباقي يسمع ، فلا دليل عليها ، كما عليه أكثر المساجد الآن ، كذلك يكثر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . ولا يفوتني أن أذكر أن الصيغ الواردة في الصلاة على النبي ﷺ كلها مجردة من ذكر السيادة ، لأن المقام مقام دعاء وذل وعبودية لامقام سيادة . ومن متأخري الفقهاء من يعلل ذكر السيادة بأن الرسول ﷺ لا يعظم نفسه ، وهذا خطأ محض ، لأن هذه عبادة ، والعبادة نزلت على الرسول كاملة لايصح أن يحذف الرسول منها شيئاً ويعللون أيضاً بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لايثبت لنفسه السيادة تواضعاً ، وهذا خطأ أيضاً ، لأنه لو كان يريد التواضع لما ترك السيادة لجده خليل الله إبراهيم عليه السلام ، ويلزم على ذلك أيضاً نقصان دين الصحابة حيث إنهم كانوا يصلون عليه بدونها .

وكان النبي ﷺ يحذر أصحابه من الغلو في مدحه ، من ذلك مارواه الترمذي في الشمائل أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لاَ تُطْرُونِي[1] كما أَطْرَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ » .

وروى أنه خرج على أصحابه يوماً فقاموا له ، فقال : « لاَ تَقُومُوا كما يَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً » وقال : « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كما يَأْكُلُ الْعَبْدُ وَأَجْلِسُ كما يَجْلِسُ الْعَبْدُ » .

وروى أنه دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة[2] فقال : « هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ[3] » .

وقال تعالى : « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ

(١) الإطراء : المبالغة في المدح (٢) الرعدة : الخوف الشديد .
(٣) القديد : اللحم المجفف في السمن .

إِلاَّ الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَافى السَّمٰوَاتِ وَمَافى الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً[1] » .

وينبغى الغسل لهذا اليوم والتطيب ، وأن يلبس الثياب الأبيض ، وأن يبادر إلى المسجد حتى لايتخطى المصلى رقاب المصلين ، وأن يكثر من الصدقات لأن هذا اليوم موسم دينى يضاعف الله فيه الثواب .

ثامناً — أن فريضة الجمعة ليس لها سنة قبلية ، ومن القائلين بذلك أبو شامة الشافعى شيخ الإمام النووى ، والإمام العراقى مخرج أحاديث الإحياء ، والإمام ابن تيمية فى مجموع الرسائل الكبرى له والإمام ابن القيم الحنبلى فى كتابه زاد المعاد والحافظ ابن حجر فى فتح البارى ، حتى قال النووى ببطلانها وأمر النبى ﷺ من دخل المسجد وهو يخطب أن يصلى ركعتين إنما هى تحية المسجد كما أن قول الرسول صلى الله عليه وسلم بين كل أذانين صلاة مخصوص فى غير الجمعة كما جاء المدخل ، وأما الصلاة بعدها فهى سنة وهى ركعتان فى المنزل أو أربع فى المسجد لحديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُصَلِّيًا بَعْدَ الْجُمُعَةِ فَلْيُصَلِّ أَرْبَعًا » رواه مسلم وغيره .

وكان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يكثرون من العبادات يوم الجمعة يصلون مايشاءون ويقرءون القرآن ، وخاصة سورة الكهف ، لأن الرسول كان يحب قراءتها لأن فيها تذكرة بالمبدأ والمعاد . فإذا ماخرج الرسول من بيته وصعد المنبر أذن المؤذن على باب المسجد ، وعند ذلك ينصتون إلى المؤذن فيجيبونه

---

(١) النساء الآيات : ١٧١ ، ١٧٢

بخفض صوت ، يقولون مثله إلا فى حى على الصلاة ، وحى على الفلاح يحوقلون ، فإذا قال الله أكبر الأخيرة قالوا مثلها ، وكذلك لا إله إلا الله الأخيرة .

من هذا تعلم ماوقع فيه الكثيرون من الخطأ فى أنهم يسيئون سماع الأذان فى آخره فتراهم إذا ماسمعوا الله أكبر الله أكبر الأخيرة لايقولونها ثم يرفعون أصواتهم بلا إله إلا الله ، ويقومون قبل استكمال سماع الأذان ، وينطقون بلا إله إلا الله حين قيامهم ، وفى ذلك مخالفة لتعاليم الرسول ﷺ . وكان حقاً عليهم أن يخفضوا أصواتهم فى سماع الأذان وأن لا يهملوا الله أكبر الله أكبر الأخيرتين ، ولكن هى العادات قبحها الله تعالى قد استولت على القلوب فأعمتها . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يبدأ الخطبة بعد انتهاء الأذان مباشرة فلم يكن هناك صلاة ركعتين ولا أذان غير هذا الأذان .

ولكن وا أسفاه لم يسلم هذا الأذان من البدع ، فقد نقلوه من خارج المسجد إلى داخله لإعلان الحاضرين فيه بدل الخارجين عنه ، إن هذا لمن الجهل المبين ، حيث إنه مخالف لما كان عليه الرسول الكريم والأئمة المهتدون ، ولأنه لم يحقق الحكمة التى من أجلها شرع الأذان وهو إعلان الناس إلى الحضور لصلاة الجمعة .

أما الأذان الأول الذى يقع خارج المسجد الآن ، فقد أمر به عثمان بن عفان رضى الله عنه ، لأن المدينة قد امتد بناؤها ، واتسعت أرجاؤها ، فكانت فى حاجة إلى الأذان . ويرى بعض العلماء أن هذا الأذان ليس ببدعة لأنه تكرار للأذان ، فهو إعلان مكرر لاتشريع جديد ، ويرى آخرون أنه بدعة .

وحديث الرسول : « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ[1] » . يقصد به اتباع طريقتهم التى ساسوا بها الأمم ، والأحوط ترك الأذان الذى يقع أولا ، وعلى هذا لاحجة للقائلين بأن الجمعة لها ركعتان قبليتان .

---

(١) من الأربعين النووية .

وحكمة الأذان إظهار شعائر الدين ، وعلامة على دخول وقت الصلاة ، ورعاية للجماعة .

وسن أذان قبل الفجر لحديث الصحيحين من حديث سالم بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ بِلَالاً يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ » .

وفى صحيح مسلم عن سمرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لَا يَغُرَّنَّكُمْ نِدَاءُ بِلَالٍ وَلَا هٰذَا الْبَيَاضُ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ » .

وجاء فى رواية : « وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا إِلَّا أَنْ يَرْقَى ذَا وَيَنْزِلَ ذَا » .

تاسعاً — لم يتكىء الرسول ﷺ على سيف فى خطبة ، لا فى الجمعة ولا فى العيدين ، و إنما كان يتوكأ على عصا وقوس ثم على جذع نخلة ، فلما صنع له المنبر اكتفى به . فما يقوله البعض من أن الاتكاء على السيف سنة قول باطل .

عاشراً — على أئمة المساجد ألا يشرعوا فى الصلاة إلا بعد أن تتم الصفوف وتتساوى المناكب والظهور ، و ينبهون المصلين إلى أن التخلف عن الصف إن لم يكن مبطلا للصلاة كما رآه بعض الأئمة ، أقل مافيه الحرمان من ثواب الجماعة . دليل ذلك عن على بن شيبان قال : خرجنا حتى قدمنا على النبى صلى الله عليه وسلم فبايعناه وصلينا خلفه ، ثم صلينا وراءه صلاة أخرى فقضى الصلاة فرأى رجلا فرداً خلف الصف فوقف عليه حتى انصرف وقال : « اسْتَقْبِلْ صَلَاتَكَ ، لَا صَلَاةَ لِلَّذِى خَلْفَ الصَّفِّ » رواه أحمد وابن حبان .

إذاً فالتخلف عن الصف مبطل للصلاة كما يدل عليه سياق الحديث .

الحادى عشر — روى البيهقى والدارقطنى والحاكم أن عائشة رضى الله عنها كانت تؤم النساء ولكن فى وسطهن ، لأنه أستر لها ، والأولى أن تتقدم قليلا ليظهر الفرق بين الإمام والمأموم .

وقد ورد أيضاً أن أم ورقة استأذنت الرسول صلى الله عليه وسلم فى اتخاذ مؤذن لها فجعل لها مؤذناً وأمرها أن تؤم أهل دارها ، وكان المؤذن شيخاً كبيراً .
وقد أخذ بهذا الحديث طائفة من العلماء منهم المزنى وأبو ثور فى صحة إمامة المرأة للرجال ، ولكن الجمهور على خلاف ذلك .

حكم صلاة الجمعة على المذياع

أقام الإسلام حياة المجتمع على أسس سليمة قوية ، منها الإغراء بالاجتماعات التى تربط الناس بربهم ، وبين المسلمين بعضهم ببعض حتى تكون ، لاتفريق ولا إفساد ، ولا تآمر على الشر ولا عدوان ، من ذلك الاجتماعات اليومية فى المساجد لأهل الناحية والاجتماعات الأسبوعية لما هو أوسع من الناحية ، والاجتماعات السنوية للشعوب الإسلامية جميعاً : يوم عرفة ، ويوم الحج الأكبر .

لقد بلغ من عناية الشرع الحنيف أن توعد من يتخلف عنها شر وعيد ، ويعذبه أشد العذاب ، فقد جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنُ لَهَا ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيَؤُمَّ النَّاسَ ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ » .

وفى الحديث الذى رواه أبو داود يؤيد ذلك ، فقد روى أن عبد الله ابن مكتوم تقدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى شيخ ضرير البصر شاسع الدار ، بينى وبين المسجد نخيل وواد ، فهل من رخصة إن صليت فى منزلى ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : « أَتَسْمَعُ النِّدَاءَ ؟ » قال : نعم . قال : « أَجِبْ » فلم يرخص الرسول صلى الله عليه وسلم لأعمى بعيد الدار بينه وبين المسجد عقبات أن يصلى فى منزله ، بل لابد أن يذهب إلى المسجد ، وهذا أكبر حجة على أن صلاة الجمعة لاتصح فى المذياع .

وعن زيد بن أرقم قال : صلى النبي عليه السلام العيد ، ثم رخص فى الجمعة وقال : « مَنْ شَاءَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيُصَلِّ » رواه البخارى وغيره .

ومن حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه ﷺ قال : « قَدِ اجْتَمَعَ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا عِيدَانِ فَمَنْ شَاءَ أَجْزَأَهُ عَنِ الْجُمُعَةِ وَإِنَّا مُجَمِّعُونَ[١] » أخرجه أبو داود.

تدل هذه الأحاديث على أن القصد من الصلاة فى المساجد ، إنما هى الاجتماعات التى بها يتم التعارف والتآلف ، لأن اجتماع الناس لدى خطيبهم ، وبين يدى ربهم توثيق لعرا الإخاء ، وتبديد للوحشة ، إذ اتصال القلوب يزداد كلما تلاقت الوجوه فى ساحة الرجاء من الله . وحسبك فى ذلك التآزر والمعونات والتناصر وإرهاب العدو بتكتل المسلمين حول دعوة ربهم بتجمعهم من وقت إلى آخر فى بيوت الله تعالى التى تتساوى فيها الرءوس ، ويشعر كل واحد منهم أنه جزء من هذا المجتمع يسعد بسعادته ، ويشقى بشقائه ، فيصبحون إخواناً متراحمين ، وأخلاء متعاونين ، وعن الشر متباعدين .

هذا وإن صلاة الجمعة على المكرفون لايتحقق بها المعنى الذى قصده الشارع . لهذا رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ترك الجمعة لمن حضر صلاة العيد ، لأن الاجتماع قد تحقق بصلاة العيد ، على أن علماء الفقه قد قرروا على أن الصف الأول يقتدى بالإمام ، والصف الثانى يقتدى بالأول ، وهكذا يقتدى كل بالآخر مستدلين بأفعالهم على أفعال الإمام ، فإذا حال بينهم حائل يمنع ذلك لا تصح الصلاة .

والدليل على ذلك من السنة قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن ابن مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح منا كبنا فى الصلاة ويقول : « اسْتَوُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » رواه مسلم .

---

(١) يقال جمع القوم تجميعاً : شهدوا الجمعة وقضوا الصلاة فيها .

وقال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً ، قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[1] » .

وكفى بالكتاب والسنة دليلا .

سجدتا الشكر والتلاوة

أولا — سجدة الشكر :

عند تجدد نعمة ، أو اندفاع نقمة . وأما النعم المستمرة فشكرها يكون بالعبادات والطاعات . دليل ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا جاءه أمر يسره ، خر ساجداً شكراً لله تعالى ، أو أتاه بشير يبشره بظفر جند له على عدوهم ، قام وخر ساجداً . وكذلك سجد أبو بكر حين جاءه قتل مسيلمة الكذاب ، وسجد كعب بن مالك لما بشر بتوبة الله عليه ، وسجد عليّ حين وجد ذا الثدية فى قتلى الخوارج .

ثانياً — سجدة التلاوة :

تستحب للقارىء والسامع ، وتتأكد عند سجود القارىء ، وقد سجد عمر رضى الله عنه مرة وهو على المنبر ومرة لم يسجد وقال : يأيها الناس إنما نمر بالسجود ، فمن سجد فقد أصاب ، ومن لم يسجد فلا إثم عليه . رواه البخارى .

وجاء فى زاد المعاد أنه ﷺ ربما قال فى سجوده : « سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، اللَّهُمَّ احْطُطْ عَنِّي بِهَا وِزْراً وَاكْتُبْ لِي بِهَا أَجْراً ، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْراً ، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ

(١) الجمعة الآيات : ١٠ ، ١١

عَبْدِكَ دَاوُدَ » وقد اختلفت الروايات فى تحديدها ونختار منها أربعة عشر :

سجدتا الحج الأولى عند قوله : « إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَايَشَاء » .

الثانية عند قوله : « وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

الثالثة فى آخر الأعراف .   الرابعة فى آخر اقرأ باسم ربك .

الخامسة : فى آخر النجم . السادسة : فى الرعد عند قوله : « بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » .

السابعة : فى مريم عند قوله : « خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا » .

الثامنة : فى الفرقان عند قوله : « وَزَادَهُمْ نُفُوراً » .

التاسعة : فى النمل عند قوله : « رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .

العاشرة : الم تنزيل عند قوله «وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ» .

الحادية عشر : فى الانشقاق عند قوله : « لاَ يَسْجُدُونَ » .

الثانية عشر : فى فصلت عند قوله : « إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » .

الثالثة عشر : فى الإسراء عند قوله : « وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً » .

الرابعة عشر : فى النحل عند قوله : « وَيَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ » .

أما اشتراط الوضوء لها فيرى جمهور العلماء وجوبه وهناك طائفة من المجتهدين المحققين لاتشترط فيهما الوضوء لأنهما كالذكر والذكر يصح من غير وضوء ومن غير طهارة جنابة ، دليل ذلك أن الرسول ﷺ كان إذا سجد يسجد معه الصحابة جميعهم من غير أن يذهب أحد للوضوء أو يأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو قول وجيه ، ويرى صاحب سبل السلام أن الأرجح عدم الطهارة بعد أن ذكر الخلاف فى ذلك .

كان النبى صلى الله عليه وسلم يجعل الخطبة الثانية من أيام الجمع سورة (ق) حتى أن أم هشام بنت حارثة رضى الله عنها قالت : ماحفظت ق والقرآن المجيد إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب

الناس رواه مسلم . وكان إذا خطب يتوكأ على عصا أو قوس أو جذع نخلة ثم اتخذ له المنبر ثلاث درجات ، ولم يحفظ عنه أنه يتوكأ على سيف ، وكان ﷺ يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة سورة ألم تنزيل السجدة بكمالها فى الركعة الأولى ، وفى الثانية سورة هل أتى على الإنسان بكمالها ولم يفعل مايفعله كثير من الناس من قراءة السجدة .

أما تخصيصها بالآيات التى فى سورة السجدة من رقم ٣ إلى ١٧ لم يثبت فى السنة الصحيحة . ولم يكن من هديه صلى الله عليه وسلم .

كيف تؤدى السجدتان

اختلف العلماء فى تأديتهما وأركانهما ، ونختار من أقوالهم أنهما يؤديان بما يأتى :

نية قلبية ، وتكبيرة هوى للسجود ، وسجود ، وتكبيرة للرفع من السجود من غير رفع يد ، و إذا كانت سجدة التلاوة فى غير الصلاة يزاد فيها تكبيرة إحرام .

ومعروف أن سجدة الشكر لاتكون فى الصلاة ، بخلاف سجدة التلاوة ، فإنها تؤدى فى الصلاة وفى غير الصلاة .

المحاضرة الثالثة

الضمان الاجتماعى دستور إسلامى

أحمد الله ، وأصلى وأسلم على خاتم رسل الله .

أيها المستمعون الكرام : قد يتراءى لأبناء الجيل الحاضر أن فكرة الضمان الاجتماعى من مبتكرات القرن العشرين ، اقتضتها التطورات الفكرية ، وضرورة الحياة الاجتماعية والحاجة العمرانية ، وليس لها فى الشريعة الإسلامية أصل ترجع إليه ، ولا حكم تستند عليه . وهذا الظن الخاطىء يرجع إلى تقصير فى معرفة الأهداف التى ترنو إليها الشريعة الإسلامية ، وعدم دراسة أدوار البعثة المحمدية ، وسياسة الخلفاء الراشدين وأمراء المسلمين فى أزهى عصور الإسلام . إذ أن هذه الشريعة الإسلامية لم تقتصر على تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه ، بل تجاوزته إلى تنظيم الإصلاح الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، بما أودع الله فيها من سن مبادىء العدل ، وتقرير المساواة بين طبقات الشعب ، ووضع القواعد العامة التى يستنبط منها العلماء العاملون بمقاصد الشريعة والذين درسوا الحياة حلوها ومرها ، وأحاطوا علماً بما فى كتاب الله وسنة نبيه من أحكام وعقائد وآداب .

بهذا المقصد الأسمى ، وهذا العنصر الحى ، عنصر المرونة وهو الاجتهاد ، واجهت الشريعة الأحداث ، وسايرت الأزمان فى تقلباتها وتطوراتها فى بداوتها وحضارتها ، فى تقدمها وتأخرها . فمن الجحود الآثم أن نغمط الإسلام حقه وننكر فضله . ومن الوفاء أن نقرأ تاريخ الإسلام وسنة الحكام السابقين ، حتى لا يخالطنا ريب ولا يحيك فى صدورنا شك فى أن الشريعة الإسلامية لم تغفل عمن أعوزتهم الحاجة أو مسهم الضر ، وأنها أول من كفلت الضمان الاجتماعى ، بل تجاوزته إلى ما هو أبعد غاية وأوسع مدى . إذ أنها جعلت الحاكم مسئولا عن استتباب الأمن وتوفير الراحة لأبناء الشعب ، وحماية الأفراد من ذل السؤال ، والتردى به فى مهاوى الضعة والاحتقار .

فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ، مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلِأَهْلِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ مَالاً أَوْ ضَيَاعاً[1] فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ » رواه مسلم عن جابر .

فهذا الحديث يصفع ناصية الذين يتهمون الشريعة بالركود والجمود ، ويشعر الحاكم بخطر الحكم وعظيم المسئولية ، ويحصن الأسرة بحصن منيع ، وينسج لها دروعاً تقيها من السقوط .

وفى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن صاحب الشريعة ﷺ : «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِى أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِى بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِى مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » .

ومما لا ريب فيه أن مسئولية الراعى أقل ماتحمله كفالة اليتيم والأرملة والمسكين وذوى العاهات وابن السبيل .

عرف هذا حكام المسلمين الأولون ، فطبقوه فى حكمهم تطبيقاً قولياً وعملياً . وها هو ذا الخليفة الثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى قوماً يحيون حياة الترف ، وغيرهم فى شظف من العيش ، فقال رضى الله عنه : ألا إن قوماً يريدون أن يستأثروا بمال الله دون عباده ، فأما وابن الخطاب حى فلا . إنى آخذ بحلاقيم قريش وبحجزها أن يتهافتوا فى النار . وأما تطبيقه العملى فإنه كان لايخص نفسه بنعيم والناس يشقون ، ولا يرفه عن نفسه والقوم ممحلون .

قال ابن سعد فى الطبقات : أصاب الناس جدب وشدة فى عهد عمر حتى سموا تلك السنة سنة الرمداء لشدة سواد الأرض . فرأى عمر بطيخة فى يد بعض ولده

---

(١) الضياع : العيال .

فقال : بخ بخٍ[1] يا ابن أمير المؤمنين ، تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى . قال يزيد ابن أسلم : لو لم يرفع الله عام الرمادة لظننا عمر يموت هماً بأمر المسلمين . وتلك مأثرة يتضاءل أمامها كل ثناء ، وديموقراطية لم يجد بمثلها الزمان .

ومن مآثره الغراء : أنه وجد يهودياً يستجدى الناس فقال : ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه فى هرمه ، وفرض له نفقة من بيت مال المسلمين .

فخبرنى بربك أى سياسة أنزه من تلك السياسة البارة ، وأى حنان خالص من شوائب التصنع مثل هذا الحنان .

فأين أنتم ياقادة التفكير وأهل الرأى الضايع ، فما الذى قدمتموه عملياً للإنسانية العانية ، وهذا الشعب المسكين . لقد سئمنا صيحاتكم وقراراتكم ومبادئكم التى تطنطن بها صحفكم ، وتجلجل بها أصواتكم . ما أكثر خطبكم وما أندر الخطوات العملية من دعاتكم ! ؟ كم من قلوب مكلومة ، وكم من نفوس مشدوهة ، وكم من أكباد جائعة ، وأجسام عارية ؟

إن لنا فى العهد الحاضر أملا فى أن يخطو الخطوات العملية فى سبيل إصلاح حالتنا الاجتماعية ، والنهوض بها إلى المستوى اللائق بكرامتها ، وليقتدوا بصاحب الدعوة فى سياسته الرشيدة وحدبه على رعيته . وليذكر الأثرياء الإخاء الإسلامى الذى عقده الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، حينما انتقل من دار الأمان إلى دار السلام ، فقد تجلى فيها كل معانى التضحية والبذل ، وتلاشت فيها المادية الجارفة والأثرة الطاغية ، وامحت الفوارق القومية التى هى سبة الجيل الحاضر . فقد كان الأنصارى يبسط يده بكل ماتحت يده من متاع الحياة الدنيا لأخيه المهاجر و يقول له : دونك ياأخى ، خذ ماشئت ودع ماشئت . فإذا ماترفع عن شىء يأبى عليه إلا أن يجعله قسيمه حتى فى سراح بعض الزوجات ليتزوجها المهاجر حتى لايستأثر بشىء دونه .

---

(١) كلمة قال عند الرضا بالشىء ويراد بها هنا العكس .

وقد سجل القرآن الكريم ذكراهم ، ولا تزال على خلود الزمان وأبد الآباد . قال سبحانه : « والَّذِينَ تَبَوَّءوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١) » .

فإذا أضفنا إلى ذلك مافرضه الإسلام على كل ذى مال ، وجعله ركناً من أركان الدين نحو الضعفاء والمساكين ، ومشروعية الكفارات ، والتبعة الملقاة على عاتق من لايحث نفسه ولا غيره على إطعام المسكين ، والوعيد الشديد فى قوله تعالى : «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لاَيُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(٢) » . وما جاء فى سورة الماعون : « أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذٰلِكَ الذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ » .

وكذلك إغراؤه على السخاء وتفريج الكربات ، وجعلهم كالجسد الواحد ، ونفى الإيمان عمن لايحب لأخيه مايحب لنفسه ، كما جاء فى مسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » .

وفى البخارى : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »

فأنت ترى من بين هذه التعاليم الرشيدة أن الشريعة الإسلامية أتت بكل مايحتاجه الناس فى دينهم ودنياهم ، ولم تغفل عن أحد ، قال سبحانه : « وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ(٣) » .

---

(١) الحشر الآية : ٩ (٢) الحاقة الآيات : ٣٠ إلى ٣٤ (٣) المؤمنون الآية : ١٧

ولقد فرض عمر جزءاً من مال المسلمين لكل طفل جاوز الرضاع ، ثم رأى رضى الله عنه أن المراضع من الأمهات يحتان على القانون فيسرعن بفطام أولادهن فتألم لهذا ، فنادى : « لاتُعْجِلُوا صبيانكم على الفطام فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام . وكتب بذلك لعماله فى الآفاق .

من هذا نعلم أن الإسلام فرض على الأغنياء سد حاجة الفقراء إذا لم تكفهم الزكاة . وعلى هذا فالمال الخارج عن الزكاة لايشترط فيه نصاب معين ، ولا وقت كذلك ، بل هو على حسب مايقتضيه الحال . قال ابن حزم : « فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بواجب الفقراء الذين لم يجدوا مايسد حاجاتهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك إذا لم تقم الزكاة بهم .

وكذلك جاء فى التاريخ الصحيح أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه جعل الكفالة الاجتماعية فى مقدمة سياسته الرشيدة . وبعث إلى عماله ينذرهم سخط الله وسوء العاقبة إذا لم يرحموا اليتامى والأرامل والمنكوبين ، فأذكر ذوى الثروة والسعة بأن بينهم وبين الفقراء رحماً هى رحم الإنسانية ، فمن رضى لنفسه أن يقطعها ولا يصلها فقد برىء من الإنسانية وبرئت منه الإنسانية ، هذه هى سياسة الخلفاء السابقين ، وتعاليم الدين الحكيم .

ألا يخبرنى مخبر ماحظ فلاحنا المسكين الذى يكد طوال العام جاهداً فى أرضنا ومزارعنا يحرقه الحر ويقتله البرد ، ويروى أرضه بماء ريقه وذوب جسمه وعرق جبينه وشقاء أهله ، وياليته يظفر ببُلْغة العيش من هذه الثروة الطائلة التى كانت من عمل يده ، وشقى فى جمعها هو وأهله .

ليت شعرى ، متى تثوب الأمة إلى رشدها ، فترجع إلى دينها القويم ، ففيه والله حل المشكلات الاجتماعية ، والأزمات الاقتصادية والسياسية .

هذا ، وإن من الوفاء أن نذكر ما لحكومتنا الحاضرة من فضل على الشعب ، وخاصة الفلاحين ، فقد رفعت عنهم الأغلال التى كانت عليهم ،

وأصلحت من شئونهم بالإصلاح الزراعى . فشكر الله لها ذلك ، ووفقها إلى الضرب على أيدى العابثين بالأخلاق ، المستهينين بالدين ، حتى يتم لهم ما أرادوا بقوة الله ، والله ذو القوة المتين .

التاجر الصدوق

روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ » .

يرشدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى فضيلة من فضائل الإسلام ، ويدلنا على خير الطرق لنجاح التجارات ، إذ أن تعاليمه ﷺ تحمل بين طياتها إرشادات حكيمة ، وتعاليم رشيدة ، توجه الناس إلى مناهل الخير ، وتبعدهم عن منازع الشر . ذلك لأن هداية العقل قاصرة عن إدراك الخير كله حتى تسلكه ، وسبيل الشر حتى تتجنبه . قال سبحانه : « قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[1] » .

وقد دلت التجارب ونطقت الحوادث بأن تعاليمه صلى الله عليه وسلم ، هى خير تعليم أخرج للناس ، ولا تزال تتمشى مع اختلاف الأمم والأجيال ، وتطابق فطرة الإنسان ، ولا عجب فإنها من تشريع الرحمن .

المعاملات المالية

نظمت الشريعة الإسلامية المعاملات المالية ، فأحلت الصحيح منها الذى ليس فيه غبن ولا ضرر بأحد المتعاقدين ، وحرمت الفاسد الذى يضر بالمتعاقدين أو أحدهما . فمن ذلك البيع والشراء . قال سبحانه : « وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا[2] » . وهذا من التيسير الذى جاءت به الشريعة الإسلامية ، فإن فى ذلك

---

(١) المائدة الآيات : ١٥ ، ١٦   (٢) البقرة الآية : ٢٧٥

إيصال النفع إلى الكاسب و إلى غيره ، والسلامة من البطالة المؤدية إلى الفضول وكسر النفس ، والتعفف عن ذل السؤال ، واستجداء الناس .

التجـــارة

هى مورد من موارد الرزق ، وسبيل من سبل العيش . نوه الله بشأنها فى كتابه ، وامتدح رسول الله أصحابها . قال سبحانه : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[1] » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما . قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الكسب أفضل ؟ قال : «عَمَلَ الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ » رواه الطبرانى .

وقد افتتح حياته صلى الله عليه وسلم بها ، وأرشد أصحابه إليها . فقد جاء عن أنس رضى الله عنه أن رجلا من الأنصار أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : « أَمَا فِى بَيْتِكَ شَىْءٌ ؟ » قال : بلى : حِلْس[2] نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقَعْب[3] نشرب فيه من الماء ، قال : « ائْتِنِى بِهِمَا » فأتاه بهما ، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال : « مَنْ يَشْتَرِى مِنِّى هَذَيْنِ ؟ » قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ » مرتين أو ثلاثاً ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، فأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى وقال : « اشْتَرِ بِأَحدهِمَا طَعَاماً فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ ، وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُوماً فَأْتِنِى بِهِ » فأتاه به ، فشد به رسول الله صلى الله عليه وسلم عوداً بيده ثم قال : « اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً » . ففعل ،

(١) الجمعة الآيات : ٩ ، ١٠ (٢) الحلس : كساء غليظ (٣) القعب : القدح .

فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً و ببعضها طعاماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « هٰذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » رواه أبو داود .

وفى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَداً فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ » .

وها هى أولاء أصحاب رسول الله ﷺ لم يخلدوا إلى الراحة والكسل ، ولا إلى الاستكانة والتوا كل حتى كثرت ميادين النشاط بينهم . فكان نشاطهم لا يفتر ، وجذوة حركاتهم لا تخمد ، بما غرسه الإسلام فيهم من عزة النفس و إباء الضيم ، والزهد عما فى أيدى الناس . من هؤلاء العزاز عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه آخى النبى ﷺ بينه و بين سعد بن الربيع بعد أن هاجر إلى المدينة . فقال له سعد : ياعبد الرحمن ، مالى شطران : لى شطر ولك شطر ، و إن لى زوجتين أطلق إحداهما لتتزوج منها . فقال له عبد الرحمن : لاحاجة لى إلى مالك ولا إلى أهلك ، بارك الله لك فيهما ، ولكن دلنى على السوق . وتاجر عبد الرحمن فأثرى فى الإسلام إثراء ضخماً ، حتى لقد قدم له مرة سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام . فلما دخلت المدينة سمع لأهلها رجة ، فتصدق بها و بما تحمل فى سبيل الله .

وها هو ذا أبو بكر الصديق لم يمنعه جلال الخلافة والمنصب أن يتجر ، فقد نقل التاريخ الصحيح أنه بعد أن تولى الخلافة أصبح يحمل أثواباً يتجر بها ، فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، فمنعاه ليتفرغ لشئون الرعية وجعلا له جزءاً من بيت المال يعيش منه .

من هذا نعلم أن الحياة الدنيا حياة كفاح وعمل ، لاحياة بطالة وكسل ، وأن أفضل الكسب كسب اليد .

وقد روى البخارى عن المقدام بنمعد يكرب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « مَاأَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » .

فسيدنا داود عليه السلام كان يعمل الدروع من الحديد ويأكل منها ، وما كان فى حاجة إلى هذا لأنه كان خليفة وملكاً كما جاء فى القرآن الكريم : « يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَاتَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ[1] » . وإنما قصد الأكل من طريق أفضل . وكذلك كان نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلقد بدأ حياته برعىالغنم ، ثم انتقل منها إلى التجارة . حسبنا فى ذلك أن الله تعالى قرن التجار الصادقين بالمجاهدين ، قال سبحانه : « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ[2] » .

السعى شطر التوكل على الله

يخطىء كثير من الناس فى فهم التوكل على الله ، فيزعمون أنه هو الركون إلى قدر الله والثقة به من غير الأخذ فى الأسباب ، ويسوقون الحديث المشهور : « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَاناً » رواه الترمذى .

وقول الله تعالى : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[3] » .

قال أبو قلابة لرجل : لَأَنْ أراك تطلب معاشك أحب إلىّ من أن أراك فى زاوية المسجد . ولقد أخرج الحاكم وابن أبى الدنيا عن معاوية بن قرة قال : لقى عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال : من أنتم ؟ فقالوا : متوكلون !

---

(١) ص الآية : ٢٦ (٢) المزمل الآية : ٢٠ (٣) الطلاق الآية : ٣

قال : كذبتم !! ماأنتم متوكلون ! ! إنما المتوكل الذى ألقى حبة فى الأرض وتوكل على الله .

والحق أن هذه غفلة مستحكمة وجهل مزر ، إذ أن التوكل على الله تعالى لا يكون ولا يتحقق إلا إذا أخذ العامل فى الأسباب المسخرة التى أمرنا الله تعالى بأن نسلكها . وكيف تكون منافية للتوكل ، والله هو الذى أمرنا بها ، والقرآن كله يأمر بالعمل والأخذ فى السبل . وحياة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه حافلة بالعمل ، إذ أن التوكل على الله تعالى أن يأخذ المرء فى الأسباب الكونية المأمور بها . ويعد للأمر عدته ، ثم لا يغتر بحوله وقوته بل يكل إلى الله نجاحه ، ويعتمد على حوله وقوته ، فإن عوائق النجاح كثيرة ولا يحيط بها إلا هو سبحانه ، وهو القادر وحده على إزالتها لمن توكل عليه ، فإنه يحب المتوكلين .

والحديث المذكور ينبىء عن ذلك كله ، إذ أنه ينطق بأن الطير لم تستكن فى أوكارها حتى يأتيها رزقها رغداً ، بل لابد لها من السعى ، وهو أن تذهب صباحاً لتلتمس رزقها ، وترجع مساء بطاناً[1] بعد أن كانت خماصاً[2] .

وإنى لأعجب من هذه الطائفة البائسة التى اشترت الضلالة بالهدى ، واستبدلت الطيب بالخبيث . فانصرفت عن هذه المهنة ، والكسب الطيب الحلال ، إلى الشحاذة والاستجداء . فاستمرءوا البطالة والكسل ، ورضوا لأنفسهم الذل والمسكنة ، وهم قادرون على أن يسلكوا أى سبيل يرتزقون منه ، وقد فتح الله لهم أبواب الرزق ، وسهل لهم سبيله وذلل لهم طرقه ، قال سبحانه : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ »[3] .

إن هؤلاء اشر مكاناً من اللصوص وأضل سبيلا ، لأنهم قد أذلوا أنفسهم وأضاعوا كرامتهم ، وأراقوا ماء وجوههم ، وخدعوا الناس بزخرف قولهم

---

(١) بطاناً : شبعى (٢) خماصاً : جائعة (٣) الملك الآية : ١٥

ورثاثة هيئتهم ، ليستنزفوا الدموع ، ويحركوا العواطف الكامنة فى النفوس ، فيتصدق عليهم بالمال : « يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ[١] » .

ألا فليعلم هؤلاء أن مايأخذونه من الناس إنما هو سحتٌ وحرام . ففى حديث البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ رِجَالا يَتَخَوَّضُونَ فى مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، ويقول أيضاً : « إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَخْرُجُ بِصَدَقَتِهِ مِنْ عِنْدِى يَتَأَبَّطُهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ لَهُ نَارٌ ، قلتُ يارسولَ اللهِ كيف تُعطيه وقد علمتَ أنها لهُ نارٌ ؟ قال : « فَمَاذَا أَصْنَعُ يَأْبَوْنَ إِلاَّ مَسْأَلَتِي وَيَأْبَى اللهُ لِيَ الْبُخْلَ[٢] » القائل عمر رضى الله عنه .

وروى الطبرانى عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر يوم غزوة تبوك ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ياأيُّها النّاسُ إِنِّى مَا آمُرُكُمْ إِلاَّ بِمَا أَمَرَكُمُ اللهُ ، وَلاَ أَنْهَاكُمْ إِلاَّ عَمَّا نَهَاكُمُ اللهُ عَنْهُ ، فَأَجْمِلُوا فى الطَّلَبِ ، فوالَّذِى نَفْسُ أَبُوالقاسمِ بيدِهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَطْلُبُهُ رِزْقُهُ كما يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ ، فإِنْ تَعَسَّرَ عَلَيْكُمْ شيءٌ فاطْلُبُوهُ بطَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

المعنى الإجمالى

روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء » .

ومعروف أن المعية فى مثل هذا الحديث وفى قول الله تعالى : «وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشهدَاءِ وَالصَّالِحِينَ[٣] » . إنما هى معية مكان فى الجنة لامعية درجات ، ومعنى هذا أنه

---

(١) البقرة : الآية ٩ (٢) رواية جيدة لأبى يعلى من الترغيب والترهيب للمنذرى .
(٣) النساء الآية : ٦٩

يجتمع معهم فى الجنة . وإن كانوا يتفاضلون فى الثواب والدرجات ، كما قال جل شأنه : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١) » .

يرشدنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، إلى أن التاجر متى أخلص فى تجارته وراقب ربه ، فلم يغش أحداً فى معاملته ، ولم يروج تجارته بنوع من أنواع المخادعة ، فله من الله عظيم الأجر وجزيل الثواب ، وكذلك يعطيه الله تعالى فى الدنيا . قال سبحانه : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٢) » .

الصدق فى التجارة

الصدق أن تقول وتفعل ما تعتقد أنه حق ، وهو نوعان : قول وعمل . أما الأول فمطابقة الخبر للواقع ، وهو أساس التفاهم الذى يقوم عليه العمران ، وبه تنتظم المعيشة ويصلح به المجتمع ونعم العون على الحياة . فإذا فقد الصدق استحال التعاون ، وفسدت العقائد وانحلت الروابط ، وامحت ثقة الناس بعضهم ببعض . وعاشوا فى جو ملىء بالقلق والاضطراب . لذلك حرم الله الكذب ، وحذر منه الرسول ، لأنه يقطع حبل التراحم ، ويمزق روابط الألفة والمحبة . قال سبحانه مرغباً فى الصدق : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (٣) » وقال محذراً عن الكذب : « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (٤) » .

وفى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه : قال قال رسول الله ﷺ : «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا زَالَ الرَّجُلُ يَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً . وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ

(١) الأنعام الآية : ١٣٢ (٢) النحل الآية : ٣٠
(٣) التوبة الآية : ١١٩ (٤) النحل الآية : ١٠٥

الْـكَذِبَ يَهْدِى إلى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِى إلى النَّارِ ، وَمَا زَالَ الْعَبْدُ يَـكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْـكَذِبَ حَتَّى يُـكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كانَ مُنَافِقاً خَالِصًا وَمَنْ كانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاق حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا ائْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ[1] » رواه البخارى ومسلم .

خرج أحد الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى الناس يتبايعون فقال : « يَا مَعْشَرَ التُّجَّار » فاسْتَجَابُوا لرسـولِ اللهِ ﷺ ورفعُوا أعناقهم وأبصارهم ، فقال « إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّاراً ، إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللهَ وَبَرَّ وصَدَقَ » رواه الترمذى وابن ماجه .

وحسب الصادق أن يـكون مرموقاً بالإجلال والاحترام ، والـكذاب موضع الزراية والاحتقـار ، وجفاء الناس عنه ، وسخط الله . قال أعرابى لابنه وسمعه يكذب : « يابنى عجبت من الـكذاب المشيد بكذبه ، وإنما يدل على عيبه ويتعرض للعقاب من ربه . فالآثام له عادة والأخبار عنه متضادة ، إن قال حقاً لم يصدق ، وإن أراد خيراً لم يوفق ، فهو الجانى على نفسه بفعاله ، والدال على فضيحته بمقاله . فما صح من صدقه نسب إلى غيره ، وما صح من كذب غيره نسب إليه .

فما أحوج التاجر إلى الصدق ، فهو يبنى له مقاماً بين الناس ويلتفون حوله ، ولا يؤثرونه على غيره ، ويهشون للقائه ، ويبشون لرؤيته ، ويسعون فى مرضاته . على هـذا الأساس تروج تجارته وتنمو ثروته ، ويدوى صيته فى أرجاء المعمورة . لهـذا رغَّب فيه النبي ﷺ أيما ترغيب . فعن الحسين بن على رضى الله عنهما

---

(١) فجر : فسق .

قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَالْكَذِبَ رِيبَةٌ» رواه الترمذى .

والصدق فى التجارة ينتظم ما يأتى :

توحد الأسعار فى السلع . إظهار عيوبها الخفية . تجنب الجشع والاحتكار فى وقت الغلاء . عدم رواجها بما ليس فيها ، والحلف بالباطل . حسن المعاملة . تبادل الثقة بين الشركاء . تأدية زكاة التجارة .

أما توحد الأسعار فى السلع ففيه رواجها ونفاق التجارة وإيثاره على غيره ، وطمأنينة النفس إليه ، وتوفير للزمن ، وراحة للضمير . فإذا ما شاع فى الناس أنه يكيل بكيلين ويزن بميزانين ، فأقل مايجنيه انفضاض الناس من حوله وفقد ثقتهم به . وبذلك تبور بضاعته ، وتخسر تجارته ، ويفقد رأس ماله ، ومحال أن تقوم له قائمة أو ترفع له راية .

والأمثلة فى ذلك كثيرة . فكم من تاجر اتجر فأثرى إثراء عظيما . وكأيٍّ من تاجر خسر خسراناً مبيناً ؟ وليس لهذا سبب سوى فقد الثقة به .

كذلك من الصدق فى التجارة أن يبين البائع عيوب سلعته التى تخفى على المشترى . روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ إِذَا بَاعَ مِنْ أَخِيهِ بَيْعاً فيهِ عَيْبٌ إِلَّا بَيَّنَهُ » .

وفى البخارى عن زياد بن علاقة قال : سمعت جرير بن عبد الله يقول يوم مات المغيرة بن شعبة : أما بعد . فإنى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أبايعك على الإسلام ؟ فشرط علىّ والنصح لكل مسلم ، فبايعته على هذا ، ورب هذا المسجد إنى لكم الناصح .

وعن أبى سباع قال : «اشتريت ناقة من دار واثلة بن الأسقع ، فلما خرجت بها أدركنى يجر إزاره ، فقال : اشتريت ؟ قلت : نعم . قال : أبين لك ما فيها . قلت : وما فيها ؟ قال : إنها لسمينة ظاهرة الصحة . قال : أردت بها سفراً

أو أردت بها لحماً ؟ قلت : أردت بهـا الحج . قال : فارتجعها . فقال صاحبها : ما أردت إلى هذا ؟ أصلحك الله تفسد عليّ . قال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يَبِيعُ شَيْئاً إِلَّا بَيَّنَ مَافِيهِ ، وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ عَلِمَ ذَٰلِكَ إِلَّا بَيَّنَهُ » رواه الحاكم والبيهقى .

أما الجشع فى التجارة بارتفاع الثمن عما عليه حيه الذى فيه تجارته فهو آفة من شر الآفات ، وخاصة احتـكار السلعة والناس فى حاجة إليها لينتظر الغلاء ، فقد ورد الوعيد الشـديد في هؤلاء المحتـكرين . من ذلك قول الرسول ﷺ : « مَنِ احْتَـكَرَ طَعَاماً فَهُوَ خَاطِئٌ » رواه مسلم .

وعن معمر بن أبى معمر عن الهيثم بن رافع عن أبى يحيى المـكى عن فروخ مولى عثمان بن عفان ، أن طعاماً ألقى على باب المسجد ، فخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو أمير المؤمنين يومئذ ، فقال : ماهذا الطعام ؟ فقالوا : طعام جلب إلينا أو علينا . فقال : بارك الله فيه وفيمن جلبه إلينا أو علينا . فقال له بعض الذين معه : يا أمير المؤمنين ، قد احتـكر . قال : ومن احتـكره ؟ قالوا : احتـكره فروخ وفلان مولى عمر بن الخطاب . فأرسل إليهما ، فأتياه . فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، نشترى بأموالنا ونبيع . فقال عمر رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنِ احْتَـكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ضَرَبَهُ اللهُ بِالْجُذَامِ وَالْإِفْلَاسِ » فقال : عند ذلك فروخ يا أمير المؤمنين ، فإنى أعاهد الله وأعاهدك ألا أعود فى احتـكار طعام أبداً ، فتحول إلى مصر . وأما مولى عمر فقال : نشترى بأموالنا ونبيع . فزعم أبو يحيى أنه رأى مولى عمر مجذوماً مشدوخاً . رواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب .

كثير من الناس ينعت سلعته بنعوت ، ويصفها بما ليس فيها ، ليرغب فيها المشترى ويجيبه إليها ، وهذا من الغش الذى لا يرضاه الله ولا رسوله . فمن يفعل

ذلك فقد باء بغضب من الله ، ووسم بالخيانة التى تنزل به إلى الدرك الأسفل من الضعة والهوان ، وانحطت مكانته وضاعت هيبته ، واستهدف لسهام الاحتقار .

أما الأمين فتراه سامى المنزلة محاطاً بالإكبار والإعظام ، موصوفاً بالأمانة التى هى عماد التعاون وركن المعاملات وروح الاجتماع ولشدة حرص النبى ﷺ عليها كان يتفقد شئون التجار بنفسه ، فقد مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال : « مَاهَذَا يَاصَاحِبَ الطَّعَامِ ؟ قال أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَارَسُولَ اللهِ . قالَ : « أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ ، مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » . رواه مسلم عن أبى هريرة .

إذاً على كل تاجر يتوخى الكسب الحلال ويرضى بما قسم الله ، ألا يخدع أحداً فى معاملة حتى لايشوب تجارته مال حرام ، فيكون من الذين ذكرهم فى كتابه : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً(١) » وشر من هذا التاجر الذى يروج تجارته باليمين الكاذبة .

فعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقِّهِ لَقِىَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » . قال عبد الله : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عز وجل : « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلَاقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢) » .

وفيه أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى صلى الله

(١) النساء الآية ٢٩ (٢) آل عمران الآية ٧٧ .

عليه وسلم قال : « الْكَبَائِرُ الإِشْرَاكُ بِاللهِ ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ : وَقَتْلُ النَّفْسِ ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ » .

وفى رواية له أن أعرابياً جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، ما الكبائر ؟ قال : « الإِشْرَاكُ باللهِ » قال : ثم ماذا ؟ قال : « الْيَمِينُ الْغَمُوسُ » فقلت وما اليمين الغموس ؟ قال : « الَّذِى يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ » يعنى بيمين هو فيها كاذب ، وما سميت غموساً إلا لأنها تغمس الحالف فى الإثم فى الدنيا وفى النار فى الآخرة . رواه البخارى .

ألا فليتق الله هؤلاء التجار الذين يكثرون من الحلف وإن كانوا صادقين ، ولا يغترون بنفاق السلعة ورواجها ، فإن ما يصيبها من المحق ونزع البركة أضعاف الأضعاف من كسبها ، والشواهد فى ذلك كثيرة . هذه هى الدنيا أمامكم هل وجدتم أحداً روج تجارته بالحلف الكاذب إلا كما زاد نقص ، وكما ارتفع سقط .

وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ » . متفق عليه .

وعن أبى قتادة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ فى الْبَيْعِ ، فإِنَّهُ يَنْفُقُ ثُمَّ يَمْحَقُ » . رواه مسلم وغيره عن أبى قتادة .

حسن المعاملة

لنا فى رسول الله أسوة حسنة ، فقد كانت تجارته ﷺ مبنية على حسن المعاملة ، إذ أنه كان يتجاوز عن المسىء ، ويعفو عمن ظلمه ، ويقابل السيئة بالحسنة ، والحسنة بأضعافها حتى لانت له القلوب ، واطمأنت إليه النفوس ، ونجح فى تجارته .

وليس من شك فى أن المعاملة الحسنة أكبر مظهر للأخلاق الفاضلة ، تذلل سبل التجارة ، وبها تسهل المخالطة وتطيب المعاشرة وتصفو المعيشة ، وبها يؤثر الناس الشخص على غيره ، وإن كان أغلاهم ثمناً وأقلهم تجارة . وكم رأينا من تجارة بارت بعد رواجها ، وكسدت بعد نفاقها ، وشركات انحطت بعد ارتقائها ، ومصانع أغلقت بعد افتتاحها ، وشركات انحلت بعد تأليفها ، ولا سبب لذلك سوى سوء المعاملة .

ولست فى حاجة إلى إقامة أدلة أو براهين . فهذه هى حياتنا الدنيا ، كلها عبر وعظات تنبه الغافلين ، وتوقظ النائمين .

كفى بالمرء واعظاً أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدى

وإذ قد عرفت أن حسن المعاملة تقتضى الصدق فى الوعد ، والوفاء بالعهد ، وأداء الحقوق ، وأدب الخطاب ، ولطف المعاشرة ، فليس ثمة شك فى أنها تغرس فى القلوب المحبة والوداد ، فلا يكون له من الناس إلا الأخ الوفى ، والصديق الحميم ، وكفى بها ربحاً .

والآثار فى ذلك كثيرة . فعن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ ، وَجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيمًا وَلِسَانَهُ صَادِقًا وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً وَخَلِيقَتَه مُسْتَقِيمَةً[٢] » .

عن أبى ذر قال : قال رسول الله : « اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ[١] » .

وقال أيضاً : « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا ، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ

---

(١) للمنذرى فى الترغيب والترهيب فى الترمذى .

(٢) فى الأربعين النووية .

الأَحِبَّةِ ، البَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَيْبَ » رواه الطبرانى عن أبى هريرة .

ومن حسن المعاملة : السماحة فى البيع والشراء ، فإنها تدل على حسن المنبت وكرم المَحْتِد وطهارة الأصل ، ومن أسباب النجاح فى الدنيا والآخرة .

فعن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رَحِمَ اللهُ عَبْدًا ، سَمْحاً إِذَا بَاعَ ، سَمْحاً إِذَا اشْتَرَى ، سَمْحاً إِذَا اقْتَضَى» رواه البخارى .

وفيه أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رجلا أتى النبى ﷺ يتقاضاه ، فأغلظ له ، فهمَّ به أصحابه ، فقال رسول الله صل الله عليه وسلم : « دَعُوهُ فإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً » ثم قال : « أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ » . قالوا : يارسول الله ، لانجد إلا أمثل من سنه . قال : « أَعْطُوهُ فإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً » .

ومن المعاملة عدم التطفيف فى الكيل والميزان ، والتطفيف فى الكيل والميزان ، ضرب من ضروب الجشع ، ونوع من أنواع الغش ، وليس شىء أسرع كساداً للتجارة منه . ولا أضيع للشرف وأذهب للمروءة وأعظم ضرراً وأكبر غضباً لله منه . وقد بعث الله نبياً من الأنبياء لمحاربته . وأنزل عذابه على قومه حيث لم يقلعوا عنه وأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، ذاك النبى هو سيدنا شعيب عليه السلام . وقد قص علينا القرآن قصته ، فقال سبحانه وتعالى : « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ، وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ۞ وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ[1] » .

---

(١) هود الآيات : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله عز وجل : « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ[1] » فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

وروى ابن ماجه عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال : « يَامَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسُ خِصَالٍ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِى أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا . وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَافِى أَيْدِيهِمْ . وَمَا لَمْ تَعْمَلْ أَئِمَّتُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِى كِتَابِهِ إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة ، قال يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل فى سبيل الله فيقال له أد أمانتك فيقول : أى رب ، كيف وقد ذهبت الدنيا ، قال : انطلقوا به إلى الهاوية . فينطلق به إلى الهاوية وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه ، فيراها فيعرفها ، فيهوى فى أثرها حتى يدركها ، فيحملها على منكبيه ، فهو يهوى فى أثرها أبد الآبدين . ثم قال : الصلاةُ أمانةٌ ، والوضوء أمانةٌ ، والوزن أمانةٌ ، والكيلُ أمانةٌ ، وأشياء عدها ، وأشد من ذلك الودائع . قال يعنى زاذان . فأتيت البراء ابن عازب فقلت : ألا ترى إلى ماقال ابن مسعود . قال كذا قال كذا . قال :

---

(١) المطففين الآية : ٣

صـدق ، أما سمعت الله يقول : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا [١] » .

ومن أسوأ المعاملة خيانة أحد الشريكين الآخر ، فإنها رائدة البوار ، ونذيرة الفشل والخسران ، وفاقـدة الثقة التى هى من أسس النجاح فى الدنيا ، وعماد السعادة فى الآخرة . قال سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [٣] » .

وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَقُولُ اللهُ أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ، فَإِذَا خَانَ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا » .

فيا أيها التجار اصدقوا فى قولكم ، واخلصوا فى معاملاتكم ، فقد علمتم ماوعد الله به الصادقين من المثوبة فى الدنيا والآخرة ، وما توعد به الكاذبين من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

تأدية الزكاة

من الصدق فى التجارة ، تأدية حق الأرملة واليتيم والبائس الفقير الذى جعل الله تعالى لهم حقاً فى سلع التجارة ورءوس الأموال ، كل جنيه قرشان ونصف فى كل عام . فمن أداها بارك الله له فى تجارته ودفع عنه آفات الدنيا ومصائبها .

---

(١) أحمد فى الترغيب والترهيب للمنذرى (٢) النساء الآية : ٥٨
(٣) الأنفال : ٢٧

المحاضرة الرابعة

الجهاد

أحمد الله ، وأصلى وأسلم على خير المجاهدين ، وأول من تنشق الأرض عنه إلى يوم الدين .

قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) » .

أيها المستمعون الكرام : إن الله تعالى قد فرض الجهاد ، وجعله ماضياً فى هذه الأمة إلى أن تنتهى الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم : « وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِى اللهُ تَعَالَى لَا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ إِلَى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ الدَّجَّالَ » رواه أبو داود .

فرضه سبحانه دفاعاً عن الدين والوطن ، وللقضاء على الفتن التى تقضى على الشعوب ، وتفسد الأخلاق ، وكذلك قتال ناقضى العهود والمواثيق ، ولا يجنح الدين للانتقام إلا عند الضرورة الملحة ، دليل ذلك ماجاء فى القرآن الكريم : « فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٢) » . وقوله تعالى : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ (٣) » . فهو دائماً يؤثر السلم على الحرب ، ولا يحمل حقداً لأحد ، ويدعو إلى الوحدة الإنسانية ومحو الفوارق الطائفية ، التى فرقت بين الإنسان والإنسان ، والجماعة والجماعة . كما أنه أهدر

---

(١) التوبة الآيات : ٣٨ ، ٣٩ (٢) النساء الآية : ٩٠ (٣) التوبة الآية : ٦

جميع الموازين التى ألفها الناس بتقدير ، قيم الأشخاص بالجاه والمال ، إلا ميزان الكفاءة ، والعمل الصالح والخلق الكريم . يؤيد ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم « مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ[1] » .

لهذا بدأ نبي الإسلام جهاده بالقول والبيان والحجة والبرهان ، وأن يهيب بالناس إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض وما أبدع فى الكون من بديع الصنع وآيات الإحكام والإبداع . على هذا النحو من الاستدلال العقلى قامت الدعوة المحمدية ، بدأ جهاده أولا بالحجة والبرهان ، والتفكر فى خلق السموات والأرض ، ليصلوا إلى الله من طريق الفكر لا من طريق الإكراه . فكان لذلك من التأثير على النفوس وغزو القلوب مالا يكون لقواطع السيوف . وإن من يتتبع آيات القرآن الكريم وسيرة النبي ﷺ ، ويقف على أسباب كل غزوة من الغزوات ، يتحقق له كذب مايزعمه أعداء الإسلام ، من أن الإسلام ماانتشر إلا على أسنة الرماح ، وأساس الوحشية العربية والهمجية البدوية . كيف وقد قرر علماء النفس أن السيف لايقر عقيدة ولاينشر ديناً ، بل يزيد الإنسان تمسكاً بعقيدته الأولى ، وتمادياً فى الباطل ، وتحفظاً على كتمان مافى النفوس من مقاصد سيئة . وهذا من شأنه يكثر من عدد المنافقين فينقلبون على المسلمين .

هذا ولم يفتأ الأجانب يقومون بالدعاية الخاطئة ضد الإسلام من أمور دنسة يزعزعون بها عقائد المسلمين ، ويشككونهم فى دينهم ، ويمدون إلى أهله أيديهم وألسنتهم بالسوء ، متمسكين بآيات لما يأتهم تأويلها ، وأحاديث لم يحسنوا فهمها. من ذلك قول الله تعالى : «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ[2]» وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللهِ ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ » رواه البخارى عن أبى هريرة .

---

(١) تقدم تخريجه (٢) التحريم الآية : ٩

والحق أن آيات الجهاد ، ومثل الحديث المذكور ، إنما هى فى قتال الكفار المحاربين الذين كانوا فى جزيرة العرب ، فقد عقدوا خناصرهم وشدوا أواصرهم على محاربة الرسول وأصحابه ، مصداق ذلك قوله تعالى : « وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا[1] » . فقتالهم إنما كان لمقابلة العدوان بمثله ، وهذا أمر تقره الأديان السماوية ، والعقول البشرية ، قال تعالى : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[2] » .

وقال سبحانه : « وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً[3] » .

لهذا جعل الله الجهاد من أحب الأعمال إليه ، وإن أفضل الموت موت الشهداء . قال تعالى : « لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً[4] » .

وسئل الرسول ﷺ عن أفضل الأعمال فقال : « إِيمَانٌ لاَ شَكَّ فِيهِ وَغَزْوٌ لاَ غُلُولَ فِيهِ وَحَجٌّ مَبْرُورٌ » رواه البخارى عن أبى هريرة .

وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ

---

(١) البقرة الآية : ٢١٧ (٢) آل عمران الآيات : ١٤٦ ، ١٤٧
(٣) الحج الآية : ٤٠ (٤) النساء الآية : ٩٥

عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[1] » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ وَمَاتَ ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ » رواه مسلم .

وعن أنس رضى الله عنه قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ » رواه أحمد .

وقال صلى الله عليه وسلم لحسان : « إِنَّ هَجْوَ الْكُفَّارِ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ » من سبل السلام للصنعانى .

وقال أبو بكر الصديق : «لايدع أحدكم الجهاد ، فإنه لايدعه قوم إلا ضرب الله عليهم الذلة . وقد مضى على المسلمين رَدَحٌ من الزمن عطلوا فيه الجهاد وبخلوا بالمال ، فجنوا من بخلهم الذل والخنوع ، والفقر والجوع ، وعزت عليهم الحياة ففقدوها » وأبى الله إلا تصديق رسوله . فقد روى أبو داود والبيهقى عن ثوبان مرفوعاً : « يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا » ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَسَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِى قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ » قال قائل : يارسول الله ، وما الوهن ؟ قال : « حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ » . هنا وقد أتى على العرب حين من الدهر ، ساءهم الغرباء فى أرضهم ، وأذلهم الأجانب فى عقر دارهم ، حتى جاءهم الإسلام فأنقذهم مما كانوا فيه من ذل واستعباد ، وخضعت لهم الممالك العظام والقياصرة والأكاسرة ، من ذلك اليونان الذى سبقت العالم بالعلم فكانت ولاية عثمانية يحكمها الأتراك .

---

(١) الصف الآية : ١١

ومعروف أن الجهاد لايجب على النساء . فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قلت : يارسول الله ، أعلى النساء جهاد ؟ قال : « نَعَمْ جِهَادٌ لاَ قِتَالَ فِيهِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ » رواه ابن ماجه .

نعم الدفاع يجب عليهن ويكون فرض عين عند اقتحام العدو بلادنا ، وهجومه علينا . فقد أخرج مسلم من حديث أنس رضى الله عنه أن أم سليم اتخذت خنجراً يوم حنين وقالت للنبي صلى الله عليه وسلم : « اتخذته إن دنا منى أحد من المشركين بقرت بطنه » .

فهذا يدل على أن الدفاع واجب وأنه فرض عين ، كذلك إذا استنفرهم الإمام ، أو كان العدو المحارب أكثر منا عدداً .

من هذا يتبين للقارىء الكريم أن الإسلام دين تراحم وسلم ، قال سبحانه « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ(١) » .

لهذا كان التراحم وحقن الدماء يسيطر على أعمال المسلمين فى سياسة حكمهم . ولقد حدث أن نقض الروم عهدهم زمن معاوية ، وكان لدى معاوية رهائن من الروم ، فامتنع المسلمون جميعاً من قتالهم وخلوا سبيلهم ، وقال معاوية : « وفاء بغدر ، خير من غدر بغدر » .

وكان على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، يعهد إلى بعض أمرائه بالوصية الآتية : « إياك وسفك الدماء بغير حلها ، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ، ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مودة ، من سفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه وتعالى مبتدىء بالحكم بين عباده فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة ، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فإن . ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزيله وينقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندى » .

---

(١) الأنفال الآيات : ٦١ ، ٦٢

وكان القائد الإسلامى يخرج إلى ساحة القتال، ومعه عُدّة الدفاع ومنشور السلام رجاء أن يؤثر الأعداء السلم على الحرب. قال سبحانه: «لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[1]».

ولا يفوتنى أن أبيّن للمستمعين أن الجهاد فى سبيل الله، ليس قاصراً عن الدفاع عن الدين والوطن، بل فى سبيل الله يعم الدفاع عن الحق، والصبر على المكاره وتعلم العلم ونشره، ومقاومة نزوات النفس والهوى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبذل المال فى سبيل الخير وما إلى ذلك مما فيه صلاح الدنيا والدين.

وقد جاء فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَعْظَمَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» غير أن شهيد المعركة فى أعلى الدرجات لا يسبقه أحد فى منزلته عند الله تعالى، لهذا لابد أن يدفن فى ثيابه الذى قتل فيه، ولا يغسل ولا يصلى عليه. ومما أثر عن أحد الصحابة الذين جاهدوا بأموالهم وهو أحد البكائين الذين لم يجدوا لهم ظهراً يجاهدون عليه، واسمه علبة بن زيد أنه صلى من الليل وبكى وأتى رسول الله ﷺ وقال: اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل فى يد الرسول مايحملنى عليه، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها من مال، أو جسد أو عرض. ثم أصبح فى الناس، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «أَيْنَ الْمُتَصَدِّقُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ» فلم يقم إليه أحد. ثم قال: «أَيْنَ الْمُتَصَدِّقُ فَلْيَقُمْ» فقام إليه وأخبره، فقال النبى ﷺ أَبْشِرْ فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ كُتِبْتَ فِى الزَّكَاةِ الْمُتَقَبَّلَةِ» من زاد المعاد لابن القيم.

قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » رواه أبو داود وغيره عن سعد بن يزيد .

عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : مر على النبى صلى الله عليه وسلم رجل ، فرأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جلده ونشاطه ، فقالوا : يارسول الله ، لو كان هذا فى سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وُلْدِهِ[1] صِغَاراً فَهُوَ فى سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فى سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعِفُّهَا فَهُوَ فى سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فى سَبِيلِ الشَّيْطَانِ » رواه الطبرانى بسند صحيح .

مما طعن به على الإسلام ضرب الجزية على أهل الكتاب ، وهذا الطعن لم ينشأ إلا عن جهل ، لأنها لاتدفع للمسلمين إلا إذا دخلوا فى حكم المسلمين ليدفعوا عنهم عدوان المعتدين ولأجل معاونة البائسين ، وينفق منها على الذين يديرون شئون بلادهم . فإذا ماخرجوا على حكمهم وتركوا لهم بلادهم لايحصلون منهم جزية ، لهذا رد الصحابة الجزية لأهل حمص حينما تركوها لفتح اليرموك .

وها هو ذا كتاب خالد بن الوليد لصلونا بن نسطونا : إنى أعاهدكم على الجزية والمنعة ، فلكم الذمة والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا .

وقد رأى عمر رضى الله عنه يهودياً يستجدى الناس فقال : ما أنصفناه أكلنا شبيبته وضيعناه فى هرمه وفرض له من بيت المال مايعيش منه .

وإجمال القول : أن الله تعالى أرسل سيدنا محمد رحمة للعالمين ، وما أذن للمؤمنين فى القتال ، إلا لأنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا

(١) ولده بضم الواو وسكون اللام وكسر الدال : جمع ولد .

ربنا الله . فقد مكث ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة لم يسلّ السيف فى وجه أحد ، فلما هاجر إلى المدينة مغلوباً على أمره ، مقهوراً هو وأصحابه أنزل عليه قوله تعالى : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(١) » ومع هذا فقد أمره بأن يجنح إلى الصلح إذا جنح إليه أعداؤه ، إذ يقول سبحانه : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٢) » .

وفى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَأَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ » ثم قال : « اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ » .

ينبئنا الحديث عما يهدف إليه الإسلام دائماً من إيثار السلام على الحرب ، فلا يتمنون لقاء العدو رجاء هدايتهم ومهادنتهم ، وإذا ما لقوهم يصبرون على مواجهة الباغين ، ولا يتمنون منازلتهم إبقاء على دينهم وحياتهم ، قال تعالى : « الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(٣) » .

وخاتمة القول : يجب أن ننبه القارئ الكريم أن آيات الصفح والمغفرة الواردة فى القرآن الكريم لم تكن منسوخة بآيات الجهاد كما يقرره بعض المفسرين وإنما لكل آية موطن تستعمل فيه . فالصفح يكون إذا كان ينمى خيراً أو يدفع شراً ، والانتقام يكون فى غير ذلك مما بيناه سابقاً ، مصداق الأول قوله تعالى : « وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(٤) » ومصداق الثانى : « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(٥) » والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

---

(١) الحج الآية : ٣٩ (٢) الأنفال الآية : ٦١ (٣) البقرة الآية : ١٩٤

(٤) الشورى الآية : ٣٧ (٥) الشورى الآية : ٣٩

المحاضرة الخامسة

الحلف المشروع وغير المشروع

قال الله تعالى : « وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١) » .

نزل القرآن الكريم بلغة العرب الأميين على أساس ما ألفوه من بيئتهم وأساليبهم التى عليها درجوا ، وعدم مصادرتهم فى حرياتهم مادامت فى دائرة الطيبات ، ولم يحرم عليهم شيئاً إلا إذا كان ضاراً بدنياهم أومفسداً لدينهم . من ذلك حلفهم بغير الله من آلهة يزعمون أنها تقربهم إلى الله وقرابين وآباء ، وكذلك حلفهم بالله كاذبين . قال سبحانه : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٢) » .

وقال أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دينها   وبالله أن الله منهن أكبر

ومن رعاية الله تعالى بهم أن أحل الحلف بالله ، أو بصفة من صفاته ، وحرم ماعداه .

استعمال الحلف

يستعمل الحلف لدفع الشك وإزالة الريبة من السامع بما يحدثه من التأكيد والتوفيق بين الخصمين ، لأن الحالف إنما يقسم بأعز مالديه ، وبما هو أكثر قداسة وأعظم خطراً عنده أو عند السامع أو الإثنين ، كالحلف عند تأدية الشهادة وعند الأمور التى تستوجب ذلك . أما إذا استعمل فى غير ذلك فإنه يكون من الفضول ، ويدل على خفة فى العقل ، أو سوء فى القصد .

المشروع منه وغير المشروع

المشروع منه الحلف بالله أوبصفة من صفاته ، إذا استحلف لتأدية الشهادة ،

(١) البقرة الآية : ٢٢٤   (٢) النحل الآية : ٣٨

أو لإظهار براءته مما نسب إليه وهو صادق ، أو يؤكد خبراً ، أو يثبت حديثاً . فكأن الحالف ينبه السامع إلى أن الأمر جد لا هزل ، وحق لا باطل . فحلف بالذى يعلم الصادق من الكاذب ، والمحق من المبطل . فليس من شك أن الكذب يفضى بصاحبه إلى الهلاك .

وأما من أقسم بغيره من المخلوقات ، أنبياء كانوا أو صالحين ، أو ملائكة مقربين ، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . ذلك لأن القسم ضرب من ضروب التعظيم كما سنذكره . فعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رجلا يقول : لا والكعبة . فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ » رواه أبو داود .

ومعروف أن هذا الشرك هو شرك فى التعظيم فحسب . كأن المقسم سوّى بين الخالق والمخلوق ، والرب والمربوب . لهذا لا يخرج صاحبه عن حظيرة المسلمين ، بل ينقص إسلامه وإيمانه . وذلك كالنذر لغير الله تعالى ، والطواف حول القبور ، والتمسح بأعتاب أضرحة الأولياء ، كل هذه أمور غير مأذون فيها ومحرم فعلها . قال سبحانه لنبيه ﷺ : « قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ[1] » .

وفى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَمَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ » .

وفى مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِي وَلَا بِآبَائِكُمْ » .

---

(١) الأنعام الآية : ١٦٣

وقد ورد أن بعض الصحابة قال : لأن أحلف بالله كاذباً خير من أن أحلف بغير الله صادقاً ، لأنى إذا حلفت بالله كاذباً كفرت عن يمينى واستغفرت ربى ، وإذا حلفت بغير الله فقد أشركت بالله مالم ينزل به سلطاناً .

كذلك من يحلف بملة غير الإسلام فهو كافر ، أو قريب من الكفر . وقد وردت آثار كثيرة منها حديث أبو داود : « مَنْ حَلَفَ فَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا » .

ومن الناس من يتخذ الحلف صناعة ليخدع بها المسلمين ، ويشهدهم أنه من المؤمنين ، والله يعلم إنه من الكاذبين . وتلك صفات المنافقين الذين هم شر ما خلق الله وهم فى الدرك الأسفل من النار ، قال سبحانه : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ(١) » . وقال تعالى : « يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ(٢) » .

ومن الإيمان الآثمة يمين الغموس التى تغمس صاحبها فى النار يوم القيامة ، وهو أن يحلف بالله ليقتطع مال أمرىء مسلم ، لأن صاحبها اجترم جرمين : أحدهما الاستهانة بالله ، والثانى أكل أموال الناس بالباطل . وقد قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(٣) » .

---

(١) البقرة الآيات ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦

(٢) التوبة الآية : ٩٦ (٣) النساء : ٢٩

وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقِّهِ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » قال ثم قرأ : « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١) » .

وفى مسلم عن أبى أمامة إياس بن ثعلبة الجارحى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ » رواه البخارى عن ابن مسعود .

ومن البدع الضارة والآفات الشائعة الحلف بالطلاق ، فقد أدخله الناس فى معاملاتهم وأخبارهم وسائر شئونهم ، مع أنه لا يكون إلا إذا كانت هناك أسباب تقتضيه ، كسوء سيرة الزوجة مثلا . أو تنافر الطباع ، أو عجز عن النفقة ، أو عقم ، وهو لا يرضى به ، أو غير ذلك . لهذه الأسباب وغيرها للزوج أن يطلق الزوجة ، و يحل العقدة التى بينهما ، قال سبحانه وتعالى : « وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا(٢) » .

وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : « إِنَّمَا الطَّلاَقُ عَنْ وَطَرٍ » .

إذاً فما شأن الزوجة وما ذنبها حتى يدخلها الإنسان فى المعاملات وصدق الأخبار ، هذا سفه وحمق وجهالة وهضم لحق الزوجة ، وفساد فى الدين ، وهدم لكيان الأسر . وشر من هؤلاء الذين يرمون غيرهم بالكفر ، فقد جاء فى الحديث الذى رواه البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن مَنْ رَمَى أَخَاهُ بِالْكُفْرِ فَقَدِ ارْتَدَّ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ » .

---

(١) آل عمران الآية : ٧٧ (٢) النساء الآية : ١٣٠

نظرية خاطئة

من الناس من يجيز الحلف بغير الله ، ويستدل بما أقسم الله به من خلقه ، كالشمس والقمر والليل والنهار والملائكة الأخيار ، والخيل والأمكنة المقدسة والأزمنة وغيرها ، وهذا خطأ فادح ، وفهم خاطىء وتأويل باطل . ذلك بأن الله تعالى يقسم بما ذكر ليرشدنا إلى مافيه من نفع دينى أو دنيوى ، وليستدل بها على كمال قدرته ، وقوة سلطانه . فقد أقسم بمعاهد العلم ومهابط الوحى ، ومصادر النبوة ليزداد المؤمن إيماناً ، ولا يرتاب الذى فى قلبه مرض . قال سبحانه : « وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ[1] » .

التين والزيتون : جبلان بفلسطين ، ينبت فيهما التين والزيتون ، وكانا مبعثاً لأنبياء بنى إسرائيل ، وطور سينين : الجبل الذى كلم الله عليه موسى ، والبلد الأمين : مكة التى شرفها الله بالكعبة ، ومسقط رأس سيدنا محمد ﷺ . وكذلك أقسم بالخيل التى تغير على عدو الدين ، ليغرى المسلمين على اقتنائها ويظهر فضلها ، وفى هذا كله مطابقة بين القسم والمقسم عليه . قال سبحانه : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ[2] » .

فالله تعالى هو صاحب الأمر وله الحكم فالقسم حق من حقوقه ، فلا يجوز أن يعطيه لغيره إلا بإذنه ، وهل أذن الله لنا بهذا ؟ كلا ، بل نهانا عن ذلك كما فى الأحاديث السابقة ، والحكمة تأباه كما أسلفنا . فإذا أذن الله تعالى لنا

---

(١) التين الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ (٢) العاديات الآيات : من ١ إلى ١١

فلا مانع من القسم كالسجود ، فإن وضع الجبهة على الأرض وسائر الأعضاء حق من حقوقه . ولكنه أذن للملائكة بأن تسجد لآدم ، لأن هذا من حقه على أن هذا السجود لا يعلم حقيقته إلا الله فليس سجود عبادة . وأما القسم بغيره فلم يأذن به ، بل ورد النهى عنه فى مواطن كثيرة من السنة الصحيحة . وقياس المخلوق على الخالق جناية كبرى على الدين . قال سبحانه : « فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[1] » .

كثرة الحلف

من الناس من اتخذ اليمين له عادة ، والقسم له صناعة ، يشترى بها ثقة الناس وتصديقهم فيما يعمل ويقول ، وليته يحلف عند الحاجة الملحة ، بل لداع ولغير داع ، محقاً أو مبطلا ، كاذباً أم صادقاً . وهذه آفة من شر الآفات ، ومرض اجتماعى من أفتك الأمراض ، إذ أنه يشوه الحقائق ، فيقلب الحق باطلا ، والباطل حقاً ، فيوقع الناس فى شك مريب ، ويصير الكل قلقاً مضطرباً لا يطمئن لشىء يبتاعه ، ولا يثق بمن يعامله . وهذا ما كان يخشاه النبى المعصوم على أمته . روى أنه ﷺ قال : « لَا تَحْلِفُوا بِاللَّهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ[2] » .
وكفى بهذه الآية تحذيراً : « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ[3] » .

فكثير الحلف حليف المهانة ، وقرينه قليل المهابة ، كثير الحنث ، متهم بالكذب والخداع ، فاقد ثقة الناس به ، بعيد عن الله قريب من الشيطان .
لهذا قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : « ماحلفت بالله صادقاً ولا كاذباً » .
وكانت العرب تتمدح بقلة الحلف وحفظ الإيمان . قال شاعرهم :

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الأليّة برّت

ألا فلا يغتر مغرور بما يخدع به الناس من الحلف الباطل ، لنفاق سلعته

---

(١) النحل الآية : ٧٤ (٢) أبو داود وغيره عن أبو هريرة (٣) القلم الآية : ١٠

ورواج تجارته . فكم من شخص ظهر للناس بهذا المظهر الخداع فاغتر به الكثيرون . ودوّى صيته فى الآفاق ، وما هى إلا أشهر وأيام حتى بارت تجارته ، وخسرت صفقته ، وخبت جذوة شهرته . ولقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ فإِنَّهُ يَنفُقُ ثُمَّ يَمْحَقُ » ، رواه مسلم عن أبى قتادة رضى الله عنه .

وفى الحديث الآخر الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه : « الْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ ، مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ » .

فيم يكون الحلف ؟

وإذا كان الله تعالى قد أذن لنا أن نقسم باسم من أسمائه ، فإنما يكون فى الأمور التى ليس فيها قطيعة رحم ، ولا إفساد ذات البين ، ولا تعطيل عبادة ، أو جحد حق ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) » .

هذه الآية الشريفة زاخرة بخيرى الدنيا والآخرة ، إذ أنها جمعت مجموعة فضائل : البر والتقوى والصلح بين الناس . أما البر فهو مايتقرب به إلى الله تعالى من الإيمان والأخلاق والأعمال الصالحة . قال سبحانه : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٢) » .

---

(١) البقرة الآية : ٢٢٤ (٢) البقرة الآية : ١٧٧

وعن وابصة بن معبد رضى الله عنه أنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقال : « جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ ؟ » فقلت : نعم . فقال : « اسْتَفْتِ قَلْبَكَ ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فى النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فى الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ » أخرجه النووى فى رياض الصالحين .

فهذا الحديث ينبئنا أن تعاليم الدين تطابق العقل والوجدان ، وتتمشى مع فطرة الإنسان ، فكل ما فيه خير للفرد والمجتمع ، رغبنا الشرع فيه ووعدنا عليه الأجر فى الدنيا والآخرة ، وكل مافيه شر شخصى أو اجتماعى زهدنا فيه وتوعدنا عليه الخسران وسوء العذاب ، قال سبحانه : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[1] » .

وأما التقوى فهى اتقاء عذاب الله بفعل المأمور وترك المحظور ، وقد أجمل ذلك القرآن الكريم وفصلته سنة النبي الأمين حتى لا يكون لأحد حجة بعده ولامعذرة : « أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ[2] » .

أما الإصلاح بين الناس فإنما هو من الدين بمكان ، ذلك لأن أمر الناس لا يقوم وصلاحهم لا يتم ويتفرغون لدينهم ودنياهم ، إلا إذا كانوا فى جو هادىء وطمأنينة نفس وراحة قلب ، وذلك يكون بنبذ الشقاق وعدم التمادى فى الهجران وكثرة التنازع فى شئون الحياة . لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هٰذَا وَيُعْرِضُ هٰذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِى يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ » رواه البخارى .

---

(١) فصلت الآية : ٤٦ (٢) الأنعام الآيات : ١٥٦ : ١٥٧

نعم حرم الله تعالى الهجر ، لأن فيه تفكيك عروة الإسلام ، وجعل أهله شيعاً وأحزاباً ، وذلك مؤد إلى ضعفهم وخذلانهم ، ورسوخ العداوة بينهم ، وفتح باب الشر عليهم لأعدائهم ، فيصبحون أذلاء بعد العزة ، فقراء بعد الغنى ، عبيداً بعد السيادة ، فضلا عن تعطيل مصالحهم ، وكساد تجارتهم ، وهلاك مزارعهم . قال تعالى : « وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ(١) » . وقد قص الله علينا من قصص الأولين ما فيه عبرة لمن اعتبر ، وذكرى لمن ادكر .

هذا هو فرعون الطاغية لم تطأ قدمه أرض مصر ، ولم تثبت قدمه إلا بعد أن جعل أهلها شيعاً كما قال جل شأنه : «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ(٢) » .

فالتنازع رائد البوار ، وأساس الفشل والخسران ، ونذير الخراب والدمار . وقد ورد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أتى بخزائن كسرى وقيصر بكى على مرأى ومسمع من أصحابه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، المقام مقام شكر لا مقام بكاء ، فقال : لست على هذا أبكى ، ولكنى وجدت أن الله تعالى ما متع قوماً بهذا المال إلا تنازعوا ، وما تنازعوا إلا كان بأسهم بينهم شديداً ، وفى ذلك هلاكهم وضياع ملكهم .

لذلك تعلم مبلغ إصابة الشرع الشريف والدين الحنيف وأجر من يصلح بين النـاس . ففى الحديث الذى أخرجه الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب : « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ » قالوا : بلى . قال : « إِصْلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، فإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ » .

والمراد من ذات البين الروابط التى تكون بين الناس بعضهم ببعض ، وإصلاحها أن تكون مبنية على الألفة والمحبة والاتفاق والتعاون ، وفساد ذات

---

(١) الأنفال الآية : ٤٦ . والريح : القوة (٢) القصص الآية : ٤

البين أن تـكون الأحوال بين الناس مبنية على النزاع والتخاصم والشقاق . قال سبحــانه : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ[1] » .

مغزى الآية

ولا تجعلوا الله تعالى حاجزاً بينكم و بين عمل الخير ، ومانعاً لما حلفتم على تركه من البر والتقوى والإصــلاح بين الناس ، بل إذا حلف أحدكم على ترك البر أو التقوى أو الإصلاح فيكفر عن يمينه وليفعل البر والتقوى والإصلاح ، فلاعذر لأحد فى ترك ذلك ، ولا يرضى الله تعالى أن يكون اسمه مانعاً من الخير يؤيد هذا المعنى ما رواه ابن جرير فى سبب نزول هذه الآية وهو قوله ﷺ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَفْعَلِ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ » فى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الْيَمِينُ عَلَى نِيَّةِ الْمُسْتَحْلِفِ » .

قال العلماء : إذا لم يكن فيه ظلم و إلا فعلى نية الحالف .

---

(١) الحجرات الآية : ٩٠

المحاضرة السادسة

عبرة من العام الراحل

أحمد الله وأصلى وأسلم على صاحب الهجرة .

أيها المستمعون : هـذا عام يقبل وآخر يدبر ، ويوم يأتى ، ويوم يذهب . هكذا تمضى الأيام وتنقضى الأعمار ، وابن آدم لايُقلع عن خطيئته ولا يزال فى غيه وكأن الموت على غيرنا فيها كتب ، وكأن الحق على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى نشيع من الأموات سَفْر ، عما قليل إلينا راجعون ، تأويهم أجداثهم ، ونأكل تراثهم ، كأنا مخلدون بعدهم ، قد نسينا كل موعظة وأمنا كل جائحة . قال سبحانه : « وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إنَّ فى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ[١] » .

أيها المستمعون : قد فجعكم عامكم الراحل ، وودعكم وداعاً لا رجعة له ، ولكنه خلف فيكم حكمة بالغة ، وعظة نافعة ، وسيكون يوم القيامة شاهداً على أعمالكم . فهلا حاسبتم أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، ووزنتم أعمالكم قبل أن توزنوا ، ورجعتم إلى ربكم قبل أن يأتى يوم لامرد لهمن الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير . وما أشبه الليلة بالبارحة ، واليوم بالأمس ، والمستقبل بالماضى ، كالماء بالماء ؟ وهاأنتم هؤلاء تستقبلون عاماً جديداً وشيك الزوال ، سريع الانقلاب . عما قليل سيندرج فى سلك الماضى الدابر ، وكل ماهو آت قريب ، ولابعد لما هو آت ، وإنما البعيد ما ليس بآت . صدق الله : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[٢] » .

ألا تعتبرون . إنكم فى كل يوم تشيعون ذاهباً إلى ربه وتغيبونه فى صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، وهو إما آسف نادم على ما عمل من شر وفرط فى أعمال الخير ، وإما فرح رابح بما قدم من صالح العمل .

---

(١) إبراهيم الآية : ٥ (٢) النحل الآية : ١

هذه حصون آبائكم المنيعة التى تسكنون فيهـا ، ودواوينهم التى تجلسون على كراسيها ، وتلك مدائنهم التى أوجدوا فيهـا الأعاجيب ، وشوارعهم المعبدة التى تمشون فيها . أين هم الآن ؟ أمسوْا تراباً ، وأضحى ما فرطوا فيه حسرة وندامة . لو أذن لهم أن ينطلقوا لقالوا إن خير الزاد التقوى .

قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : لقد نغَّص الموت على أهل الدنيـا ماهم فيه من حضارة الدنيا وزهرتها ، فبينما هم كذلك أتاهم جادّ الموت فأخرجهم مما هم فيه ، فالويل والحسرة هناك لمن لم يحذر الموت .

قال أبو بكر رضى الله عنه : إنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم علمه ، فإن استطعتم ألا يمضى هذا الأجل إلا وأنتم فى عمل صالح فافعلوا ، واعلموا أن الله عز وجل لم يقبل من الأعمـال إلا ما أريد بها وجهه ، وما أخلصتم لله من أعمال فطاعة أديتموها وسلف قدمتموه من أيام فانية إلى أخرى باقية ، والله لأن يقدم أحدكم عنقه فتضرب فى غير حد ، خير له من أن يخوض غمار الدنيا ! !

يريد رضى الله عنه أن سلامة الإنسان من فتنة الدنيا بقتله ، خير من العيش فيها مع الوقوع فى فتنتها .

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : مارأيت يقيناً لاشك فيه أصبح شكا لايقين فيه من يقيننا بالموت فعملنا لغيره .

« أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ[1] » .

إن من أشد الناس غبناً وأكثرهم خسراناً من باع باقياً بفان ، وكثيراً بقليل ، وعظيما بحقير . واستبدل رضوان الله ونعيم الأبد بمتعة طائشة وأيام قايلة

(١) البقرة الآية : ١٦

فانية ، لانسبة بينها و بين الآخرة إلا كما جاء فى حديث مسلم عن الرسول ﷺ : « مَا الدُّنْيَا فى الآخِرَةِ إلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ فى الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِـعُ » وقول الله تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ(١) » .

ألا من مبلغ عنى هؤلاء الأغرار الذين استعبدتهم الدنيا فأذلتهم ، والأمانى فأضلتهم ، فقطعوا أعمارهم فى اللهو واللعب اللذين لاحقيقة لهما إلا مضيعة المال والوقت ، و إن مايستبعدونه من الآخرة آت قريب ، ولا بعد لما هو آت ، و إنما البعيد ماليس بأت .

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنه : ماانتفعت بكلام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماانتفعت بكلام كتبه إلىّ علىّ كرم الله وجهه . كتب إلىّ : أما بعد فإن المرء يسره إدراك مالم يكن ليفوته ، و يسوءه فوات مالم يكن ليدركه . فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك ، وليكن أسفك على مافات منها ، وما نلت من أمر دنياك ، فلا تسكن به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تيأس منه جزعاً ، وليكن همك لما بعد الموت .

فالمؤمن هو الذى لاينسيه نصيبه من الدنيا حظه من آخرته ، و يعلم أن عمره مدة سفره إلى ربه والأيام والليالى مراحل سفره ، ولا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى يأتيه أمر الله ، وكل عمل إذا لم يكن فيه نفع لمستقبله يحاج الله عنه يوم القيامة فهو عليه حسرة ، كما أن حركاته الماجنة ، وأيامه اللاهية ، والأيدى الفارغة ، نقش فى الماء ونقر فى الهواء .

« يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ❊ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ❊ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ ❊ وَمَنْ فى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ(٢) » .

---

(١) يونس الآية : ٤٥ (٢) المعارج الآيات : من ١١ إلى ١٤

ياعبيد الشهوات و ياأصحاب المناصب : لاتظنوا أن ما أوتيتم من مال وجاه وزينة الحياة الدنيا خير لكم ، ودليل رضاء الله عليكم ، فإن الله يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لايحب :

« كُلاًّ نُمِدُّ هٰؤُلاَءِ وَهٰؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً[1] »

« وَكَأَيِّ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ[2] »

« أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فى الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ[3] » .

وهاهو ذا قارون كان أكثر الناس مالا فقد خسف الله به و بداره الأرض فما أغنى عنه ماله وما كسب . قال سبحانه : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فى الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فى زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ

---

(١) الإسراء الآية : ٢٠ (٢) الحج الآية : ٤٨

(٣) المؤمنون الآية : ٥٦ .

يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ(١) اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(٢) » .

واأسفاه قد عميت القلوب وانطمست البصائر ، فأصبحت لا يفيدها عظة ولا اعتبار ، ولا عبرة ولا ادكار ، يجلس عباد المناصب على كراسيهم ، يظلمون الناس و يبغون فى الأرض بغير الحق كأنهم مخلدون ، ولم يعلموا أنهم سيتخلون عنها ، وسيخلفهم من بعدهم آخرون .

وهكذا تفعل الدنيا بأهلها واحداً بعد واحد ، فمنهم من تزود لآخرته فزاد نفعه ، ومنهم من قصر فخسر نفسه وأهله : « قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(٣) » .

ألا لا يغتر مغرور بماله ومنصبه ، فرب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة ، و إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا .

ألا تعتبرون بالذين خلوا من قبلكم ، وأنتم الآن تمشون فى مساكنهم : « أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى(٤) » .

اللهم إنى أسألك أن تشرح صدر هؤلاء إلى الإيمان بك ، وأن تبصرهم بعواقب أمورهم حتى يعلموا أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ لَكُمْ مَعَالِمَ فَانْتَهُوا إِلَى مَعَالِمِكُمْ ، وَإِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نِهَايَتِكُمْ . أَلَا إِنَّ

---

(١) وى : معناها أعجب وكأن : لأن (١) القصص الآيات من ٧٦ إلى ٨٢
(٣) الزمر الآية : ١٥ (٤) طه الآية : ١٢٨

الْمُؤْمِنَ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ : بَيْنَ عَاجِلٍ قد مَضَى لايَدْرِى مَاالله صَانِعٌ فيهِ ، وَبَيْنَ آجِلٍ قد بَقِيَ لاَ يَدْرِى ما اللهُ قاضٍ فيهِ ، فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْ حَيَاتِهِ لِمَوْتِهِ ، فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ما بَعْدَ الموْتِ من مُسْتَعْتَبٍ[1] ، وَلاَ بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إلاَّ الْجَنَّةَ . أَوِ النَّارَ » .

أخرجه الحافظ السيوطى فى اللآلىء المصنوعة .

---

(١) العتبى : الرضاء ، والاستعتاب : طلب الرضا .

المحاضرة السابعة

هجرة الرسول إلى المدينة

أيها المستمعون الكرام : لم يهاجر نبى الإسلام إلى المدينة إلا بعد أن أصبحت مكة دار بلاء وعذاب وهوان . والإسلام دين عزة وكرامة ، أهله يأبون الضيم والإذلال ، وبعد أن أذن الله له بالهجرة ودام الصراع بين الحق والباطل ثلاثة عشر عاماً تباعاً ، وبعد أن تجمع جنود الباطل على هذه المؤامرة الدنيئة نفاشلة ، وهى قتله ﷺ — قضى الله على كل مادبروا وبيتوا ، فأخبره بها ، وأمره بالهجرة بعد أن سهل له سبلها .

وإنه ليوم أغر كريم يوم أن هاجر من البلد الظالم أهله إلى دار السلام ، العم إنه يوم أغر جدير بكل تبجيل واحترام ، يوم يجب أن يهتز له قلب كل مسلم فرحاً ، وتقترن فيه ذكريات الماضى المجيد بحاضرنا ، ماضى أبناء البادية والصحراء الذين أخضعوا الأرض وعمروها ، وأدالوا الدول وخلفوها ، ونزل الناس على حكمهم راضين ، وما كان ذلك إلا باعتصامهم بتعاليم الدين الحنيف . وقد تبعه ﷺ فى الهجرة عدد غير قليل تجردوا من أنفسهم ولذاتهم وأموالهم وأبنائهم ، فباعوا كل ذلك لله ، وبذلوه فى سبيل الله ، أولئك الذين هداهم الله وهدى بهم .

ومن أروع الأمثال أن أم سلمة رضى الله عنها يخيرها الجبابرة بين خروجها وبين طفلها ، فيتغلب فيها الإيمان على الحنان ، فتترك طفلها وديعة بين يدى الله ، وتفر بدينها وإسلامها من وجوه الطغيان . ومثل هذا كثير يضيق المقام عن حصره ، ويعجز الزمن عن عده ، وبمثل هذا ساد الإسلام .

وإجمال القول : أن الهجرة كانت مضرب الأمثال فى الثبات على المبدأ ، ودرساً لمن يضطهد فى عقيدته ممن يأتى بعدهم من الأجيال ، وأنها كانت هجرة فتح ونصر ، لاهجرة فرار ولاهرب ، وليس أدل على ذلك من أنه ﷺ ، ما كاد يصل إلى المدينة حتى بدأ ببناء مسجد قباء ليجمع الناس على دين واحد ،

ويقضى على العصبية الجنسية ، والفرقة الجاهلية . فبعد أن كان أهل المدينة يتنافسون في سفك الدماء صاروا يتنافسون فى فعل الخيرات ، ثم أخذ يتأهب للدفاع عن الحق ، ومقابلة العدوان بمثله ، إبقاء على هؤلاء الذين سيحملون راية التوحيد ورسالة الإسلام من بعده صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة .

فمن الوفاء للحق أن نقرر أن هجرة الرسول ﷺ كانت من جهاد بالقول إلى جهاد بالعمل ، كما أنها أينعت الخير إلى أقطار الدنيا ، وحملت للعالم شريعة كلها أمن وسلام ، وحرية وفضيلة ، وكلها هدى ونور ، وشفاء لما فى الصدور. فلتمتلىء قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فرحات .

وقد افتتح صلى الله عليه وسلم حياته العملية بالمدينة بغزوة بدر الكبرى ، التى أعز الله بها الإسلام ، وختم رسالته بغزوة تبوك التى كانت الحجر الأول فى الفتوحات الخارجية ليتأسى به أصحابه من بعده . فلا غرو أن كانت الهجرة بداية لنهاية الباطل ودولته ، وقضاء على الطغيان وصولته ، وحق للمسلمين جميعاً أن يجعلوا يومها عيداً فى كل عام تذكرهم بالرجولة الحقة ، والشجاعة النادرة ، والجهاد الحق فى سبيل الحق . تذكرهم برجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه وأوذوا فى سبيله ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، حتى مكن الله لهم فى الأرض ، وصاروا سادة بعد أن كانوا مسودين ، وحكاماً بعد أن كانوا محكومين ، فلقد حقق الله وعده بقوله : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(٢) » .

أيها المستمعون : إن من آثار الهجرة النبوية — وكل مآثرها مجد وفخار — أن فرقت بين عهدين : عهد الحق والباطل ، والإشراك والتوحيد ، والفضيلة والرذيلة . حققت الإخاء الإنسانى بأجلى مظاهره ، مؤاخاة فى الله تعالى تفوق أخوة الدم والنسب ، بها تكونت جبهة الإسلام من الأنصار والمهاجرين ،

---

(١) القصص الآية : ٥

فتكتلوا للغزو ، وتجمعوا للجهاد فى سبيل الله ؛ فأعزهم الله بعد ذل ، ونصرهم بعد خذلان ، وتوحدت كلمتهم بعد أن كانوا فرقاً وأحزاباً . علمتهم الهجرة كيف يكون الانتصار على الأعداء . لقد مضى عليها أربعة عشر قرناً إلا قليلا ولا زالت حية فى نفوسنا ، نقرأ فيها آيات البطولة النادرة والشجاعة الفذة ، فما كانت هذه الهجرة هجرة فرار من الموت ، أو يأس من النصر ؛ وإنما كانت هجرة من كفاح إلى كفاح ، ومن جهاد إلى جهاد .

على أن الإسلام يطلب من المسلم أنه لا يقف الأعزل أمام شاكى السلاح ، ويعرض نفسه للموت الرخيص ، بل يطلب إليه الفرار بدينه من الفتن ، والبعد عن مواطن الأذى إذا كان يجر إلى عاقبة محمودة . ألا وإن من أكبر آثارها تلك الوثيقة التى كتبها صلى الله عليه وسلم وأمر بإذاعتها فى أنحاء البلاد ، فلقد كفلت هذه الوثيقة الحرية والإخاء والمساواة لجميع الطوائف ، ووادع فيها اليهود وأقرهم على دينهم ، وأمّنهم على أموالهم ، واشترط لهم واشترط عليهم ، وأن من اتبع المسلمين منهم كان له النصرة ، وأن ذمة الله واحدة ، عليهم كأدناهم ، وأن الجار كالنفس غير مضار . كما أنها تضمنت أن المسلمين لا يتركون بينهم مُفْرَحاً[٢] .

هذه سياسة نبى الإسلام ابن البادية والصحراء . فأين سياستكم يا أبناء الجيل الحاضر ؟

يا أيها الغربيون : لقد غررتم بالأمم بتأسيس لجنة وهمية خلعتم عليها الكذب المزخرف والمعسول المموه بأنها لجنة تحفظ حقوق الإنسانية ، الحق أن الحرية قد فجعت فيها من يوم ميلادها ، ونكبت الإنسانية من فجر حياتها ، وعرف العالم أن اسمها لا حقيقة له ، وليس أدل على ذلك من تلك المذابح البشرية وتلك المجازر الدموية التى تطالعنا بها الصحف صباح مساء فى مقرها ومهدها ، مما تقشعر منه الأبدان وتشيب من هولها الولدان .

---

(١) المفرح : المثقل بالدين .

المحاضرة الثامنة

الإسلام يدعو إلى العمل

ويمقت اللهو والكسل

أيها المستمعون : يقرر القرآن الكريم فى كثير من آياته أن العمل عماد الدنيا والدين ، ودعا إليه النبى ﷺ وحبَّب فيه ورغَّب . قال تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ(١) » .

كشفت لنا هذه الآية الشريفة عن سنة من السنن الله التى لا تتغير وقضاء — أزلى سابق — أن من سعى للدنيا فأحسن سعيه وأتقن عمله ، ظفر بنعيمها ، ونال حظه منها ، حسنت علاقته بربه أم ساءت . كذلك الشأن فى الحياة الآخرة ، فمن آمن بربه ، وأخلص لله فى عمله ، وحسنت علاقته بخلقه ، شكر الله له سعيه ، وفاز بنعيم الآخرة ورضوان الله تعالى . وما يتراءى لنا من تخلف المسبب عن السبب ، يرجع إلى نقص فى أركان السبب وشروطه ، أو موانع أخرى .

فمثلا التاجر الجد الذى يصدق فى قوله ، ولا يغش أحداً فى المعاملة ، ويرضى بالربح القليل ، ويخفض جناحه للمبتاعين ، ويتذرع بالصبر الجميل ، ويجتنب التبذير ، فهو جدير بأن يكتب الله له النجاح . والتاجر الذى تتخلف فيه هذه الأسباب ، لا ريب أن تخسر صفقته وتكسد تجارته بقدر ما نقصت من الأسباب ، وإن كان لربه ساجداً وراكعاً . هذا حكم الله : « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(٢) » .

عرف هذا سلفنا الأولون ، فكدوا وجدوا فى الحياة وحرصوا على الوقت ، فأسسوا حضارة زاهية وملكا كبيراً ، وصاروا ملوك الدنيا حتى وضعوا أيديهم على خزائن كسرى وقيصر ، وتغلغلت قوتهم فى أحشاء أوربا فشادوا وسادوا ولبثوا

---

(١) النحل الآية : ٣٠ (٢) المائدة الآية : ٥٠

فيها ثمانية قرون . فكانت حضارتهم الدعامة الأولى التى قامت عليها الحضارة الغربية . فإذا ماوهنت قوة المسلمين وصاروا مغلوبين على أمرهم ، بعد أن كانوا غالبين ، وعالة على غيرهم فى الصناعات والاختراعات ، فلعمر الله ماظلمهم القدر ولا غبنهم المجتمع ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . فما ذلك إلا بتقاعدهم عن العمل وتعطيلهم المواهب التى حباهم الله بها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله وسلم : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِى كلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ على مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ باللهِ وَلا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَذا كان كذا وكذا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللهُ وَمَاشَاءَ فَعَلَ ، فإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » فى مسلم عن أبى هريرة .

المقصود من القوى قوى العزيمة فى الأعمال الأخروية ، فإن صاحبها أكثر إقداماً على الجهاد وإنكار المنكر ، والصبر على الأذى ، واحتمال المشاق فى تأدية الفرائض وجهاد النفس ، والضعيف على العكس .

لاتحسبِ المجدَ تمراً أنت آكلهُ   لن تبلغ المجد حتى تلعقَ الصبِرا

فياعجباً لقوم تربوا فى مهد الإسلام ، وتذوقوا تعاليمه الرشيدة التى تحفز إلى العمل ، وتنفر من البطالة والكسل . كيف ينخدعون بما زينه لهم الأجنبى من دور الخيالة باسم العظة والاعتبار ، والمسارح باسم الترفيه عن الأجسام ، ودور القمار التى استنزفت ثروة الكثيرين من أبناء الإسلام ، فبدلت سعادتهم شقاء ، وعزهم ذلا ، وغناهم فقراً . ذلك جزاء المسرفين ومالهم من الله من ولى ولا نصير .

ألم يعلم هؤلاء اللاهون أن الوقت هو رأس أموالهم ، فإن أضاعوه من غير جدوى فقد خسروه ولا رجعة له ولا عوض .

لكل شىء إذا ضَيَّعْتَهُ عوضٌ   وما من الله إذا ضَيَّعْتَهُ عوضُ

فعمر الإنسان مدة سفره إلى ربه ، والأيام والليالى مراحل سفره ، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى يبلغ الكتاب أجله .

إذاً فمن الكياسة أن يقضى الإنسان هذا السفر فيما ينفعه فى دينه ودنياه ، فيا للبؤس ويا للشقاء ، نرى الأجانب يتسابقون فى ميادين الأعمال ، ويتسع نشاطهم فى كل وقت من الأوقات ، فيأتون بعجيب الصناعات وعظيم الاختراعات ونحن واقفون جامدون ، ولنا تاريخ مجيد وعز تليد . فهل تغير اتجاهنا ، وتيقظنا من نومنا ، فأخذنا نجارى هؤلاء الغربيين الذين سلبونا حريتنا ، واستولوا على بلادنا ، فنسلك طريق العمل الصحيح ، ونهجر هذه الأماكن التى لايأوى إليها إلا من سَفِهَ نفسه ، ولم يفكر أحد منا فى عاقبة أمره ، وظن أن الحياة الدنيا لهو ولعب ، وأنه لايسأل عن هذا الوقت فيم أفناه ، وعن عمره فيم قضاه . إنها لحسرة على كل ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وتؤديه حياته إلى شقوة ؟ !!

والمرء يفرح بالأيام يقطعها وكل يوم مضى يدنى من الأجل

فالكيس هو الذى لايشغل وقته إلا بما يفيده فى حياته العاجلة والآجلة ، فيجد فى تحصيل الرزق لنفسه وأهله ، ليصون وجهه وأهله عن ذل السؤال ، وأن يقدم لآخرته شيئاً من طيباته ، فينال ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . والله يحب المحسنين .

هذا وقد أقسم الله تعالى فى محكم كتابه فقال : « وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ [1] » . إن هذا القسم ليشعر بجلال المقسم به وعظم شأنه ، ووجوب الحرص عليه والانتفاع به والعمل فيه ، وأن العاطلين لفى خسران مبين ، والعاملين لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

ولقد لقى عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال : من أنتم ؟ فقالوا :

(١) العصر الآيات : ١، ٢، ٣

متوكلون . قال : كذبتم ، ما أنتم متوكلون ، إنما المتوكل من ألقى حبة فى الأرض وتوكل على الله .

إذاً ما كان العمل والأخذ فى الأسباب منافياً للتوكل على الله ، والركون إلى قضائه وقدره . لأن التوكل على الله أن يأخذ الإنسان فى الأسباب المشروعة ، وأن يكل إلى الله المسبب ، فلا يعتمد على نفسه وحدها ، لأن عوائق النجاح كثيرة . فعليه أن يسأل الله بعد هذا أن يحقق مسعاه ولايخيّب رجاءه .

فمن هذا نعلم أن الإسلام حرب على هؤلاء المتواكلين الذين يؤثرون البطالة على العمل ، فيعيشون على فضلات المحسنين وأوقاف المسلمين ، فى التكايا والملاجىء وهم على العمل قادرون . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَكْفِىُّ[1] الْفَارِغُ[2]» .

وإجمال القول : أن تعاليم الإسلام ليست قاصرة على تنظيم علاقة النـاس بربهم فحسب ، بل تناولت مرافق الحياة الدنيا ، وليس أدل على ذلك من حديث الرسول ﷺ : «لَيْسَ بِخَيْرِكُمْ مَنْ تَرَكَ دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ وَلاَ آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ حَتَّى يُصِيبَ مِنْهُمَا جَمِيعاً» رواه ابن عساكر عن أنس . وهذا فصل الخطاب . وفق الله المسلمين إلى مافيه رشدهم ، وبصَّرهم بأمور دينهم .

هذا ، وإن من أكبر الأسباب التى شغلتنا عن عملنا الدنيوى والأخروى ، وجرت علينا الرزايا الاجتماعية والنكبات الخلقية ، وكادت تقضى علينا وعلى فتياتنا وفتياننا ، تلـكم الصحافة الخليعة الداعرة التى تحمل الخنـا والفجور ، إلى المنازل والخدور فى صورها العارية ، وقصصها الخبيثة ، ورواياتها الدنيئة ، وأساليبها البذيئة ، والاستخفاف بالشعائر والأوامر الدينية . هـذا طوفان خبيث وسيل جارف ، يهدد الأمة الإسلامية فى دينهـا وعقيدتها ، ومجدها وعزها ، واستقلالها وحريتها وعفتها . ومنها سباق الخيل على هذا الوضع الخبيث ، وكذلك العبث

---

(١) المكفى : الذى يكفيه غيره ضرورات الحياة . والفارغ : المتعطل المخلد إلى البطالة والكسل .
(٢) لم أقف على من خرج هذا الحديث .

المتجسم فى الملاهى والمراقص ، والمسارح والكباريهات ، والمقاهى التى تأوى الأشرار والسوقة ، الذين لايتورعون عن الألفاظ السقيمة ، ويرددون الألفاظ القبيحة التى هى سبة الجيل الحاضر . ومن أشد خباياها لعب القمار الذى ينهك القوة ويبدد الأموال ، ويؤدى إلى الإفلاس والخراب . ولاتنس الأضرار الصحية التى تنجم من اختلاط الأصحاء بالمرضى الذين يسممون الجو بزفيرهم وبصاقهم ، ويلوثون الأكواب فتنتشر العدوى بين الناس .

هذا ، وإن مما يزيد أسفنا أن هذه المقاهى قد اتخذ الأجانب نظيرها نوادى علمية توافرت فيها الوسائل الصحية كى تكون صلة تعارف وحبل مودة وملتقى العلماء الذين لايفكرون إلا فى إصلاح شئونهم وترقية مستواهم ، من المحاضرات العلمية والصحية والخلقية والدينية ، ونهيء الفرص لتمحيص المسائل العلمية وتهذيب الأخلاق ، وتغذية النفوس بالفضائل ، فتسمو الأخلاق وتنتشر الثقافة ، فتسعد الأمة وترق ، وتكون عزيزة الجانب ، رفيعة المقام .

هذه آفاتنا التى أضرت بمجتمعنا ، هى أن نقلد الأجانب فى الضار ولم نقلدهم فى النافع ، وهذا ما كان يخشاه نبى الإسلام على أمته . قال صلى الله عليه وسلم : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فى جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ » قالوا : يارسول الله ، اليهود والنصارى . قال : « فَمَنْ » . فى الاعتصام للشاطبى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

المحاضرة التاسعة

حفلات الزار وصرع الجن

أيها المستمعون : لقد أحدث الناس حفلات لم تكن من دأب سلفنا الأولين ولكنها من مبتدعات هذا الزمن الذى راجت فيه سوق المنكرات ، وطغت فيه الماديات ، والاستمتاع بكثير من الشهوات ، فمن تلكم حفلات الزار الآثمة التى تقام بحجة شفاء المريضة ، وإزالة ما ألم بها من صرع ، فيكثر فيها الفساد ، ويمحى فيها الاحتشام ، وينفق فى سبيلها أموال طائلة ، طالما سببت أزمات اقتصادية ومساوىء خلقية ، ومضارا اجتماعية .

وكأىّ من ثروة أبيدت ؟ وكم من أسرة انهار بناؤها وتلاشى عزها ؟ وكم من أعراض هتكت من جراء هذه الحفلات الماجنة ؟ يلم المرض بالمرأة فيأتى إليها شياطين النساء ، فيتجرن بعقلها ، ويزين لها أن ما دهاها صرع من الجن ، وفى استطاعتهن أن يذهبن هذا المرض ، فيطلبن طلبات يعز وجودها ، ويثقل كاهل زوجها ، من حلى تعددت أنواعه ، ومن الدجاج والخراف أصنافاً ، وتارة تتغالى فى الطلب فتطلب جملا وخلا عندما تأنس منهن ثروة .

فإذا ما أقيم الحفل يسمين المريض عروساً ويخلعن عليها من الثياب غالية الثمن ، قصيرة الأجل ، قليلة الغَناء ، ثم يركبن هذه العروس الجمل أو الفحل ويوقدن حوله الشموع ، ويضربن بالدفوف ، ويصحن بالأغانى التى تستهوى الأفئدة . وهنالك تعترى المريضة هزة الابتهاج من آثار الدفوف والغناء ، وتدب فى جسمها نشوة الفرح بهذا المهرجان العظيم ، وعند ذلك تهدأ أعصابها ، وتسكن آلامها ، وتزداد المريضة تصديقاً بأن هذا من عمل الجان ، ولكنها بعد برهة من الزمن يعود إليها المرض ، فيتدرج عفريتها المزعوم فى الطلبات . حتى إذا ماخوى البيت ، ونفد ما فى الجيب ، قضى المريض نحبه ، وترك العيون دامعة ، والقلوب دامية ، والديار بلاقع . صدق القائل :

ثلاثة تشقى بهن الدار العرس والمأتم ثم الزار

وليت هذا الأمر يقف عند هذا الحد ، بل من النساء من يتخذن هذه الحفلة لأغراض غير شريفة ، يجتمع الرجال والنساء سراً وجهراً للاستمتاع بالشهوات وكثير من اللذات ، وفى ذلك يكون المصاب أعظم .

فيا لله للإفك والتضليل ! لماذا لم نجد لهذه الترهات أثراً فى بلاد غير بلادنا ، وفى الأقطار الأجنبية عنا ، إنْ هذا إلاّ إفك وتضليل .

الحق أن هـذا المرض نوعان : أحدهما عصبى ، وهو ينتاب أجسام الرجال والنساء على السواء ، يزيده الهم والغم ، ويخفف من حدته الفرح والسرور والهواء العليل . وقد تخصص لعلاجه كثير من الأطباء ، ولهم فى ذلك طرق شتى كلها ناجعة ومفيدة . غير أن بعض الأمراض قد لاينجع فيها الدواء ولايفيدها العلاج لزمانتها ، ومضاعفات أخرى نشأت عنها . ويبدو لى أنه إن صح أن هناك شفاء للمريضة من هذه الحفلة ، إنما يرجع إلى ما فيه من أنس ومسامرة وغناء وضرب بالدفوف ، لأنهـا مشوبة بفرح وسرور . أما التفنن فى الزينات وأنواع الطعام وغير ذلك فليس لها أدنى أثر فى إذهاب المرض .

والنوع الثانى : مرض الصرع من الجن ، ولقد كان هـذا المرض ولايزال موضع جحود وإنـكار ، عند بعض العلماء ، ولـكن النصوص تؤيد رأيهـا ولا تساعدهم ، ويتأولون قول الله تعـالى : « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كما يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ[1] » بأن الله يخاطب العرب بما يفهمون . وبدهى أن هذا خطأ فى التأويل وبعد عن الصواب ، إذ أن القرآن الـكريم ليس للعرب وحدهم وإنما هو للبشرية جميعاً .

وكيف يقر الله تعالى أمة على خطئها ، وينزل على إدراكها « وَمَا كَانَ اللهُ

(١) البقرة الآية : ٢٧٥

لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْهَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَايَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١) » .

على أن الواقع أن المصاب بهذا المرض تراه ينسلخ من شخصيته ، فلا يحس بما ينتابه من ألم جسمانى ، و يتغير صوته من الخشونة إلى الليونة و بالعكس ، وكذا يحدث فى صورته شيئاً من التغير .

وهذا المرض يعالج بأنواع كثيرة تختلف باختلاف الصارع . فمن الجن من يبتعد بالوعظ والإرشاد ، ومنهم من يكفيه الإنذار ، ومنهم من لايكفيه هذا ولا ذاك ، بل يبتعد بالضرب الشديد . والدليل على ذلك أن المريض لايحس بشيء من هذا ، بل آلام الضرب واقعة على الجن . فإذا أحس بألم الضرب لم يكن المرض من صرع الجن .

وفى صحيح مسلم عن أبى السائب مولى هشام بن زهرة قال : « دخلت على أبى سعيد الخدرى فى بيته فوجدته يصلى ، فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته ، فسمعت تحريكا فى عراجين فى ناحية البيت ، فالتفت فإذا حية ، فوثبت لأقتلها ، فأشار إلىّ أن اجلس ، فلما انصرف أشار إلى بيت فى الدار فقال : أترى هذا البيت . فقلت : نعم . قال : كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس . قال : فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق ، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله فأستأذنه يوماً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خُذْ عَلَيْكَ سِلاَحَكَ فإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيظَةَ » ، فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع . فإذا امرأته بين البابين قائمة . فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به وأصابته غيرة ، فقالت : اكفف عليك رمحك وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش . فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به . ثم خرج فركزه فى الدار فاضطربت عليه . فما يدرى

---

(١) التوبة الآية : ١١٥

أيهما كان أسرع موتاً الحية أم الفتى قال : فجئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا له ذلك وقلنا : ادع الله أن يحييه لنا . قال : « اسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِكُمْ » ثم قال : « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا فَآذِنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ » .

وفى لفظ آخر لمسلم أيضاً : فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِهَذِهِ الْبُيُوتِ عَوَامِرَ فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْهَا فَحَرِّجُوا عَلَيْهِ ثَلَاثًا ، فَإِنْ ذَهَبَ وَإِلَّا فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّهُ كَافِرٌ » وقال لهم : « اذْهَبُوا فَادْفِنُوا صَاحِبَكُمْ » رواه أبو داود وابن حبان والنسائى عن ابن مسعود .

ومن المرضى من يعالج بتلاوة التعاويذ ، أعنى الإخلاص ، والمعوذتين والتحصنات الإيمانية وآية الكرسى ، فيقرؤها المصروع أو المعالج أو الاثنان . وكذلك قراءة قوله تعالى فى الأذن : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [1] » . يقولها فى أذن المصروع ، فإن تأثيرها فى إزالة المرض كالدواء للداء فهو من الأسباب التى ربط الله بها المسببات وإن كانت معنوية .

وقد جاء فى الصحيحين أن عائشة رضى الله عنها كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث فى كفيه بقل هو الله أحد والمعوذتين ، ثم يمسح بها وجهه وما بلغت يده من جسمه .

والقول الفصل أن دفع الجن عن المصروع يجوز بما لم يكن فيه شرك ولا ظلم لأحد ، ولا يكون بحفلة الزار وإنما يكون بالتعاويذ والتحصنات الإيمانية .

وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على بعض الناس تكون من قلة دينهم ، وخراب قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذكر . وذلك كالمكروبات الوبائية التى

---

(١) المؤمنون الآيات : ١١٥ ١١٦

تؤثر فى الأجسام الضعيفة . كما أن جراثيم الأمراض لاتفتك إلا بالأجسام الضعيفة ، كذلك الأرواح ليس للجن سلطان عليها .

ولذا نجد هذا الصرع كثيراً فى النساء ، لما فيهن من ضعف فى القلوب ، ووهن فى العزائم ، وبعد عن الذكر الذى تخنس منه الشياطين ، ولا تجعل للجن على الذاكرين سبيلا .

أما التداوى بغير ذلك من النزول على مطاوعة الجن للكفر والفسوق والعصيان ، وحفلات الزار ، فلا مرية فى حرمته . كالعلاج الملفق الذى يقوم على إخراج أسماء العفاريت والعزائم وذبح الحيوان بشروط وأوصاف ، مما يسبب خراب البيوت ومحو الاحتشام .

دليلنا على صرع الجن من القرآن الكريم قول الله تعالى : « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَايَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ[1] » . ومن السنة ماجاء فى مسند الإمام أحمد عن يعلى بن مرة قال : لقد رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً مارآها أحد قبلى ولا يراها أحد بعدى . لقد خرجت معه فى سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبى لها ، فقالت : يارسول الله ، هـذا صبى أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء ، يؤخذ فى اليوم ماأدرى كم مرة . قال : ناولينيه . فرفعته إليه ، فجعلته بينه وبين واسطة الرحل . ثم فغر فاه فنفث فيه ثلاثاً وقال : « بِاسْمِ اللهِ أَنَا عَبْدُ اللهِ اخْسَأْ عَدُوَّ اللهِ » . ثم ناولها إياه فقال : « أَلْقِينَا فى الرَّجْعَةِ فى هَذَا المَكَانِ فَأَخْبِرِينَا مَا فَعَلَ » . فقال : فذهبنا ورجعنا فوجدناها فى ذلك المكان معها شياه ثلاث . فقال : « مَا فَعَلَ صَبِيُّكِ ؟ » فقالت : والذى بعثك بالحق ماأحسسنا فيه شيئاً حتى الساعة ، فاجتزر هذه الغنم . قال : «انْزِلْ خُذْ مِنْهَا وَاحِدَةً وَرُدَّ الْبَقِيَّةَ» وذكر الحديث بتمامه وهناك آثار كثيرة[2] .

---

(١) البقرة الآية : ٣٠٧ (٢) راجع تعليق ابن تيمية على أحكام الأحكام بشرح عمدة الأحكام للعلامة ابن دقيق العيد ، وكذلك إيضاح الدلالة فى عموم الرسالة لابن تيمية .

الجن لا يعلم الغيب

لقد تتابعت آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الغيب لله وحده ، أعنى الغيب المطلق . أما الغيب النسبى فإنه يوجد بيننا و بين الجن ، فمثلا رؤية جراثيم الأمراض بالمكبر علم شهود بالنسبة لمن ينظر فيه ، وعلم غيب بالنسبة للنظر المجرد ، ومثلا التنبؤات الجوية فهى علم شهود لمن عرف أسبابها وعلم غيب لمن لم يعرف ذلك .

كذلك أخبار الجن عما وقع بالفعل من أزمان مضت علم شهود عندهم ، وعند غيرهم علم غيب ، قال تعالى عن الجن : « فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَالَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ[1] » وأخبر سبحانه عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[2] » .

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : من زعم أن الرسول يعلم الغيب فقد أعظم على الله الفرية ، لأن الله يقول : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ[3] » .

وفى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِى الْعَنَانِ وَهُوَ السَّحَابُ ، وتذكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِى السَّمَاءِ فَيَسْتَرِقُ الشَّيْطَانُ السَّمْعَ فَيَسْمَعُهُ لِيُوحِيَهُ إِلَى الْكُهَّانِ ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ » والقرآن يصدق الحديث قال سبحانه : « قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ » .

---

(١) سبأ الآية : ١٤ (٢) الأعراف الآية : ١٨٨

(٣) النحل الآية : ٦٥

وفى الصحيحين أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل ابن الصياد ، فقال : « مَا يَأتيكَ فَقَالَ : يَأْتِينِي صادِقٌ وكاذِبٌ : قال ماتَرَى ؟ قال أَرَى عرشاً على الماء . قال : « فَإِنِّي قَدْ خَبَئْتُ لَكَ خَبْئاً » قال : الدُّخُ الدُّخُ[1] . قال : « اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ فإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ » رواه البخارى ومسلم .

يريد الرسول صلى الله عليه وسلم أنك لن تستطيع أن تتم الكلمة ولم تهتد من الآية الكريمة إلا لهذين الحرفين ، على عادة الكهان من اختطاف بعض الكلمات من أوليائهم من الجن ، أو من هواجس النفس . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اخسأ فلن تعدو قدرك ، أى لست بنبى ولن تتجاوز قدرك بل أنت كاهن يصدق ويكذب ، وليس الصدق عن علم ، وإنما هو من المصادفات ، أو استراق من السمع .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بابْنِ آدَمَ ، وَإِنَّ لِلْمَلَكِ لَمَّةً ، فأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فإِيعَادٌ بالشَّرِّ ، وَتَكْذِيبٌ بالْحَقِّ . وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فإِيعَادٌ بالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بالْحَقِّ . فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ » رواه الترمذى وغيره عن ابن مسعود .

استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى

ليس من شك فى أن حياة الإنسان وتاريخه ، مفعم قديماً وحديثاً بالمظاهر الروحية ومشاهدها وآثارها ، وأقرب دليل على ذلك أن الإنسان كلما ازداد علماً اتسعت دائرة فكره ولا يضيق بالمعلومات مهما حفظ ومهما درس ، ولا نستطيع أن نعلل ذلك تعليلا صحيحاً إلا إذا أرجعنا ذلك إلى الروح ، لأن المادة محدودة النطاق ، لاتسع إلا الشىء اليسير من العلم .

---

(١) الدخ : الدخان . والنبى قد خبأ له آية الدخان وهى قوله : «فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » .

هـذا وقد بحث علماء الغرب فى منتصف القرن التاسع عشر فى الأرواح وخواصها، فزعموا أنهم يستطيعون تحضير أرواح الأموات وسموا ذلك (استحضار الأرواح) وأن أرواح الأحياء القوية تستطيع أن تتحكم فى الأرواح الضعيفة ، وسموا ذلك (التنويم المغناطيسى) .

وقد استفاض الحديث فى السنين الأخيرة فى موضوع استحضار الأرواح ، وادعى غير واحد من المصريين أنه يحضر الأرواح ، ولـكن دلت التجارب أنهم واهمون ، وأن الذى يحضرونه لو صح إنما هو من الجن ويجىء على صورة الميت ، لأن فيهم قدرة التشكل ، وإخبارهم عن بعض الحوادث إنما هى أخبار على الماضى الذى وَلَّى، وقد حققنا هذا الموضوع فى الصفحات القريبة من رقم ٣٩٨ .

وهل يتصور العقل البشرى أن أرواح الذين سبقونا بالرحيل إلى ربهم تكون ألعوبة فى أيدى طائفة من الناس يتحكمون فيها ، إن هـذا لبعيد ، وقد اتصلت أخيراً ببعض هؤلاء الذين يزعمون أنهم يحضرون أرواح الأموات فوجدتهم كاذبين مضللين .

أما التنويم المغناطيسى فيرجع إلى تسلط روح قوية على روح ضعيفة فتوحى إليها أموراً يعلمها الشخص المنوِّم فقط ، فينطق الشخص المنوَّم بإيحاء من المنوِّم ، فهو تأثير روحى ، لأن الأرواح تتفاوت فى القوى والضعف كالأجسام . دليل ذلك أن جسم المنوَّم يقع فى ثبات عميق ويتخشب ، لأن السلطان صار للروح وحدها وتعطل الجسم وحواسه . ومن الناس من انخدع بهم ، فتراهم إذا ما فقدوا شيئاً يسرعون إليهم واهمين أنهم يعرفون السارق ، ولـكن التجارب فندت مزاعمهم وردتهم على أعقابهم خاسرين .

المحاضرة العاشرة

حكم الوصية الشرعية

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ أَوِ الْمَرْأَةَ بِطَاعَةِ اللهِ سِتِّينَ سَنَةً ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِى الْوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ » ثم قرأ أبو هريرة : « مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ إلى قوله : وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [(١)] » رواه أبو داود عن أبى هريرة .

أيها المسلمون : مما خالف فيه الناس أمر ربهم وتعاليم رسولهم إهمال الوصية التى تنجيه من عذاب الله بعد وفاته ، فلقد أمر بها الله ورسوله ، قال سبحانه : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ [(٢)] » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ وَلَهُ شَىْءٌ يُرِيدُ أَنْ يُوصِىَ فِيهِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ » . رواه البخارى عن ابن عمر . كذلك الجور فى الوصية أو تقسيم التركة على الورثة قبل مماته خشية أن يتسرب المال لأجنبى . وقد فشت هذه السنة السيئة ، وتلك العادات الآثمة حتى بين المتعلمين . فتراهم يقسمون التركة على الورثة قسمة تخالف قسمة الله تعالى التى بينها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « يُوصِيكُمُ اللهُ فِى أَوْلَادِكُمْ » إلى قوله تعالى : « وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ [(٣)] » .

ولم يعلموا أن هذا التصرف مغضبة للرب ، مفسدة للأسرة ، مثار للضغينة والأحقاد ، وتفكيك لعرا الإسلام ، مؤد إلى خذلانهم ، وتعطيل أحكام دينهم ، وتمكين أعدائهم منهم . فكم من أسرة قد تفرق جمعها ، وتشتت شملها ،

---

(١) النساء الآيات : ١٢ ، ١٣

(٢) البقرة الآية : ١٨٠

(٣) النساء الآيات : ١١ ، ١٢

وكأى من بيوت عامرة صارت خاوية على عروشها ؟ وكم من ثروة تبددت من جراء هذا التصرف الجائر . وتلك القسمة الضيزى التى تحرم الوارث حقه الذى قسمه الله له ، وتفضل غيره عليه . صدق الله : « آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَتَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً * فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(١) » .

ولعمرى إن هذا الجحود لنعم الله ، وطمس فى البصيرة ، وعمى فى القلب ، حيث يجعل النعم نقماً ، والخير شراً . فمثل هؤلاء لاينالهم الله برحمة ، فلهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

وإذا كان بعض الشافعية يرى أن الإنسان حر فى ماله ، يتصرف فيه لمن يشاء ، فإن ذلك لغير الورثة . دليلنا أن الله بعد أن بيَّن الأنصباء ختم الآية بهذا الوعيد الشديد فقال : « ومَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهاَ وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ(٢) » ، بعد أن أكد سبحانه هذا بقوله : « فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » .

أيها الظالم لنفسه ، الجاحد لنعم ربه : ألم يرضك حكم الله إن كنت تريد بتصرفك هذا خيراً لأولادك ، فوالله لاخير إلا فيما شرعه الله وقسمه . ألم تعتبر بمن مضى قبلك من الأولين . هل أتاك حديث شخص ورث عن أبيه عشرات الآلاف من المال والضياع ، فراح من الدنيا صفر اليدين ، لايملك منها درهماً ولا ديناراً ، وآخر أتى إلى الدنيا لايملك نقيراً ولاقطميراً ، وخرج منها وقد خلف وراءه أكداساً مكدسة من المال والعقار ؟ : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ * وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ * وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣) » .

---

(١) النساء الآية : ١١ (٢) النساء الآية : ١٤ (٣) آل عمران الآية : ٢٦

أيها المورث : اتق الله فى مالك ، فلا تصلح غيرك بإفساد دينك ، ولا تضع حسناتك فى ميزان غيرك : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ اتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا[١] » .

« يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ[٢] » .

إن الله تعالى قد قسم لك قسمة عادلة ، فجعل لك من مالك الثلث تتصرف فيه إن شئت إلا للوارث الذى أوتى حقه ، كما بين الرسول الكريم فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والدارقطنى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله علية وسلم قال : « إِنَّ اللهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِثُلُثِ مَالِكُمْ عِنْدَ وَفَاتِكُمْ زِيَادَةً فى حَسَنَاتِكُمْ لِيَجْعَلَهَا لَكُمْ زِيَادَةً فى أَعْمَالِكُمْ » . يريد الرسول أن الإنسان ليس حراً فى ماله يتصرف فيه حيثما شاء . إذ أنه من الله ، منه وإليه يعود ، وما العبد إلا مستخلف فيه . يؤيد ذلك قوله تعالى : « وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ[٣] » . بيد أن رحمة الله جعلت له حق التصرف فى ثلث ماله فحسب ، تفضلا منه عليه وجزاء على ما كدت يمينه وعرق جبينه .

فمن زاد عن الثلث فى وصيته ، أو اختص بها وارثاً دون آخر ، أخذ حقه المقسوم له فى الميراث ، فقد افترى إثماً عظيما ، لأنه فى الحالة الأولى تصرف فيما ليس له ، وفى الثانية لم يرض بقسمة الله العادلة ، وانطبق عليه هذا الوعد الشديد الذى ختم الله به آيات المواريث فى قوله : « تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ[٤] » .

---

(١) الفرقان الآيات : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ (٢) الشعراء الآيات : ٨٨ ، ٨٩

(٣) الحديد الآية : ٧ (٤) النساء الآيات : ١٣ ، ١٤

وصية على بن أبى طالب للحسن والحسين رضى الله عنهما

« أوصيكما بتقوى الله ، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأغيثا الملهوف ، واصنعا للأخرى ، وكونا للظالم خصماً ، وللمظلوم ناصراً ، واعملا بما فى كتاب الله ، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم ، ولا تتركا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

أيها المستمعون : إن قوانين الميراث التى عليها الإسلام كانت موضع إعجاب من الذين يدينون بدين الإسلام وغيرهم ، ولم يستطيعوا أن ينقموا عليه إلا من ناحية واحدة هى حجب الأبناء لأبناء الأبناء . قالوا إن هذا ظلم فادح حيث يحرم الآخرون ، وينال حظهم الأولون ، ولا ذنب على الآخر ، ولا فضل للأول . ولكنهم غافلون عن آيات الوصية ، وهى قول الله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۞ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١) » .

تنبيء الآية الكريمة بوجوب الوصية للوالدين والأقربين وصية بالمعروف عادلة للوالدين والأقربين ، الذين حرموا الميراث لسبب من الأسباب ، كحجب الطبقة العليا للسفلى كما فى هذه المسألة ، ومثل ابنة الأخ وابنة العم والعمة ، فهؤلاء الثلاثة يحرمن من الميراث دون إخوتهن الذكور لأنهن من ذى الأرحام ، فمن رحمة الله تعالى بهن أن أمر المورثين بألا يحرموهن بأن يوصوا لهن . وكاختلاف الدين بين الآباء والأبناء . فإن الله أمر ببر الآباء وإن كانوا كفاراً ، كما قال سبحانه : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا(٢) » فمن المعروف أن يوصى الابن لأبيه حيث حرم الميراث

---

(١) البقرة الآيات : ١٨٠ ، ١٨١ (٢) لقمان الآية : ١٥

لـكفره . وبهذا تنتظم آيات المواريث وحديث الرسول ﷺ : « إِنَّ اللهَ أَعْطَى كلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلاَ وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ» رواه أحمد وغيره عن عمرو بن خارجة .

هذا ولمـا ماتت عواطف الناس وعطلوها ، قيض الله تعالى لها من ينفذها قهراً و بشرط ألا تزيد عن ثلث التركة ، وذلك فى سنة ١٩٤٦ ، وهذه مـكرمة للمتشرعين يستحقون عليها الثناء ، لولا أنهم صححوا الوصية لوارث ورث بالفعل مطلقاً أجازها الورثة أم لم يجيزوها وهذا ظلم . نعم لو جعلوها من الضرورات التى تبيح المحظورات ، كأن كان بعض الورثة عاجزاً عن العمل ، أو كان صغيراً يحتاج إلى التربية ، أو بنتاً فقدت زوجها الفقير وترك لها أولاداً صغاراً لجائز . وقد أجاز ذلك بعض السلف ومثلوا له بأمثلة ، منها أن يطلق أبوه أمه وهو غنى ولاعائل لها إلا ولدها . و يرى أن مايخص الولد من الميراث لا يكفيه .

فنى هذا كله يجوز أن يوصى للوارث المذكور بشىء زائد عن نصيبه لما ذكر ، وأما من غير ضرورة فحرام على الآباء أن يميزوا بين الأولاد أو يحرموا بعضهم .

عن النعمان بن بشـير أن أباه بشيراً نحله بعض ماله ، فقالت أمه عمرة بنت رواحة : لا أرضى بهذه العطية حتى تشهد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانطلق أبوه إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما كان من عطية ولده النعمان والتمس ، من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشهد على هذه العطية ، فقال رسول الله ﷺ : «أَلَهُ إِخْوَةٌ ؟ » قالَ : نَعَمْ . قَالَ الرسول فَـكُلُّهُمْ أَعْطَيْتَ مِثْلَ مَاأَعْطَيْتَهُ ؟ » فقال : لا . قالَ الرَّسُولُ : « فَلَيْسَ يَصْلُحُ هٰذَا ، ارْجِعْهُ إِنِّى لاأَشْهَدُ إِلاَّ عَلَى حَقٍّ ، لاَ تُشْهِدْنِى عَلَى جَوْرٍ ، أَشْهِدْ[1] عَلَى هَذَا غَيْرِى » . اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلاَدِكُمْ . إِنَّ لِبَنِيكَ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ تَعْدِلَ بَيْنَهُمْ ، كَمَالَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ أَنْ يَعْدِلُوا لَكَ فى الْبِرِّ ، أَيَسُرُّكَ أَنْ يَـكُونُوا لَكَ فِى الْبِرِّ سَوَاءً ؟ قالَ

---

(١) يريد الرسول بأشهد على غيرى : التهديد والوعيد .

نَعَمْ : قالَ الرَّسُولُ : فَلاَ إذَنْ ، وَأَمَرَهُ بِرَدِّ الْعَطِيّةِ فَرَجَعَ بَشِيرٌ فى عَطِيّتِهِ » . رواه البخارى وغيره .

هذا حكم الله فى الوصية بالمال . أما الوصية بغير المال ، فإنها تكون بالحض على خير الأعمال والتحذير مما فيه غضب الله ، حتى إذا فعلوه من بعده لا يلقى الله عليه التبعات ، ولا يؤاخذه بذنوبهم . كما قال جل شأنه فى بنى إسرائيل : « وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١) »

كما أنه يوصيهم بألا يخمشوا من بعده وجهاً ، ولا يشقوا جيباً ، ولا يدعوا بدعاء الجاهلية ، ولا تتبعه النساء فى جنازته ، ولا الذهاب إلى قبره فى الجمع والأعياد وغيرها من المنكرات . بذلك ينجو من الوعيد الشديد الذى ورد فى الأحاديث فى أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، وأحسن صيغة للوصية ما وردت عن السلف :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أوصى به فلان ابن فلان أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وأوصى من تركت من أهلى أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم ، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأوصيهم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب ، « يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(٢) » .

قال على كرم الله وجهه : « من لم يوص عند موته لذى قرابته ، فقد ختم عمله بمعصية » .

---

(١) الأعراف الآية : ١٦٤ (٢) البقرة الآية : ١٣٢

ترتيب إخراج التركة

إذا ما أردت أيها الأخ الكريم أن تكرم ميتك فأكرمه بما يأتى :

أولا — أنك تسدد دينه ، أو تتعهد لصاحبه بدفعه حتى تبرأ ذمته . لأن نفسه مرهونة بدينها . وقد صح الحديث : أن الشهيد تغفر له ذنوبه عند أول قطرة من دمه إلا الدين .

ثانياً — تعجل بتنفيذ وصيته إذا وصى ، وكانت الوصية لاتخالف حكم الله ، فإذا خالفته مثلا كأن أوصى بأن تجعل له مقصورة يدفن فيها . أو يكفن فى حرير ، أو يقرأ قرآن على قبره ، وما إلى ذلك مما لايقره الشرع لاتنفذها له ، وتحولها إلى وصية شرعية بأن تنفق المال الذى وصى به فى طرق مشروعة ، وبشرط أن تنفذ فى الثلث والباقى للورثة إلا إذا أجازها الورثة . وتجعل تلاوة القرآن فى المسجد أو فى المنزل ، فقد جاء فى حديث مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ ، إنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِى تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ » .

ثالثاً — تقسم الباقى على الورثة كما قسم الله وينبغى إعطاء من حضر القسمة منها ممن حجبوا من الورثة تطييباً لقلوبهم ، واتقاء حسدهم كما قال سبحانه : « وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً(١) » . لأن ظاهر الآية الوجوب لذوى القربى المحجو بين من الإرث ، واليتامى والمساكين يرجح ذلك القول .

رابعاً — أن تكرم أقاربه وتود من كان يوده . قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّىَ الأَبُ » رواه مسلم وغيره عن ابن عمر .

---

(١) النساء الآية : ٨

خامساً — نستغفر له ، وندعو الله له ، ونتصدق عليه .

سادساً — إذا كان عليه حق لله تعالى كالزكاة والكفارات والحج والنذر يجب أن تؤديها من ماله ، وإذا لم يكن له مال تؤديها من مالك ، لأنه لا فرق بين حق الله تعالى وحق الآدمى ، بل حق الله أولى كما جاء فى الحديث الصحيح « دَيْنُ اللهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى » .

ففى هذا كله بر بالوالدين وإحسان إليهما ، أما نصب السرادقات وإحضار مشاهير القراء وتكفينهما بالحرير وإشادة المقابر وتزيينها ، فلا يفيد الميت شيئاً ، وليس للحى فيه ثواب ، بل يكون مأزوراً إذا قصد السمعة والرياء .

قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثاً ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثاً : فيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تفرَّقُوا ، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَاوَلاَّهُ اللهُ أَمْرَكُمْ ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ المَالِ » رواه مسلم عن أبى هريرة .

وقال تعالى : « إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً[1] » وضابط التبذير : صرف المال فى غير موضعه ، وهذا كله من غير شك تبذير وصرف فى غير موضعه .

(١) الإسراء الآية : ٢٧

المحاضرة الحادية عشرة

أسباب فساد الأسرة

حمداً لله الذى شرع فأحكم ، وصلاة وسلاماً على من ختم الله به النبوات .

أيها المسلمون : فى كل يوم تطلع شمسه تروعنا الصحف بحوادث خلقية ومآسى اجتماعية ، ولا تزال هذه الحوادث الأليمة فى نمو واطراد كلما أمعن الناس فى المدنية وغلبت عليهم الشهوات البدنية ، وما كان ذلك عفواً ولاعبثاً ، وإنما كان ذلك قصاصاً وعدلا . إذ أن لله تعالى فى كل معصية قصاصاً نتيجة الاعتداء والخروج على حدود الله وعما شرعه الله للإنسان . فوالله ماظلمهم القدر ولاغبنهم المجتمع ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم وجنوا على مستقبلهم .

صدق الله : « وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً[١] » وقال سبحانه : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ[٢] » .

ولو كان لهؤلاء الدعاة ، دعاة التجديد الذين اندفعوا وراء شهواتهم وأعمالهم التقليدى ، لو كان لهم قلوب تفقه ، وعيون تبصر ، وآذان تسمع ، وشعور بالمسئولية ، وغيرة دينية ، لحطموا أقلامهم ، وكفوا ألسنتهم ، ورجعوا إلى شريعة ربهم ، فآثروها على تشريعهم الخاطىء وحكمهم الجائر « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » .

كم رفعنا الصوت عالياً ، ودوّى فى آذانكم بأن الشرع ماأجحف بحق المرأة فى احتجابها ، ولكن كان محارباً للفتنة خشية أن تعم ، وللشهوة لئلا تهدم الفضيلة ، ويسمو بالمرأة عما يدنس سمعتها ، ويغزو قلبها ، ويضيع عفافها ، الذى هو أعز شىء عندها .

وها هوذا كلام الله يخاطب نساء نبيه : « يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ

(١) طه الآية : ١١١ (٢) الأنبيا الآية : ٩٤

النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً ۞ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ[1] أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً[2] » .

أين هذا من الفتاة التى أخذت علينا كل سبيل ، وشغلت كل فراغ ، ولا زالت تغزونا فى كل ناد وفى كل واد .

وما أحوج الشاب فى هذه السن إلى ركود غريزته الجنسية ، حتى ينتهى من هذه المرحلة ، فيستطيع أن يقترن بفتاة صالحة تكون سكناً له فى حياته ، ومتعة له فى شخصيته ، وعوناً له على كفاحه فى الحياة ! ولكن واأسفاه لم نجد لهذا الصوت سميعاً ، ولا لتلك الصيحات من يصيخ لها ويسمع أناتها ، بل تركنا الحبل على الغارب ، وأطلقنا للفتاة الحرية الآثمة ، فمكناها من أن تقتحم على التلميذ مدرسته ، وتزاحمه فى مقعده ، حتى يجلس الاثنان فى مقعد واحد جنباً لجنب داخل المدرسة . وكان من آثار ذلك أن وقعنا فى كارثة اجتماعية ، ونكبة خلقية ، وهى انتشار العزوبة الفاجرة ، والاكتفاء بها عن الزيجة الفاضلة ، التى عليها بناء العمران ، وأورثتهم ريبة وشكا فى كل متعلمة قضت تعليمها فى هذه البيئة ، بيئة الاختلاط وثورة الشباب .

ولقد نطقت الحوادث ودلت التجارب ، على أنه لاتصلح الإنسانية إلا بما صلح به أولها .

جاء فى الصحيحين أن صفية أم المؤمنين زارت النبى ﷺ وهو معتكف فى العشر الأواخر من رمضان فى المسجد ، فتحدثت عنده ساعة من نهار ، فلما قامت تنقلب راجعة ، قام معها النبى ﷺ حتى إذا بلغا باب المسجد مر بهما رجلان

---

(١) الرجس : الدنس المعنوى الذى يسيء السمعة (٢) الأحزاب الآيات : ٣٢ ، ٣٣

من الأنصار ، فسلما على رسول الله ، ثم قفزا وانطلقا مسرعين ، فقال لها النبي ﷺ : « عَلَى رِسْلِكُما ، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ » . قالا : سبحان الله يارسول الله ، وكبر عليهما ما قال ، فقال النبي ﷺ : «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُما شَيْئاً » .

ينبئنا الحديث عن حكم شرعى ، وهو ينبغى للإنسان أن يدفع عن نفسه التهم التى يخشى منها أن تنسب إليه .

وقال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ » فوجه إليه أحد الصحابة سؤالا عن الْحَمْوِ[1] . فقال صلى الله عليه وسلم : « الْحَمْوُ الْمَوْتُ[2] » .

يريد النبي صلى الله عليه وسلم أن خطر الحمو على الأعراض كالموت على الأجسام . ولقد حققت الأيام بعد نظر النبوة .

وفى أسبوع واحد تنقل لنا الصحف اليومية ، حادثتين مروعتين ، وتخرج لنا صفحتين داميتين تتقطع لها نياط القلوب أسى ، وتفيض من أهوالها الدموع حزناً ، على ماأصاب أسرتين عريقتى المجد ، كريمتى الحسب والنسب ، وضياع فتاتين فقدا نصيبهما من الحياة الزوجية . وتلك عاقبة الذين لم يتدبروا عواقب أمورهم ، وانخرطوا فى سلك شهواتهم ، ولم يرضوا بحكم الله : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[3] » .

أولاهما — فتاة فى سن العاشرة : تربت بين أبوين كريمين فى رغد من العيش ، ولنفور بين الأبوين اقتضت الحال أن تصير الفتاة فى حضانة أمها ، وتفقد عِشرة أبيها . ومن نكد الدنيا على الإنسان أنه لايستغنى عمن يخدمه ، فأخذت الأم الخادم الذى كان يخدمها هى وزوجها ، وكانت تتركه فى المنزل مع ابنتها من غير أن تعمل لهذا الاختلاط حساباً ، أو تقيم له وزناً ، فكان الخادم

---

(١) الحمو : كل قريب للزوج (٢) البخارى وغيره عن عقبة بن عامر
(٣) المائدة الآية : ٤٧

يعبث بهذه الفتاة الصغيرة الطاهرة التى لا تعرف شيئاً ، ولما تتكامل فيها الغريزة الجنسية التى أودعها الله فى الذكر والأنثى لتقودهما إلى الزواج ، ولولاها ماحنت امرأة إلى رجل ، ولا عطف رجل على امرأة ، حكمة الحكيم الخبير فى تدبير الكائنات وإقامة العمران : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً[1] » .

هذا ولما كملت مدة الحضانة تسلمها أبوها ، فلاحظت زوجة أبيها عليها حركة غير عادية ، وأرقاً شديداً ، وبالتحرى وجد أنها أصيبت بمرض فتاك من هذا الخادم الخائن الغادر ، الذى يجرؤ على ابنة سيده ، وولى نعمته . ولعمرى للكلب أكثر أمانة ووفاء من هذا الخادم الفاجر . فلم نسمع أن كلباً خان سيده أو ابن سيده ، فهو يلاطفه ويلاعبه دون أن يجرؤ على خدشه أو إلحاق أى ضرر به ، بل تراه يحميه ويحرسه ، وهو حيوان . فما بال الإنسان قد نزل عن إنسانيته وانحط إلى هذا الدرك الأسفل ولم يصل إلى مثل هذا الحيوان الأعجم . وأيم الحق إنها لمعرة لبنى الإنسان ، وأى عظة أكبر من هذه للمخدومين الذين يحسنون الظن بخدمهم ، فيأتمنونهم على أعراضهم .

ولقد كان حكم القضاء على هذا الآثم بعشر سنين جزاء مااقترف من بغى وعدوان ، يقضيها فى غياهب السجون ، إنه قصاص مخفف دون الرجم الذى أمر به القرآن . ولاغرو فأى جريمة أفظع من التغرير بالعذارى الصغيرات والمحصنات الغافلات وتلطيخ شرف أسرة بعار لاتمحوه السنون والأعوام ، وضياع مستقبل فتاة طاهرة غرربها هذا الذئب الكاسر ، فصارت مضرب الأمثال ، وحديث الناس فى كل مكان وزمان ؟ وإن عقوبة الرجم لتنطبق تمام الانطباق على هذه الجريمة الشنعاء لما لها من أكبر الأثر فى تقويض بناء المجتمع ، وهدم لكيان الأسر . ولذلك لم يقبل الله فيها شفاعة ، ولم يجعل فيها هوادة ولا رحمة ، فقال

---

(١) الروم الآية : ٢١

سبحانه : « وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(١) » .

أما القتل فقد قضى فيه على خلاف ذلك ، فرضى بالعفو ورغب فيه ، فقال سبحانه : « فَمَنْ تَصَدَّقَ به فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ(٢) » .

ألا فليخجل دعاة السفور والاختلاط من هذه المخازى وتلك المآسى التى جرت على المجتمع نكبات فادحة ومصائب مروعة . وماذا يقولون فيما يسمعونه صباح مساء من ضحايا الشرف والعفاف فى مواطن اختلاط الرجال بالنساء ، « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(٣) » .

أما الحادثة الثانية ، أو المأساة الثانية ، فهى تتلخص فى أن شابة تدرس فى المعاهد العليا طمع فيها شاب مفتون من منبت وضيع يشتغل فى مهنة حقيرة ، وأخذ الشاب يتصل بهذه الشابة ويغرر بها ، ويخدعها بزخرف القول ومعسول اللفظ ، بأنه ذو ثروة عظيمة وأبوه من ذوى الحيثيات ، وأنه يرفل فى عز أبيه وينعم فى ظله الظليل ، ومازال يزين لها مستقبلاً سعيداً وعيشاً رغداً حتى انخدعت بأقاويله ، ورضيت به زوجاً بعد تضحيات جسام وعقوق لأبويها . ولما يمض عليهما العام الأول حتى كان الزوج طريح السجن لعجزه عن نفقتها وسوء سلوكه وحقارة مهنته . وقد تركت هذه المأساة فى قلب أبويها حسرة وفى نفسهما لوعة ، ذلك نتيجة استبدادها بزواج نفسها من غير أمر وليها الذى هو أبعد نظراً وأحكم رأياً وأكثر تبصراً بعواقب الأمور .

فهلا فكر ولاة الأمور والتزموا جانب الحيطة فى عقود الزواج ، فلايبرمونها إلا بإذن الولى ، فإن فى ذلك صيانة من العبث فى الأعراض ، ومن وقوع المرأة فى طرق الغواية والفساد ، واتباعاً لما جاء فى صحيح الآثار ، وما أيسر هذه الخطوة على المصلحين ، وما أجل نفعها على الملايين ؟

(١) النور الآية : ٢ (٢) المائدة الآية : ٤٥ (٣) الحج الآية : ٤٦

أما القول باستقلالها بنفسها فقول مرجوح وسند ضعيف ، من تلك الأحاديث ما رواه أبو موسى عن أحمد وأبى داود وابن ماجه والترمذى وابن حبان والحاكم وصححاه عن النبى ﷺ : « لاَ نِـكَاحَ إِلَّا بِوَلِيّ » وحديث عائشة عن أحمد وغيره أن النبى ﷺ قال : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَـكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنِـكَاحُهَا بَاطِلٌ ، فَنِـكَاحُهَا بَاطِلٌ ، فنِكَاحُهَا بَاطِلٌ ، فإِنْ دَخَلَ بِهَا فَلَهَا المَهْرُ بِمَا اسْتَحَلَّ مِنْ فَرْجِهَا ، فإِنِ اشْتَجَرُوا فالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لاَ وَلِيَّ لَهُ » .

وهناك أحاديث صحيحة كلها تدل على أن عقد زواج المرأة من غير الولى باطل ، ولايعارض هذه الأحاديث قول الرسول ﷺ : « الثَّيِّبُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا وَالْبِـكْرُ تُسْتَأْذَنُ » ونحوه ، لأن المراد أنهـا أحق بنفسها فى تعيين من تريد نـكاحه إن كانت ثيباً ، والبكر يمنعها الحياء من التعيين ، فلابد من استئذانها ، وليس المراد أن الثيب تزوج نفسها وتوكل من يزوجها مع وجود الولى فعقد نـكاحها أمر آخر .

وبهذا نعلم أن لا وجه لمـا ذهبت إليه الظاهرية من اعتبار الولى فى البـكر دون الثيب ، والولى عند الجمهور هو الأقرب من العصبة .

وقد روى عن أبى حنيفة أن ذوى الأرحام من الأولياء ، وقد رجح صاحب الروضة الندية أبو الطيب صديق بن حسن أن الأولياء هم قرابة المرأة ، الأدنى فالأدنى الذين تلحقهم الغضاضة إذا تزوجت بغير كفء ، وكان المزوج لها غيرهم ، وهذا المعنى لا يختص بالعصبات ، بل قد يوجد فى ذوى السهام كالأخ لأم وذوى الأرحام كابن البنت ، وربما كانت الغضاضة معهما أشد منها مع بنى الأعمام ونحوهم فلاوجه لتخصيص ولاية النكاح بالعصبات ، كما أنه لاوجه لتخصيصها بمن يرث .

هـذا وقد درج على مذهب أبى حنيفة المصريون من عهد حكم الأتراك . وقد قال مالك : « رأى أبى حنيفة الداء العضال » وقال ابن المبارك : إن أباحنيفة كان يتيما فى الحديث والسبب فى ذلك أنه نشأ فى بلاد العراق التى كانت بعيدة ، عن بلاد الحديث . رحم الله أئمة الدين وجزاهم خيراً على ماقدموا للدين من خدمات .

المحاضرة الثانية عشرة

الحج ومشروعيته

أيها المستمعون : الحج من الشئون الدينية التي كانت تعرف من الدين في أقدم العصور عند جميع الأمم ، فما من أمة إلا ولها مكان معين أو أمكنة تحجها زرافات ووحداناً في كل عام مرة أو مرتين أو أكثر . ولقد دلت الآثار على ذلك ، وكان العرب في الجاهلية يفدون إلى أصنام لهم في المسجد الحرام . فاقتضت الحكمة الإلهية أن تكون العبادات كلها لله وحده ، فأمر الله خليله إبراهيم أن يبني الكعبة لتكون قبلة للناس جميعاً ، أحياء وأمواتاً ، فمن توجه إليها فكأنه توجه إلى الله ، ومن زارها كأنه زار الله ، وهو وإن لم يكن سبحانه حاضراً بذاته فإنه حاضر برحمته ورعايته .

والمسجد الحرام الذي فيه الكعبة هو أحد المساجد الثلاثة ، والمسجد النبوي ، والمسجد الأقصى ، وهذه الثلاثة هي التي يُشَدُّ إليها الرحال ، وتُنشأ إليها الأسفار وتُضرب عليها أكباد الإبل . أما بقية مساجد الدنيا فهي متساوية بالفضل ، لا فضل لأحدها على الآخر . وعلى هذا فكل من ينشيء سفراً لغير هذه الأماكن المقدسة فليس على هُدًى من الله وهو غير مأجور ، كالذين يسافرون لزيارة السيد البدوي رضي الله عنه أو أبي العباس وغيرهما أو لأجل صلاة الجمعة في مثل هذه المساجد ، فهؤلاء أضاعوا أموالهم سُدًى ، ولو أنهم أنفقوا نفقات السفر على فقراء بلادهم ، أو وصلوا به أرحامهم ، لكان لهم من الله عظيم الأجر ووافر الثواب .

وقد أوجب الله الحج على كل من استطاع إليه سبيلا ، رجالا ونساء ، وجعله سبحانه من أقوى الدعائم الدينية الذي به تتجلى الوحدة الإسلامية ، ويتم التعارف والتآلف بين جميع الشعوب الإسلامية ، فيبحثون الطرق النافعة لرقي شأنهم مادياً وأدبياً ، ويحيط كلٌّ بما لحق بلاده من نقص فيعمل على تكميله من

الأخرى فهو مؤتمر إسلامى يجتمع فيه المسلمون ليحسوا أنهم هيئة واحدة وكتلة واحدة ، وقلب واحد ، مهما تعددت أجناسهم واختلفت بيئاتهم . فبهذا يهابهم الأجنبي ويخشى بأسهم ، ولا يستطيع أن يقترب من ساحتهم . وما أحوجنا إلى هذا المؤتمر فى هـذا الوقت العصيب الذى ينفث العدو سمومه فينا ، ليجعلنا شيعاً يضرب بعضنا بعضاً ، فينال منا ولا ننال منه ؟ وهذا ما كان يخشاه النبي المعصوم على أمته إذ يقول : « لَا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا » رواه البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه . وقال سبحانه : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ [1] » .

نعم ماأحوجنا إلى أن يجتمع فى هـذا المؤتمر أقطاب المسلمين ، ليلم شعثهم ، ويجمع كلمتهم ، ويوحد صفوفهم ، ويذكرهم بعظمة الإسلام ومجده . فيعملوا لحفظه وجمع كلمته ، وأى شيء أبلغ فى النفس ، وأوقع فى الحس ، وأروع منظراً ، وأدل على ثبات العقيدة ، من رؤية الحجيج وقد أتموا فروضهم ، واختلط غنيهم بفقيرهم ، فتعارفوا وتآلفوا ، وأصبحوا إخواناً متحابين ، وإلى الخير متسابقين ، وعن الشر متباعدين .

هذا ومن الأسف الشديد ، أن نرى المسلمين قد عطلوا هذا الركن الركين ، وذاك المقصد النبيل ، فتراهم يحجون ولا يفكرون فيما يرمى إليه الإسلام من حكمة الحج ، وياليت الذين يقصدون بيت الله من الطبقة المفكرة التى يسمع لقولها ، بل معظمهم من العوام الذين لايعرفون من الحج إلا اسمه ، ألا وإن من حسن الحظ أن نرى رجال هـذا العهد آخذين فى إحياء ماأماته المبطلون ، فأسسوا من الأمم الإسلامية جمعية تربط المسلمين بعضهم ببعض وأسموها « المؤتمر الإسلامى » وقد تمت هذه الفكرة ونرجو لها النجاح .

أيها المسلمون : أيها القادرون على حج بيت الله الحرام ، بادروا إلى الحج

(١) الأنفال الآية : ٤٦

فإن أحدكم لايدرى ما يعرض له، لعله لا يصبح بعد إمساء ، ولا يمسى بعد إصباح فإن كل حى عرضة لمرض مزمن ، أو حادث مفاجىء ، أو شيخوخة . هذا و إن يوم القيامة ذو حسرات ، ومن أعظم الحسرات أن ترى مالك فى ميزان غيرك . وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعَجَّلُوا الْحَجَّ (يعنى الفريضة) فإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِى مَا يَعْرِضُ لَهُ (١) » .

فكم من شخص منته نفسه الحج فسوّفه ، فنزل به الموت قبل أن يحقق أمنيته ، فراح من الدنيا آسفاً لاهفاً ، يسأل الله تعالى الرجعة عند موته كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ما من صاحب مال لا يؤدى زكاته ولم يحج منه إلا سأل الله الرجعة . ثم قرأ قوله تعالى : « وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٢) » .

ألا ومن فضل الله تعالى عليكم أن سهل لكم سبله ، ومهد لكم طريقه ، وكأن الذاهب إليه ذاهب إلى رحلة رياضية . فمن طائرات تقطع المسافة فى بضع ساعات ، ومن بواخر تمخر عباب البحار ، ومن سيارات لا تحسون فيها بشىء من عناء السفر . فمن كان قادراً على تأدية هذه الفريضة ولم يؤدها ، فقد حرم متعة من متع الحياة الدنيا ، وباء بغضب من الله .

أيها المسلمون : لقد مضى زمن غير بعيد ، كان طريق الحج والزيارة وعراً وخاصة ما بين مكة والمدينة ، وكان الحاج يأخذ كفنه معه لاختلال الأمن وسطو الأعراب ، الذين كانوا يسطون على القوافل ، فيسلبونهم أموالهم ، وربما فتكوا بأرواحهم الأبرياء ، مما كان وصمة عار فى جبين المسلمين جميعاً ، حيث إنهم لا يقدرون أن يركزوا الأمن فى دار السلام ، ومركز بيت الله الحرام ، ومع هذا فإن آباءكم عليهم الرحمة والرضوان ما كانوا يبالون بما ينالهم من هؤلاء الوحوش

(١) رواه أحمد والبيهقى . (٢) سورة المنافقون : ١٠ ، ١١

الضارية والسباع العادية . فقد كانوا يتهافتون على الحج وزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم إرضاء لله وقياماً بواجب مقدس توعد الله تاركه عذاباً شديداً ، فقال سبحانه : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ[1] » .

تنطق الآية الشريفة بأن من استطاع أن يحج ولم يحج فقد كفر ، فعبر عن ترك الحج بالكفر لنعلم علماً لاشك فيه أن تارك هذه الفريضة على خطر عظيم ، وعن الكفر ليس ببعيد ، ولماذا تتركونه وقد برهنت الأيام أن ماينفقه الحاج من المال يعوضه الله فى الدنيا أحسن العوض ، ويغفر له ذنبه ، ويكفر عنه خطاياه ، كما أخبرنا المعصوم ﷺ ، عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ[2] خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ ، وليس للحجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةَ ؟ رواه الترمذى .

أيها المسلمون : إن فى مشروعية الحج مصالح كثيرة ، ومزايا جسيمة ، فيه معونة للفقراء الذين جاوروا بيت الله تعالى ، وقد انقطعوا فى هذا الوادى البلقع ليس لهم نصيب فى الحياة سوى ما تنفقونه لهم هناك ، وفيه تتجلى المساواة بين جميع الطبقات ، حيث يقف الكل على جبل عرفات ، فى أرض الحرية والاستقلال والكل يلهج بلبيك اللهم لبيك ... منظر رائع وحكمة بالغة وعزاء للضعفاء .

أيها المسلمون : إن من حكمة الله تعالى فى مشروعية الحج جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم ، والتوجه إلى الله تعالى وحده ، إذ أن الإنسان دائماً يفكر فى السلطة الغيبية التى صدرت منها هذه الكائنات ويستشرف إلى معرفتها ، وبخاصة إذا كانت مصدر وجوده ليعبدها ، ويتقرب إليها بأنواع الزلفى . وكيف

---

(١) آل عمران الآية : ٩٧

(٢) الكير : الآلة التى ينفخ بها الحداد والصائغ النار — والخبث : الوسخ .

يتوجه إليها وهى لاتتقيد بزمان ، ولا تنحصر فى جهة من الجهات .

حار الإنسان وما أعظمها حيرة ؟ ولكن الله الرحيم بعباده أذهب حيرته ، فجعل له بيتاً نسبه إليه تشريفاً وتكريماً ، ودعاه إليه ليزوره ويتوجه إليه فى صلاته ودعائه ، ويكون قبلته حياً وميتاً . فإذا ماحج هذا البيت وزاره اطمأنت نفسه وسكن قلبه ، وإذا مااستلم الحجر الأسود كأنه بايع الله تعالى على الإيمان به والحج والطاعة له ، وإذا كان الحضور الحقيقى لله تعالى محالاً ، فإنه يحضر إلى زواره برحمته ورعايته ، يستأنس لذلك بالحديث الذى أخرجه الخطيب فى التاريخ رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الْحَجَرُ يَمِينُ اللهِ فى الأَرْضِ يُصَافِحُ بهَا عِبَادَهُ » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللهِ ، إنْ دَعَوْهُ أَجَابَهُمْ ، وإن استَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ » رواه النسائى وغيره .

هذا وقد فطر الله الناس على التعلق بآثار المحبوب الغائب فتعلق الحاج بالله لالذات البيت لأنها أحجار ، كذلك الحجر الأسود فتقبيله لالذاته ، وإنما لمن نسب إليه هذا البيت كتحية المسجد فإنها لرب المسجد كما قال العربى .

وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا

فالطواف والسعى ورمى الجمار مظهر من مظاهر التعلق بالسلطان الأعلى خالق كل شىء ، الذى لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

وإن فى رمى الجمار لتذكرة بإمام الحنفاء خليل الله إبراهيم ، حيث ضحى بفلذة كبده وحشاشة قلبه فى سبيل الله ، وطرد الشيطان باليد والقلب واللسان حيث يقول الرامى : « الله أكبر » .

ويقول ابن عباس رضى الله عنهما : الشيطان ترجمون ، وملة أبيكم تتبعون .

وليس فى تاريخ البشرية حادث تغلب فيه جانب الله على كل جانب

والفناء فى سبيل إرضاء الله مثل تضحية الشيخ الكبير بابنه الصغير برؤية منامية : فأعمال الحج تذكر الإنسان بهذا كله .

هذا وقد قبّل الرسول صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود وقال : « ياعُمَر ، هُنَا تُسْكَبُ الْعَبَرَاتُ » .

أيها المسلمون : بادروا بتأدية هذه الفريضة من مال حلال أديت زكاته ، واحذروا الرياء فإنه يحبط أعمالكم . ففى حديث مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تبارك وتعالى « أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ » . فلاتمنعوا نساءكم عن تأدية هذه الفريضة ، مادمن قادرات ومعهن محرم أو أزواج . فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قلت يارسول الله ، أعلى النساء جهاد ؟ قال : « نَعَمْ جِهَادٌ لَاقِتَالَ فِيهِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ » ، رواه ابن ماجه فعجلوا بتأديتهما قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ، ولا تكونوا كالذين غرتهم الأمانى ، فأخذوا يسوفون من عام إلى آخر حتى نزل الموت بساحتهم أو المرض أو الفقر بغتة ، وأخذوا يعضون بنان الندم ، ويتمنون الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا مافاتهم ، وماذا يفيدهم ذلك ، وقد قطع الله أطماعهم فى قوله تعالى : « وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١) » .

وأى شىء أجل وأعظم من أن يترك الحاج وطنه ، ويودع أهله ، مضحياً بكل مايملك فى سبيل هجرته إلى ربه ، متجرداً من ثياب الزينة إلى أكفان الموتى ، وقد ابتعد عن متع الحياة الدنيا مقبلا على ربه ولسانه يهتف بـ « لبيك

(١) المنافقون الآيات : ١٠ ، ١١

اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمـــد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك » .

فى هذه تتمثل العبودية بأجلى مظاهرها لله عز وجل والوحـدة الإسلامية التى هى الركن الركين فى انتصار المسلمين وهزيمة الـكافرين .

وإجمال القول أن منافـع الحج فيها دنيا ودين ، متعة قلبية وروحية ورياضة بدنية وفوز برضوان الله تعالى . صدق الله تعالى : « جَعَلَ اللهُ الْـكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلَائِدَ . ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَأَنَّ اللهَ بِكلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[1] » .

إجزاء الحج عن الغير

أولا : المتفق عليه أن الحج عن الغير فى الفريضة لايصح إلا بعـد الموت ، أو المرض الميئوس من شفائه ، مثـل الشيخوخة والأمراض المزمنة ، أما الجنون والمرض الذى يرجى شفاؤه فلا تصح النيابة فيه .

ثانياً : النيابة فى النفل جائزة للتوسع فيه ، كما ذهب إليه الإمام أحمـد والإمام أبو حنيفة .

ثالثاً : اشترط فى المؤدى للحج أن يكون قد حج عن نفسه أولا ، والحـكمة فى ذلك هو أن الذى عليه دين لايصح أن يؤدى دين غيره وعليه دين ، لأن الإيثار فى الدين مذموم ، وفى أمور الدنيا محمود ، دليل ذلك حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول : لبيك عن شُبْرُمَةَ ، قال : من شبرمةَ ؟ قال أخ لى أو قريب لى — شك من الراوى — فقال : « حَجَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ ، قالَ : لَا . قالَ : حُجَّ عَنْ نَفْسِكَ ثُمَّ حُجَّ عَنْ شُبْرُمَةَ » ، رواه أبو داود وغيره .

---

(١) المائدة الآية : ٩٧

وعلى هذه العلة رأى بعض العلماء[1] المجتهدين أن النائب إذا لم يقدر على الحج المقدرة المالية يصح أن يؤدى الحج عن غيره لأنه غير مدين . مثال ذلك أن يكون الأب ثرياً ولكنه لايستطيع الحج لكبر أو مرض ، فيبعث ابنه نائباً عنه بماله .

رابعاً : إن حج الفروع عن الأصول سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً متفق عليه ، وقد صحت الأحاديث فى ذلك ، منها حديث الفضل بن عباس أن امرأة من خَثْعَمَ قالت : يارسول الله ، إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخاً كبيراً ، لايستطيع أن يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : نعم ، وذلك فى حجة الوداع . رواه الجماعة .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : « إِنَّ أُمِّى نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ وَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ أَفَأَحُجُّ عَنْهَا » قال : نعم ، حُجِّى عنها ، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ ، اقْضُوا اللهَ فَاللهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ » . رواه البخارى .

وإذا كانت حكمة الله تعالى تأبى على المرء أنه لاينفعه إلا عمله ، وكسب يده ، فإن ابن الإنسان من كسبه ، كما جاء فى الحديث ، فقد سأله ﷺ رجل فقال : « إِنَّ لِى مَالًا وَوَلَدًا وَإِنَّ أَبِى يُرِيدُ أَنْ يَجْتَاحَ مَالِى . قال : « أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ ، إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ وإن أولادكم من كسبكم فَكُلُوهُ هَنِيئاً » . رواه أبو داود وغيره .

أما حج الأجنبى عن الغير فرأى الجمهور يصح فيه النيابة بالشروط المذكورة ويزاد عليها أن يقوم النائب من بلد المحجوج عنه منفقاً ما كان ينفقه المنوب عنه ، أما استئجار أحد المكيين لتأدية هذه الفريضة فإنها غير مجدية ، نعم هى لاتضر

---

(١) صاحب هذا الرأى الصنعانى صاحب سبل السلام .

وللمحجوج عنه ثواب الجعل الذى يأخذه المكى المؤدى عنه فلا تضر ، وهنا اعتراض ممن لم ير صحة النيابة بقول الله تعالى : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

أجاب عنه بعض العلماء بأن الآية واردة فى قانون العدل الإلهى ، وهذا من باب التفضل والإحسان ، أو إن الآية واردة فى إسقاط الفريضة ، والخروج عن العهدة لا فى حق الثواب والانتفاع ، ومع هذا كله فإن على المتوفى أو العاجز إذا قصر تبعة التأخير والتقصير .

المحاضرة الثالثة عشرة

الإحسان وأين يكون؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِى يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، وَالتَّمْرَةُ والتَّمْرَتَانِ ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِى لايَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ ، ولا يُفْطَنُ لهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ، ولا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ » رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة .

أيها المستمعون : البؤس فى الناس كثير ، والدنيا مَلأَى بالفقراء والمعوزين واليتامى والمساكين ، فلا تسلكون طريقاً ولا تنزلون بادية ولا حاضرة إلا ويزاحمكم نفر ممن أذلتهم الحاجة وشاكتهم الضرورة إلى مزيد من العناية . قال تعالى : « وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١) » .

فمن أعمى كفيف ، ويتيم مسكين ، وبائس فقير ، وهرم كبير ، وأرملة وسقيم . كل هؤلاء ومن على شاكلتهم بائسون منكوبون ، جعل الله لهم حقاً فى مالكم ، فإن أنتم آتيتموهم حقهم الذى جعله الله لهم ، وواسيتموهم فى آلامهم ، ولم تضنوا بما آتاكم الله عليهم ، حفظتم نعم الله عليكم وزادكم من فضله ، وكان لكم اليد العليا ، ولهم العزاء والسلوى ، قال تعالى : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ(٢) » ولئن بخلتم عليهم بمالكم ، ولم تعطفوا عليهم فى محنتهم ، تسرب إلى قلوبهم اليأس والقنوط ، وامتلأت نفوسهم حسداً وغيظاً ، فلا تأمنون مكرهم ولا تسلمون من شرهم ، وعرضتم ما أنعم الله به عليكم إلى الزوال . قال تعالى : « ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٣) » .

---

(١) سبأ الآية : ٣٩ (٢) إبراهيم الآية : ٧ (٣) الأنفال الآية : ٥٣

أيها المسلمون : إن من الجحود الآثم أن ينـام الإنسان على فراشه الوثير ، ويرفل فى ثيابه الحرير ، وبنو جنسه وإخوانه فى الوطن والدين ، يُرعِدون برداً ولايجدون من الثياب والغطاء مايقيهم زمهرير الشتاء وقيظ الحر .

أَمِنَ المروءة أن تجلس أمام مائدتك وهى حافلة بصنوف الطعام وأنواع الحلوى ، و بين أقاربك وذوى رحمك مَنْ تهفو أحشاؤه شوقاً إلى فُتات تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها .

أمن الرحمـة أن ترى أبناءك فى بحبوحة من العيش ، يلبسون من الثيـاب ما غلا ثمنه ودقت صنعته ، و بنى غيرك فى عيش ضنك وثياب باليـة ، ولا ينفطر قلبك عليهم أسى وتفيض عينك دمعاً .

أيها الأغنياء : ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . ألا تعتبرون بما بين أيديكم وما خلفـكم من الذين غلُّوا أيديهم عن الإنفاق ، وشحوا بما آتاهم الله من فضله . فقد عاقبهم الله على ما سلبوه من حق الفقير ، فأصابهم الحرمان من التمتع به جزاء مابخلوا به فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار .

وما تلك الأدواء المستعصية إلا من آثار الإفراط فى الطعام والشراب مثل : تمدد المعدة . السكرى . تصلب الشرايين . البطنة وغيرها مما نسمع ونرى .

أيها المسلمون : اللهَ اللهَ فى أموالكم ، فاستبقوها بشكر الله عليها ولا تضيعوها بالحرص عليها ، وقد أراكم الله من أخبار الأولين مافيه عبرة لمن اعتبر ، وذكرى لمن ادكر .

فـكم من مال جمعته نفوس شحيحة ليتقوا به روعة الزمان وجفوة الأصحاب ثم تركته أكداساً ، فلما أراد الله بهم ماأراد ماأغنى عنهم مالهم ولا كُراعهم ، ثم سلط الله على أموالهم ورثة عاقين ، فأخرجوا هذه الأموال من عقالها ونثروها فوق موائد القمار و بيوت الفساد وحانات الخمور وصاروا عالة على غيرهم معدمين ، وتلك عاقبة المال الذى لايفرج منه على المكروبين ولا يعطى منه حق البائس الفقير .

قال تعالى : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١) » .

أيها المسلمون : إن ماتقدمونه فى الحياة الدنيا إنما هو لكم وماتؤخرونه فهو لغيركم ومحاسبون عليه . قال لقمان الحكيم لابنه يابنى لاتضيع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ماقدمت ، ومال وارثك ماتركت .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ » قالوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ . قَالَ : « فإِنَّ مَالَهُ مَاقَدَّمَ وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ » رواه البخارى .

ومن رحمة الله تعالى بالفقير أن أوجب على كل شخص يعرف فيه الفقر أن يحض الغنى على سد حاجته . قال تعالى : « أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٢) » وقال تعالى : « خُذُوهُ فَغُلُّوهُ » إلى قوله تعالى : « وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) » .

وإذا كان هذا شأنك أيها البخيل ، فما أحراك أن تساهم فى تخفيف ويلات الإنسانية ، فتغيث الملهوف ، وتساعد الضعيف ، وتعطى المحروم ، وتصل الرحم .

بهذا تنال ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين .

أيها المسلمون : إن الله تعالى قد بيّن لكم مصارف الزكاة والصدقات وحدد مستحقيها فى قوله تعالى : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ (٤) » .

---

(١) النحل الآية : ١١٢ (٢) الماعون الآيات : ١ ، ٢ ، ٣

(٣) الحاقة الآيات : ٣٠ إلى ٣٤ (٤) التوبة الآية : ٦٠

يبينها الله لـكم حتى لا تنخدعوا بهؤلاء المتسولين الذين ركنوا إلى البطالة والـكسل ، فاتخذوا الشحاذة سبيلا للعيش وموردا للرزق . ترونهم يتظاهرون بمظاهر الذلة والمسكنة والفقر ليخدعوا الناس بتلك الأساليب الخداعة ، فيستميلوا بها النفوس و يستدروا بها عطف المحسنين . والله يعلم إنهم لـكاذبون «يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ[(١)]» .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَأَلَ شَيْئاً وَعِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ فَإِنَّمَا يَسْتَـكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ ، قالوا : يارسول الله مايغنيه ؟ قال : « مايُغَدِّيهِ أو يُعَشِّيهِ » . فى الترغيب والترهيب للمنذرى .

فمثل هؤلاء يجب أن يحاربوا ، إذ أنهم سُبّة فى جبين مصر ، وشر مستطير فى مستقبل النشء ، ومن يساعدهم فقد أشركهم فى الإثم ، وساعدهم على الضلال .

وما أحسن قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَـكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة .

هذا وقد بين الرسول ﷺ من يستحق الصدقة ومن لا يستحقها فى حديثه « إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاتَحِلُّ لِغَنِيٍّ ولا لِذِى مِرَّةٍ[(٢)] سَوِيٍّ ، إلاَّ لِذِى فَقْرٍ مُدْقِعٍ[(٣)] أَوْ ذِى غُرْمٍ مُفْظِعٍ[(٤)] ، أَوْ ذِى دَمٍ مُوجِعٍ[(٥)] » وقال أيضاً : « وَمَنْ سَأَلَ النَّاسَ لِيُثْرِىَ بِهِ مَالَهُ كانَ خُموشاً فى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَرَضْفاً[(٦)] يأْكلُهُ مِنْ جَهَنَّمَ ، فَمَنْ شاءَ فَلْيُقَلِّلْ وَمَنْ شاءَ فَلْيُـكْثِرْ » . رواه الترمذى عن مجالد ابن عامر عن عيسى .

وها هو ذا القرآن الـكريم يؤيد قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيان مصرف الزكاة : « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فى سَبِيلِ اللهِ لايَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً

(١) البقرة الآية : ٩ (٢) مرة : قوى ، سوى : سليم الأعضاء
(٣) المدقع : الشديد (٤) المفظع الشنيع
(٥) وذو الدم الموجع : الذى يتحمل دية قريبه ولو لم يدفعها قتل قريبه
(٦) الرضف : الحجارة المحماه .

فى الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً[1] » .

تفيد الآية الكريمة أن الإحصار فى سبيل الله للجهاد وغيره لايبيح أخذ الصدقة مادام يستطيع السفر لطلب الرزق أو التجارة أو غيرها ، كما يشترط فى أخذها التعفف وعدم الإلحاف فى السؤال ، فإذا اختل شرط من ذلك فلا تحل الصدقة له .

روى الإمام أبو الحسن يحيى بن نجاح فى كتاب سبل الخيرات : أن عثمان ابن عفان رضى الله عنه أرسل إلى أبى ذر الغفارى رضى الله عنه بصرة فيها نفقة على يد عبد له ، فقال له : إن قبلها فأنت حر ، فأتاه بها فلم يقبلها ، فقال : اقبلها يرحمك الله ، فإن فيها عتقى ، فقال أبو ذر : إن كان فيها عتقك ، ففيها رِقّى . وأبى أن يقبلها .

وممن لاتحل لهم الصدقة الذين يقرءون القرآن على قوارع الطريق وأبواب المساجد وراكبى القطر وعلى المقابر ، لأن فى ذلك تحقيراً للقراء واستهانة بالقرآن الذى هو المصدر الأول للدين ، فلا يصح أن يستخدم فى الدنيا ، ولكن واأسفاه استخدم للدنيا ، فيقرأ على المقابر وفى المساجد وفى القطر ليحصلوا على الدرهم والدينار، ويشترون بكلام الله ثمناً قليلا ، مما كان سبباً فى احتقار قارئيه ، واستخفاف الناس بهم .

وليت هؤلاء الشحاذين الذين يستجدون الناس على أبواب المساجد يجيبون داعى الله إلى الصلاة ، بل تروتهم واقفين يعتذرون بأنهم لم يكن عندهم استعداد للصلاة ، مع أن الصلاة تجب على الصحيح والمريض ، والمسافر والمقيم ، فى الحرب والسلم كل حسب طاقته « إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً[2] »

---

(١) البقرة الآية : ٢٧٣ (٢) النساء ١٠٤ موقته بوقت مقدر .

فمثل هؤلاء يجب مطاردتهم وإبعادهم عن بيوت الله تعالى حتى لا يؤاخذنا الله بتقصيرنا بالسكوت عنهم . ومثل هؤلاء فى الإثم والجرم الذين يأخذون من الناس عادات فى المواسم وفى وقت الحصاد ، والذين يلاعبون القرود والألعاب البهلوانية وغيرها . فالمتصدق عليهم غير مأجور بل مأزور ، لأنه يشجع على البطالة والكسب غير المشروع ، ومايأخذه هؤلاء سحت وحرام ، حيث ينطبق عليهم الحديث الشريف الذى قاله رسول الله ﷺ : « إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فى مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » رواه البخارى .

وكان الرسول ﷺ يعطى الناس من مال الله تعالى وفى الآخذ من لا يحل له الأخذ ، فلم يرض عن هذا . لذلك كان يقول : « إِنِّى لَأُعْطِى أَحَدَهُمُ الْعَطِيَّةَ فَيَخْرُجُ بِهَا يَتَأَبَّطُهَا نَاراً » قال بعض الصحابة : فلم تُعْطِيهِمْ ؟ قال : « يَأْبَوْنَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُونِي وَيَأْبَى اللهُ لِيَ الْبُخْلَ » .

وفى حديث أبى داود عن الحسين رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإِنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ » يريد الرسول ﷺ بالسائل السائل المحتاج المذكور فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ فى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » وقوله ﷺ : « لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإِنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ » مبالغة فى أن الإنسان لا يغتر بالظاهر بل يغلب عليه جانب الرحمة .

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز فى مرضه الذى مات فيه فقال له : يا أمير المؤمنين إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال وتركتهم عالة ، ولا بد لهم من شىء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلىّ ، أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤونتهم إن شاء الله . فقال عمر : اجلسونى : وأجلسوه . فقال : الحمد لله أبالله تخوفنى يامسلمة ، أما ماذكرت أنى فطمت أفواه ولدى عن هذا المال

وتركتهم ، فإنى لم أمنعهم حقاً هو لهم ، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم ، وأما ماسألت من الوصاية إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتى ، فإن وصيتى بهم إلى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله تعالى فجعل الله له من أمره يسراً ورزقه من حيث لايحتسب ، ورجل غير وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا إلى بنى . فدعوهم وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً ، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال : بنفس فتية تركتهم ولا مال لهم يابنى ، إنى قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لاتمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم فيه حق واجب إن شاء الله . يابنى مثلت رأيى بين أن تفتقروا فى الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً فى النار ، قوموا يابنى عصمكم الله ورزقكم ، قال : فما احتاج أحد من أولا عمر ولا افتقر .

المحاضرة الرابعة عشرة

الإصلاح بين النـاس

قال تعالى : « لاَ خَيْرَ فى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا(١) » .

أيها المستمعون : إن الله تعالى أوجب على المسلمين أن يصلحوا بين المتخاصمين ، ووعدهم المثوبة الحسنى والأجر العظيم .

وقد تتابعت آيات القرآن الكريم وأحاديث خاتم النبيين فى الترغيب فيه .
قال تعالى : « وَإنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٢) » .

وقال عمر رضى الله عنه : « ردوا الخصوم حتى يصطلحوا ، فإن فصل القضاء يحدث بين القوم الضغائن » .

أيها المسلمون : لما كان الإسلام هو دين البشرية الخالد ، فقد عنى بالصلح بين المتخاصمين من الأسر والجماعات ، وبين المؤمنين بعضهم بعضاً ، وبين الكافرين ، ذلك بأن طبائع الناس متفاوتة ، ورغباتهم متباينة . فكان طبيعياً أن يختلفوا ولا يتفقوا ، كما قال سبحانه : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ(٣) » .

---

(١) النساء الآية : ١١٤ (٢) الحجرات الآيات : ٩ ، ١٠ (٣) هود الآيات : ١١٨ ، ١١٩

يريد الله تعالى من قوله : « وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ » وهو أعلم أنه خلقهم متفاوتين في الميول والرغبات ، ولولا ذلك لفسد النظام ، والوجود أكبر شاهد . فكثيراً مايقع الشقاق بين الزوج وزوجته ، فتترمل الزوجة والزوج ، وتشرد الأطفال ، ويخرب البيت . ولو أن أقارب الزوجين تداركوا الأمر ، وعجلوا بالصلح قبل أن ينصرم حبل المودة ، وتنفصم عروة المحبة ، لرجعت المياه إلى مجاريها ، وانتظمت الحياة الزوجية على أحسن حال . قال سبحانه : « وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا * وَالصُّلْحُ خَيْرٌ[1] » . نعم لو تدارك الأقارب هذا الخطر الجسيم قبل أن يتفاقم ضرره واختاروا حكما من أهله وحكما من أهلها ، لحسموا مادة النزاع ، وأعادوا للحياة الزوجية صفاءها وبهجتها .

وقال سبحانه وتعالى : « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا * إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا[2] » .

وقد يقع الشقاق بين الأقارب ، فتتولد بينهم الضغائن ، وتثور في نفوسهم حمية الجاهلية فيتقاتلون ، وربما دارت رحى الحرب بينهم سنين ، ولو كان هناك قوم فيهم شيء من حب الخير وإصلاح ذات البين ، لقضوا على أسباب الفرقة ، وغرسوا بذور المودة والوئام ، لترجع للأواصر قوتها ، وللأخوة توافقها . من أجل ذلك أمر الله بالإصلاح وحض عليه في كثير من الآيات ، ورغب فيه نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم .

روى الترمذي وغيره عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ

---

(١) النساء الآية : ١٢٨ . (٢) النساء الآية : ٣٥ .

وَالصَّدَقَةِ » قالوا بلى . قال : « إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ ، فإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ[1] الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ ، لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ »

ولعظم شأنه وجليل خطره حرم الله الكذب فى جميع الحالات ، ولكن أباحه للقائم بالإصلاح وجعله مثاباً على نيته ، لأنه قصد جمع القلوب ، ووصل ما أمر الله به أن يوصل ، أما الكذاب فإنه يريد أن يجلب لنفسه نفعاً على حساب الغير ، ، أو يدفع عن نفسه ضرراً ولو أضر الغير ، وليس الذى يصلح بين الناس على ذلك و إنما يريد الخير لغيره .

وقد روى البخارى عن أم كلثوم بنت عقبة أن النبى ﷺ قال : « لَيْسَ بالْكَاذِبِ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ نَمَا خَيْرًا » . كما أخبرنا أن المسرف فى الخصومة المكثر منها أكثر الناس تعرضاً لسخط الله وغضبه .

روى الشيخان عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلى اللهِ الْأَلَدُّ[2] الْخَصِمُ[3] » .

فالشخص المتعصب لرأيه ، المتأبى عن الحق ، وكذلك الشديد المنازعة ، من أعداء الله تعالى . نعم أباح الله الخصام لأمر من أمور الدنيا ثلاثة أيام فقط : اليوم الأول يسكن فيه غضبه ، واليوم الثانى يراجع فيه نفسه ، واليوم الثالث يصالح فيه خصمه ، ومازاد على ذلك فإنه يكون قطعاً لحقوق الأخوة التى ربط الله بها المؤمنين ، وأما الخصام الدين فهو من أحب الأعمال لله تعالى ، كما أنه يظل إلى أن تنقطع أسباب الخصومة . فإن الحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان . ومعروف أن كل علاقة سواء كانت علاقة نسب أو مصاهرة ستنقطع يوم القيامة

---

(١) فساد ذات البين : أن تكون الأحوال بين الناس مبنية على النزاع والشقاق ، والمقصود فساد الروابط التى تستأصل الهدوء والطمأنينة من القلوب .
(٢) الألد : شديد الخصومة كلما احتج عليه بحجة أخذ فى جانب آخر .
(٣) الخصم : كثير الخصومة الممنوعة التى هى فى دفع الحق وإثبات الباطل .

إلا العلاقة فى الله تعالى . قال سبحانه : « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ(١) » وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ » رواه أبو داود . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هٰذَا وَيُعْرِضُ هٰذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِى يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ » رواه البخارى .

يرشدنا الرسول ﷺ إلى أن هجر المسلم المسلم حرام لما فيه من قطع الصلة بين المؤمنين ، وتفكيك عروة الإسلام الوثقى التى تؤدى إلى ضعفهم وخذلانهم وتعطيل أحكام دينهم ، وتمكين العدو منهم حتى يصبحوا أذلاء بعد العزة ، فقراء بعد الغنى ، عبيداً بعد السيادة . وأى ضرر أكبر من جر بعضهم بعضاً إلى القضاء ، فتتعطل مصالحهم ، وتكسد تجارتهم ، وتهلك مزارعهم وتبدد أموالهم ويشمتون العدو فيهم . فكم من بيوت خربت ، وكم من أسرة كانت ناعمة البال ، قريرة العين ، تمزقت أوصالها ، وتشتت شملها ، من الغلو فى الخصومات ، والتمادى فى الهجر والجفاء .

لهذا مدح الله العفو عن المسىء ، فقال سبحانه : « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى(١) » وأمر بمقابلة الإساءة بالإحسان ، كى تنقلب الخصومة إلى صداقة ، كما قال جل شأنه : « إِدْفَعْ بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٢) » .

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على تحقيق الوحدة الإسلامية حتى إذا ماسمع أحداً تبدو منه بادرة يشتم منها أية فرقة ، أعلن عليه سخطه وغضبه .

هذا ولما قسم أموال هوازن ، أجزل العطاء لبعض المؤلفة قلوبهم من المهاجرين ، فبلغ الرسول ﷺ تذمر الأنصار ، وتحدثوا فيما بينهم : فما بال

---

(٥) الزخرف الآية : ٦٧ (٢) فصلت الآيات : ٣٤ ، ٣٥

الرسول يحابي أهله وعشيرته ويتركنا . وكان الرسول الذى بينهم و بين رسول الله سعد بن عبادة ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لسعد : « اجمع لى قومك فى هذه الحظيرة » فجمعهم وقام فيهم خطيباً خشية أن تستفحل الخصومة بينهم وبين المهاجرين فقال :

«يَامَعْشَرَ الأَنْصَارِ ، مَاقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا عَلَيَّ فى أَنْفُسِكُمْ ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ ، وَأَعْدَاء فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ » قالوا : بلى ، الله ورسوله أمنّ وأفضل . قال : « أَلاَ تُجِيبُونَنِي يَامَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟ » قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المنّ والفضل . قال : « أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ . أَوَجَدْتُمْ يَامَعْشَرَ الأَنْصَارِ فى أَنْفُسِكُمْ فى لُعَاعَةٍ[1] مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلاَمِكُمْ . أَلاَ تَرْضَوْنَ يَامَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إِلَى رِحَالِكُمْ ، فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ أمْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَسَلَكَ الأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ . اللَّهُمْ ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ » . فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم[2] وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً .

قال النبي صلى الله عليه وسلم هذه العبارات وكله تأثر ، وكله فيض بالحب لهؤلاء الذين بايعوه ونصروه واعتزوا به وأعزوه حتى بلغ من تأثره أن بكى الأنصار ورضوا بقسمة الله .

---

(١) اللعاعة : الجرعة من الشراب . (٢) أخضلوا لحاهم : بلوها بدموعهم .

بهذه السياسة الرشيدة استطاع الرسول ﷺ أن يؤلف بين قلوب أصحابه ويجعلهم إخواناً متساوين وعلى الخير متعاونين ، وما كان يكاد يسمع أن أحداً ينادى بفرقة أو يدعو إلى عصبية إلا اشتد غضبه وسرعان مايعمل على جمع القلوب المتنافرة . من ذلك عن جابر رضى الله عنه قال : اقْتَتَلَ غُلَامٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَغُلَامٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، فنَادَى الْمُهَاجِرُ أو المهاجرون : ياَلَلْمُهاجرين ! ونادى الأنصار : ياللأَنْصَار ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ماهذا ؟ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيّةِ . قالوا : لاَ يَارَسُولَ اللهِ إِلاَّ أَنَّ غُلاَمَيْنِ اقْتَتَلاَ ، فكسع أَحَدُهُما الآخَرَ . قال : « فَلاَ بَأْسَ ، وَلْيَنْصُرِ الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُوماً . إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيَنْهَهُ فإِنَّهُ لهُ نَصْرٌ ، وَإِنْ كَانَ مَظْلُوماً فَلْيَنْصُرْهُ » رواه مسلم .

هـذا وقد توعد الشخص الشديد الخصومة والذى لا يرضخ للحق شر وعيد فقال : « أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ » .

ولا يفوتنا أن نقرر بأن الصلح الجائز إنما يكون إذا لم يحرم حلالا كالتحايل على هضم حق الضعيف ، أو يحل حراماً كعملية المحلل ، كما أنه لا يكون إلا فى حقوق الآدميين ، أما حقوق الله تعالى فالصلح فيها بتأدية ما عليه كالزكوات والكفارات والنذور والحدود ، لهذا لا تقبل الشفاعة فيها إذا وصلت إلى الحاكم كما قال ﷺ : « مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى فَقَدْ ضَادَّ اللهَ فى أَمْرِهِ » . وكذلك التوبة لا تسقط الحد إذا وصلت إلى الحاكم ، قال ﷺ : « تَعَافَوْا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فَمَا بَلَغَنِى مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ » رواه أبو داود من حديث عمر بن شعيب عن أبيه عن جده .

ويؤيد ذلك حديث الحاكم عن ابن عمر رضى الله عنهما : « اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ الَّتِى نَهَى اللهُ عَنْهَا فَمَنْ أَلَمَّ بِهَا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ ، وَلْيَتُبْ إِلَى

---

(١) رواه أحمد وغيره عن ابن عمر

اللهِ ، فإِنَّهُ مَنْ يُبْدِى لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِيمُ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَل » .

فى الموطأ من مراسيل زيد بن أسلم .

هذا ومن سماحة الإسلام أنه أمر بالتجاوز عن عثرات الذين لا يبدو عليهم فعل النقائص ولا يتكرر منهم فعل القبيح . فعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : « أَقِيلُوا ذَوِى الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلاَّ الْحُدُودَ » رواه أحمد وغيره .

وفى الحديث أن الرسول ﷺ قال : «الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إلا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَاماً أَوْ حَرَّمَ حَلاَلاً » رواه أحمد وغيره عن أبى هريرة .

المحاضرة الخامسة عشرة

من حياة الرسول صلى الله عليه سلم

فى صباح يوم خالد تسبقه إرهاصات ، وفى عصر نشرت فيه الضلالة أجنحتها على الأمم ، واستشرى الفساد فى ربوع الدنيا ، والناس مابين وثنيين يعبدون ماينحتون ، وما بين من يجعل لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون . ومن وراء ذلك ، من اتخذ لله جسداً يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، وأعظم من هذا كله استباحة اليهود لعنهم الله دم العرب ، ويقولون ليس علينا فى الأميين سبيل .

فى هذه الموجة العاتية ، وتلك الفوضى المروعة ، أخذ المصلحون يتساءلون : أين صيحة السماء وهداية الرحمن ؟ وبينما هم كذلك ، وإذ بالنور المحمدى يسطع بين صخور مكة وجبالها .

وقال تعالى : « قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [١] » .

أيها المستمعون: قد أظلكم شهر الربيع الذى أكرم الله فيه الإنسانية ، بميلاد النبى الأكرم ، والرسول الأعظم ، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ، عليه أفضل صلاة وأتم تسليم . برز ذلك الرسول الكريم من بين جبال مكة وصخورها أشد البلاد صلابة وتحجراً ، نائية عن كل علم وحضارة ، وأشد البقاع جدباً وقحطاً . وقد بدت على محياه علائم اليمن والبركات ، وشب مطبوعاً على مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات . فلم ينغمس فى حمأة الوثنية الوضيعة ، ولم يتدنس بدنس الجاهلية ، وهو فى ميعة صباه وعنفوان شبابه . كما أنه لم يأكل

(١) المائدة الآية : ١٦

مما ذبح على النصب ، ولم يشارك القوم فى أعيادهم الماجنة ، ولم يكن ذلك عن معلم يرشده ، أو أستاذ يهذبه ، و إنما هى عناية الله تكلؤه ، و رعاية الله تحفظه ، صدق الله : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[1] » .

رأى صلى الله عليه وسلم أن الكرامة عدل حياة الإنسان ، فأبت نفسه الكريمة أن يكون عالة على عمه ، وأن أفضل الكسب كسب اليد . فبدأ برعاية الأغنام ثم بالتجارة ، فتجلت فيه مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات . وضرب للتجار المثل الأعلى فى نجاح تجارتهم ورواج سلعتهم . فلم يروجها بيمين كاذبة ، ولم يغش أحداً فى معاملته ، وما أمعن نظره فى وجه امرأة ، ولم يخاطب أحداً بقول بذىء ، فنفقت سلعته و راجت تجارته . ومع هذا الربح العظيم لم يرقه زخرف الحياة الدنيا ، ولم يغتر بنعيمها ، ولم يقع فى مفاتنها ، بل ازداد إعراضاً عنها ، لأنه يرى أن المادة ليست غاية الحياة الدنيا ومقصدها الأسمى ، وليست من طبيعة الإنسان ، و إنما هى خارجة عنه ووسيلة لحياة غيرها . وآلة للمكارم وسبيل إلى الفضائل . كما أن الحياة ليست جاهاً حتى يسرف الإنسان فى السمو إليه ، وليست شهوة جسدية أو روحية حتى يتفانى الإنسان فى السعى إليها .

نشأ صلى الله عليه وسلم بين قوم ضالين متكالبين على متع الحياة الدنيا ، غارقين فى بحار الشهوات ، مفرطين فى التمتع بلذة الأجسام فضرب عن هذا صفحاً ، وطوى عن كل ذلك كشحاً . بل كان جل كسبه وأكثر أعماله فى صالح المجتمع ، لأنه يرى أن الإنسان ماخلق لنفسه فحسب ، بل لنفسه ولغيره . هجر قومه ونبذ ما كانوا عليه من أخلاق شائنة وعادت سيئة ، وانقطع فى الجبال يراقب الله ، ولترتاض نفسه على التخلص من قيود العالم المادى ، وتصفو من نكد الدنيا وهمومها ، فتستعد لمناجاة ربها ، وما زال كذلك حتى أكرمه الله بالنبوة ، فحمل فى يده نبراس الإسلام يبدد بنوره مادهى العالم من ظلام حالك

---

(١) القلم الآية : ٤

وركام متلبد ، ويزيل ماعليها من آثار الجهـل والشقاء ، ويقيم على أنقاضها دعائم المدنية والعمران . فبدأ دعوته بتطهير القلوب من رجس الوثنيات ، إلى رب الأرض والسموات ، وإنقاذ الإنسانيـة من ذل الاستعمار ، إلى عز الحرية والاستقلال ، ومن ذل العبودية إلا إلى الله وحده ، ومن الخضوع إلا لشرعه .

وما أحوجنا إلى أن نسلك سبيلك يانبى الإسلام ونتبع سنتك ، فنسود ونتمتع بالأمن والسلام ، والحرية والاطمئنان .

أى رسول الله : رفع الله شأنك فى الأولين ، وجعل لك لسان صدق فى الآخرين ، ففى كل صلاة ، وفى كل مجالس ومقام ، وعلى منابر الإسلام ، تنطق ملايين الشفاه بالصـلاة والسلام عليك يا رسول الله . صدقت يا الله : قلت وقولك الحق « وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » .

أى رسول الله : أحسنت إلى الإنسانية ، فأحسن الله إليك . وطوقت جيدها بقلائد من المعروف ، لاينزعها إلا ريب المنون . فـكم لك علينا من فضل وكم لك علينا من جميل .

هاهى ذى المرأة قد حفظت لها حقوقها عند أبيها وأخيها وزوجها حقوقاً ، لم تنلها فى شريعة من شرائع الله تعالى كما قال جل شأنه : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ[1] » .

وأقمت حدود الله فاطمأنت القلوب فى مضاجعها ، وأمن الناس على دمائهم وأموالهم وأرواحهم ، وبددت سحب الشك الذى ران على القلوب ، وحاد بنا عن الصراط المستقيم .

وهذا هو الرقيق فقد سويته بسيده فى الطعام والشراب واللباس ، وأغريت سيده على تحريره من الرق بالثواب الجزيل والأجر العظيم . وكانت خاتمـة وصيتك لأمتك : « الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ وَمَا مَلَـكَتْ أَيْمَانُـكُمْ ، اللهَ اللهَ فى

---

(١) البقرة الآية : ٢٢٨ .

فى النِّسَاءِ فإنَّهُنَّ عوَانٍ بِأَيْدِيكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ ».

جعلت الناس سواسية كأسنان المشط ، شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالتقوى ، ويدركون ما عنده بالطاعة . « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » . أرسلك الله على حين فترة من الرسل ، فكانت رسالتك نهضة للإنسانية وثورة عامة على الوحشية ، وغذاء سرى فى شرايين الأمة فانتفعت به وصحت ، وقد اختارك الله لجواره بعد أن أسست دولة ، ونشرت شريعة الله ، فسلام عليك بقدر ما أسديت للإنسانية من جميل .

ليت شعرى متى يرجع إلينا هذا العهد الزاهر ، وذاك العصر الميمون ، عهد العدل والإخاء ، وعصر الحرية والمساواة . فنتمتع بحريتنا المسلوبة وتعاد إلينا حقوقنا المهضومة ، ويرفع كابوس الاستعمار الذى خيم على الشعوب الإسلامية حيناً من الدهر ، فحالت دون تقدمه والانتفاع بخيرات بلاده . الحق أننا لا ننال ذلك إلا إذا اتخذنا كتاب الله هادياً ، وسنة رسوله مرشداً .

أيها المسلمون : ليس الاحتفال بميلاد نبيكم الكريم بسرادقات تنصب ، ولا أعلام ترفع ولا ثريات تضاء ، مما ليس فيها نفع ولا غنا سوى تمتع الأنظار ومرح الأطفال والفخر والرياء ، ولا تمس عاطفة الوجدان والترفيه عن بنى الإنسان . كذلك لا يكون بقراءة الموالد المجردة عن السيرة النبوية ، ولا بهذا الذكر الذى دخله التحريف والصفير والتصفيق مما نعاه الله على المشركين فى قوله : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً » : صفيراً وتصفيقاً ، وإنما الاحتفال يكون بتلاوة السيرة النبوية الصحيحة التى تذكرنا بتاريخنا المجيد ، وماضينا التليد ، وعزنا البازخ ، ومجدنا الشامخ . فنتخذ من هذه الذكريات الكريمة درساً عملياً نهتدى به ، ونستضىء بقبسه ، فنعلم كيف تكون

---

(١) سورة المائدة ١٦ .

العزة والكرامة ، وكيف ترقى الأمم ، وتنهض الشعوب ، وما هى الأسباب التى قضت على عزها ومجدها ، وحكمت العدو فيها . فإن خير الذكريات عظة الحياة وعبر الأيام ، قال تعالى خطاباً لنبيه موسى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ[1] » .

كذلك الاحتفال يكون بإطعام الفقراء شكراً لله على هذه النعمة المهداة ، نعمة النبوة التى فيها سعادة الدنيا والدين ، وقراءة سيرته وتاريخ حياته ، وإن كان هذا لا يتقيد بيوم ميلاده .

أيها المستمعون : « اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ[2] » . دعوكم من هذه العادات التى شوهت جلال الإسلام ، وأغضبت علينا رب الأرض والسموات ، ووجهت إلينا سهام النقد من الأعداء . واتخذوا كتاب الله حكماً وسنة نبيه مرشداً ، تنالوا عز الدنيا وشرف الآخرة ، والله معكم ولن يَتِرَكُمْ أعمالكم .

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ » فى الأربعين النووية عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

---

(١) إبراهيم الآية : ٥ (٢) الأعراف الآية : ٣

المحاضرة السادسة عشرة

عمر الفاروق

أيها المستمعون : إننا الآن فى حاجة إلى من يذكرنا بمجد آبائنا الأولين ، وسياسة قوادنا الفاتحين ، الذين أعلوا كلمة الحق وساسوا أمتهم بحكمة وحزم ، وشاركوهم فى البؤس والنعيم ، والشدة والرخاء . نعم ما أحوجنا إلى أخلاقهم المرضية ، وشمائلهم الطيبة فى هذا الوقت العصيب الذى سقطت فيه الهمم ، وأخفرت فيه الذمم ، وغاض فيه ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ؛ وأصبح الكل لاهم له سوى أن ينال حظه من متاع الحياة الدنيا ولو كان فى ذلك إفساد الدين وضياع الأوطان وعقوق الآباء والأمهات ؟ ! !

ألا وإن من هؤلاء الأبطال الذين ذاعت محامدهم ، وانتشرت فى الورى مواهبهم ، حتى عمت المعمورة — هبة الله للإنسانية ، ومنحته الإلهية ؛ ذلكم هو عمر ابن الخطاب الذى أعز الله به الدين ؛ ومحا به ظلمات الكفر . وأيد به الإسلام والمسلمين .

كان رضى الله عنه قبل أن يدخل فى دين الإسلام سيداً مطاعاً فى قومه ؛ مهاباً غليظ القلب ؛ شديد البأس على من يمس جانبه ، أو يخالف عقيدته ، ولما أعلن النبى دعوته لبث ست سنين إلا قليلا وهو يقلب الرأى ويستمع لحديث القوم حتى استبان له سبيل الرشد ، ووضح له الحق ، فأشرقت فى قلبه عقائد هذا الدين ، وشعّ نور اليقين فى قسمات وجهه ، وما زجت العقيدة وجدانه فأبت نفسه العالية أن تسلم سراً وأن تظل الدعوة الإسلامية مختفية ، فذهب إلى دار الأرقم حيث كان الرسول فيها وأصحابه وأعلن إسلامه . قال : يارسول الله ، ففيم الاختفاء ؟ ألسنا على الحق متنا أو حيينا . قال الرسول : بلى . قال عمر : والذى بعثك بالحق لتخرجن . فخرج الرسول ﷺ فى صفين ، حمزة

فى أحدهما وعمر فى الآخر ، ولهم صوت كصوت الرحى . فطافوا بالكعبة نهاراً ، وسماه الرسول حينذاك الفاروق .

قال ابن سعد رضى الله عنه : كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة ، وكنا لانستطيع أن نعبد الله فى الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتلهم فتركونا نعبد الله فيها .

ولا عجب فى ذلك ، فإن النفس الطيبة فى الجاهلية ، تكون فى الإسلام أطيب ، والأعراق الطاهرة فى الجاهلية ، تكون فى الإسلام أطهر . رأى رضى الله عنه أن الأمن لايستتب ، و إن الشعب لايهدأ إلا إذا ساد العدل ، واستوثق كل فرد من نصفة الوالى ، ولا شىء يثير الأحقاد ، و يقطع الصلة بين الحاكم والمحكوم إلا إذا استأثر الحاكم بشىء دونهم ، فعمل على بث العدل ومشاركة شعبه فى الشدة والرخاء والبؤس والنعيم .

وما كان يخص نفسه ولا أهله بشى دونهم . روى ابن سعد أن عمر رأى فى يد ابنه بطيخة فى عام أصاب الناس فيه جهد وضيق لانقطاع المطر حتى صارت الأرض سوداء . ومن ذلك سمى عام الرمادة قال . لابنه : بخٍ . بخٍ يا ابن أمير المؤمنين ، تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى . فها هو ذا رضى الله عنه لم يواس الناس بالقول كما عليه الولاة الذين ملئوا الدنيا كلها صراخاً وعويلا بقولهم يجب محاربة الجهل والفقر والمرض ، وهم الذين يعملون على ضده ، فما أكثر قولهم وخطبهم ؟ ولكن ما أندر الخطوات العملية من رجال الإصلاح ودعاة التعمير ؟ هذا هو الفقير ، لقد أطالوا البكاء والرثاء لبؤسه ، والتفجع من حاله . فهل رأينا من هؤلاء الباكين المشفقين من تفضل عليه بمكرمة ، أو قدم إليه عملا يذكر . لا والله بل يزيدون الشر شراً ، والفقر فقراً . و يظهر أن ارتفاع الأسعار الآن من كثرة الطلب وقلة الوارد .

يزعمون أنهم يحاربون المرض وهم يرون مهرة الأطباء يأخذون أجوراً

باهظة من المرضى مما لايجعل للفقير ولا المتوسط الحال نصيباً فى الانتفاع بمواهبهم، حتى أصبحنا أمة أقوال لا أمة أفعال . نعم للحكومة الحاضرة فضل كبير فى تخفيف بؤس الفلاحين ، ويسرنا ماسمعناه من أنها ستقضى على شراهية الأطباء الذين فقدوا كل عطف ورحمة فجزاها الله خيراً.

قال عياض : رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون ، ولقد كان أبيض يأكل السمن واللبن ، فلما أمحل الناس حرمهما على نفسه وأكل الزيت حتى تغير لونه . وقال يزيد بن أسلم : لولم يرفع الله عام الرمادة ، لظننا عمر يموت هماً بأمر المسلمين .

تواضعـــه

روى التاريخ أن عمر مر بامرأة تدعى خولة بنت ثعلبة والناس من حوله ، فاستوقفته ، وهى يومئذ عجوز متهدمة ، فوعظته ، وأطالت ، ومما قالته : ياعمر قد كنت تدعى عميراً ، ثم قيل لك ياعمر ، ثم قيل لك ياأمير المؤمنين . فاتق الله ياعمر . من أيقن بالموت خاف الفوت . ومن أيقن بالحساب خاف العذاب. وهو واقف يسمع كلامها . قيل له : ياأمير المؤمنين ، أتقف لهذه العجوز هـذا الموقف ؟ فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره لازلت إلا إلى الصلاة المكتوبة . أتدرون من هـذه العجوز ؟ هى خولة بنت ثعلبة . سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمع عمر .

وروى الفضل بن عميرة أن الأحنف بن قيس ، وهو سيد بنى حنيفة ، إذا غضب غضب معه مائة ألف سيف ، قدم فى وفد من العراق على عمر فى يوم صائف ، وهو مختمر بعباءته (أى ملتف بها) يهنأ بعيراً من إبل الصدقة (أى يدهنه بالهناءة وهو القطران) فقال عمر : ياأحنف ، دع ثيابك وهلم ساعد أمير المؤمنين على هـذا البعير فإنه من إبل الصدقة ، فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين . فقال رجل : يغفر الله لك ياأمير المؤمنين ، فهلا تأمر عبداً من عبيد

الصدقة يكفيك هذا ؟ فقال عمر : يابن فلانة ، أى عبد هو أعبد منى ومن الأحنف هذا ، إن من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم مايجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة .

عدله وحبه للحق

روى كعب بن أبى أن أباه وعمر تقاضيا أمام زيد بن ثابت ، وكان قاضياً بالمدينة ، فلما خرج عليهما زيد قال : السلام عليك ياأمير المؤمنين . وأشار إليهما بالجلوس ، واقتضى الأمر أن يطالب أُبَىّ من الخليفة اليمين فقال له زيد : اعْفُ أمير المؤمنين من اليمين . فغضب عمر ، وقال له : صرت جائراً من اليوم ، تقول السلام عليك ياأمير المؤمنين ، واجلس هاهنا ، واعف أمير المؤمنين .

خوفه من الله

قال الأحنف بن قيس : كنت مع عمر فلقيه رجل فقال : ياأمير المؤمنين ، انصرنى على فلان فقد ظلمنى ، فضربه عمر بالدرة ، فقال : تتركون أمير المؤمنين حين يكون فارغاً مستعداً للنظر فى شئون الناس ، فلا يأتيه أحد حتى إذا اشتغل بأمر المسلمين أتيتموه ، فانصرف الرجل حزيناً ، وعاد عمر فتذكر أنه لم ينصفه ، فطلبه وأعطاه الدرة وقال : اضربنى كما ضربتك ، فأبى الرجل قائلا : تركت حقى لله ولك . فقال له عمر : إما أن تتركه لله فقط وإما أن تأخذ حقك . فقال الرجل : تركته لله . وانصرف عمر إلى منزله ونحن معه ، وصلى ركعتين ثم جلس يقول : يابن الخطاب ، كنت وضيعاً فرفعك الله ، وضالا فهداك الله ، وضعيفاً فأعزك الله ، وجعلك خليفته ، أتى رجل يستعين بك على دفع مظلمة ، فما تقول لربك غداً إذا أتيته ! ؟ ومكث يحاسب نفسه حتى قلنا إنه خير أهل الناس جميعاً .

روى أنه فى حياته الأخيرة ، دخل عليه رجل فقال له : ليس عليك بأس ياأمير المؤمنين ، فقال : لئن لم يكن علىّ اليوم فسيكون بعد اليوم وإن للحياة

نصيباً من القلب ، وإن للموت سكرات ، وقد كنت أحب أن أنجى نفسى وأنجو منكم ، إلى أن قال : ولقد تركت زهرتكم كما هى ماالبستها فأخلقتها ، وثمرتكم يانعة فى أكامها ماأكلتها ، وما جنيت ماجنيت إلا لكم ، ماتركت ورائى درهماً ماعدا ثلاثين أو أربعين درهماً ، ثم بكى وبكى الناس معه ، فقلت ياأمير المؤمنين : أبشر فوالله لقد مات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ، وكذلك خليفته أبو بكر ، والمسلمون جميعاً . فقال : المغرور والله من غررتموه ، أما والله لو أن لى مابين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع .

المحاضرة السابعة عشرة

إسراء الرسول ﷺ وعروجه إلى السماء

قال الله تعالى : « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١) » .

أيها المستمعون : تنفى الآية الكريمة العجز عن الله فيما يريد تنفيذه من شئون الكون ، وتنزيهه سبحانه عن العبث والفوضى فى شئون الوجود ، فيرسل رسولا يفترى على الله الكذب ، ويدعى أنه رأى ما رأى من غير أن يكشف أمره ويظهر كذبه ، تعالى الله أن يكون كذلك . هذا وقد مضت سنة الله تعالى فى الأولين والآخرين أن الكاذبين لابد أن ينتهى أمرهم إلى خيبة وفشل ، والصادقين إلى ظفر ونجاح ، لأن الوجود حق ، والحق دائماً منصور والباطل مهزوم ، يصدق ذلك الواقع المشهود وقول الله تعالى : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ(٢) » وقول الرسول ﷺ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِى صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ لَخَرَجَ عَمَلُهُ لِلنَّاسِ كَائِناً مَا كَانَ » رواه أحمد وغيره عن أبى سعيد .

فكأىّ من شخص خرج على الوجود وسنن الحق فعاداه الوجود ولفظته سننه ففضحته .

وتفيد الآية أن هذه الرحلة الأرضية كانت قدسية ، إذ أنها من مكان مقدس إلى مكان مقدس ، وأن الله تعالى يريد اطلاع تلك النفس الشريفة على عجائب مخلوقاته ، وآيات ملكوته ، ليخفف عنه ما دهاه من قومه من المساءات التى أنقضت ظهره وأثقلت كاهله ، والحزن الذى أصابه من موت عمه الذى كان

---

(١) الإسراء الآية : ١

له حمى وملاذاً من خصومه وأعدائه ، ومن بعده السيدة خديجة التى كانت توليه من حبها وبرها ، ومن رقة نفسها ، وطهارة قلبها ، وقوة إيمانها ، والتى شاركته فى الدعوة إلى الله ، وقاسمته الهموم حينما قام بالدعوة العظمى . تركت هاتان الفاجعتان الأليمتان فى نفسه صلى الله عليه وسلم أثراً عظيما ، فكان الإسراء به صلى الله عليه وسلم وعروجه إلى السموات السبع ، يرى فيها مايعجز كل واحد من البشر أن يصفه ، كان هـذا كله جزاء صبره على أذى قومه ، وتثبيتاً له على القيام بأعباء الرسالة .

فالإسراء : رحلته صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس فى طائفة من الليل ، وكان يرافقه فيها جبريل وقيل ميكائيل عليهما وعلى نبينا أفضل صلاة وأتم تسليم . وقد أراه الله تعالى أمثلة من عالم المثال والباطن ، ضربت لأنواع شتى من الحكم والحقائق ، التى سينتهى إليها مايجرى فى عالم الظاهر من شئون الخلق ، وأحوال العباد . وكان يسأل جبريل عن مغازيها ، منها : قوم يزرعون فى يوم ، ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : « ياجبريل ، ماهذا » ؟ فقال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف : وَما أَنفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم كلما رُضخت عادت كما كانت ، فقال : « ياجبريل ، ماهذا » فقال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة . ومما رآه أيضاً قوم على إقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ، ويأكلون الضريع ، وهو شجر شائك لاتطيق الدواب أكله لخبثه ، والزقوم وهو نبت شديد المرارة ورضْف : أى جمر جهنمَ وحجارتها ، فقال : « ياجبريل من هؤلاء » ؟ فقال : هم الذين لايؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله شيئاً . وكذلك رأى رجلا فى نهر من دم يلقم الحجارة ، فقال : « ماهذا ياجبريل » ؟ قال : هذا مثل آكل الربا . ومن هـذا أيضاً أنه أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدورهم

ولحم آخر نيّء خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث ويدعون النضيج ، فقال : « ماهذا ياجبريل » ؟ قال : هذا الرجل من أمتك ، تكون عنده المرأة الحلال الطيبة ، فيأتى امرأة خبيثة يبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيباً فتأتى رجلا خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح . وهكذا رأى غير هذا مما دونته كتب السيرة النبوية .

هذا ولما انتهت هذه الرّحلة ، صعد إلى السماء واخترقها واحدة واحدة ، وكانت ترحب به ملائكة السماء وتستقبله أنبياء الله تعالى ، ولعل استقبال الأنبياء إنما كان استقبالا روحياً جاء فى صورة مثالية حسية كإمامته لهم بالصلاة فى بيت المقدس . ولقد رأى صلى الله عليه وسلم فى عروجه من آيات الله الكبرى وعجائب القدرة ، وآيات الملكوت ماذكر فى سورة النجم : « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » . رأى الله تعالى ، أو رأى جبريل ، اختلف في ذلك السلف السابقون ، والذى يرجح الثانى ماجاء فى صحيح مسلم عن أبى ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ فقال : « نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ وفى رواية : رَأَيْتُ نُورًا ـ حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ[1] وَجْهِهِ مَاأَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » .

وكذلك طلب موسى رؤية الله ، فأخبره بأنه لايستطيع ذلك ، وضرب له المثل بأن الجبل حينما تجلى الله له اندك الجبل من رؤية الله ، فكيف بالإنسان الضعيف . نعم ثبت فى السنة المطهرة والقرآن الكريم رؤية الله تعالى للمؤمنين فى الجنة ، لأن هناك شأناً آخر غير شأن الدنيا . الدليل على ذلك قول الله تعالى : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا[2] » . فحياة الآخرة

---

(١) سبحات وجهه : جلالته ، والمقصود من إدراك بصره من خلقه : إدراك الكائنات كلها يريد إحراق الكائنات .

(٢) الواقعة الآيات : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .

غير حياة الدنيا ، لأن حواسنا المشهورة خمسة ، فلم يخلق الله لنا فى الدنيا حاسة سادسة نرى الله تعالى ، ولا عالم الأرواح ولا عالم الجن ، يؤيد ذلك أننا سنحشر يوم القيامة غرلا يعنى غير مختونين . قال تعالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ[(١)] » هذا فى شأن المؤمنين ، وأما الكافرون فهم لا يرونه كما قال سبحانه : « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ[(٢)] » .

وكان من آيات الله الكبرى التى رآها صلى الله عليه وسلم أنه رأى البيت المعمور ، وهو بيت فى السماء السابعة تجاه الكعبة ، وسمى معموراً لكثرة من يغشاه من الملائكة ، فسأل جبريل ، فقال : هذا البيت المعمور يُصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه ، ومن هذه الآيات سدرة المنتهى ، وهو مكان الانتهاء قال صلى الله عليه وسلم فى بيانها كما رواه مسلم فى صحيحه : « إِلَيْهَا يَنْتَهِى مَا يَعْرُجُ مِنَ الأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِى مَا يَهْبِطُ فَيُقْبَضُ مِنْهَا » . وتوضيح ذلك أن مكانها هو مركز العالم فيقبض ، وهذا المركز هو محل تنزيل الفيض الإلهى الذى يمد جميع الكائنات ، ويدبرها فى وجودها و بقائها وتنوعاتها . ينزل هذا الفيض على هذا المكان ثم تسرى منه إلى جميع أقطار الوجود وأنواع المخلوقات ، مثل القلب يرسل الغذاء إلى جميع الأعضاء و يمدها ، كأن كل نوع من أنواع الموجودات له مراتب أوله عند السدرة .

هذا ولقد كان حادث الإسراء والمعراج موضع تكذيب قبل أن تتأيد دولة العلم الحديث ، أما وقد أصبح المغناطيس ونقل الصور والأصوات على الأثير بواسطة الراديو ورؤية البعيد بواسطة الذرة والتلفزيون ، أصبح هذا كله رأى العين ولمس اليد ، فلا حاجة إلى إقامة الأدلة والبراهين . على أن النبى ﷺ لم يسند ذلك إلى نفسه بل إلى الله ، فإنه هو الذى أسرى به وعرج به وكان معه أكبر شخص من

---

(١) القيامة الآية : ٢٢ ، ٢٣ (٢) المطففين الآية : ١٥

عالم الأرواح وهو جبريل ، فلو سلم عجز جبريل ، أفلا يقدر الله أن يطلقه من قوانين الطبيعة ويرفع عنه عوائقها ويمنعها عن التحكم فى نفوذ مشيئته . بلى ، بلى إنه على كل شىء قدير ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . صدق الله : «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١)» .

وقد أرانا الله تعالى من آياته فى حين طبع هذه الحادثة آية كبرى ، تلك هى طواف المواطن الروسى (جاجارين) حول الأرض فى ثمانين دقيقة ، فإذا كان الإنسان استطاع أن يمنع الحواجز التى تعوقه عن السفر إلى الفضاء وأن يحتفظ له بالهواء الذى هو جزء من طبيعته ، فما بالك بخالقها . هذه آفة الإنسان يتعجب من صنع الإنسان ولا يتعجب من صنع الرحمن .

هذا ولقد أصبح كل ما أخبر به النبى ﷺ والقرآن لمس اليد ورأى العين بعد أن كان موضع جحود وتكذيب .

فمن ذلك ما أخبر به القرآن من خطاب أهل الجنة لأهل النار ، وخطاب أهل النار لأهل الجنة ، فقد كان الكفار يستبعدون هذا ، ويقولون كيف يسمع صوت هؤلاء مع هذا البعد الشاسع بين أهل الجنة وأهل النار . قال تعالى : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٢) » وقال تعالى : «وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ . قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٣) » .

فمن جحد هذا أو استبعده من بعد الاكتشافات الجديدة ، يكون مكابراً متكراً للبدهيات ، أو عنده نقص فى التفكير . هداهم الله إلى سواء السبيل .

(١) فصلت الآية : ٥٣ (٢) الأعراف الآية : ٤٤ (٣) الأعراف الآية : ٥٠

المحاضرة الثامنة عشرة

الدين والعلم توءمان لا ينفصلان[1]

قال تعالى : « وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ[2] لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا[3] »

أيها المستمعون : إن أسمى هدية أهدتها السماء إلى بنى الإنسان هى دين الإسلام ، فلقد أفرغ الله فيه فضائل الأديان ، وطوى فيه كل ما ينشده الناس . من ضروب المتاع وزينة الحياة . ومن حكمته سبحانه أن جعل شريعته فيها عنصر المرونة حتى تساير الأزمان ، وتغالب الأحداث ، وتتمشى مع فطرة الإنسان على أصول الحكمة وقواعد النظام — ففيها لكل ظارف تقدير ولكل حادثة حكم ، ولكل ضلة هداية . فمحال أن تصيبها شلل ، وتدركها الشيخوخة ، لأنها قائمة على الحقائق العلمية المستمدة من نور الوحى الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أليست تعمل على دعم الإخاء ، ونشر الحرية ، والمساواة ، ورفع منار العلم ، وتأسيس قواعد الشورى ، حتى لا يستبد القوى بالضعيف ، ولا يبغى الرئيس على المرءوس .

أليست تهيب بالنظر والإغراء إلى قراءة آيات الكون والتفكر فيما خلق الله ليدرك الإنسان حكمة الله فى خلقه ، ومعرفة البديع فى صنعه ، ليستخدمها فى تذليل الحياة ، وتبعث فى النفس مراقبة الله ، وإحياء الضمير الذى يكبح جماح النفس عن الشهوات ويكفها عن العدوان . كما أنه يمحو أثر الغدر ، ويستأصل مادة الشر من الإنسان ، وبه تسمو النفوس إلى أنبل الغايات وتصفو من شائبات الغل والنذالة والأحقاد .

---

(١) يقصد بالعلم المستنبط من كتاب الموجودات والذى صاغ الله به الكائنات ، وأقامها به على هذه الأوضاع .

(٢) الطريقة : طريقة الإسلام . (٣) الجن الآية : ١٦

ألم تبح التمتع بالطيبات من غير غلو ولا إسراف ، ولا جموح فى الرغبات والنزعات ، وتحرم الخبائث التى فيها فساد الأجسام ، وتدسية الأرواح وكل ما يشوه سمعة الإنسان .

أليست تغرى بالسعى فى طلب الرزق الحلال وتجعله من الإيمان ، قال ﷺ « الْمُؤْمِنُ يَمُوتُ بِعَرَقِ جَبِينِهِ[1] » رواه أحمد وغيره .

وما العبادات التى شرعها الله تعالى إلا لتركز هذه المعانى الروحية فى النفس ، وتحقق الأهداف التى تدعو إليها الأديان السماوية من تنظيم الحياة ، وتقويم الأخلاق والإحسان ، وعمارة الأرض ، ونشر الطمأنينة والسلام .

قال سبحانه « فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ[2] » .

فالإسلام كله محاسن ، ومن محاسنه أن طالب بالعمل كل قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء . وحظر عليه كل ما كان فيه ضرر لنفسه ولغيره ، ولقد أنحى سبحانه على البطالة والكسل وحمل عليه الرسول ﷺ حملة شديدة .

فالإسلام له مشخصات لا يستقيم بدونها ، أهمها عبادة الله وحده بما شرع والإخلاص فى السر والعلانية ، والنصح للعامة والخاصة ، وصلة الأرحام ، وبر الوالدين ، وما إلى ذلك مما أمر الله ، والبعد عن المحظورات ، قال تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ[3] » .

هذا هو الإسلام الذى يريده الله منا . أليس عجيباً أن يتظاهر قوم بالدفاع عنه وينتسبوا إليه وهم لا يستمعون لأمره ، ولا يجيبون دعوته . يهدمون شعائر

---

(١) المعنى يدركه الموت وهو كذلك . (٢) الأنبياء الآية : ٩٤
(٣) الحجرات الآية : ١٥

الدين ، ويعطلون أركان الإسلام من صلاة وزكاة وصوم وحج وينهون عن الشر وهم له سابقون مثل هؤلاء لا يسمون مسلمين . وهل الإسلام إلا استسلام وإذعان لأمر الله إذعاناً يستلزم العمل عند انتفاء المانع . وكذلك الحكم بما أنزل الله « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [١] » .

واستمع لجواب رسول الله حينما سأله معاذ عما يدخله الجنة ويباعده عن النار : « لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ : تَعْبُدُ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ » رواه الديلمي .

عرف ذلك بناة الإسلام فى العصور الأولى ، فجدوا وكدوا فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، وجهل هذا الأصل أبناء العصور المتأخرة ، فظنوا أن الإسلام مجرد دعاء وتسبيح واستغاثة بالأولياء ، ففقدوا حريتهم والعزة التى كتبها الله لهم ، والقرآن يقرر بأن النصر لا يكون بدون مفاداة ولا تضحية ولا بيع نفوس ، ولا مسابقة إلى الموت ، ولا مجاهدة بالمال . قال سبحانه : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ [٢] » ونصر الله : هو نصر دينه .

وفى صحف موسى وحكمة داود عليهما السلام : حق على العاقل أن يكون له أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى فيها بين نفسه ولذاتها فيما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون له .

هذا وقد دلت التجارب أن كل نهضة لا تقوم إلا على أساس العمل .

ولولا العمل لأصبحت أيامنا بلا هدف ولا غاية ولانتهت إلى هلاك محقق .

---

(١) المائدة الآية : ٤٤ (٢) الحج الآية : ٤٠

فالمؤمن لا يشغل وقته إلا بما يفيده فى حياته العاجلة ، ولا يلهيه المال عن التفكير الصحيح عن الحياة الأخرى ، فتراه يسعى فى طلب الرزق ، ليعف نفسه وأهله عن المسألة ، ويعطى كل ذى حق حقه ، فإن الأيدى الفارغة والحركات الماجنة ، والأيام اللاهية ماهى إلا نقر فى الهواء ، أو نقش على الماء .

لهذا كان قادتنا الأولون وملوك الإسلام لا يفترون عن العمل ساعة من نهار .
فهاهو ذا عمر بن عبد العزيز الذى كان المثل الأعلى فى التقوى والورع . دخل عليه ابنه عبد الملك فقال : ياأبتى ماتقول لربك إذا أتيته وقد تركت حقاً لم تحيه وباطلا لم تمته . قال يابنى : إن أجدادك قد أبعدوا الناس عن الحق فانتهت الأمور إلىّ وقد أقبل شرها وأدبر خيرها ، ولكن أليس حسناً وجميلا ألا تطلع الشمس علىّ فى يوم إلا أحييت فيه حقاً وأمت فيه باطلا حتى يأتينى الموت وأنا على ذلك .

وإن مما يبشر بالنجاح أن نرى يقظة جديرة بالإعجاب فى أبناء الجيل الحاضر وشعوراً بالمسئولية من الحكومة والشعب ، أما الحكومة فقد قضت على الخونة المارقين وطردت المستعمرين الغاصبين ، وأما أفراد الشعب فأصبح كل فرد من أفراده يبذل مجهوداً فى خدمة المجتمع حتى كاد يكون مجتمعاً سليما من الآفات ، وشعر الكل أنه جزء من هذا المجتمع يشقى بشقائه ويسعد بإسعاده ، وتلك صفحة مجد وفخار على الملأ حتى يعلموا أن الحق دائماً منصور ، لأنه يرتكز على دعائم ثابتة ، والباطل دائماً مهزوم لأنه قائم على شفا جرف هار قال تعالى : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ[1] »

نسألك اللهم ياذا الجلال والاكرام العصمة من الزلل ، والتوفيق إلى صالح العمل ، ولا تكلنا إلى نفوسنا طرفة عين ، وأن تكتب النصر للمسلمين جميعاً وللجمهورية العربية خاصة .

---

(١) الرعد الآية : ١٧ وزبد الماء والفضة : قذرها .

أيها المستمعون : يكثر القرآن الكريم من الحث على النظر فى الأرض، لنستخرج منها كنوزها، وفى السموات لنستنزل منها خيراتها، ولنعلم حكمة الله فى خلقه و بديع صنعه فنزداد به إيماناً، وقد جاءت السنة المستفيضة بذلك، قال رسول الله ﷺ : « اطْلبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ[1] » . وليس من الجزم فى شىء أن يقصر العلم على علم الدين فحسب، بل العلم أعم من ذلك .

هذا وكلما أمعن الإنسان نظره فى الكائنات ازداد يقينه بالله، وخفت عنه متاعب الحياة، إذ أن العالم مثلا بسرعة الكواكب وسيرها فى مداراتها وكبرها وصغرها يكون إيمانه بالله أثبت وخضوعه له أقوى، والذى يعلم أطوار الزهرة وعجائب تكوينها وغرائب أطوارها، تمتلىء نفسه رهبة وجلالا وهيبة وإكباراً واعتقاداً ثابتاً ولن نجد هذا لمن قل علمه، يصدق ذلك قول الله تعالى : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ[2]» .

وليس من شك فى أن العلماء فى تلك الآية هم الذين عرفوا الله فخافوه من آياته الكونية التى تجلت فى خلقه، كما ينطق بذلك سياق الآية ؛ فمن درس علوم الكون متدبراً ما أودع الله فيها من أسرار، وما حوته من عجيب الصنع والإبداع، معتصماً بالتعاليم الدينية، آمن إيماناً كاملاً بوجود الله، وكان أكثر خشية . قال تعالى : « إِنَّ فى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ[3]» .

---

(١) رواه ابن عبد البر عن أنس رضى الله عنه

(٢) فاطر الآيات : ٢٧ ، ٢٨ (٣) آل عمران الآيات : ١٩٠ ، ١٩١

وإذا كان هذا الشأن فى علوم الدنيا ، فما بال كثير من المتعلمين قد انحدرت نفوسهم إلى كل نقيصة واستباحوا كل رذيلة ، تجدهم سراعاً إلى الفتنة لايتورعون عن كل قبيح ، ولا يخافون الله من فوقهم ، ولا يفعلون ما يؤمرون . نقول إن هؤلاء تعلموا هذه العلوم ليصيبوا عرض الحياة الدنيا من غير أن يفكروا فى أصل نشأتهم ومصدر وجودهم ومصيرهم وما يؤول إليه أمرهم ، وذلك لتغلب الشهوات والاندفاع وراء الأهواء ، وهم الذين قد عناهم الله بقوله : « يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(١) » .

واأسفاه على قوم عموا عن الحق وصموا ، يهتمون بتعاليم أبنائهم فيعصرون نفوسهم ويستنزفون مالهم فى تعليم أبنائهم لينالوا شهادات عالية ، تاركين الدين وراءهم ظهرياً ، ويزعمون أنهم نجحوا فى الحياة الدنيا ، وهم فى الحقيقة قد خسروا أنفسهم وخسروا آباءهم ، إذ أنهم عطلوا أحكام الله ونسوه ولم يذكروا آباءهم بخير بعد مماتهم ، فلم ينل آباؤهم منهم خيراً ، ولم يقدموا لأنفسهم شيئاً ، يجادل الله عنهم يوم القيامة ، قال سبحانه : « قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(٢) » .

فياقوم : إذا أردتم أن تكرموا أبناءكم فأكرموهم بالتعاليم الدينية واجعلوها فى مقدمة العلوم الكونية ، فإنها لا تخالف طبيعة الإنسان ، ولا تصادم مصلحة اجتماعية أو فردية . بل تثبت المعانى الروحية العليا فى النفوس ، وترمز إلى أسمى المشاعر والعواطف ، وتعمل على إحياء الضمير والوجدان الذى لايوزن الخير والشر فى حياة البشر بسواه ، وتقوى مراقبة العبد لربه .

ياقوم : اتقوا الله فى دينكم ، والله الله فى أبنائكم ، فليس حسناً وجميلا أن توجهوهم إلى حياة فانية وأيام قليلة ، وتغفلوا عن سعادة الأبد . قال تعالى : « فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى(٣) » .

---

(١) الروم الآية : ٧ (٢) الزمر الآية : ١٥ (٣) الشورى الآية : ٣٦

المحاضرة التاسعة عشرة

فى الصيام سلامة الأبدان

ووقاية من الشيطان

بسم الله الرحمن الرحيم .

أيها المستمعون : يسرنى أن أبدأ هذه المحاضرة بذكر اسم الله ، ثم الصلاة على خير خلق الله . وبعد : فلما كان الصيام من أشرف العبادات وأعظم القربات ، فيه تتجلى عبودية العبد إلى ربه وافتقاره إلى خالقه ، وصبره على بلائه ، جعله الله ركناً من أركان الإسلام فى شهر رمضان وما عداه فنافلة ، يؤيد ذلك حديث عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول : لايفطر ، ويفطر حتى نقول : لايصوم ، وما رأيت رسول الله ﷺ يستكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان ، وما رأيته فى شهر أكثر صياماً منه فى شعبان » رواه البخارى .

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه رفعه عنهم فى المرض والشيخوخة ، والسفر ، والحيض والنفاس والحامل والمرضع إذا لحقهما ضرر أو جنينهما كذلك .

ولقد تتابعت الآيات وتضافرت الأحاديث ، فى أن هذا الدين دين يسر لاعسر ، من ذلك الحديث الصحيح : « إِنَّ هٰذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضاً قَطَعَ وَلاَ ظَهْراً أَبْقَى » رواه البزار عن جابر .

وها هو ذا القرآن الكريم يوضح ذلك فى أبلغ عبارة وأوضح أسلوب :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ . فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَيُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا

الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَاهَدَاكُمْ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١) » .

وهذا بعد قول الله تعالى : « وَمَاجَعَلَ عَلَيْكُمْ فى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ(٢) » .

هذا وقد كان الرسول ﷺ يبايع النساء ويكثر من قوله : « فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ » . وكان يبايع النساء كالرجال ولكنه ما كان يضع يده الشريفة فى يدهن كالرجال ، وكانت أول بيعة لنقباء الأنصار فى عقبة منى قبل الهجرة ، ثم البيعة الثانية على منعه أى حمايته مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وبايع المؤمنين تحت الشجرة فى الحديبية على ألا يفروا من الموت ، ومن بعد بيعة النساء التى كانت على الصفا بعد مافرغ من بيعة الرجال على الإسلام والجهاد ، وكان عمر بن الخطاب يبلغه عنهن وهو واقف أسفل منه .

وقد حضرت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان بن حرب بيعة النساء هذه وهى متنقبة متنكرة مع النساء ، لئلا يعرفها رسول الله ﷺ وهى التى كانت أخرجت كبد عمه حمزة رضى الله عنه يوم قتل فى أحد فمضغتها ولاكتها شماتة وانتقاماً ، ولكنها كانت تتكلم عند كل جملة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أُبَايِعُهُنَّ عَلَى أَلاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً » فرفعت هند رأسها وقالت : والله إنك لتأخذ علينا أمراً مارأيناه أخذته على الرجال ، وكان بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد ، فقال النبى ﷺ « وَلاَ يسْرِقْنَ » فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح ، وإنى أصبت من ماله هنات فلا أدرى أيَحِلُّ لى أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شىء فيما مضى ، وفيما بعد فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها « وَإِنَّكِ لَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ » قالت : نعم فاعف عما سلف ، فقال صلى الله عليه وسلم : « عَفَا اللهُ عَنْكِ » فقال « ولا يزنين » فقالت أو تزنى الحرة » فقال : « وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ » فقالت هند : ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً .

---

(١) البقرة الآية : ٨٥ (٢) الحج الآية : ٧٨

وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر ، فضحك عمر رضى الله عنه حتى استلقى وتبسم رسول الله ﷺ فقال : « وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ » وهو أن تقذف ولداً على زوجها وليس منه ، قالت هند : والله إن البهتان لقبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : « ولا يعصينك فى معروف » قالت هند : « ماجاسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شيء ، فأقر النسوة بما أخذ عليهن ، وكان ﷺ يقول لهن عند المبايعة : « فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ » فيقلن : الله ورسوله أرحم بنامن أنفسنا .

هذا هو بيت القصيد وما دفعنا إلى اقتحام هذه المبايعة فى الصيام إلا لنؤكد أن تعاليم النبى كلها ليس فيها غلو ولا تشديد ولا عسر » ولا إرهاق ، ولم تحرم شيئاً إلا إذا كان فيه هضم حق للغير أو ضرر بالشخص ، أو تدسية للنفس أو ضار بالعقل .

هذا وقد انتظمت بيعة النســاء فى قوله تعـالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[1] » .

وأى رحمة ويسر فى الإسلام أوسع من تقييد الله طاعة رسوله وهو لا يأمر إلا بالمعروف .

أيها المستمعون : قد أظلكم شهر رمضان الذى اتصلت فيه الأرض بالسماء بنزول القرآن الكريم الذى فرق الله فيه بين الوثنية والتوحيد والحق والباطل ، والفضيلة والرذيلة ، وجعل فيه الأميين علماء نابغين أضاءت عبقرياتهم الدنيا وانتفع العالم بمواهبهم . وصدق الله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ[2] »

(١) الممتحنة الآية : ١٢ (٢) آل عمران الآية : ١١٠

لله ما أجمل هذا الشهر وما أروعه وما أعظمه ، يحرم المسلمون أنفسهم نهاراً من لذة الطعام والشراب ومتعة الأجسام ، متشبهين بالملائكة الكرام لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وفى ليله يصفون أقدامهم فى الصلاة كالمجاهدين فى سبيل الله مفترشين جباههم وأقدامهم وأكفهم لله ، فما من سمع ولا بصر ولا يد ولا قدم إلا وهى لله .

أى شىء أجل وأعظم من ترك الصائم طعامه وشرابه وشهوته امتثالا لأمر ربه ورغبة فى ثوابه ، وليس عليه رقيب غير خالقه ، ولا مشرف عليه إلا خالقه ، وبين يديه طعام شهى وماء روى ، وتمتع جنسى ، فيأبى أن يفعل ذلك تعظيماً لأمر ربه ووفاء بعهده له .

فلا ريب أن يكون فيه قوة روحية تحفز الصائم إلى التضحية باللذات العاجلة فى سبيل الخير الآجل ، ويستسهل الصعب فى سبيل مستقبل نفسه وصالح بلده ، ويمكنه من ضبط نفسه ومفارقة شهواته . فالشخص الذى ضعفت إرادته وشلت عزيمته لا نصيب له فى الحياة ، وليس من شك فى أن تكرار المراقبة ثلاثين يوماً ما يقوى هـذه الفضائل فى نفس المؤمن ، فلا يقدم على قبيح ، ولا يسهل عليه إتيان منكر بلى بلى ! ! كل ذلك يقوى فى الإنسان الحياء من الله والاستغراق فى عظمته وخوفه منه ، كما أنه يعرف مقـادير النعمة عند فقدها ، ومكانة الإحسان الإلهى عليه . وبدهى أن من ذاق مرارة الضيق فى نفسه فأجدر به أن يستشعرها فى غيره .

كذلك فى الصيام قهر للشيطان ، فإن وسيلة الشيطان الشهوات ، وإنما تقوى الشهوات بالطعام والشراب ، يدل على ذلك حديث البخارى عن أنس رضى الله عنه أن رسول ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ » وفى رواية « فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ » وإذا كان الإنسان مكوناً من عنصرين : أحدهما جسمانى والآخر روحانى (سبحان من جمع بينهما) ولكل واحد شهوات .

فالصيام يقلل من الشهوات الجسمية حتى لاتضعف الناحية الروحية ، فيختل توازنه ، فلا يكون إنساناً بالمعنى الصحيح ، ومن الناس من لا يفكر إلا فى رغبته الجسمية ولا يألو جهداً فى سبيل الحصول عليها أن يرتكب كل دنية وكل فعلة وحشية ، وماهى إلا سنون حتى يدركه الهرم فيموت ميتة الحيوان الأعجم لم يحصل من جهاده الدنيوى نوراً يعرج به إلى العالم الذى خلق لأجله . وفى حديث ابن ماجه أن الرسول ﷺ قال : « الصِّيَامُ نِصْفُ الصَّبْرِ » وفى حديث آخر : « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصَّوْمَ فَهُوَ لِي وَأَنَا أَجْزِى بِهِ » كما جاء فى رواية : « يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهَوَاتِهِ مِنْ أَجْلِي » .

وبدهى أن الصعام الذى يريده الله من المسلم ليس هو عن الطعام والشراب والتمتع الجنسى فحسب ، إنما هو كف الجوارح جميعها عن المعاصى كغض الطرف عما ماحرم إليه ، وإن يقف سمعه على مافيه خيرا الدنيا والآخرة ، ولا يخطو خطوة وتمتد يده إلا لله ، وما إلى ذلك من بقية الجوارح . وكذلك يجمل باطنه بمراقبة الله والخوف منه ، فإذا لم يطهر جوارحه عن الآثام وباطنه عن الأحقاد والفسق والملق والنفاق والخداع والتكبر والخيلاء ، فليس له ثواب من صومه ، ولا ترجى له رحمة الله تعالى . فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فى أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » رواه البخارى .

قال الإمام الغزالى فيمن يعصى الله وهو صائم : (إنه كمن يبنى قصراً ويهدم قصراً) .

ويرى ابن حزم فقيه الأندلس : أن كل معصية تفسد الصيام . وخص الأوزاعى البطلان بالغيبة ويجب القضاء .

هذا وللصيام فوائد كثيرة : منها فوائد لتطهير المعدة من الرواسب التى تتبقى من عصارة الطعام ، فإنها سموم قتالة لا تهضمها المعدة ، بأنها طعام مهضوم لا

لانهضم مرة ثانية . قال ﷺ : « صُومُوا تَصِحُّوا » رواه أبونعيم عن أبى هريرة .

ومنها فوائد اجتماعية وهى المساواة بين الأغنياء والفقراء والسوقه والملوك . وكذلك المحافظة على النظام فى المعيشة ، حيث يفطرون فى وقت واحد ، لايتقدمون ولايتأخرون ، والترتيب فى أداء الأعمال ، وفيه تسكين للغرائز الجنسية لمن لم يقدر على الزواج .

روى الشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يَامَعْشَرَ الشَّبَابِ ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ[1] فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ[2] » رواه الشيخان عن ابن مسعود .

أيها المستمعون : لاتظنوا أن الصيام فطم النفوس عن مشتهياتها فحسب ، بل هناك معنى أجل وأسمى وهو التحلى بمكارم الأخلاق ، والاتصاف بحميد الصفات والعادات ، فلا يغضب ، ولا يلعن ، ولا يتسخط ولا يضيق صدره ، وإن سابه أحد فليقل إنى صائم . ويعمل بقول الله تعالى : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَايُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَايُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[3] » .

هذا وقد عقد ابن القيم (قدس الله سره) فصلا فى مشروعية الصيام فى كتابه (زاد المعاد) رأيت أن أختم به محاضرتى لعظمه فى نفسى وهو بنصه :

لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات ، وفطامها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانية لتستعد لطلب مافيه غاية سعادتها ونعيمها ، وقبول ماتزكو به مما فيه حياتها الأبدية ، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها ، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين ، وتضييق مجارى

---

(١) الباءه . القدرة الصحية والمالية (٢) الوجاء : الخصاء

(٣) فصلت الآيات : ٣٤ ، ٣٥

الشيطان من العبد بتضييق مجارى الطعام والشراب ، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها فى معاشها ومعادها ، ويسكن كل عضو منها ، وكل قوة من جماحه ، وتلجم بلجامه ، فهو لجام المتقين ، وجنة المحاربين ، ورياضة الأبرار والمقربين ، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال ، فإن الصائم لايفعل شيئاً ، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده ، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثاراً لمحبة الله ومرضاته ، وهو سر بين العبد وربه ، لايطلع عليه سواه ، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة . وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده ، فهو أمر لايطلع عليه بشر ، وذلك حقيقة الصوم ، وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة ، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التى إذا استولت عليها أفسدتها ، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها . فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ، ويعيد إليها مااستلبته منها أيدى الشهوات ، فهو من أكبر العون على التقوى ، كما قال تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[1] » .

وقال صلى الله عليه وسلم « الصَّوْمُ جُنَّةٌ » وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح ، ولا قدرة له عليه بالصيام ، وجعله وجاء هذه الشهوة . والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، شرعه الله لعباده رحمة بهم وإحساناً إليهم ، وحمية وجنة ، وكان هدى رسول الله ﷺ فيه أكمل الهدى وأعظم تحصيل للمقصود وأسهله على النفوس .

ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها ، تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة ، وألفت أوامر القرآن ، فنقلت إليه بالتدريج .

---

(١) البقرة الآية : ١٨٣

إلى أن قال : وكان الصوم رتباً ثلاثاً : أحدها إيجابه بوصف التخيير ، والثانية تحتمه ، لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يطعم حرم عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة ، فنسخ ذلك بالرتبة الثالثة ، وهى التى استقر عليها الشرع إلى يوم القيامة .

المحاضرة العشرون

ماضينا وحاضرنا

يقف الباحث فى تاريخ الأمم ، ونهضة الشعوب ، ماضيها وحاضرها على حضارة زاهية ، وضع أساسها الإسلام ، ورفع قواعدها المسلمون الأولون ، بما جاء فى دينهم من تعاليم رشيدة وسياسة حكيمة ، وعنايتهم بالعلوم الكونية المستمدة من كتاب الموجودات ، من طريق الحس والتفكير ، تلك العلوم التى صاغ الله بها الكائنات ، وأقامها على تلك النظم والأوضاع ، وقد أجملها القرآن إجمالا ولم يفصلها تفصيلا ، لأن فى ذلك تعطيلا لموهبة العقل الذى هو هبة الله للانسانية . أما أحكام الدين التى رسمت للانسانية حدودها ، ونظمت العلاقات بينها و بين خالقها فلن يهتدى إليها العقل البشرى مهما بلغ من الارتقاء ووصل من الكمال ، فقد فصلها تفصيلا[١] .

لذلك لم يجرد الله تعالى الدنيا من أنبياء مرسلين وهداة مرشدين ، ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه ، كما قال جل شأنه : « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ[٢] » وقوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا[٣] » .

يريد الله من هذه الآية الكريمة أن حاجة المجتمع الإنسانى إلى الدين لاتقل شأناً عن حاجة الأجسام إلى الأرواح ، فإذا استغنت أمة عنه انقلبت إلى همجية ووحشية ، وفقدت عناصر الحياة الكريمة التى تضمن للشعوب حرياتها ،

---

(١) قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة لئلا تبطل حجج الله وبيناته . (٢) فاطر الآية : ٢٤ (٣) الشورى الآية : ٥٢

و للانسانية كرامتها ، كما عليه الآن أمم الغرب من تناحر وتكالب على الدنيا فى حروب مستعرة لا تخمد جذوتها ولا ينطفى لهيبها . ولا يمكن أن يستريح العالم من ويلاتها إلا إذا ثاب هؤلاء الأنانيون إلى رشدهم ، ورجعوا إلى تعاليم دينهم ، وآمنوا بنبيهم.

يحدثنا التاريخ الصحيح أن هـذا العلم الحديث الذى يفخر به أبناء الجيل الحاضر ، كان مصدره الشرق ، وإن الذى أحياه وجلاه من أصدافه هم العرب فى الإسلام ، فقد أنفقوا فى جمعه وفير أموالهم ونفيس أزمانهم فى نشر مطويه ، وإظهار خفيه ، وتذليل صعابه ، واسترضاء أربابه على اختلاف مللهم ونحلهم ، حتى تأيدت دولة العلم فى العصور الأولى للاسلام ، وحتى نبغ منهم الأطباء والفلاسفة والحكماء الذين كانوا زينة الدنيا ، وليس من الغلو فى شىء أن نقول إنه ما من عالم من علماء الغرب إلا فى رقبته مِنَّة لهؤلاء الأولين الذين سبقونا بالرحيل إلى مقرهم الأخير . هـذا ولا تزال آثارهم فى الشام ومصر والأندلس وفارس وما وراء النهر وطبرستان وأفغانستان والقيروان ، وغيرها من بلاد الإسلام ، فقد نقلوا إلى العربية الطب والعقاقير والحساب والقصص من الهنود ، والفلاحة والزراعة عن الكلدانيين والأنباط الذين كانوا ينزلون بين العراق العجمى والعراق العربى ، والفلسفة والطب والهندسة والمنطق والنجوم من اليونان والكيمياء والتشريح من المصريين . وهذه شهادة كبار فلاسفة الغرب :

يقول « روبرتسون » ما خلاصته فى الزمن الذى كان فيه العرب يتدارسون العلوم المختلفة وينشرونها فى بلادهم ، كان أهل أوربا فى جهل مطبق ونوم عميق ولم يستفيقوا إلا بعد الحروب الصليبية ، فإنهم حين اختلاطهم بالمسلمين وجدوا علوماً لا يعرفونها ، وبلاداً متمدينة ذات نظم محكمة ، فاقتبسوا منها وشرعوا يدخلونها فى بلادهم .

قال « دارير » العالم الأمريكانى الشهير : قد تأخذنا الدهشة أحياناً عند ما

ننظر فى كتب العرب فنجد فيها آراء نعتقد أنها لم تولد فى زمننا هذا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال أنواعها ، فإن هذا الرأى علمه العرب قديماً فى مدارسهم ، وذهبوا فيه إلى أبعد مما ذهبنا إليه .

وهذه شهادة أخرى لمستشرق إنجليزى يدعى « توماس كارليل » :

« جاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدل وتتخبط بالحجج الجائرة ، وماذا أفاد ذلك وما أثمر ! لقد جاء الإسلام على تلك النحل الكاذبة والملل الباطلة فابتلعها ، وحق له ذلك لأنه حقيقة خارجة عن قلب الطبيعة ، فما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية ، وكل مالم يكن بحق فإنه حطب ميت أكلته نار الإسلام ، فذهب والنار لم تذهب . ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به أمة خاملة لا يسمع لهاصوت ولا يحس منها حركة منذ بدء العالم . فأرسل الله نبياً بكلمة من لدنه ورسالة من قبله ، فإذا الخمول نباهة ، والغموض قد استحال شهرة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقاً . وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوءه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والشرق بالغرب ، وماهو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى صار لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديدة ، ودهوراً مديدة ، بنور الفضل والنبل والمروءة والنجدة ، ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة » .

شهد الأنام بفضله حتى العدى ‌ ‌ ‌ ‌ والفضل ما شهدت به الأعداء

وجدير بالذكر أن نذكر الباعث على هذه النهضة العلمية إنما هو القرآن الكريم ، من أوله إلى آخره ، دعوة عامة تدعو إلى البحث والتنقيب فيما خلق الله من السموات وأفلاكها والأرض ومحتوياتها من بحار وأنهار وجبال راسيات وحيوان وأشجار ونخيل باسقات ، وما كمن فيها من معادن وخواص . ففى سورة الجاثية : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ[1] » .

(١) الجاثية الآية : ١٣

وفى سورة الأعراف : « أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَاخَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ[(١)] » وفى سورة يوسف : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ[(٢)] » وغير ذلك مما يحفز الهمم إلى البحث ، ويوجه العقول إلى قراءة آيات الكون فى صحف الطبيعة ، ويرشد إلى فهم معانيها وأسرارها ، ليستدل الإنسان ببديع الصنع على عظمة الخالق جل وعلا ، وينتفع بما اخلق الله فى السموات والأرض ، ويعلم ما أودع فى الكون من قوى وأسرار ليزداد المؤمن إيماناً ، ولا يرتاب الذين فى قلوبهم مرض .

هذا وقد كان أساس معاملة المسلمين للأجانب الذين دخلوا فى ذمتنا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لَهُمْ مَالَنَا وَعَلَيْهِمْ مَاعَلَيْنَا » وقول الله تعالى : « لَايَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[(٣)] » .

لهذا حرص المسلمون على هذا الخلق الكريم وهذا المبدأ النبيل ، حتى جمع البلد الواحد بين المسلم والنصرانى واليهودى ، ينعمون فيه بحياة مليئة بالهدوء والاستقرار ، فى جو من الثقة وحسن التفاهم .

حدث أن كان رجل من الأنصار يساوم يهودياً فى شراء شىء ، فأقسم اليهودى بالذى فضل موسى على البشر بأنه لا يبيعه هذا الشىء ، فلطم المسلم اليهودى ظناً منه أن فى هذا تعريضاً بمحمد ، وقال : تقول هذا ومحمد بين أظهرنا ، فشكا اليهودى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياأباالقاسم ، إن لى ذمة وعهداً ، فغضب ﷺ من الأنصارى حتى عرف الغضب فى وجهه ثم قال : « لا تُفَضِّلُوا

---

(١) الأعراف الآية : ٨٥ (٢) يوسف الآية : ١٠٥ (٣) الممتحنة الآيات : ٨ ، ٩

بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ تَعَالَى » . وذكر كليم الله موسى بخير وأثنى عليه بما هو أهله .

كذلك شكا ذمى على بن أبى طالب ، فلما حضر فى ساحة القضاء ، وكان القاضى إذ ذاك عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : قف ياأبا الحسن نحو خصمك حتى أقضى بينكما ، فغضب علىّ ، فقال عمر : لماذا غضبت ياعلىّ ؟ قال : لأنك كنيتنى فخشيت أن يفهم الذمى أنك تعظمنى فيقول الذمى : « ضاع الحق بين المسلمين » .

ومنذ أن دوت صيحة السماء فى جزيرة العرب أن جاءكم رسولٌ من أنفسكم ، والإسلام يسير بخطى واسعة إلى الأمام بفضل تعاليم الدين القويمة ، وسياسة النبى الحكيمة ، واستجابة أصحابه لها ، و إخلاصهم فى تنفيذها ، و إماتة العصبية الجاهلية التى فرقتهم ، وتبادل الثارات التى طحنتهم ، والقضاء على أسباب الفرقة والانقسام ، وغرس بذور المودة ، ومحو الفوارق العنصرية ، مهما وجدت ومهما كانت . وما كاد الرسول وأصحابه يسمعون أحداً ينادى بفرقة أو إحياء عصبية إلا أعلنوا عليه سخطهم ، وصبوا عليه جام غضبهم . فلا عجب أن يكون نجاح الدعوة الإسلامة قائماً على جمع الكلمة وتحقيق الأخوة الدينية .

روى أن بلالا بن أبى رباح عيَّره أبو ذر بسواده ، فسكت عنه بلال ، فندم أبو ذر وألقى بنفسه على الأرض وأقسم ألا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه ، ولم يرفع رأسه حتى فعل بلال ماأقسم به صاحبه .

لهذا تحققت الأخوة الدينية حتى فاقت أخوة الدم والنسب ، وتوحدت كلمتهم كما وصفهم نبى الإسلام ، ففى حديث البخارى عن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنهما أن النبى ﷺ قال : « تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فى تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْواً تَدَاعَى لَهُ سَائِرُهُ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى [1] » .

على هذا الأساس قامت مدنية الإسلام وانتشرت رايته فى ربوع الدنيا

---

(١) هذه الرواية لاتنافى الرواية الأولى فى المعنى ، وإن خالفتها فى الألفاظ .

عالية ، ولم يقم على أرض الله دولة ذات حضارة زاهية وملك فخم مثلها ، حتى أصبحت بلاد الإسلام قبلة القصاد وكعبة الرواد ، يأوى إليها من تدفعه عوامل الحاجة العمرانية والشئون الاقتصادية ، كما شهد بذلك فلاسفتهم الأحرار .

هذه هى المدنية الحقة التى حفظت للإنسانية حقوقها ، وللشعوب حرياتها . وأى حرية أوسع مدى وأبلغ عظمة من كلمة عمر بن الخطاب لوالى مصر وحاكمها عمرو بن العاص : « ياعمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » قالها تأديباً لابنه وتهذيباً لأبيه حينما شكا إليه أحد المصريين فقال ياأمير المؤمنين عائذ بك من الظلم . فقال له : عذت بمعاذ . قال : سابقت ابن عاملك بمصر عمرو بن العاص فغلبته ، فأخـذ يضربنى ويقول : أنا ابن الأكرمين . فقال عمر كلمته الخالدة التى يستقى منها شعوب الأرض معانى الحرية الصحيحة والديمقراطية الحقة ياعمر متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ثم أعطاه العصا وقال : اضرب ابن الأكرمين . وأخذ يضرب به على مرأى ومسمع من أبيه .

هـذا وإن الذى خلفهم عن ركب الحضارة الحديثة ، هو استعمار الأجانب أرضهم وديارهم ، فغلوا أيديهم عن العمل ، وضغطوا على حرية آرائهم . أما مدنية العصر الحديث فقد قامت على الأثرة والجشع ، والأنانية والطمع ، والتفرقة بين بنى الإنسان ، وخاصة فى الدول التى تزعم أنهـا تحافظ على حقوق الإنسان . ففى كل يوم تطالعنا الصحف اليومية بمآسى خلقية ، ومعاملات وحشية ، وتفرقة عنصرية . وأصبح ما يفخرون به من علوم كالنـار اجتمع فيه النور والحريق ، فذهب النور وبقى الحريق ، حتى صار الـكوكب الأرضى رجوماً من نار يوشك على الخيبة والدمار ، ولئن لم يندمل جرحه فى القريب العاجل : وقع اليأس واعضل الرجاء ، وعلى الإنسانية رحمة الله

وليس شىء أدعى إلى الشجن وأحق بالأسف من تلك الموجات العاتية التى انحدرت من الغرب إلى الشرق ، من انحلال فى الأخلاق ، وولوغ فى الفسـاد ،

وجحود ما كان لأمتنا من مجد تليد ، وشرف رفيع ، وحياة كلها حشمة ووقار ، وعفة و إباء . فلقد دخـل الأجانب بلادنا ضيوفاً فاستعمروها باسم الإصلاح ، ونشروا المجون والفسوق باسم الحريات ، وشيدوا المراقص والملاهى باسم الترفيه عن الأجسام ، وأحلوا الرِّبا باسم الاقتصاد ، حتى انحلت أخلاق الأمة ، وعم الفساد فى الأسر ، وانتشر الربا فى المجتمع ، فتبدّلت سعادتها شقاءً ، ورخاؤها تعاسة . ولم يكفهم هذا كله ، بل جلبوا إلينا الخمور والمخدرات التى قضت على الشباب والـكهول والشيوخ ، وزينوها لهم حتى عم خطرها فى كل مجتمع وناد ، وأصبحوا لاغنى لهم عنهـا فى محافلهم ومجالسهم ، فأضرت بصحتهم وأضعفت عزيمتهم ، وأوهنت قوتهم ، وأسقطت كرامتهم ، وبدّدت ثروتهم إلى جيوب تجار المواد السامّة غنيمة باردة ، ولقمة سائغة .

فكم من أسرة كانت ناعمة البال ، قريرة العين ، رغيدة العيش ، متقلبة فى أحضان النعيم ، أصبحت فى ذل وشقاء ، وفقر و إملاق من جرّاء هذا الوباء . ولو كنا نتتفع بالذكريات ، ونستفيد من العظات ، لأخذنا حذرنا وأمنّا مكرهم وظفرنا بمالهم من علوم وما استفادوا من حضارات ، وضع أساسها ورفع قواعدها الإسلام فى الأندلس ، ولـكنا وياللأسف أحسنا الظن بهم فى العهود الغابرة وعمينا عن قول الله تعـالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِـكُمْ لَا يَأْلُونَـكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ [1] » . فوقعنا فى محنـة لا زلنـا نتجرع غصصها ، ونتذوق حرارتها .

أليسوا هم الذين أبادوا دولة الإسلام فى الأندلس ، ومحوا صحيفة أمة عاشت ثمانية قرون فى قلب أوربا ، ولا تزال ذكراها حية فى صدر كل مسلم غيور ؟ أليسوا هم الذين غلوا أيدينا عن الانتفاع بمعادن أرضنا ، فحظروا علينا أن نستخرج

(١) آل عمران الآية : ١١٨

معادنها ، ونستخدمها فى شئون بلادنا ؟ أليسوا هم الذين ظاهروا اليهود على أهل فلسطين وشردوا أهلها ؟ أليسوا هم الذين اعتدوا على بور سعيد ، فكانت بيننا وبينهم مذابح بشرية ، ومجازر دموية ؟

ألا وإن من كبريات المصائب التى حلّت بالمسلمين : الفرقة والانقسام ، وإشاعة العداوة والبغضاء ، ومنافسة الملوك الداخلية ، والتعصب الحزبى ، مما كان سبباً فى الفتنة التتارية ، فلقد انقض من الشرق الأقصى هؤلاء الوحوش الضارية كالسيول الجارفة ، ووضعوا السيف فى رقاب المسلمين ، فتمزق شمل الخلافة الإسلامية ودخلوا بغداد عاصمة البلاد الإسلامية إذ ذاك ، وتبزوا ماعلا الإسلام ، وسفكوا الدماء حتى بنوا مآذن من رءوس المسلمين ، ولولا عناية الله شملتهم فقيّض إليهم الجنود المصريين فدحروهم ومزقوهم شرّ ممزّق لكان المصاب أعظم .

وأعظم من هذا وذاك الفتنة الغربية التى أثارها خلفاء الأتراك باختلاطهم بالغرب ، فاصطلوا بنيران الحرب ، حرب العالمية الأولى ، فسقطت الخلافة العثمانية التى بسطت نفوذها على الكثير من المعمور من الأرض وظل الحكم فى أيديهم خمسمائة سنة ، وكانت إذ ذاك تكنّى بالدولة العلية ، فانتصر الغرب فاستعمروا الممالك الإسلامية ، ووضعوا سيادتهم عليها ردحاً من الزمن ، والمسلمون ساكتون لا يرفعون صوتاً ، ولا يحركون ساكناً ، مع أن دينهم يحرضهم على القتال ، ويبيّن لهم ضعف عدوهم فى مواطن كثيرة من القرآن ، قال سبحانه . « لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فى صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فى قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ(١) » .

صفحة مشرقة

فى اليوم الذى أعلن فيه نبى الإسلام دعوته ، والإسلام يسير بخطوات واسعة إلى

---

(١) الحشر الآيات ١٣ ، ١٤

الأمام حتى عمت دعوته الأرجاء ، وانتشرت فى جميع البقاع ، وصار أهله سادة الدنيا ، ولولا الفتنة التى وقعت بين الخليفة الأموى وسيدنا عبد الله بن الزبير ، وكذلك الفتنة التى وقعت فى مقتل سيدنا عثمان ، والخلاف الذى كان بين سيدنا على وسيدنا معاوية ، لأسلمت أوربا جميعها . وهذه الانتصارات المتتابعة التى لايحصيها العدّ قد أدهشت القواد الفاتحين ، وأشهدت العالم أن المسلمين وخاصّة المصريين هم أقوى الأمم شجاعة وبسالة .

ماذا نذكر ؟ أنذكر واقعة اليرموك التى انتصر فيها خالد بن الوليد على الروم فى حين أن جيشه كان على الربع من جيش خصمه ؟ أم نذكر الحروب الصليبية التى انتصر فيها صلاح الدين الأيوبى على أوربا كلها ؟ أم موقعة المنصورة التى أُسِرَ فيها لويس التاسع ملك فرنسا .

وهذه حروب محمد على والأسطول الذى هابته دول الغرب ، واستيلاؤه على الأقاليم الشاسعة وطرقه القسطنطينية ، ولولا تواطؤ الدول جميعها عليه وتقدمه فى السن ، وموت أولاده فى حياته ، لفتح الدنيا وحده .

وإن ننسى لاننسى موقعة نابليون التى خرجت من مصر مع زعيمها مغلوبة على أمرها بفضل الله أولا ، ثم ببسالة المصريين ، وثقتهم بأنفسهم ، أليسوا هم الذين هزموا الإنجليز فى معركة رشيد ؟ أليسوا هم الذين هزموا دولتين عظيمتين وولوا أهلها الأدبار فى موقعة بورسعيد . ومما دون لمصر من المفاخر دفاعها عن فلسطين التى فيها المسجد الأقصى الذى هو ثالث ثلاثة .

ففى اليوم الخامس عشر من شهر مايو سنة ألف وتسعمائة وثمان وأربعين كانت هذه المأساة الكبرى والمصيبة العظمى ، مصيبة فلسطين وحدها (معاذ الله) بل مصيبة العالم الإسلامى أجمع ، فلقد تركت فى كل قلب حسرة ، وفى كل نفس لوعة ، وحفرت فى قلب كل مسلم أعمق الجراحات . فلقد سلمت الإنجليز فلسطين إلى اليهود ، تلك البلدة التى نوه القرآن بشأنها فى قوله تعالى :

« سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا » . ولما علم بذلك جيش مصر الباسل هبت مصر حكومة وشعباً لنجدة فلسطين بكل قواها ، و بذلت من مالها ودمائها مالم تفعله دولة أخرى ، وكاد الجيش الباسل المصرى أن يقذف باليهود إلى البحر لولا مؤامرة دول الغرب ومن تبعهم من أعداء العرب والإسلام والخونة وأعوان الأجانب ، ومسارعتهم إلى نجدة اليهود .

نعم لولا ذلك وكذلك الهدنة الخاطئة الآثمة ، لمحيت اليهود من فلسطين وأبيدت من أولها إلى آخرها . وهذه ليست أول خدمة لمصر ، بل لها الفضل على سائر الدول العربية التى نالت استقلالها ، وظفرت بحريتها .

نعم كانت مصر تنسى نفسها وقضيتها فى سبيل إصلاح العرب والإسلام ، والذود عن حرية الشعوب ، وكان صوتها يدوى فى المحافل الدولية ، بالحجج والبراهين الدامغة القوية . فكم من مؤتمرات عقدت فى مصر من أجل قضايا فلسطين وسوريا ولبنان والمغرب العربى وليبيا وأندونيسيا و باكستان وكشمير ، وكم من وفود بعثت بها مصر إلى الهيئات الدولية من أجل نصرة تلك القضايا ومؤازرة الشعوب الشقيقة فى مطالبها ، والعمل على إخلاصها من براثن الاستعمار الأحمق الغاشم . فللمصريين فضل كبير فى أعناق المسلمين كافة والعرب خاصة ، فعليهم جميعاً أن يؤيدوها بكل الوسائل حكومة وشعباً ، وأن يبايعوا زعيمها المفدى الذى حارب الاستعمار فى كل مكان ، ورفع شأن العرب ، وحقق لهم العزة التى كتبها الله لهم ، كما قال سبحانه وتعالى : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ[1] » .

قال أمير البيان شكيب أرسلان (عليه الرحمة والرضوان) فى حديث له طويل : لم يطلق على مصر لقب « مصر كنانة الله فى أرضه » عبثاً ، بل هى

---

(١) المنافقون الآية : ٨

من قديم الزمان موئل الحجاز . إلى أن قال : وحسبك ماقامت به مصر علم الرمادة من مبرة الحجاز بطلب سيدنا عمر إلى سيدنا عمرو بن العاص ، وما إلى ذلك من عمل مشكور ، فما من شدة تقع بأهل الحرمين ، أو عضتهم مسغبة بنابها إلا أسرعت إليهم مصر بالإغاثة ، وتفريج الكربة ، فلم تتخلف مصر عن الواجب المقدس فى وقت من الأوقات ، ومضى الأمير فى حديثه حتى ذكر للمرحوم طلعت باشا حرب من النهضة التى قام بها فى بلاد الحجاز من إصلاح عمرانى واقتصادى وتسهيل أعمال حجيج بيت الله الحرام .

وجماع القول أن النهضة التى كانت للمسلمين فى العصور الأولى للإسلام إنما قامت على مبادىء الإسلام القويمة وتعاليمه الرشيدة ، والتى هى الدعامة الكبرى فى بناء مجد الوطن ، فلو أن المسلمين ، عفا الله عنهم ، أخذوا أنفسهم بتعاليمه الرشيدة ، واتبعوا نبيهم فى كل مايأتون ويذرون ، لما فقدوا عزهم ، ولما نال العدو منهم نيلا ، يؤيد ذلك قول الله تعالى : « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا * وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١) » .

هذا وقد قامت بحمد الله تعالى وتوفيقه يقظة فى العرب جديرة بالإعجاب والثناء فى تلك الأيام ، فلقد نفضوا غبار الخمول ، وحطموا قيود الاستعباد بفضل الله ، ثم برجالها المخلصين الذين صاروا حديث العالم ، وسجلوا صفحات مشرفة كانت إيذاناً بفتح جديد ونصر مبين ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

---

(١) طه الآيات : ١٢٣ : ١٢٧

مقدمة خلاصة كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان »

بسم الله الرحمن الرحيم .

حمداً لله على الإيمان ، وصلاة وسلاماً على إمام الموحدين ، وخاتم رسل رب العالمين ، و بعد : فإن الدعوة إلى الإيمان أساس شرائع الله تعالى ، والركن الركين للإسلام ، تهتف بها الفطر السليمة والعقول الصحيحة ، ويؤيدها النظر فى ملكوت السموات والأرض : « وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(١) » وما الصراع القائم بين أهل الأديان إلا تلبية لنداء الفطرة « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٢) » .

ولولا التعصب الجنسى الذى هو آفة القديم والحديث ، والتقليد الموروث ، والتعاليم الإلحادية ، لآمن الناس كلهم جميعاً .

هذا ومن سماحة ديننا القويم أنه يرحب بكل جديد مالم يكن فيه ضرر أو تأثيم ، ويغرى بالبحث وراء الطبيعة ، وقراءة كتاب الكون لأمرين : أولهما : للاستدلال ببديع الصنع على عظمة الصانع ، فتؤمن بالله إيماناً كاملا لا يخالطه شك . وثانيهما : لتنتفع بما خلق الله : « وَسَخَّرَ لَـكُمْ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ(٣) » . فإن دين الإسلام ليس للآخرة فحسب يدعو إلى الترهب والانقطاع عن الدنيا ، و إنما هو دين دنيا وأخرى : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ(٤) » .

من أجل هذا عنى المسلمون بدينهم فى العصور الأولى للإسلام ، بالبحث

---

(١) الجاثية الآية : ٤
(٢) الروم الآية : ٣٠
(٣) الجاثية الآية : ١٣
(٤) القصص الآية : ٧٧

والنظر فى آيات الله الكونية لينتفعوا بها فى دينهم ودنياهم ، ذلك بأنه كلما ازداد الإنسان علماً ازداد إيماناً . ونريد بالعلم هنا العلم الذى صاغ الله به الكائنات ، وأقامها على هذه الأوضاع المستفادة من طريق الحواس ، والتفكير والتجارب ، ومن وحى الفطرة التى أودعت فى أصل خلقة الإنسان وثنايا جبلته ، قال المستر باكون إمام الفلسفة الحديثة : « من أخذ علم الطبيعة بأطراف شفاه فقد ألحد ، ومن شرب به عَباً فقد آمن » . وقال هكسلى الحكيم الكبير : « الدين والعلم توأمان متلاصقان ، فصلهما يؤدى إلى موتهما ، فإن العلم ينمو متى كان دينياً ، والدين يثبت متى كان علمياً » .

هذا وكلما رسخت قدم الإنسان فى علوم الكون أدرك من أسراره وغرائب أطواره مايجعل إيمانه بالله أثبت ، ويعنو لجلاله وعظمته ، لأنه عرفه عن خبرة ، وبعد نظر ، لاعن وراثة وتقليد .

نبأنا التاريخ الصحيح الذى هو مرآة الماضى ، تصفه وتحكيه بأنه فى كل عصر تشذُّ طائفة من كل دين فيعلنون شذوذهم فى الخروج على دين قومهم من غير علم عرفوه أو دليل أقاموه سوى التقليد المزرى الذى هو آفة القديم والحديث .
فمن هؤلاء جوليا هكسلى الإنجليزى ، فقد درس الأناجيل فوجد من بينها بعض آيات ينكرها العلم الحديث ، ويجافى العقل السليم ، ولا يتفق ونظام العمران ، فظن أن الأديان السماوية كلها على هذا الطراز ، وهى من وضع الإنسان وليس هنالك رب ولا إله سوى الطبيعة التى نسميها نحن سنن الله فى خلقه ، وعلى هذه العقيدة ألف كتابه « الإنسان يقوم وحده » .

وما كاد يظهر هذا الكتاب فى إنجلترا حتى هاج له الرأى العام وماج ، وكان من أشد الناس حنقاً عليه رجال الدين ، لأن هذا الرأى يفسد عليهم دينهم ويجحد المسيح الذى يعتقدون فيه أنه جاء إلى العالم ليخلصهم من الخطيئة كما يزعمون . هذا ولما كان الحق لايعدم نصيراً ، والباطل لايلبث إلا قليلا ،

كما قال الله تعالى : « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ[1] » . وكما قال علي بن أبي طالب : (لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة لكيلا تبطل حجج الله وبيناته) ، انبرى هذا المصلح الكبير الأستاذ « كريسى مور يسون » ففند مزاعمه ومن على شاكلته بالعلم الذى به يتبجحون ، والسلاح الذى به يصولون ، حتى جلى الحقيقة سافرة فى وجوههم فألف كتابه (العلم يدعو للإيمان) فصفع ناصية هؤلاء الجاحدين ، ودحض حجة هؤلاء المبطلين ، الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ؟) .

هذا وقد ترجم هذا الكتاب الأستاذ محمد صالح الفلكي وكيل وزارة المالية سابقاً . وقد تصفحته وأحطت بما اشتمل عليه من براهين قاطعة وحجج دامغة ، على أن هذا العالم لابد له من سلطة غيبية وقدرة إلهية ، وبداهة العقل تحيل من أنكر ذلك . وقد كلفتني وزارة الأوقاف أن ألخص هذا الكتاب وألقيه فى جماعة من الأئمة ، وقد وفقنى الله تعالى لذلك .

لقد سلك هذا الفيلسوف مسلك القرآن الكريم فى الاستدلال على قدرة الله العلى القدير ، وأن هذا العالم المترامى الأطراف ، سماءه وأرضه ، هواءه وماءه ، صامته وناطقه ، قائم على قوانين ثابتة ونظام محكم مما يدل على أنه ناشىء عن قصد وعلم ، ومحال أن يكون ناشئاً عن صدفة ، فإن الصدفة مضطربة لا ترتكز على دعائم ثابتة ولا تستقر على حال ، وهى كما توجد عرضاً سرعان ماتذهب سُدًى .

ثم أخذ يبرهن على ذلك بالآيات الكونية بأن كل نوع من هذه الكائنات مركب من عناصر مختلفة مقدرة بمقادير مضبوطة ، مما جعل هذا تفاحاً ، وذاك برتقالا ، وآخر نخيلا وأعناباً وهكذا . فإذا نقص كل نوع أو زاد ولو بقدر الذرة انقلب إلى نوع آخر . وصحة هذه النظرية من القرآن الكريم قوله تعالى :

« وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

---

(1) فاطر الآية : ٢٤

مَوْزُونٍ[١] * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ، وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ[٢] » .

ولقد ضرب لنا مثلا يكفى وحده فى أن الصدفة لايمكن أن تؤلف بين عناصر فى نوع واحد ، فكيف بهذا العالم الكبير الذى يكاد العلم يثبت أنه ليس له نهاية وهذا هو المثل :

خذ عشر بنسات كلا منها على حدة وضع عليها أرقاماً مسلسلة من واحد إلى عشرة ثم ضعها فى جيبك وهزها هزاً شديداً ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من واحد إلى عشرة . إن فرصة سحب البنس رقم واحد هى بنسبة واحد إلى عشرة ، وفرصة سحب رقم واحد ورقم اثنين متتابعين هى بنسبة واحد إلى مائة ، وفرصة سحب البنسات التى عليها أرقام واحد واثنين وثلاثة متتالية هى بنسبة واحد إلى ألف ، وفرصة سحب واحد واثنين وثلاثة وأربعة متوالية هى بنسبة واحد إلى ١٠٫٠٠٠ ، وهكذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من واحد إلى عشرة هى بنسبة واحد إلى عشرة ملايين .

ثم عقب بعد ذكر هذا المثل بأن العشر بنسات التى دخلت جيبك مرتبة وأردت أن تخرجها مرتبة من بعد اختلاطها وعدم ترتيبها فإنها تتكاثر إلى حد ربما لم يبلغ النهاية ، وعلى هذا فلو أن هذا العالم كله ليس له قدرة أنشأته وجمعت الصدفة لكل شىء عناصره التى تتكون منه ، فأى مدى تتجمع هذه العناصر بنسبها الدقيقة وتحتل مكانها الطبيعى لها حتى صار من هذا إنسان وطير وحيوان وزرع وزيتون ونخيل وأعناب وشموسٌ وأقمارٌ ، إن هذا تحيله بداهة العقل .

---

(١) موزون : لاينقص قدر ذرة ولايزيد عنها ، ولهذا لايستطيع العلم الحديث بعد تحليل الشىء أن يرجعه كما كان لهذه الدقة رقة النسبة التى بين العناصر .

(٢) الحجر الآيات من ١٩ إلى ٢٢

هذا وقد اشتمل هذا الكتاب على سبع عشرة نظرية ، كل نظرية فيها تكفى لإثبات وجود الله تعالى ، وأنه من المحال أن يقوم الإنسان وحده وكذلك غيره ، وقد جاءت على هذا الترتيب :

١ — عالمنا الفذ ٢ — الهواء المحيط ٣ — الغازات التى نتنسمها .
٤ — النتريجون تنظيم مزدوج ٥ — ما هى الحياة ؟ ٦ — كيف بدأت الحياة ؟ ٧ — أصل الإنسان ٨ — غرائز الحيوان .
٩ — تطور العقل ١٠ — وحدات الوارثة ١١ — أعظم معمل فى العالم ١٢ — ضوابط وموازين ١٣ — الزمن ١٤ — قوة التصوير .
١٥ — استعراض ١٦ — المصادفة ١٧ — خاتمة .

شرح المؤلف هذه النظريات شرحاً وافياً نذكر منها :

من أين نشأت الخلية الأولى التى انبعثت منها هـذه الكائنات ، وكيف تنوعت إلى جمـاد ونبات وحيوان ، وما الذى حفظ للماء شخصيته فلم تطغ عليه الحرارة حتى يصير بخاراً ، ولم تنقص عنه حتى يصير ثلجاً ، ولماذا كانت نسبة عناصر الهواء على هذا النحو الذى نحن عليه الآن فلم يطغ أحدها على الآخر حتى لايصلح للاستنشاق . وهذه الكواكب المرفوعة من غير عمد وجريها فى منازلها التى قدرت لها غير متخطية إياها ولا متقاصرة عنها ومن أين جاء إلهام الطير ، كيف تنحدر على رزقها ، والحشرات كيف تدب على أرضها محافظة على نسلها ونوعها ، وكذلك قوة التصوير التى فى الحيوان ، فيتجنب مافيه إهلاكه ويصبو إلى مافيه نجاته . وهذه الثمرات لكل ثمرة غذاء خاص مطمور فى الأرض وكل واحدة منها تأخذ غذاءها المناسب وتترك الباقى لغيرها ، أرأيت كيف يكون ذلك ؟ إنها لآية الله الكبرى الذى خلق فسوّى والذى قدَّر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوَى .

وأعظم من هذا وذاك هذه العملية العجيبة ، عملية هضم الطعام فى الإنسان

والحيوان بوساطة للمعمل الكيماوى الذى لا يضارعه معمل من معامل الدنيا الحديثة حيث يأخذ هذا الجهاز فى تحطيم كل جزء من أجزاء الغذاء ويحوله إلى عناصر، فيأخذ الرحيق منه ويوزعه على الخلايا التى تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشرى كله على وجه الأرض، يعطى لكل خلية وعضو غذاءه الخاص به بمقادير مضبوطة من غير زيادة ولا نقص، ويختلف نظام التوريد باختلاف السن، ثم يقذف بقية العصارة، والتفل الذى يضر الجسم إلى مكان يخرج منه بسهولة بعيد عن الفم والأنف والبصر. على أن عملية الاحتراق التى تدير آلات الهضم لم تتولد فى الجسم بإشعال نار ولا بمزاولة سبب من الأسباب ولا بحركة أحدثها الإنسان، أرأيت كيف يكون طعام الإنسان وشرابه بعد هذه العملية، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما، ثم تكسى هذه العظاما لحماً، ثم يكون خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وأعجب من هذا وذاك اللبن الذى يخرج من بين الفرث والدم، والشراب المختلف الألوان من حشرة تعيش من الأزهار وورق الأشجار، ولماذا لم يوجد اللبن إلا بعد خروج الجنين من عالمه الذى كان فيه إلى العالم الذى نعيش فيه، وكذلك الفصيل من بطن أمه.

كل هذا يصفع ناصية الملحدين. ويردهم على أعقابهم خاسرين:

« وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ(١) ». « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢) ».

---

(١) النحل الآية : ٦٦ (٢) النحل الآيات : ٦٨، ٦٩

وكنت أربأ بنفسي ألا أعير لهذا اهتماماً أو أحرك قلما ، ولولا ماشعرت به من خطر مُحدق يُخشى منه التداعي والانهيار والتحلل من الأديان بتلك الدعاية الخاطئة التي ظهرت في الأيام الأخيرة من بعض أساتذة الجامعة المصرية التي أنشئت لتضيء للناس سبل الحياة ، وتلقن أبناء الشعب مكارم الأخلاق . فلقد صرّح أحدهم بهذه العقيدة في غير استحياء وخجل ماقاله أستاذهم الأكبر جوليان هكسلي من أن هذا العالم كله ناطقه وصامته ، عربيه وأعجميه ، ليس خاضعاً لقوة غيبية يسمونها الله ، وإنما هو ناشيء عن تطورات طبيعية وتفاعلات كيمائية من غير علم عرفوه ، أو دليل أقاموه ، سوى تقليد طائفة جحدوا الأديان فجعلوا المادة إلههم ، والطبيعة ربهم ، ليبيحوا لأنفسهم كل مايشتهون ، وإن كان فيه خسران أهل الأرض جميعاً ، ولكن صاحب هذا القول يقف حيران مبهوتاً أمام الخلية الأولى التي هي منشأ التطور وكيف وجدت ، وتلك هي العقبة الكئود في طريق الإلحاد ، ولا يستطاع اجتيازها بحال إلا في الإيمان والعقيدة وهذه سبة العقل البشري يغفل عن أصل الموجودات ويجحد الضروريات .

ويقيني أن هذه الطائفة مثل المكروبات الوبائية تهلك غيرها ثم لاتلبث أن تهلك نفسها ، إذ أنهم ينشرون الإباحية الفاجرة في أبناء الجيل الحاضر الذين هم رجال الغد ، وسيكونون خلفاء من بعدنا ، ويصرفونهم عن الدين الذي أوامره كلها فضائل ، ونواهيه حمية وصيانة .

هذا ولقد أثبت العلم الحديث معجزات لنبي الإسلام . من هذه المعجزات أنه أخبر عن الطاعون بأنه من وخز الجن ، فعن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه رضي الله عنه قال : ذكر الطاعون عند أبي موسى فقال سألنا عنه رسول الله ﷺ فقال : « وَخزُ أعدَائِكُم الجِنّ وَهُوَ لَكُمْ شَهَادَةٌ » . رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

ومعروف أن الجن في لغة العرب كل مالا يدرك بحاسة البصر فيشمل الجن

للقابل للإنس ، وجراثيم الأمراض التى اكتشفت فى هذا العصر بواسطة المجهر (المكبر) بعد أن ظلت محجوبة عن البشر قروناً متطاولة وأزماناً متعاقبة ، وقد حكى الله تعالى عن نبى الله أيوب ذلك ، فقال سبحانه : « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ[1] » والشيطان هنا على ما أفهم والله أعلم : يراد به المكروب ، إذ أن الشيطان هو كل متمرد من الإنس والجن والحيوان والطيور والحشرات ، دليل ذلك أن الرسول ﷺ أبصر رجلا يجرى وراء حمامة فقال : « شيطان يتبع شيطانه » : رواه ابن ماجة وسمى ﷺ الرجل شيطاناً ، لأنه اشتغل بما لا يعنيه ، وسمى الحمامة شيطانه ، لأنها شغلت الرجل عن العمل النافع ، وكان العرب يطلقون على كل حيوان جامح شيطاناً وسمى الرسول ﷺ الكلب الأسود شيطاناً .

كذلك أخبرنا القرآن الكريم عن بالغ قدرته فى خلق البنان « بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّىَ بَنَانَهُ » لما فيها من الدقة التى تنبىء عن شخصية كل فرد فلا تكاد بصمة شخص تشبه بصمة الآخر ، وعن كروية الأرض فى قوله تعالى : « خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ[2] » والتكوير هو إدارة الشىء على الجسم المستقيم . كما أخبرنا عن تحرك الكرة الأرضية فى قوله تعالى : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا[3] » والدحو : دحرجة الشىء الكروى وغير ذلك من اكتشاف الذكورة والأنوثة فى النبات ، قال تعالى : « سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ[4] » ومن هذا تلقيح الرياح للنبات كما فى قوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ[5] » . وهكذا كلما تقدم العلم ، وتتابعت السنون تجلت آيات الله تعالى

(١) ص الآية : ٤١ (٢) الزمر الآية : ٥ (٣) النازعات الآية : ٣٠
(٤) يس الآية : ٣٦ (٥) الحجر الآية : ٢٢

تصدق نبي الإسلام ابن البادية والصحراء . صدق الله : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[١] » .

نسألك اللهم ياقوى ياعزيز أن تجمع كلمة المسلمين على التقوى ، وقلوبهم على الهدى وتهيىء لهم من أمرهم رشداً . كما نضرع إليك يامولانا أن تحمى الجمهورية العربية بحمايتك ، وترعاها برعايتك ، وأن تجزل الثواب لكل من ساهم فى طبع كتابى هـذا ، وأخص بالذكر السيد النبيل الحاج محمد مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى ناشر العلم والدين .

كتب الله للجميع السداد والتوفيق ، والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

تمت الطبعة الثانية بعون الله وحسن توفيقه .

تنبيـــه

وقعت بعض أخطاء مطبعية على شدة ما عانيناه فى هـذا الكتاب ، وفى استطاعة القارىء أن يتداركها بالتأمل ، وإذا أعوزه الدليل ، فإنه يجـده فى صفحة التصويب ، وينقله فى موضعه بقلمه حتى يكون على بينة من العلم ولا يكون فى صدره حرج مما يقرأ ، كما أنصح للذين يبلغون دعوة الله على المنابر أن يختاروا خطبهم من المحاضرات التى شملها هذا الكتاب ، لأن فيها كل مايواجههم من مشكلات الحياة : عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق ، وفقنى الله وإياهم إلى مافيه الرشد والصواب .

إبراهيم محمد عبد الباقى

---

(١) النمل الآية : ٩٣

الفهرس

صفحة الموضوع

صفحة الموضوع

تصويب الخطأ المطبعي

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٥	١٥	نفترف	نفترق
٧	٦	على من	على أفضل من
١٧	١٧	عواطف	عواصف
٢٢	٢٢	هامش	(٢) الفتح الآية ١٠
٢٤	٢٤	» »	(٣) الحاقة الآيات ٣٨ ، ٣٩
٣١	١٢	» »	اللقمان الآية ٢٨
٣٢	٦	اعتادت عليه	اعتادته
٣٤	١٤	تكفير الصلاة	تكفير تارك الصلاة
٥٠	٢٠	والرابعة — يبطل من فسر	الرابعة — يبطل رأى من فسر
٥٩	١٠	والتلذذ بها أكثر وعلى هذا	والتلذذ بها أكثر ، لأن لذاتها مادية وروحية ، وعلى هذا
٦٠	١٧	كأعمال	على أعمال
٦٠	١٩	ماتدركه	مالاتدركه
٦١	١١		لم أقف على من خرج هذا الحديث
٦٩	١٧		الأنفال الآية ١٧
٧٢	٨	وهما	وهو
٧٨	١		ولا يقدح فيما ذكرنا
٨٦	٢٢	(٣) التحريم	(٣) النساء الآية ١٥٦
٩٤	١١	القول	الجواب
٩٦	١٦	الفضل	الفضيل
١١١	٢		الشعراء الآيات ٢٢١ إلى ٢٢٣
١١٧	١١		رواه ابن ماجة
١٣٤	٥	الإخوان	الأخدان
١٤١	٢	إزار ، ورداء ، ولفافة	ثلاثة أثواب بيض
١٤٦	١٢	وقعدتك	وفقدتك
١٥٤	٢٥		مسلم عن عائشة
١٦٠	١١	اطلع على كتاب الضياء الشارق للشيخ سليمان بن سحمان رداً على كتاب الفجر الصادق لرجل عراقي	

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٦٩	٩		مسلم عن عائشة
١٦٩	٢٠		اطلع على كتاب فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب
١٧٠	٧		اطلع على كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية
١٧٤	١٨	حق تعالى	حق لله تعالى
١٧٩	١١	وهل جزاء الإحسان	هل جزاء الإحسان
١٨٥	١٨	بمتشهياته	بمشتهياته
١٩٣	٩	بعمل	لعمل
١٩٥	١٥	بهذا العبد أرجو الذى	بهذا العبد الذى أرجو
٢٠٢	٢٠	التوبة ٣	التوبة ٣٤ ، ٣٥
٢٠٩	١٩	من سقطت	عن سقطت
٢٠٩	٢٣	الحديد الآية د	الحديد الآية ٧
٢٢٩	٦	عم رسول الله	جد رسول الله
٢٣٠	٧	تعزيزاً	فكان تعزيزاً
٢٣٧	٣		اطلع على كتاب إغاثة اللهفان فى طلاق الغضبان لابن القيم
٢٤٠	٢١	الحياة	الحاجات
٢٤١	٥	الوءدَ الخفىّ	الوأدُ الخفِيُّ
٢٥٦	١٢		الخطيب عن أم سلمة
٢٥٧	١٥	لا يقل	لا يقولان والشطر الأولى فى مسلم
٢٦٦	٩	مقتضى	تقضى
٢٨٧	١٠	رهاهى	وهاهى ذى
١٩٣	٧	الحسن	الحسين
٢٩١	٢٠		ولأنهم رفضوا بيعة زيد بن على بن الحسين بعد مبايعته
٢٩٥	١٠	ثلاث	ثلاثة
٣١٠	٥	ولكن	وكن
٣١٢	١٥	الخلة	الحلة
٣١٥	١٧	فى إسقاطها	فى عدم إسقاطها
٣٢١	٢٢		منتهى الخضوع لله تعالى

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٢٤	١٥	هدررا	أهدروا
٣٢٥	١	٢٢٥	٣٢٥
٣٢٨			الحديث فى الترغيب والترهيب صفحة ١٧٣ الجزء الثالث ، وأوله أن أبا هريرة قال : كنا نسمع أن الرجل . . . بتغيير فى بعض ألفاظه ذكره رزين ولم يره المنذرى
٣٣٢	٦	لابيض	البيض
٣٣٧	٢١	ازخراً	ذخراً
٣٤١	٢	مالا	ديناً
٣٤٣	١٦	جسده	الجسد
٣٥١	١٩	ومازال	ومايزال
٣٥١	١٩	يصدق حتى	يصدق ويتحرى الصدق حتى
٢٥٢	١	ومازال العبد	ومايزال الرجل
٣٥٢	٣	عنه	عنهما
٣٥٢	١٩	لايؤثرونه	يؤثرونه
٣٥٦	٥	يقتطع مال	يقتطع به مال
٣٥٧	١٦		رواه الإمام احمد
٣٥٧	١٨		فى الاربعين النوويه
٣٥٧	٢١	الترمذى	الإمام أحمد مكرر
٣٥٨	٨	يتقاضاه فأغاظ	يطلب دينه فأغاظ فى الطلب فهم الصحابة بإيذائه
٣٦٠	١٧	أحمد فى الترغيب والترهيب	النساء الآية ٢٧
٣٦٠	٥		الانفال الآية ٥٨
٣٦٦	٦	[illegible]	الممتحنة الآيات ٨ ، ٩
٣٦٦	١٣	ثيابه	ثوبه
٣٨١	٩	عنه	عنهما
٣٨٤	٤	الجنةَ والنارَ	الجنةُ والنارُ
٣٨٥	٥	فاشلة	الفاشلة

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٨٥	٠١	العم	نعم
٣٩٢	١٦	لاتبعتوم	لانبعتموم
٣٩٣	١٣	نتخالى	تتغالى
٣٩٦	١٥	عنها كان	عنها قالت
٣٩٧	١٨	ألْقِينا	إلْقَيْنَا
٢٩٨	٢١	النحـل	النمل
٢٩٨	١٩		الشعراء الآيات ٢٢١ إلى ٢٢٣
٤٠٠	٨	عـلى	عن
٤٠٦	٨	يخشموا	يخمشوا
٤٠٧	١٥	أولوا	أولو
٤٠٩	١١	التقليدى	التقليدية
٤٥٥	٢٥	ولاانتهت	ولا انتهت

كتب المؤلف

العدل الإلهى والقدر

هدى الحائر

إرشاد الأمة

خلاصة كتاب (العلم يدعو للإيمان لعالم أمريكانى)